في التاريخ الأندلسى (١)

التاريخ السياسى للمسلمين فى الأندلس

(ومنذ عصر الولاة حتى عصر دويلات الطوائف)

تأليف

د/ إيناس حسنى البهجي

كلية الآداب - جامعة الخرطوم - سابقا



دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email:dartalemg@yahoo.com

فى التاريخ الأندلسى (١)

التاريخ السياسى للمسلمين فى الأندلس

(ومنذ عصر الولاة حتى عصر دويلات الطوائف)

تأليف

أ . د / إيناس حسني البهجي

كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم ـ سابقاً

٢٠١٥



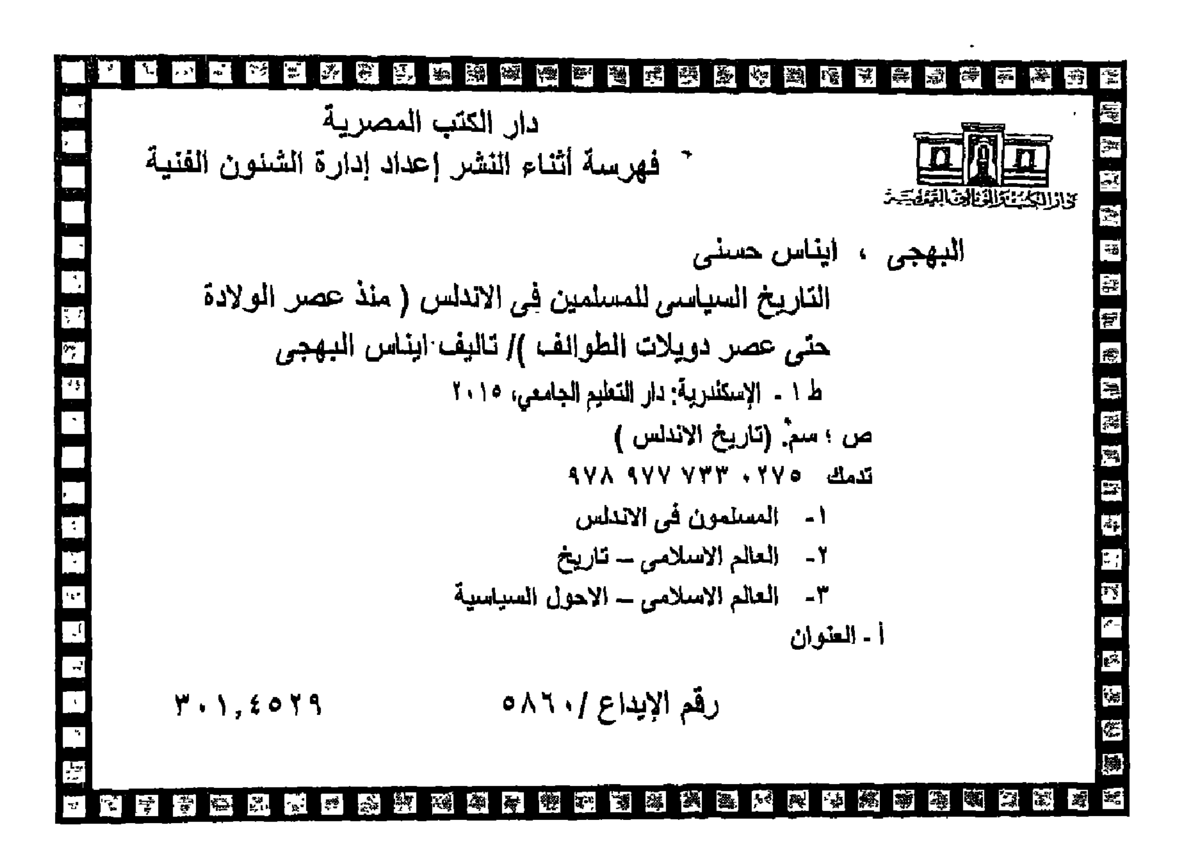
دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email:dartalemg@yahoo.com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

البهجى ، ايناس حسنى

التاريخ السياسى للمسلمين فى الاندلس (منذ عصر الولادة حتى عصر دويلات الطوائف)/ تاليف ايناس البهجى

ط ١ - الإسكندرية: دار التعليم الجامعي، ٢٠١٥

ص ؛ سم. (تاريخ الاندلس)

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧٣٣ ٠٢٧٥

١- المسلمون فى الاندلس

٢- العالم الاسلامى – تاريخ

٣- العالم الاسلامى – الاحول السياسية

أ - العنوان

٣٠١,٤٥٢٩ رقم الإيداع / ٥٨٦٠

الإهداء

إلى زوجي الغالي

إيناس

مقدمة



بلاد الأندلس هي اليوم دولتا إسبانيا والبرتغال، أو ما يُسمَّى: شبه الجزيرة الأيبيرية، ومساحتها (مجموع الدولتين) ستمائة ألف كيلو متر تقريبًا؛ أي أقل من ثُلثي مساحة مصر.

ويفصل شبه الجزيرة الأندلسية عن المغرب مضيق أصبح يُعرَف منذ الفتح الإسلامي بمضيق جبل طارق، (ويسميه الكُتَّاب والمؤرخون العرب باسم درب الزقاق)، وهو بعرض ١٢,٨كم بين سَبْتَة وجبل طارق.

جغرافية الأندلس

تقع شبه الجزيرة الأيبرية في الجنوب الغربي من أوربا، على مثلَّث من الأرض، يضيق كلما اتجهنا نحو الشرق، ويتّسع كلما اتجهنا إلى الغرب، وتتصل في الشمال بفرنسا (بلاد الفرنجة) بواسطة سلسلة جبلية تُعرف بجبال البرينيه)< a>جبال البرتات)، وباستثناء تلك الناحية فإن المياه تُحيط بها من كل جانب؛ مما جعل العرب يُطلقون عليها «جزيرة الأندلس» على سبيل التجوُّز؛ فالبحر المتوسط يُحيط بها من الشرق والجنوب الشرقي، ويُحيط المحيط الأطلنطي بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال.

فجبال البرينيه هي الفاصل البري الوحيد الذي يربط شبه الجزيرة مع أوربا، فتلتقي في الشمال مع المحيط الأطلنطي، وفي الجنوب مع البحر المتوسط.

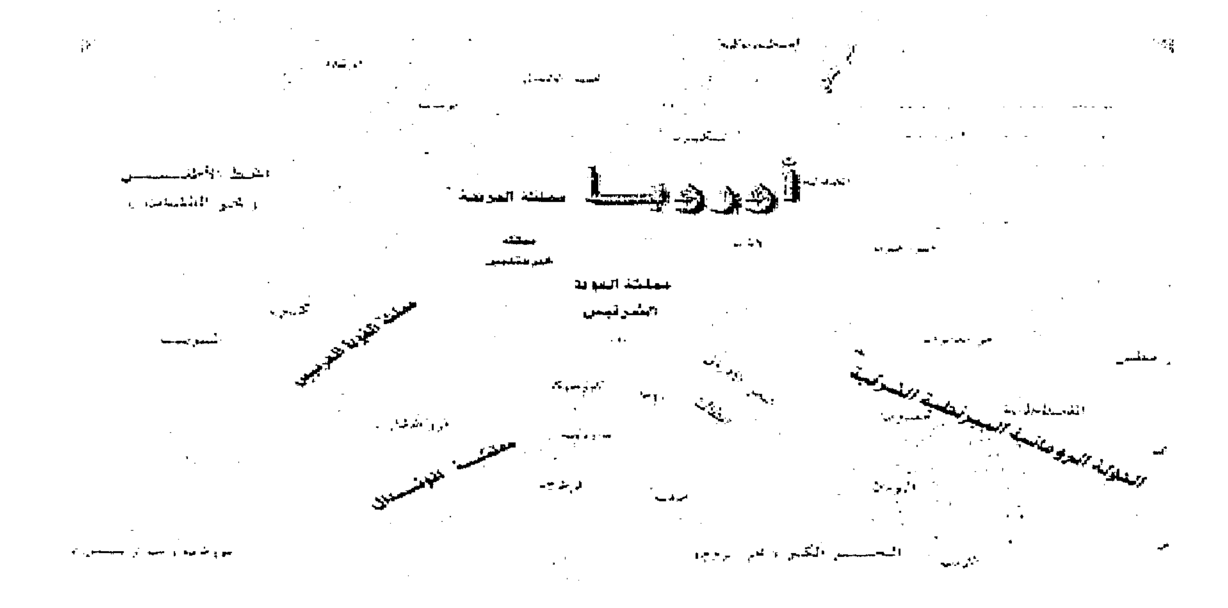
وجبال البرينيه التي تمثِّل فاصلاً بين فرنسا وإسبانيا تجعل الجزيرة وكأنها تُولِّي وجهها عن أوربا، فيما تتجه به إلى المغرب، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمون الذين عدُّوها امتدادًا لإفريقيا، وليست رقعة من القارة الأوربية، والمعروف أن شبه الجزيرة تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية؛ وبخاصة منطقتي سَبْتَة وطَنْجَة.

أمَّا داخل الجزيرة فسنرى أنفسنا أمام هضبة كبيرة تُعْرَف بالمسيتا، تقطعها الجبال بشكل أفقي، وتكثر فيها الأنهار فكأنها تعيش فوق شبكة من المياه.

لماذا سميت «الأندلس»؟

وعن سبب تسميتها بالأندلس فقد كانت هناك بعض القبائل الهمجية التي جاءت من شمال إسكندنافيا من بلاد السويد والدنمارك والنرويج وغيرها، وهجمت على منطقة الأندلس وعاشت فيها فترة من الزمن، ويُقال: إن هذه القبائل جاءت من ألمانيا، وما يهمنا هو أن هذه القبائل كانت تسمى قبائل الفندال أو الوندال باللغة العربية؛ فسُمِّيت هذه البلاد بفانداليسيا على اسم القبائل التي كانت تعيش فيها، ومع الأيام حُرِّف إلى أندوليسيا فأندلس.

وقد كانت هذه القبائل تتسم بالوحشية، و (Vandalism)في اللغة الإنجليزية تعني همجية ووحشية وتخريبًا، وتعني -أيضًا- أسلوبًا بدائيًّا أو غير حضاري، وهو المعنى والاعتقاد الذي رسخته قبائل الفندال، وقد خرجت هذه القبائل من الأندلس، وحكمتها طوائف أخرى من النصارى عُرِفت في التاريخ باسم قبائل القوط (GOTHS) أو القوط الغربيين، وظلُّوا يحكمون الأندلس حتى قدوم المسلمين إليها.



الجهل والتخلف في أوروبا

من المفيد جدًّا أن نتعرَّف على حالة أوربا والوضع الذي كانت عليه – وبخاصة بلاد الأندلس– عند الفتح الإسلامي، وكيف تغيَّر هذا الوضع وهذه الحال بعد دخول أهل هذه البلاد في الإسلام؟

كانت أوربا في ذلك الوقت تعيش فترة من فترات الجهل والتخلُّف البالغ، فكان الظلم هو القانون السائد؛ فالحكّام يمتلكون الأموال وخيرات البلاد، والشعوبُ تعيش في بؤسٍ شديد، واتخذ الحكّام القصور والقلاع والحصون؛ بينما عامة الشعب لا يجدون المأوى ولا السكن، وإنما هم في فقر شديد، بل وصل بهم الحال إلى أن يُباعُوا ويُشترَوا مع الأرض، وكانت الأخلاق متدنِّية، والحرمات منتهكة، وبَعُدَ حتى عن مقومات الحياة الطبيعية؛ فالنظافة الشخصية –على سبيل المثال– مختفية؛ حتى إنهم كانوا يتركون شعورهم تنسدل على وجوههم ولا يُهَذِّبونها، وكانوا –كما يذكر الرحّالة المسلمون الذين جابوا هذه البلاد في ذلك الوقت– لا يستحمّون في العام إلاّ مرّة أو مرّتين، بل يظنّون أن هذه الأوساخ التي تتراكم على أجسادهم هي صحّة لهذا الجسد، وهي خير وبركة له!

وكان بعض أهل هذه البلاد يتفاهمون بالإشـــارة، فليـــست لهـــم لغـــة منطوقة؛ فضلاً عن أن تكون مكتوبة، وكانوا يعتقدون بعض اعتقادات الهنـــود والمجوس من إحراق المتوَفَّى عند موته، وحرق زوجته معه وهي حيَّـــة، أو حرق جاريته معه، أو مَنْ كان يُحبُّه من الناس، والناس يعلمون ذلك ويُشاهدون هذا الأمر، فكانت أوربا بصفة عامَّة قبل الفتح الإســـلامي يـسودها التخلُّـف والظلم والفقر الشديد، والبُعد التامِّ عن أي وجه منّ أوجه الحضارة أو المَدَنية[.

ودامت همجية أوربا البالغة زمنًا طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبدُ في أوربا بعض الميل إلى العلم إلاّ في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلاديين.

القوط يحكمون الأندلس

القوط الغربيون

في أواخر القرن الرابع الميلادي استطاع القـــوط الغربيـــون بقيـــادة ألاريك أن يُسيطروا على مصائر القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانيـــة؛ بما قَدَّمُوه من خدمات أوصلت الإمبراطور الروماني تيودوسيوس إلى العرش، فلما مات الإمبراطور عام (٣٩٥م) أصبح ألاريك –زعيم القـــوط الغـــربيين– أقوى قائد في غرب أوربا ووسطها، فما لبـــث أن حـــاول الـــسيطرة علـــى روما نفسها (عاصمة الإمبراطورية الرومانية) ونجح فـــي هـــذا فعـــلاً عـــام (٤١٠م) في مأساة لا يزال يتذكرها التاريخ الأوربي.

وفي هذه الفتـــرة كانـــت الدولـــة الرومانيـــة قـــد ســـمحت لقبائـــل الوندال الهمجية –التي تستوطن شبه الجزيرة الأيبيرية– بالاستقرار في منطقة الشمال الغربي من الجزيرة؛ بشرط ألا تُهَدِّد استقرار المناطق الأخرى، غيـــر أن كثرة القبائل وهمجيتها وضعف الدولة الرومانية، جعل هذه القبائل تُـــسيطر على كل الجزيرة –تقريبًا– وتُهَدِّد بلاد الغال (فرنسا الآن) –أيضًا– وتمـــارس تخريبًا همجيًّا كبيرًا.

ثم انتهى غبار الصراع في روما بموت ألاريك فَخَلَّفه أطاووف في زعامة القوط الغربيين، وتطوَّرت الأحوال إلى أن أقرَّت الإمبراطورية الرومانية أطاووف في جنوب بلاد الغال، ثم سلَّطَته على قبائل الوندال، فاستمرَّ زحف القوط الغربيين الأقوياء يُنهي ويضغط ويطرد قبائل الوندال إلى الجنوب، وفي أثناء تراجع الوندال كانوا يُخَرِّبُون ما بقي من حضارة الرومان في شبه الجزِيرة، إلى أن انتصر القوط الغربيون وأحكموا سلطانهم على الجزيرة؛ خاصة في عهد الزعيم القوي (واليا.(Valia

لم يلبث الأمر كثيرًا حتى تضعضعت الإمبراطورية الرومانية؛ مما جعل القوط الغربيين يستقلُّون عن الإمبراطورية بحكم شبه الجزيرة، واتخذ (يوريك (Euric لقب الملك في عام (٤٦٧م)، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين، الذين سيُعرفون باسم (القوط) في كل مراحل التاريخ اللاحقة

لذريق زعيم القوط

قبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لُذريق بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك غيطشَة

وغداةَ الفتح الإسلامي كان لُذريق هو حاكم البلاد

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخُّر الاقتصادي وعدم الاستقرار؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد، والسلطة الفاسدة، لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية؛ بل كان بإمكانها أن تصدَّ جيشًا مهاجمًا وتُحاربه وتقف في وجهه؛ فقد أقام القوط في إسبانيا دولة اعتُبِرَتْ أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الجرماني، وبقيت بعد ذلك تتمتَّع بقوة عسكرية مُدَرَّبة وقوية، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات

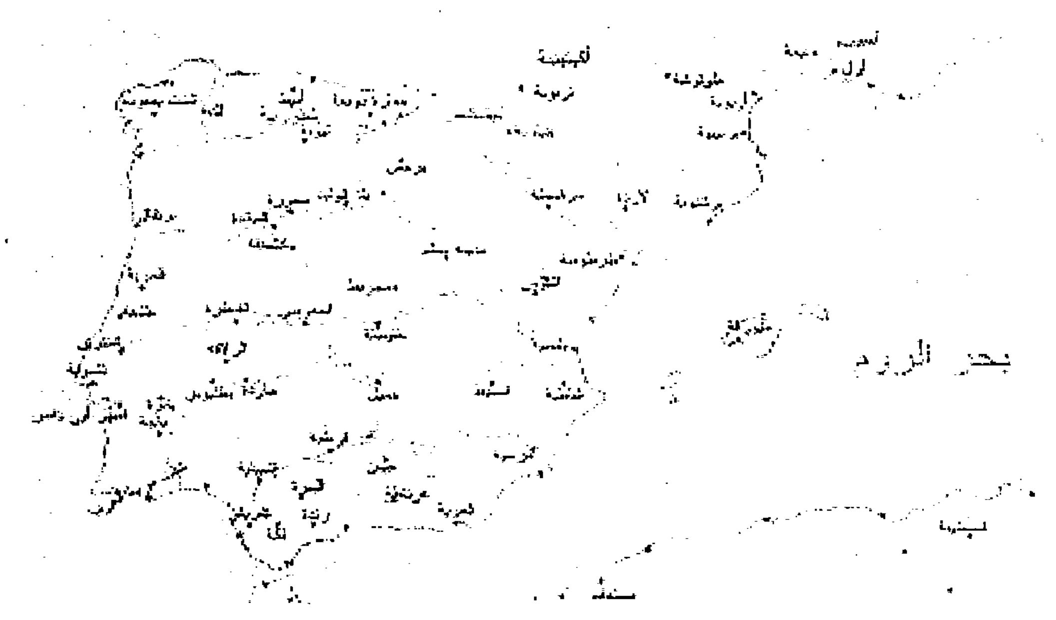
لماذا تاريخ الأندلس؟

لأن تاريخ الأندلس يشمل أكثر من ثمانمائة سنة كاملــة مــن تــاريخ الإسلام، وتحديدًا من عام (٩٢هـ=٧١١م) إلــى (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م)؛ أي ثمانمائة وخمس سنين (هجريًّا)، هذا إذا أغفلنا التداعيات التي أعقبت ما بعــد عام ٨٩٧هـ، فهي فترة ليست بالقليلة من تاريخ الإسلام؛ فمن غير المقبــول إذًا ألاَّ يعرف المسلمون تفاصيل فترة شغلت في الزمن أكثر من ثلثي التــاريخ الإسلامي، هذا أمر.

والأمر الآخر أن تاريخ الأندلس لطول فترته، مرَّ فيه كثير من دورات التاريخ التي اكتملت ثم انتهت، فسنن الله في تاريخ الأندلس واضحة للعيــان؛ فقد قام فيه كثير من الدول وارتفع نجمها، وسقط فيه -أيضًا- كثير من الدول وأفل نجمها، كثير من الدول أصبحت قوية؛ ومن ثَمَّ راحت تفتح ما حولها من البلاد، وكثير منها أصبحت ضعيفة، وأصبحت لا تستطيع حماية أرضــها، أو تعتمد على غيرها في حمايتها؛ مثلما يحدث الآن، وظهر -أيضًا- في تــاريخ الأندلس المجاهد الشجاع، وظهر الخائف الجبان، ظهر التقيُّ الورع، كما ظهر المخالف لشرع ربه I. ظهر في تاريخ الأندلس الأمين على نفسه وعلى دينــه وعلى وطنه، وكذلك الخائن لنفسه ودينه ووطنه، ظهرت كل هــذه النمــاذج، وتساوى فيها الجميع؛ حاكم ومحكوم، عالم وأمِّيّ.

وما من شكٍّ أن دراسة مثل هذه الأمور يُفيد كثيرًا فــي اســتقراء المــستقبل للمسلمين.

أحداث في تاريخ الأندلس



إن في تاريخ الأندلس أحداث يجب أن نعرفها:

من الضروري أن نعرف موقعة وادي برباط؛ تلك الموقعة التي تُعَدُّ من أهمِّ المعارك في التاريخ الإسلامي، ليس لأنها الموقعة التي فُتحت فيها الأندلس فقط؛ ولكن لأنها تُشَبَّه في التاريخ بموقعتي اليرموك والقادسية، ومع ذلك فإن الكثير من المسلمين لا يسمع من الأساس عن وادي بَرْبَاط.

ومن الضروري -أيضًا- أن نعلم هل قصة حرق السفن -التي يُقال: إنها حدثت في عهد طارق بن زياد- رحمه الله- حقيقة أم من نسج الخيال؟ كثير من الناس لا يعلم حقيقة وتفاصيل هذه القصة، وكيف حدثت، إنْ كانت قد حدثت؟ وإذا لم تكن حدثت في الأصل فلماذا انتشرت بين الناس؟!

ثم يجب أن نعرف مَنْ يكون عبد الرحمن الداخل- رحمه الله؛ ذلك الرجل الذي قال عنه المؤرخون: لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام بالكلية من بلاد الأندلس.

كما يجب أن نعرف مَنْ هو عبد الرحمن الناصر، أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى على الإطلاق؛ ويجب أن نعرف كيف وصل إلى هذه الدرجة العالية؟ وكيف أصبح أكبر قوة في العالم في عصره؟

وكذلك يوسف بن تاشفين- رحمه الله- القائد الرباني، صاحب موقعة الزلاقة، يجب أن نعرفه ونعرف كيف نشأ؟ وكيف ربَّى الناسِ على حياة الجهاد؟ وكيف تمكّن من الأمور؟ بل وكيف ساد دولةً ما وصل المسلمون إلى أبعادها في كثير من فتراتهم؟

وأبو بكر بن عمر اللمتوني.. هذا المجاهد الذي دخل الإسلامَ على يده أكثرُ من خمس عشرة دولة إفريقية.

ومن المهم -أيضًا- أن نتعرّف على أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي، صاحب موقعة الأركِ الخالدة؛ تلك التي دُكّت فيها حصون النصارى، وانتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا.

كما يجب أن نعرف دولة المرابطين وكيف قامت؟ ودولة الموحدين وكيف قامت؟

ومن الضروري أن نعرف مسجد قُرْطُبَة، ذلك المسجد الذي كان يُعَدُّ أوسع مساجد العالم، وكيف حُوِّل إلى كنيسة ما زالت قائمة إلى اليوم؟! وكذلك مسجد إِشْبِيلِيَة ينبغي أن نعرفه.

وينبغي أن نعرف جامعة قُرْطُبَة والمكتبة الأموية، وقصر الزهراء ومدينة الزهراء..

ينبغي أن نعرف قصر الحمراء، وغيرها من الأماكن الخالدة التي أمست رسومًا وأطلالاً، وهي اليوم في عِدَاد أفضل المناطق السياحية في إسبانيا، وتُزار من عموم الناس؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

موقعة العقاب تلك التي مُنِيَ فيها المسلمون بهزيمة ساحقة، رغم تفوّقهم على عدوِّهم في العدد والعُدَّة، وكأنَّ موقعة حُنَيْن عادت من غابر التاريخ؛ لتروي أحداثها في موقعة العقاب، تلك الموقعة التي قال عنها المؤرخون: بعد موقعة العقاب لم يُرَ في الأندلس شابٌّ صالحٌ للقتال.

كما يجب أن نعرف كيف سقطت الأندلس؟ وما عوامل السقوط؟ التي إن تكرَّرت في أُمَّة من المسلمين سقطت لا محالة بفعل سنن الله الثابتة.

ثم كيف وأين سطعت شمس الإسلام بعد سقوط الأندلس؟ كيف جاء غروب شمس الإسلام في الأندلس -في غرب أوربا- متزامنًا مع إشراقها وسطوعها في القسطنطينية شرق أوربا؟

كما يجب ألاّ ننسى مأساة بَلَنْسِيَة، وكيف قُتِل ستون ألف مسلم في يوم واحد؟ وما أحداث مأساة أُبَّدَة؟ وكيف قُتل ستون ألف مسلم آخرون في يوم واحد؟

ثم يجب أن نذكر دائمًا مأساة بَرْبُشْتَر، وكيف قُتل أربعون ألف مسلم في يومٍ واحدٍ، وسُبيت سبعة آلاف فتاة بِكْر من فتيات بَرْبُشْتَر؟! وقد شاهدنا هذه الأحداث الغابرة تُعِيد التحدُّث عن نفسها في البوسنة والهرسك وغيرها من بلاد المسلمين.

لو عرفنا هذا كله، وعرفنا ردَّ فعل المسلمين، وكيف قاموا من هذه المآسي المفزعة، لعرفنا كيف ننهض الآن ونقوم.

تساؤلات في التاريخ الأندلسي

نعلم أن كثيرًا من التساؤلات، بعد قراءة هذه المقالات ستظل في حاجة إلى إجابة.. إن اتساع مساحة الفترة التاريخية التي نتناولها تجعل من العسير - إن لم يكن من المستحيل- أن نستوعب كل ما يمكن أن يُكتب فيها في مثل هذه المساحة المرصودة للمقالات؛ لذا فلقد حاولنا قدر الاستطاعة وفي حدود ما هو متاح أن نُقَدِّم» قصة الأندلس «كملامح عامة لهذه الفترة التاريخية الثريَّة، كي

تكون في ثوبها المختصر ماثلة في الأذهان قريبة من أكبر عدد من شرائح القراء، ولا سيما الشباب الذين هم عدة الحاضر وبشارة المستقبل.

كما أن بعض الأسئلة ستظلّ بلا إجابة؛ لأن بعض فترات الأندلس تعاني من ندرة في المصادر، ذلك أنه -وحتى هذه اللحظة- ما زال الكثير من نفائس وذخائر التراث الإسلامي الأندلسي والمغربي في حكم المفقود؛ فإما هي كتب مفقودة بالكامل لا يُعرف إلى أين أخذتها يد الزمان، كما أن كثيرًا من النفائس ما زالت في هيئتها المخطوطة، وتحتاج إلى أن تمتد إليها أيدي العلماء والباحثين لتحقيقها وضبطها وإخراجها إلى عالم المطبوع؛ فيسهل انتشارها والاستفادة منها.

إلى جانب هذا، فإن المؤرخين -حين يكتبون- فإنما يكتبون الوقائع وعليها ثوبٌ من رؤيتهم وتحليلهم وتفسيرهم لها، ولا شكَّ أن المؤرخ بشرٌ يناله النقص والخطأ وعدم الاستيعاب، ولئن كان تاريخنا الإسلامي قد تميز بوجود مؤرخين لا يترددون في أن يذكروا للشخصية العظيمة مثالبها، وأيضًا يذكرون للشخصية السيئة محاسنها، فإن هؤلاء المؤرخين -أيضًا- ما زالوا بشرًا، تُؤَثِّر صياغاتهم ومواقفهم وميولهم على التحليل والتفسير للوقائع التاريخية.

لكننا اجتهدنا ما وسعنا الجهد في التقريب والتفسير والترجيح بين ما تعارض من الروايات التاريخية، محاولين الوصول إلى ما نراه الحق، راجين أن يَجبر الله عثراتنا، وأن يتقبل منا أعمالنا بقبول حسن.

الأندلس - الفردوس المفقود

إن قصة الأندلس قصة مؤلمة؛ ذلك أننا سنستعرض تاريخًا ومجدًا زاهرًا، ونحن نعلم أن هذا المجد قد انتهى وضاع، وصارت الأندلسُ الفردوسَ المفقود.. إلا أنه لا مناص عن قراءة مقالات هذا المجد السليب، وهذا التاريخ الثريّ.. لنقرأ كيف تقام الأمجاد وكيف تضيع، فلئن كنا نسعى في نهضة أمتنا

ورفعتها فَلأَن نسعى ونحن نعلم وندرك خبرة الماضي خير من أن نسعى ولا ماضي لنا ولا خبرة.

إن تاريخ الأندلس بصفحاته الطويلة -أكثر من ثمانمائة عام- يُعَدُّ ثروةً حقيقية.. ثروة ضخمة جدًّا من العلم والخبرة والعِبرة، ومن المستحيل في هذه الدراسة أن نُلِمَّ بكل أحداثه وتفصيلاته، بل لا بُدَّ وأن نُغفِل منه بعض الجوانب؛ ليس تقليلاً من شأنها وإنما اختصارًا للمساحة.

الفصل الأول
الأندلس والمسلمين

حقّق المسلمون تقدّماً واسعاً في شمال أفريقيا، ووصلوا إلى المغرب الأقصى (يقابل ما يُعرف اليوم بالمملكة المغربية) المواجه لشبه جزيرة أيبيريا. وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك96-86) هـ). ثم استُبدلَ القائد حسان بن النعمان ، والي أفريقيا وفاتحها ، عام (٨٥هـ)، بموسى بن نصير الذي توجّه من مصر إلى القيروان مصطحباً أولاده الأربعة الذين كانت لهم أدوار مهمة في التوسعات.

شرعَ موسى بتثبيت الدين الإسلامي في البربر وقام بمعالجة نقاط الضعف التي واجهت المسلمين هناك، فقرّر العمل على تقوية البحرية الإسلامية، وجعل القيروان قاعدة حصينة في قلب أفريقيا، واعتمد سياسة معتدلة ومنفتحة تجاه البربر مما حوّل معظمهم إلى حلفاء له ، بل دخلوا في الإسلام وأصبحوا فيما بعد عمادّ سقوط إسبانياو البرتغال أو كما تسمى قديما الأندلس في يد المسلمين بقيادة البطل البربري طارق بن زياد ، واستكمل موسى التوسع في شمال أفريقيا وتأمين المنطقة درءاً لتمرّدٍ قد ينشأ ضد السيادة الإسلامية.

وفي إحدى الحملات التي قادها أبو الورد بنفسه، استولى المسلمون على طنجة.ذات الموقع المهم بين القارتين الأوروبية والأفريقية عام (٨٩هـ/ ٧٠٨م)، وحوّلها موسى بن نصير إلى مركز عسكري لتموين الحملات باتجاه المناطق المجاورة. وفي هذه الحملة برز أبو الدنين.

لكنّ مدينة سبتة عصت على تلك الفتوحات، حيث استطاع حاكمها الوالي البيزنطي يوليان الصمود بوجه المسلمين. لكنه فيما بعد لعبَ دوراً أساسياً في تشجيعهم ومساعدتهم على عبور المضيق إلى الأندلس.

الحالة في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

كانت إسبانيا في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي ,تعاني ضعفا سياسيا واجتماعيا يجعلها فريسة سهلة لأي غاز يغزوها من الجنوب أو من الشمال, كان المجتمع الإسباني في ذلك الوقت ينقسم إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض, الطبقات كانت:

١. **الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء** : لم يكن الملك يعين بالوراثة بل كان يعين بالانتخاب, فالنظام كان ملكيا انتخابيا, لكنه أدى في النهاية إلى تنافس بين النبلاء للوصول إلى الحكم, مما أدى لكثرة المؤامرات بينهم الأمر الذي أدى لإضعاف قوة الدولة, وكان أفراد هذه الطبقة يملكون نفوذا غير محدود ولهم ممتلكات عقارية كثيرة وكانت هذه الممتلكات معفاة عن الضرائب.

٢. **طبقة رجال الدين** : كان الدين في العصور الوسطى في إسبانيا له نفوذ واسع, وكان رجال الدين يتمتعون بنفوذ غير محدود سياسيا وروحيا, إذ كانوا يشاركون النبلاء في انتخاب الملك, وأيضا كانت لهم ممتلكات عقارية معفاة من الضرائب.

٣. **الطبقة الوسطى** : وهي الطبقة الحرة التي تمثل الشعب, كثرتها تدل على رخاء المجتمع وقلتها تدل على اختلاله, وفي الفترة الأخيرة من الحكم القوطي, كان عدد أفراد هذه الطبقة قليل, كما كانوا مثقلين بالضرائب.

٤. **الطبقة الدنيا أو طبقة العبيد** : وهم الأكثر عددا في المجتمع القوطي في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي, كان معظمهم يعمل في مزارع النبلاء, وكانوا ملكا لصاحب الأرض وكانوا ينقلون مع الأرض إذا بيعت لشخص آخر.

٥. **طبقة اليهود** : كان اليهود يقومون بالأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة, وكانوا مكروهين لاختلاف عقيدتهم الدينية, ولذلك تعرضوا لكثير من الاضطهادات, فاضطروا أحيانا لقلب نظام الحكم بالثورات, وأحيانا عن طريق المؤامرات.

كانت الحالة الاجتماعية في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تعاني الفساد والتفكك وعدم التماسك, في وقت أصبحت فيه اللأراضي المغربية المقابلة لإسبانيا قوة متماسكة يتيح لها الفرصة للتدخل بها.

مقدمات الفتح الأندلسي

أخذ موسى بن نصير يفكر في فتح الأندلس، فرأى أنه يمكن للرومان والأسبان "أهل الأندلس حينذاك القوط وغيرهم" أن يهاجموا الشمال الإفريقي في أي وقت يريدون، لأنهم يملكون الأساطيل البحرية، وأن لهم قوى بحرية كبيرة ليس للمسلمين ما يدفعها أو يواجهها. ففكر بتخطيط بعيد النظر فلم يستعجل، وقرر إنشاء بحرية للمسلمين لتستطيع صد غارات القوط والأندلسيين فأسس قاعدة بحرية في تونس، وجهز في مدة قليلة ما يقارب المائة سفينة.

غزوة الأشراف

أراد موسى بن نصير بعد ذلك أن يسيطر على منطقة الشمال الإفريقي، فأعلن أنه يريد غزو الأندلس، وتجمع حوله الناس من كل صوب وعلى رأسهم الأشراف الذين وفدوا إليه في هذا النوع الجديد من جند المسلمين الذين يحملون العلم والمعرفة الإسلامية إلى العالمين، ولكثرة عدد الأشراف سميت الغزوة باسمهم: "غزوة الأشراف"، ولكنه رأى أن لايخرج بنفسه فأرسل إبنه "عبد الله" واستطاعت هذه الحملة بإخضاع "صقلية" لحكم الإسلام.

السبب المباشر لفتح إسبانيا

تختلف الرواية العربية عن الرواية الإسبانية حول السبب المباشر لتدخل المسلمين في إسبانيا ,الرواية العربية ترجع بذلك إلى قصة انتقام

شخصي, القصة تقول أنالكونت يوليان حاكم سبتة كانت له ابنة جميلة اسمها فلورندا وأن الكونت أرسلها إلى القصر الملكي القوطي في طليطلة لتتأدب وتتعلم كغيرها من فتيات الطبقة الراقية, فرآها الملك القوطي لذريق Rodrigo وأحبها فاعتدى عليها, فكتبت رسالة إلى ابيها تخبره وتشكو له ما حصل, فذهب يوليان إلى القصر وأخذ ابنته من هناك, وأصبح يوليان يريد الانتقام فاتصل بموسى بن نصير وأقنعه بغزو إسبانيا مبينا له سوء الأحوال فيها فاستجاب موسى لطلبه وأقدم على الغزو بعد أن استأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

أما الرواية الإسبانية فتقول أن الملك القوطي وقلة Akhila, عندما عزل من ملكه ذهب انصاره إلى حليفه الكونت يوليان حاكم سبتة طالبين منه المساعدة, فقادهم يوليان إلى موسى بن نصير بالقيروان حيث تم الاتفاق على أن يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه بشرط دفعهم جزية سنوية للعرب.

التخطيط لفتح إسبانيا

كان فتح المسلمين لإسبانيا نتيجة لخطة موضوعة, أقرها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق, باتفاق مع قائده على المغرب موسى بن نصير. كان شرط الوليد بن عبد الملك على قائده قبل الفتح أن يخوض الأندلس بالسرايا ويعرف ما شأنها قبل دخول جيوش المسلمين فيها.

قام موسى بن نصير بعدة حملات استكشافية على جنوب إسبانيا، فقام باستدعاء حليفه الكونت يوليان حاكم سبتة ,قام يوليان بحشد جيوشه وجاز في مركبين إلى الأندلسوشن الغارة على الساحل الجنوبي, فسبا وقتل وغنم ورجع وامتلأت يديه خيرا وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو .لم يكتفي موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان بل استدعى أحد ضباطه وهو طريف بن مالك , فأمره بشن غارة على ساحل الأندلس الجنوبي فعبر

طريق المضيق ب١٠٠ فارس و٤٠٠ راجل وذلك في يونيو سـنة 710م 91 هـ في رمضان في طريفا وهي جزيرة حملت اسم طريف، وطريف هـو أول مسلم من الشمال الأفريقي تطأ قدماه أرض الأندلس, ثم أغاروا على المنـاطق التي تتبعها إلى جهة الخضراء فغنم منها الكثير وعاد سالما . فتبين لموسى بن نصير أن ما قاله يوليان كان صحيحا عن ضعف المقاومة في إسـبانيا, فأعـد موسى جيشا من سبعة آلاف محارب لفتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد.

إن فتح المسلمين للأندلس لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجاليـة, بل كان فتحا منظما حسب خطة أعدت من قبل.

عبور المسلمين إلى إسبانيا

اعتمد موسى بن نصير على الأساطيل الإسلامية التي كانـت تحـت قيادته على طول الساحل المغربي, وجه موسى طارق بن زياد إلى طنجة ومن هناك انطلقت السفن الإسلامية إلى الجبل المعروف حتى اليوم بجبل طارق.

معركة جبل طارق

عند نزول طارق بن زياد وجيشه إلى سفح الجبل لقوا مقاومة عنيفـة من القوط الذين كانوا على علم بأن المسلمين قادمون لغزوهم نتيجة الغـارات الاستطلاعية التي شنت من قبل, فاضطر المسلمون لتغيير خططهم العـسكرية. وقرروا النزول ليلا في مكان صخري وعـر, فاسـتخدموا بـراذع الـدواب ومجاذف السفن لكي تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور فالتفوا بـذلك حول جموع القوط وانقضوا عليهم قبل أن يشعر القوط بهم. وكان هذا النـصر الأول الذي أحرزه طارق عند نزوله أرض الأندلس وتمكن من احتلال الجبل المسمى باسمه حتى اليوم

حرق المراكب وخطبة طارق

قصة حرق المراكب هي قصة شائعة في تاريخ فـتح الأنـدلس تفيـد القصة بأن طارق قد أحرق سفنه بعد نزوله الشاطئ الإسباني لكي يقطع علـى

جنوده أي تفكير في التراجع والارتداد. ثم خطب فيهم خطبته المشهورة التي قال فيها:

"أيها الناس. أين المفر؟ البحر من ورائكم. والعدو أمامكم. وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته. وأقواته موفورة. وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم. ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم. ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم. وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (يقصد لذريق) فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة. ولا حَمَلْتُكُمْ على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلاً. استمتعتم بالأرفَهِ الألذِّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي."

ثم قال:

"وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُربانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا. وأختانًا. ثقة منه بارتياحكم للطعان. واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة. وليكون مغنمًا خالصة لكم من دونه. ومن دون المؤمنين سواكم. والله – الله – ولّى أنجادكم على ما يكون لكم ذِكرًا في الدارين. واعلموا أنني أول مُجيب لما دعوتكم إليه. وأني عند مُلتقى الجمعين حامل نفسي على طاغية القوم لذريق. فقاتله –إن شاء الله– فاحملوا معي. فإن هلكت بعده. فقد كفيتكم أمره. ولم يعوزكم بطلب عاقد تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه. فاخلفوني في عزيمتي هذه. واحملوا بأنفسكم عليه. واكتفوا الهمّ من الاستيلاء على هذه الجزيرة بقتله؛ فإنهم بعده يُخذلون."

والرواية الإسلامية تشير إلى حادثة حرق السفن في ثلاثة مراجع هـي كتـاب الاكتفاء لابن الكردبوس ,وكتاب نزهة المشتاق ل الشريف الإدريـسي وكتـاب الروض المعطارل الحميري.

في كتاب ابن الكردبوس .يشار إلى أن طارق أراد حرق سـفنه كـي يحشد همم المقاتلة. أما في كتب الإدريسي والحميري, فيشار إلـى أن طارقـا أحس بأن العرب لا يثقون به وتوقع أنهم لن ينزلوا معه إلى الجبل فعمد إلـى إحراق سفنه كي يحول دون انسحابهم بها إلى المغرب.

معركة كورة شذونة

أقام طارق بن زياد في جبل طارق عدة أيام, بنى خلالها سورا أحـاط بجيوشه سماه سور العرب , كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة وهي مدينة الجزيرة الخـضراء , والتي سميت أيضا بجزيرة أم حكيم ' إن موقع هـذا الميـناء قريـب وسـهل الاتصال بمدينة سـبتة علـى الـساحل المغربـي المقابـل, بينمـا يـصعب الاتصال بإسبانيا نفسها بسبب وجود مرتفعات بينهما, كذلك أقام قاعدة أماميـة أخرى في مدينة طريفا بقيادة طريف بن مالك .وعلم الملك القوطي لذريق خبر نزول المسلمين في بلاده, كان الملك لذريق مشغولا ذلك الوقت بإخماد ثورة قام بها البشكنس سكان نافارا في أقصى شمال إسبانيا .فأسرع الملكلذريق بـالعودة إلى جنوب إسبانيا بجميع قواته لملاقاة المسلمين .في ذلك الوقت كان طارق بن زياد قد اتجه نحو الغرب متخذا قاعدة طريفة قاعدة يحمي بها مؤخرة جيشه ثم أكمل سيره حتى وصل بحيرة تعرف باسم بحيرة لاخندا في كورة شذونة. بعث طارق جواسيس له إلى الشمال ليروا حجم الجيش الذي سيواجهه المـسلمون , وعندما عادوا إليه أبلغوه عن ضخامة الجيش الذي جهزه له الملـك لـذريق , فانزعج طارق لهذا النبأ وكتب إلى موسى بن نصير يطلب منه أن يمده بالمزيد من الجند, فاستجاب له موسى فوجه له خمـسة آلاف جنـدي فأصـبح عـدد جيش المسلمين في الأندلس إثنا عشر ألفا.

يتفق أغلب المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين المسلمين والقوط والتي حددت مصير الأندلس حدثت في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا ,استمرت المعركة مدة ثمانية أيام من الأحد في ٢٨ من رمضان إلى الأحد ٥ شوال عام 92هـ ومن ١٩ - ٢٦ يونيو عام 711م , ووصفوها بأنها كانت معركة شديدة ضارية، اقتتل فيها الطرفان قتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء ,ولم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها, انتصر المسلمون انتصارا عظيما وهرب جيش لذريق في أطراف وادي برباط ومنهم من القى نفسة في النهر القريب من الوادي ومن الذين القوا نفسهم في النهر لذريق نفسة وأن عظامهم بقيت في أرض المعركة دهرا طويلا لم تذهب ,وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة الجيش القوطي. وقد سميت هذه المعركة في عدة مصادر عربية وإسبانية باسم معركة البحيرة, ووادي لكة, ووادي البرباط, وشريش, والسواقي, وتنسب هذه التسميات إلى تلك الأماكن التي دارت وتشعبت عندما تلك المعركة الواسعة النطاق في أراضي كورة شذونة. بعد انتصار المسلمين في المعركة غنم المسلمون من جيش القوط كثير من الخيول حتى أنه لم يبق في المسلمين من يمشي على رجلة بعد المعركة الفاصلة وبعد انتصار طارق بن زياد أصبحت جميع المعارك التي قامت في أنحاء الأندلس ما هي إلا مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه المعركة الكبيرة, فقد استولى المسلمون على الأندلس خلال ثلاثة أعوام مما يدل على انتهاء المقاومة تقريبا.

إتمام فتح الأندلس

بعد هذا النصر الكبير الذي حققه طارق في معركة شذونة فتحت أبواب الأندلس للمسلمين فتح طارق شذونة ثم مر بمدينة مورو وهي مدينة قريبة من قرطبة عاصمة الأندلس حينذاك وبعد ذلك بمدينة قرمونة واستولى على لقة وارسل قسم من جيشة ففتحوا إلبيرة بعد حصار طويل وأخضع أورايهويلا ثم وصل إلى أشبيلية عاصمة الجنوب ورأى أهلها أنهم لا

يستطيعون رد جيوش المسلمين فطلبوا من طارق الصلح فصالحهم على أن يدفعوا الجزية في ذلك الوقت أرسل طارق أقساما من جيشه إلى المناطق الجانبية في الأندلس ,اتجه قسم إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي مولى عبد الملك بن مروان ومعه سبعمائه رجل، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر. ومن الجدير بالذكر أن طارق وجد وقادته عونا من اليهود المقيمين في إسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم ولذلك اعتمد طارق عليهم في حفظ المناطق المفتوحة في أنحاء البلاد . بعدها تجمع القوط في منطقة حصينة جدا تدعى إستجة واستطاع طارق أن يباغت قائدها خارج الحصن وأن يأسرة فقرر أن يصالحه فأطلق صراحه وبفتح أستجة خضع الجنوب الأندلسي لطارق بن زياد . استمر طارق بزحفه نحو الشمال ففتح مدينة جيان أو كما يطلق عليها الآن مدينة خاين حتى وصل العاصمةطليطلة ففتحها دون مقاومة تذكر [].إذ كان حكامها وأهلها قد هربوا منها, فكانت المدينة شبه خالية تقريبا[] , فغنم المسلمون من كنائس المدينة وقصورها ذخائر وكنوزا كما تشير المصادر العربية.

ثم خشي طارق بن زياد من أن يقطع عليه القوط الطريق في تلك المناطق الجبلية الوعرة, لأن فصل الشتاء قد اقترب وتعب الجيش الإسلا من الجهود التي بذلها, والغنائم التي ثقل بها, فكتب إلى موسى بن نصير يطلب منه العون, فقرر موسى أن يدخل الأندلس بنفسة وولى إبنة عبد الله على القيروان عاصمة الشمال الأفريقي آنذاك وفي شهر رمضان عام٩٣ هـ يونيو 712م ,تجمع لموسى القادة في الجنوب 'الأندلسي في مدينة سبتة في جبل إسمة جبل موسى وحين إستكمل ترتيباتة بنى مسجدا في المكان نفسه ضبط قبلتة التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني وسمي بمسجد الرايات وقد دمرة القوط فيما بعد فيما،يسمى حرب الاسترتاد ولا تزال آثاره موجوده إلى الآن .عبر موسى مضيق جبل طارق بجيش كبير من ١٨ ألف محارب, معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية, ومن بينهم عدد

من التابعين ومعه صحابيواحد هو المنيذر الأفريقي . وقد عرف هـذا الجـيش العربي الأول بطالعة موسى. عندما دخل موسى بن نصير إلى الأندلس وجـد أن المدن التي كان يفتتحها طارق تنقض على المسلمين واحدة تلو الأخرى إذ لم يكن باستطاعة طارق أن يترك في كل مدينة يفتحها حامية لتحميها بـسبب قلة عدد جيش طارق فتحرك موسى ليعيد إخضاع الجنوب فأخضع شذونة ثـم أفتتح مدينة قرمونة مرة أخرى فحاصرها وعلم أنها من أمنع الحـصون فـي الأندلس فعمل حيلة ليفتحها فاتفق مع جماعة مـن أصـحاب يوليـان القائـد الأسباني على أن يفروا من أمام جيش موسى ويتوجهوا للأحتمـاء بالحـصن فأدخلهم أهل الحصن ولما قدم موسى فتح له أصحاب يوليان الأبـواب فـأتم موسى فتح الحصن . ثم توجة نحو أشبيلية فحاصرها موسى أشهرا ثم أخضعها ثم فتح مدينة باجه)) Beja وهي أقلـيم حـالي فـي البرتغـال قريـب مـن مدينة إشبيليه ((هرب إليه حايه إشبيليه ثم توجة إلىماردة وهي مدينة حـصينة لها حصن لم يبن الأنسان نفسه حاصر المسلمون المدينة ولم يستطيعوا القفـز من فوق الأسوار أو خرقها فأمر موسى بصناعة الدبابة وكانت آلة مـصنوعة من الخشب مغطاة بالجلود وبالأقمشة المبللة لا تخرقها النبال وتطفأ النيران أن صبت عليها هاجم مجموعه من الجيش بالدبابة يحتمون بها فعملوا لأيجاد ثغرة في السور فاعترضهم صخرة صماء فأتعبتهم فلم يستطيعوا خرقهـا فاغتـاظ القوط من فعلهم فصبوا عليم النيران وألقوا عليهم الحجارة وهاجموهم من كل جهة حتى أستشهدت الجماعة تحت لا يزال يسمى اليوم ببرج الـشهداء إلـى اليوم، رأى أهل ماردة أصرار موسى على الفتح فأرسلوا يطلبون إليه الـصلح فأجابهم وصادف ذلك عيد الفطر من عام ٩٤ هجرية فكان العيد عيدين عيـد الفتح وعيد المسلمين ثارت إشبيليه مرة أخرى فأرسل موسى أبنة عبد العزيـز بن موسى بن نصير فدخلها وحطم قوتها وهزم قـوة أخـرى تجمعـت فـي مدينة لبلة ثم أجتمع عبد العزيز مع والدة موسى .أرسل موسى إلى طارق بـن زياد حين تحرك إلى مدينة طلبيرة يدعوة إلـى لقائـة فـالتقى القائـدان فـي

مدينة طلبيرة في ذي القعدة عام ٩٤ هجرية. أرسل موسى بأخبار الفتح وتفصيلاتة إلى الوليد بن عبد الملك وكان رسولة إلى الوليد التابعي : علي بن رباح. دخل علي بن رباح على الوليد بن عبد الملك فقال له : إني تركت موسى بن نصير في الأندلس وقد أظهره ونصره وفتح على يديه ما لم يفتح على أحد ثم رفع إلية الكتاب المرسل من موسى بن نصير فقرأه الوليد فلما أتى على أخره خر ساجدا لله تعالى شاكرا لأنعمه . كان الفصل في الأندلس هو فصل الشتاء قرر موسى أن يرتاح هو وطارق ولينظما جيوشهما والاستعداد لاستكمال الفتح بعد الشتاء، وللعمل على استقرار المنطقة، ونشر الدين الإسلامي فيها، قام موسى بصطك العملة (الدراهم والدنانير الإسلامية) وذلك في بداية عام ٩٥ هجربة .ثم تابع القائدان سيرهما نحو الشمال باتجاه مدينة سرقسطة عاصمة الشمال وجعل موسى طارقا في مقدمة الجيش وافتتح المدينة بسهولة ويسر دون مقاومة تذكر. وبعد استقرار الجيش في مدينة سرقسطة أمر موسى بن نصير التابعي الجليل عبد الله بن حنش الصنعاني ببناء مسجد سمي بسجد سرقسطة.

ثم فتحت المناطق التابعة لسرقسطة وما حولها من المدن التالية :وشقة، لاردة، طركونة، وبرشلونة دون جهد أو قتال يذكر، وبعد إقامته مدة في (سرقسطة) أراد موسى أن يجتاح أوروبا بجيشة المرتفع المعنويات وأن يفتح القسطنطينية ويرجع إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية عن طريق البحر الأسود فهم بالدخول إلى بلاد الغال أو كما يطلق عليها حاليا فرنسا عبر جبال البرانس ففتح مدينة قرقشونه وحصن لوذون وصخرة أبنيون ومدينة أرغون وكاد يسيطر على جنوب فرنسا فنصحة أحد الجند يقال له حبان بن أبي جبلة- وهو تابعي جليل دفن في مدينة قرقشونة - أن يحمي ظهرة قبل أن يتوغل في بلاد الغال .عاد موسى بن نصير إلى الأندلس واتجه نحو الشمال الغربي من الأندلس واتجه نحو مدينة خيخون ولما كان بالقرب من المدينة أتاه مغيث الرومي وكان مرسول من خليفة المسلمين الوليد بن عبد

الملك يأمره بعدم التوغل في الأندلس والعودة إلية في دمشق فاستلطف موسى مغيث وسأله أن يكمل معه الفتح فاستجلب له مغيث الرمي فتوجها نحو خيخون ففتحاها وفتحا مناطق بالقرب من مدينة خيخون إلا صخره بلاي ثم توجها إلى مدينة جيليقية أو كما تسمى حاليا مدينة منطقة غاليسيا ففتح فيها عدة مناطق ثم أتى الرسول الثاني من الخليفة أسمة أبو نصر فأمسك بعنان فرس موسى ونقل له أمر الخليفة يأمره بالرجوع إلى دمشق .رجع موسى هو وطارق ألى إشبيليه وتركا عملية الفتوح في الشمال ورتبا أمور الأندلس وجعلا العاصمة في إشبيليه لموقعها في وسط الأندلس وخلف موسى أبنه عبد العزيز بن موسى بن نصير واليا على الأندلس .وصل موسى بن نصير وطارق إلى دمشق سنة 96هجرية فكان الخليفة الوليد بن عبد الملك مريضا ثم توفي بعد أربعين يوما من وصولهما.

لم يتبقى من الأندلس سوى بعض المناطق الشرقية والشمالية الغربية, أما شرق الأندلس فقد فتحها الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير، تركزت المقاومة في كورة تدمير) مرسية حاليا) وكانت لها قاعدة حصينة وهي أريولة، سميت هذه الولاية بهذا الاسم نسبة إلى اسم حاكمها الأمير القوطي ثيوديمير الذي عقد معه عبد العزيزمعاهدة أريولة التي احتوت على شروط ضمنت له أن يحكم ولايته مقابل جزية سنوية.

أما الجزء الشمالي الغربي من الأندلس ,وهي المنطقة المعروفة بأستورياس Asturias في جليقية أو غاليسيا ,Galicia فإن الأمويين لم يفرضوا عليها سيطرتهم بالكامل, بسبب برودة مناخها ووعورة طرقها, فأهملوا هذا الجانب استهانة بشأنه, نتيجة لذلك تمكن بعض من تبقى من الجيش القوطي المنهزم بزعامة القائد المعروف باسم بلاي أو بيلايو ,Pelayo لجأ هؤلاء القوط إلى الجبال الشمالية في تلك المنطقة, وهي ثلاثة جبال عالية, تسمى القمة الغربية منها باسم أونغا onga فيها كهف يعرف باسم كوفادونغا ,Covadonga أما العرب فيسمونها باسم صخرة بلاي

لأن بيلايو اختبأ فيها عندما حاصرهم المسلمون وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخور, عندما عرف المسلمون أمرهم, تركوهم استهانة بأمرهم وانسحبوا وقالوا: " ثلاثون علجا ما عسى أن يجيئ منهم؟" .

المصادر الإسبانية تعتبر انسحاب المسلمين من كوفادونغا نصرا عسكريا وأيضا نصرا قوميا للإسبان, وتقول أن العون الالهي كان قد وقف إلى جانبهم, أما المصادر العربية فهي تعترف بانسحاب المسلمين عن هذه المنطقة الباردة والقاحلة لكنها لا تذكر شيئا عن قيام معركة ولا عن القائد علقمة اللخمي الذي قاد الجيش هناك ذلك الوقت. وعلى إثر انسحاب المسلمين قامت في تلك المنطقة (شمال غرب إسبانيا)(مملكة أستورياس.)

مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس

اتفق المؤرخون على تقسيم مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس إلى خمسة عصور وهي:

١. عصر الولاة:

وهو العصر الذي يمتد من الفتح العربي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس منذ عام 711م حتى عام 756 م 91هـ - 138هـ هذا العصر كانت الأندلس ولاية تابعة للخلافة الأموية في دمشق.

٢. **عصر الدولة الأموية في الأندلس:**

يقسم هذا العصر إلى قسمين, القسم الأول كانت الأندلس إمارة أموية مستقلة عن دولة الخلافة العباسية في المشرق. منذ عام 756م حتى عام 929 م 138 هـ - 316هـ .أما القسم الثاني وقد أصبحت الأندلس خلافة مستقلة روحيا عن الخلافة العباسية عندما أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ولقب بالناصر لدين الله.

٣. عصر ملوك الطوائف

:1031 م - 1086 م ويبدأ هذا العصر بانتهاء الدولة الأموية في الأندلس وانقسامها إلى دويلات متنازعة إلى أن دخلها المرابطون من المغرب وأعادوا توحيدها بعد انتصارهم على الإسبان في معركة الزلاقة عام 1086م بقيادة القائد البربري يوسف بن تاشفين.

٤. عصر السيطرة المغربية أو الحكم المغربي:

من سنة 1086م حتى سنة 1214 م, وفيه أصبحت الأندلس ولاية تابعة للمغرب أثناء حكم المرابطين ومن ثم الموحدين كانت العاصمة لكلتا الدولتين المتتاليتين مدينة مراكش المغربية, انتهى هذا العصر بهزيمة الموحدين أمام الجيوش الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب عام 609هـ1212 م أعقب ذلك فترة ملوك طوائف ثانية, أنهى وجودها الإسبان ولم يبقى منها غير مملكة واحدة وهي مملكة غرناطة.

٥. عصر مملكة غرناطة:

أو الدولة الناصرية أو دولة بني الأحمر, وهو آخر عصر إسلامي في الأندلس من عام 1231م حتى عام 1492 م, وهي السنة التي سقطت فيها المملكة في أيدي الملك فرناندو الثاني والملكة إيزابيلا ,وهي نفس السنة التي اكتشف فيها كريستوف كولومبس القارة الأمريكية.

الفصل الثاني

مرحلة الفتح ٩١- ٩٥هـ .

دولة الأموية في الأندلس إمارة إسلامية أسسها عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ/٧٥٦م في الأندلس وأجزاء من شمال أفريقيا وكانت عاصمتها قرطبة، وتحولت إلى خلافة بإعلان عبد الرحمن الناصر نفسه في ذي الحجة من عام ٣١٦ هـ الموافق ليناير من عام ٩٢٩م، خليفة قرطبة، بدلاً من لقبه السابق أمير قرطبة، وهو اللقب الذي حمله الأمويون منذ أن استقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس. تميزت الدولة الأموية في الأندلس بنشاط تجاري وثقافي وعمراني ملحوظ، حتى أصبحت قرطبة أكثر مدن العالم اتساعًا بحلول عام ٣٢٣ هـ/٩٣٥م، كما شهدت تشييد الكثير من روائع العمارة الإسلامية في الأندلس ومنها الجامع الكبير في قرطبة. وقد استمرت الدولة الأموية في الأندلس رسميًا حتى عام ٤٢٢ هـ/١٠٣١م، حيث سقطت الخلافة وتفككت إلى عدد من الممالك، بعد حرب أهلية بين الأمراء الأمويين الذين تنازعوا الخلافة فيما بينهم، مما أدى بعد سنوات من الاقتتال، إلى تفكك الخلافة إلى عدد من الممالك المستقلة.

خلفية تاريخية

نجح المسلمون في مدّ دولتهم إلى الأندلس، عندما عبر طارق بن زياد أحد قادة موسى بن نصير والي الأمويين على إفريقية عام ٩٢ هـ بجيش قوامه سبعة آلاف مقاتل، واستطاع هذا الجيش بعد أن أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف أخرى أن يهزم ملك القوط الغربيين لذريق في معركة وادي لكة والسيطرة في غضون عامين على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، تحولت جيوش المسلمين شرقًا وتوغلت في بلاد الغال حتى وصلت إلى حدود مدينة ليون الحالية. استمرت محاولات المسلمين في التوسع في بلاد الغال في عهد

الولاة السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمن الغافقي، إلا أن تلك المحاولات حققت بعض النجاحات ثم توقفت التوسعات بعد هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء. بعد ذلك سادت فترة من عدم الاستقرار شهدت تعاقب الولاة والصراعات بين العرب المضرية والعرب اليمانية من جهة وبين العرب والامازيغ من جهة أخرى.

تأسيس الدولة

بعد قيام الخلافة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية، كان شغل العباسيون الشاغل هو القضاء على الأمويين، الذين لم يكن أمامهم سوى الفرار من بطش العباسيين بعد سقوط دولتهم. وكان ممن استطاع الفرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي فرّ إلى الأندلس، واستغل كراهية الامازيغ ليوسف بن عبد الرحمن الفهري والي الأمويين على الأندلس الذي ميّز بينهم وبين العرب، والذي ما أن سقطت خلافة الأمويين، حتى أعلن استقلاله بالأندلس، إضافة إلى الخلافات بين القبائل اليمانية والمضرية، فاستعان بالامازيغ والقبائل اليمانية على يوسف بن عبد الرحمن، وانتصر عليه في موقعة المصارة، ليؤسس بذلك إمارة أموية في قرطبة عام ١٣٨هـ/٧٥٦م. تعرض حكم عبد الرحمن بن معاوية للعديد من الثورات التي استطاع إخمادها الواحدة تلو الأخرى، والتي كان أخطرها ثورة العلاء بن مغيث الحضرمي بتحريض من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي كان يطمع في استعادة الأندلس، وكان ذلك سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م في مدينة باجة أو باجة الزيت، وكادت أن تقضي عليه تلك الثورة عندما تحصن في قرمونة لمدة شهرين، تضغط عليه هجمات العلاء المتكررة والعنيفة، ولكنه ظل محتفظا بأعصابه الفولاذية وحدة الرؤية. فقرر أخيرا ساعة الحسم فإذا بالمدينة ينفتح بابها فجأة على سبعمائة رجل على رأسهم عبد الرحمن يندفعون بسرعة رهيبة ويمزقون الثوار كل ممزق ويقتلون العلاء الذي فر قريبا من اشبيلية ومعه

العديد من أصحابه. عمل عبد الرحمن الداخل بعد ذلك على توطيد أركان حكمه بتأسيس جيش قوي والاهتمام بالتعمير والتعليم والقضاء.

عصر القوة

بعد وفاة عبد الرحمن الداخل تعاقب خلفاؤه على الإمارة، واستطاعوا الحفاظ على الدولة بتوحيد أراضي الأندلس الإسلامية ومحاربة الممالك المسيحية في الشمال، حتى وصلت إلى أوجها في عهد عبد الرحمن الأوسط، الذي شهد عهده ازدهار حركات الآداب والعلوم والعمارة والفن وبلغت الأندلس مرحلة متقدمة من المدنية، فأصبحت الدولة الأموية في بلاد الأندلس مركزًا حضاريًا كبيرًا في غرب العالم الإسلامي. بل وتطورت عسكريًا، فاستطاعت صدّ الغزوات البحرية للنورمان على الموانيء الإسلامية في المحيط الأطلسي.

تلى هذه المرحلة مرحلة اضطراب نتيجة تعرض الإمارة إلى ثورات داخلية من المولدين والنصارى والامازيغ وبعض القبائل العربية وهجمات خارجية من النورمان والممالك النصرانية في الشمال في محاولة استعادة الأراضي التي دخلت تحت حكم الإسلامي في عهد الأمراء محمد بن عبد الرحمن وابنيه المنذر وعبد الله، وكان أخطرها ثورة ابن حفصون. لكن مع تولي عبد الرحمن الناصر لدين الله استعادت البلاد وحدتها السياسية وقوتها العسكرية بعد أن خاض حروبًا طويلة استطاع من خلالها استعادة السيطرة على البلاد. وفي عام ٣١٦ هـ/٩٢٨م، أعلن الناصر نفسه خليفة للمسلمين في الأندلس، لتقوية مركزه الديني ليساعده ذلك على مواجهة الدولة الفاطمية في شمال إفريقية. ولمواجهة هذا الخطر حصّن الناصر الموانئ الجنوبية للأندلس، وضم موانئ المغرب المواجهة للأندلس في مليلة وسبتة وطنجة، إضافة إلى دعم الامازيغ المعادين للفاطميين في المغرب ماديًا وعسكريًا. كما استطاع التصدي لأطماع الممالك المسيحية في الشمال كمملكة قشتالة وليون ونافار.]

عرفت البلاد أوجها الثقافي في عهد ابنه الحكم الـذي اسـتطاع أن يواصـل سياسات أبيه، واستمر عصر ازدهار الدولة، إلا أنه خالف سياسة أبيـه فـي الاعتماد على الحجّاب] بعد وفاته تولى ابنه هشام وهو دون العاشرة، فوضـع تحت وصاية أمه صبح البشكنجية، فأصبح الأمر في يد الحاجب جعفـر بـن عثمان المصحفي والمنصور بن أبي عامر رجل الدولة القوي الذي اسـتطاع الانفراد بالحكم في ظل خلافة هشام بن الحكم وحافظ على وحدة الأندلس تحت قبضته.

نهاية الدولة

بعد وفاة المنصور بن أبي عامر، خلفه ابنه عبد الملك فـي الحجابـة وحافظ على الوحدة، غير أن في فترة سيطرة العامريين، ساد الأندلس تطـور اجتماعي جديد بسيطرة الامازيغ على المناصب القيادية في الجـيش وكثـرة عددهم واختفاء القيادة العربية مـن الجيـوش. وبوفاتـه عبـد الملـك عـام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، خلفه أخاه عبد الرحمن شنجول، والذي لم يكن بكفاءة أبيـه وأخيه، ورغم ذلك فقد أقدم على فعل كان فيه بداية النهاية بإعلان نفسه وليّـا لعهد الخليفة هشام المؤيد بالله، فتسبب ذلك مع سيطرة الامازيغ على الجـيش في ثورة أهل قرطبة بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار، الذي استطاع خلع المؤيد بالله، لتدخل البلاد مرحلة من الاضطراب.[] مرت الأندلس بعـد ذلـك بفترة من عدم الاستقرار، مدفوعة برغبات الامازيغ والعرب في السيطرة على الأمر،] حتى أن علي بن حمود أحد ولاة الأمويين، أعلن نفـسه خليفـة عـام ٤٠٧هـ/١٠١٦م، فدخلت الأندلس مرحلة من الحرب الأهلية،[] انتهت بإعلان مشايخ قرطبة سقوط الخلافـة وانقـسامها إلـى عـدة ممالـك عـام ٤٢٢ هـ/١٠٣١م.

نظام الحكم

قصبة المرية

كان نظام الحكم والإدارة في الأندلس في عهد الدولة الأموية متطورًا بالمقارنة بنظائره في الشرق الإسلامي أو الغرب المسيحي. كان الخليفة متربعًا على قمة هرم السلطة، ويعاونه "الحاجب" وهو منصب يعادل رئيس الوزراء، إضافة إلى مجموعة من الأشخاص الذين يتولون شئون إدارة البلاد المالية والقضائية والأمنية سواء الداخلية المتمثلة في صاحب الشرطة أو الخارجية متمثلة في قائد الجيش. أما إداريًا، فقد حافظ المسلمون على تقسيمات الرومان والقوط الإدارية، فقسموا الأندلس إلى كور ومدن، كان لها استقلالها الإداري عن العاصمة قرطبة، أي نظام الحكم الأندلسي كان نظام حكم لا مركزي يتمتع فيه ولاة الكور وقواد المدن بقسط كبير من النفوذ المحلي وحرية التصرف.

الدين

اتصف أهل الأندلس بالتدين والمحافظة على الشعائر الدينية إلا قلة، بدافع الاختلاط بين أتباع ديانات مختلفة. وقد تمتع المسيحيون واليهود، بمعاملة خاصة مكنتهم من حرية الدين والمعتقد، حتى أن قضاياهم كان لهم حق الفصل بها بموافقة من السلطة الإسلامية العليا. فكان يسمح بتطبيق شرائعهم على يد قضاتهم الذين كانوا يعرفون بقضاة النصارى أو قضاة العجم، وتحت مسؤولية رئيس طائفتهم الذي كان يحمل لقب "القومس" أما الخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين، فكانت تعرض على القضاء الإسلامي،فكثرت كنائسهم في كل الأندلس ما بين القرن الثامن والثاني عشر، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى. ومن أشهر هذه كنائسهم أيام الخلافة، الكنيسة العظمى بقرطبة، ومن أشهر الأديرة الواقعة في أطراف المدينة دير أرملاط، ولم تهدم الكنائس في الأندلس، إلا في حالات خاصة كأن تكون الكنيسة معقلا للثورة على السلطة، كهدم بعض الكنائس خلال ثورة ابن حفصون. كما كانت الأناجيل أيضًا شائعة

يطالعها المسيحي وغير المسيحي، وقد أفاد منها ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، حيث ذكر أنه كان يصاحب رجال الكنيسة ويجادلهم.

كما ظلت سلطة اليهود ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم، فقد جرت العادة على تعيين السلطة لمن يتولى رئاستهم والذي كان يعرف بـ "الناجد" أو "الحاخام"، كما كان يتولى قضائهم بينهم شيخ اليهود فيما يخص أمورهم الخاصة وتشريعهم، ويكون هذا الشيخ نفسه هو الواسطة بينهم وبين السلطة المدنية، وقد تمتع اليهود، في ظل هذه الحرية، بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم في أحيائهم الخاصة وكذلك بين السكان المسلمين.

أما عن المسلمين، فقد انتشر بينهم في البداية من مذاهب السنة مذهب الأوزاعي، إلى أن دخل المذهب المالكي إلى الأندلس في عهد هشام بن عبد الرحمن وسرعان ما أصبح المذهب السائد في عهد ابنه الحكم. كما وجد المذهب الشافعي سبيلاً إلى الأندلس في عهد محمد بن عبد الرحمن، وسعى فقهاء كبقي بن مخلد لنشره، إلا أنه لم يلق قبولاً في الأندلس. إلا أن مذهب آخر وجد سبيله إلى الأندلس في عهد محمد بن عبد الرحمن، ولقى استحسان الكثير من الأندلسيين، ألا وهو المذهب الظاهري واشتهر من أئمته في الأندلس المنذر بن سعيد البلوطي وابن حزم والحميدى. ومن الفرق الإسلامية الأخرى، كانت هناك محاولات في عهد عبد الرحمن الناصر لنشر المذهب الشيعي، إلا أن الأمويين قاوموا تلك المحاولات خوفًا من تغلغل نفوذ أعدائهم الفاطميين شيعيي المذهب إلى الأندلس، لذا فقد باءت تلك المحاولات بالفشل. كما كانت هناك أيضًا محاولات لنشر مذهب المعتزلة في القرن الثاني الهجري، إلا أنه أيضًا لم يلق قبولاً، لميل أهل الأندلس في تلك الفترة للمذاهب التي تعتمد على النصوص كالمالكية، لا القياس العقلي كالمعتزلة.

الثقافة

١ـ الأدب

نقلت الأندلس الثقافة الشرقية للغرب عندما اهتم عبد الرحمن الأوسط بنقل ثقافة الشرق إلى قرطبة، فأرسل وزيره القاضي عباس بن ناصح الجزيري إلى بغداد، ليجلب له الكتب القديمة. كما سار على دربه ابنه الحكم الذي وصل عدد الكتب في مكتبته إلى ٤٠٠،٠٠٠ كتاب.

ازدهر ألوان مختلفة من الأدب في عصر الخلافة الأموية ومنها فن الخطابة عند الأندلسين بهدف إثارة الحماسة وبث روح الجهاد ونشر الدين، نظرًا لأن عصر الخلافة كان عصر قتال مّستمر سواء في مواجهة الثورات الداخلية أو الممالك المسيحية التي كانت تسعى لاسترداد الأراضي التي فتحها المسلمون. اتسمت الخطابة بسهولة العبارة والبعد عن السجع والإيجاز والبلاغة ووضوح المعاني، ولمع من الخطباء القاضي المنذر بن سعيد البلوطي. كما نشط فن الرسائل التي تنوعت بين رسائل ديوانية تختص بمكاتبات الملوك والأمراء، ورسائل أدبية احتوت على مناظرات ومناقشات وقصص خيالية، أشهرها "رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد،وإن كانوا قد تأثروا في رسائلهم بالمشارقة أمثال عبد الحميد الكاتب والجاحظ.

وكما كان أثر الشرق واضحًا في الخطابة والرسائل، تأثر شعر الأندلس في عصر الخلافة بشعراء الشرق، فظهر أثر شعراء الزهد كأبي العتاهية على أشعار ابن أبي زمنين وابن عبد ربه وأبي بكر الزبيدي وغيرهم، وشعراء الغزل والمديح والفخر والحماسة كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وابن المعتز، والذين ظهر أثرهم جليًا في شعر يحيى الغزال وابن دراج القسطلي وابن هانئ.[٢٩] كما كان لانتقال أبو علي القالي من العراق للأندلس دورًا في ذيوع علوم اللغة وأشعار الشرق في الأندلس.[٣٠] غير أن الشعر الأندلسي في زمن الخلافة، ظل بلا إبداع محاكيًا لشعر الشرق وغير مصقول.

جامع قرطبة سابقًا الذي حوله الإسبان إلى كاتدرائية بعد استيلائهم على مدينة قرطبة عام ١٢٣٦ م.

أما التأليف الأدبي، فقد تأخر ظهوره، إلا أنه عُرف منه كتب العقد الفريد لابن عبد ربه ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد وطوق الحمامة لابن حزم. أما علوم اللغة، فقد شهدت انتعاشه على يد أبي علي القالي الذي وفد من العراق وألقى دروسه في جامع قرطبة، والتي ضمها كتابه "الأمالي"، كما ألف كتاب "البارع" وكتاب "النوادر"، وكان من معاصريه ابن القوطية القرطبي الذي درس النحو.

لم تسبق الأندلس الشرق في ألوان الأدب إلا في الموشحات، والتي أصبحت بحلول القرن التاسع الميلادي أشهر أشكال الأدب في الأندلس، كما أنها تعتبر فن أندلسي خالص،ومن أشهر وشاحو عصر الخلافة عبادة بن ماء السماء.

العمارة

قصبة جورماز.

اهتم الأمويون بالعمارة في الأندلس فبنوا القصبات والحصون والأسوار والأبواب، وهو الشئ الذي كان يمثل إحدى الضروريات لما مرت به الدولة الأموية في الأندلس من ثورات داخلية وغزوات خارجية، كما اهتموا ببناء المساجد والقصور والحمامات والقباب والقناطر المائية التي زينوها بالزخارف والنقوش، مما جعل من الفن الأندلسي فنًا مستقلاً له خصائصه الخاصة التي تميزه. ورغم مرور نحو ألف عام منذ سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، إلا أن ما زالت هناك العديد من الآثار الخالدة التي تشهد على عظمة فن العمارة الأندلسي في عصر الدولة الأموية في الأندلس. ويمكن تصنيف فن العمارة في عهد الدولة الأموية في الأندلس إلى عمارة دينية وعمارة مدنية :

العمارة الدينية

مسجد الباب المردوم في طليطلة.

يعد الجامع الكبير في قرطبة دُرّة العمارة الدينية في عهد الدولة الأموية في الأندلس، فما زال خالدًا ليشهد على عظمة الفن الأندلسي في تلك الفترة. أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦م محل كنيسة قوطية ليكون أعظم مساجد الأندلس. وقد أنفق عبد الرحمن الداخل ٨٠ ألف دينار على بنائه، واشترى أرضًا من النصارى بمائة ألف دينار ليضمها إلى الجامع، إلا أنه مات قبل أن يكتمل بنائه، الذي اكتمل في عهد ابنه هشام تمت توسعة الجامع عدة مرات في عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد بن عبد الرحمن وحفيده عبد الله بن محمد والحكم المستنصر وأخيرًا محمد بن أبي عامر، حتى بلغ عدد سواريه ١،٤١٧ سارية وثراياه ٢٨٠ ثُريّة وأبوابه ٢١ باب، وبلغ طوله ١٨٠ م وعرضه ١٣٥ م بارتفاع ١٢ م. استوحي بناء الجامع من تصميم الجامع الأموي في دمشق،وكان يربطه بقصر الخلافة ممرًا مسقوفًا لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة بعيدًا عن أعين العامة. وقد أضيف الجامع إلى مواقع التراث العالمي عام ١٩٨٤.

أطلال المسجد الجامع في مدينة الزهراء.

ومن آثار العمارة الدينية أيضًا، مسجد إشبيلية الذي أمر عبد الرحمن الأوسط ببنائه سنة ٢١٤ هـ/٨٣٠م، وقد تعرض المسجد لبعض الأضرار نتيجة غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤م، كما تأثر بزلزال سنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩م، إلا أنه وبعد سقوط المدينة في يد الإسبان سنة ١٢٤٦م، تم تحويله إلى كنيسة، وفي سنة ١٦٧١م تم هدمه وبناء كنيسة جديدة في مكانه، ولم يبق منه إلا أجزاء من صحن المسجد ومئذنته، وباب المسجد الرئيسي الذي يبلغ طوله ١٠ أمتار وعرضه ٥ أمتار، وهو الآن بباب الغفران (بالإسبانية: Puerta del Perdón).[37] ومن الآثار المعمارية الباقية أيضًا

مسجد الباب المردوم بطليطلة الذي بناه قاضي طليطلة أحمد بن حديدي سنة ٣٩٠ هـ/٩٩٩م، وقد تحول المسجد أيضًا إلى كنيسة باسم (بالإسبانية: Cristo de la Luz) بعد أن استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على المدينة عام ١٠٨٥م. والمسجد الجامع في مدينة الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٩ هـ /٩٤١م،[٣٤][٣٩] والذي لا تزال أطلاله باقية إلى الآن.

العمارة المدنية

جزء من قاعة احتفالية في مدينة الزهراء بنيت في عهد عبد الرحمن الناصر.

وكما اهتم الأمويون بالعمارة الدينية، اهتموا أيضًا بالعمارة المدنية، فقد اعتنوا ببناء القصور كقصور الخلافة والرصافة والدمشق في قرطبة، وشيّدوا مدن للاستجمام كمدينة الزهراء التي أسسها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ/٩٣٦م والزاهرة التي بناها محمد بن أبي عامر عام ٣٦٨ هـ/٩٧٨م وقد ظلت الزهراء مقرًا لحكم الأمويين لأربعين عامًا في عهدي عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، إلى أن نقل ابن أبي عامر مقر الحكم إلى مدينته الزاهرة في عهد هشام المؤيد بالله. ضمت الزهراء قاعات احتفال ومساجد ودور حكومية وحدائق ودار لسك العملة وورش للعمال، وثكنات ومساكن للجند وحمامات، كما تم إمدادها بالمياه عبر قنوات. كما شيدوا الكثير من القصاب في العديد من المدن الأندلسية كقصبة ألمرية وبطليوس وجورماز التي بناها عبد الرحمن الداخل.

الموسيقى

نشط فن الموسيقى في الأندلس بوصول زرياب إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط وحظوته باهتمام الأمير، فهو يعد أبو الموسيقى الأندلسية، والذي وظّف فنه ليتوائم مع الأشعار والموشحات والأزجال الأندلسية. شجع عبد الرحمن الأوسط هذا الفن، وأسس واحدة من أولى المدارس الموسيقية في قرطبة، لتعليم المغنين والمغنيات فن الغناء، وأسماها "دار المدنيات".كما كان لإدخال زرياب وترًا خامسًا على العود، دوره في نشأة الغيتار الإسباني.

لعبت موسيقى الأندلس دورًا في نقل الالآت الموسيقية الشرقية للغرب، كالكمان الذي تطور من الربابة، ويظهر ذلك من المصطلحات الموسيقية ذات أصول عربية التي اكتسبتها الموسيقى الغربية، ككلمات "adufe" من الدف، "alboka" من البوق، "anafil" من النفير، "atabal" من الطبل, "atambal" من الطنبل.

العلوم

أبو القاسم الزهراوي أحد أبرز علماء تلك الحقبة.

كانت قرطبة مركز الأندلس الثقافي. لعبت قرطبة دورًا كمركز فكري في الأندلس، حيث كانت تترجم النصوص اليونانية القديمة إلى اللغات العربية واللاتينية والعبرية، إلا أنها لم تصل إلى نفس المستوى الذي وصلت إليه الترجمات في الشرق الإسلامي. فشهدت ازدهار في مجالات العلوم،فلمع من علماء الأندلس أسماء كثيرة في مختلف مجالات العلوم ففي الفلسفة لمع ابن مسرة وفي الطب الزهراوي الذي عدّه البعض "أبو الجراحة الحديثة" لما كان لكتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" من أثر على تطور علم الجراحة في أوروبا العصور الوسطى، وابن جلجل الذي برع في الصيدلة، وقد نقل ألبيرتوس ماغنوس بعض أعماله إلى الغرب. وفي الكيمياء المجريطي وعباس بن فرناس الذي استنبط صناعة الزجاج من الأحجار عن طريق معالجتها

كيميائيًا، كما عرف أيضًا بأسبقيته في محاولة الطيران. وفي الرياضيات المجريطي وابن السمينة القرطبي وابن الصفار وأبي بكر بن عيسى. كما اهتم الأندلسيون بالتأريخ، فلمع منهم مؤرخون كعبد الملك بن حبيب السلمي الذي كان له كتاب في التاريخ كتاريخ الطبري وابن الفرضي صاحب كتاب "تاريخ علماء الأندلس" وابن القوطية وابن حيان القرطبي كاتب المنصور بن أبي عامر وصاحب كتاب المقتبس.

الاقتصاد

كان اقتصاد الخلافة متنوع ومنتعش، حيث اعتمد في الأساس على التجارة، وقد كانت طرق تجارة الأندلس تمتد مع بقية بلدان البحر المتوسط، كما كان للدينار القرطبي قوته الاقتصادية في كل الأندلس وبعض بلدان أوروبا منذ أمر عبد الرحمن الداخل بسكّه، فكانت المبادلات التجارية تتم بالدينار العربي ودينار بيزنطة ودينار غالة الذي سكّه شارلمان. وقد تنوعت مصادر دخل الخلافة فشملت فكانت الضرائب المفروضة على البضائع التي تمر على موانئ الأندلس وخراج الأراضي والجزية المفروضة على الذميين وغنائم الحروب والضرائب الاعتيادية.

وتنوعت مجالات الصناعة خلال عصر الخلافة من صناعة المنسوجات والسجاد والسكر والأواني الزجاجية والورق والتماثيل والتحف المعدنية والسفن والمعادن حتى ذاع صيت طليطلة كمركز رئيس لصناعة الأسنّة والرماح والسيوف وغيرها من الأسلحة في عهد عبد الرحمن الأوسط. كما نشطت أيضًا الزراعة، وأدرّت عائدات مربحة على الخلافة. كانت أيضًا الجزية المفروضة على سكان الخلافة من اليهود والمسيحيين من مصادر دخل الخلافة. وقد أدخل العرب محاصيل جديدة، مثل النخيل والرمان والنارنج والقطن والأرز واللوز والتين والدراق والموز والزعفران والكتان وقصب السكر والمشمش والأرز والبطيخ والباذنجان والقمح، كما حسّنوا أنظمة الري باستخدام القنوات المائية والنواعير وإقامة الجسور والقناطر.

المجتمع

كان المجتمع الأندلسي خليطًا من أجناس مختلفة؛ فهناك اقلية عربية وأغلبية امازيغية الذين شاركوا في الفتح الإسلامي أو نزحوا من الشمال الإفريقي، وهناك سكان الأندلس الأصليون من الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام، وكذلك أصناف أخرى كالصقالبة واليهود. وقد كانت أقسام المجتمع الأندلسي كالآتي :

العرب : انقسموا إلى عدنانيين وقيسيين وقحطانيين يمنيين، وكانوا يمثلون النخبة الارستقراطية بالمدن وبيدهم سدة الحكم، فتقلدوا مراتب الوزارة والكتابة والقضاء والشرطة والحسبة وبيت المال وضرب السكة. أما عامتهم فكانت حرفتهم الزراعة ونسج الحرير والغزل والنسيج والتجارة فيهما، وبيع العطر والشمع والفاكهة والخضر والخبز.

الامازيغ : كانوا يمثلون غالبية سكان الاندلس وتقلدوا المناصب العسكرية والقضائية وتفرغوا إلى العلم وكانوا يشكلون معظم جيش الاندلس وقد نشط عامة الامازيغ في الحواضر في عديد من الحرف اليدوية والبناء والتجارة.

الصقالبة أو الموالي : هم الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود من أسرى حروب الجرمان مع الصقالبة، وباعوهم في الأندلس. وكثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة، حيث كانوا يستخدمون كخدم وجنود،وصار لهم تأثير كبير، خصوصًا وأنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار، وقادة الجيوش، وكان لهم قول مسموع في نساء القصر ولدى أهل السلطة واستخدموا أحيانًا في قمع الثوارت، كما اشتغلوا في الصنائع اليدوية والتجارة.

المستعربون (Los Mozarabes) : هم المسيحيون الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن المفتوحة، وخلال الحكم الأموي كله اعتمد عليهم الأمويون في إدارة شئون البلاد الاقتصادية وتنظيم الدولة. أما عوامهم فقد امتهنوا الزراعة وتربية الماشية والصيد. وقد تأثروا بالعرب حتى أنهم تكلموا لغة

منطوقة مزجت بين اللغة العربية واللاتينية القديمة، والتي ظلت تستخدم كلغة منطوقة حتى القرن الرابع عشر.

المولودون : هم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام وأبناء العرب والامازيغ من أمهات إسبانيات، ومع مرور الوقت استطاع هؤلاء المولدون أن يشغلوا مناصب كبرى كانت وقفًا على الاستقراطية العربية، كما عملوا بالتجارة.

اليهود : تولوا مناصب إدارية، فكانوا يدبرون أمور الاقتصاد وتنظيم الدولة، وقد امتهنوا تجارة العبيد والحرير والتوابل.

في ظل هذا التنوع العرقيْ والديني تحت سلطة إسلامية متسامحة، امتزجت العناصر المختلفة للسكان وتزاوجوا فيما بينهم، فظهر عنصر كالمولدين. غير أن هذا التمازج أيضًا كان سببًا في نشوء بعض الثورات ذات النزعة العرقية.

وعهد الفتح الإسلامي للأندلس الذي بدأ مع بداية سنة ٩٢ من الهجرة، لكن لكي نفهم الفتح الإسلامي للأندلس في سنة ٩٢ من الهجرة تعالوا نرجع كم سنة إلى الخلف في الشمال الإفريقي لنرى كيف كان الوضع في هذه البلاد الملاصقة للأندلس في ذلك الزمن، بلاد الشمال الإفريقي دخلها الإسلام على سنوات عديدة، دخل الإسلام من سبعين سنة بلاد الشمال الإفريقي ، من سنة ٢٣ من الهجرة وهناك فتوحات في الشمال الإفريقي لكن دائمة الإرتداد عن دين الله سبحانه وتعالى يسكن في هذه المناطق قبائل ضخمة جدًا اسمها قبائل البربر وسنأتي إن شاء الله إلى التفصيل في الحديث عنها خلال الحلقات ، قبائل البربر كلما أسلمت كلما ارتدت دارت بينها وبين المسلمين جولات كثير جدًا حتى استقر الإسلام في النهاية في أواخر سنة ٨٥ أو ٨٦ من الهجرة على يد موسى بن نصير رحمه الله لذلك نأخذ فكرة ولو سريعة عن موسى بن نصير رحمه الله هذا الذي كان القائد المسلم البارع التقيّ الورِع الذي ثبت

أقدام الإسلام في هذه البلاد المترامية الأطراف في الشمال الإفريقي، موسى بن نصير رحمه الله من التابعين، روى عن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوه هو نصير، ونصير هذا كان غلامًا نصرانيًا ولكي تعرف قيمة الفتح الإسلامي نصير هذا أُسر في موقعة عين التمر لخالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه وكان يتعلم الإنجيل والدراسات النصرانية في كنيسة من الكنائس ، وسيدنا خالد بن الوليد ومن معه أخذوا يعلّمونه الإسلام، فقبل أن يدخل في دين الإسلام كان ساعتها يعني غلام صغير ١٣ أو ١٤ سنة وأُعجب بالإسلام ودخل فيه، كان هو نصير هذا أبو موسى، وكان معه أيضًا في نفس الفترة وفي نفس المكان سيرين الذي هو أصبح بعد ذلك أبو محمد بن سيرين التابعي المشهور، فانظر كيف فعل الإسلام بهؤلاء لو كان نصير ظل على ما هو عليه لكان زمانه أصبح يعني راهب من الرهبان موجود في منطقة في العراق أو في فارس لكن انظر كيف منّ الله عليه وعلى ابنه بعد ذلك ، واصبح في حسنات خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه بعد وفاته بسنوات وسنوات فتح بلاد الأندلس على يد موسى بن نصير، وفتح الشمال الإفريقي على يد موسى بن نصير رحمه الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت/٣٣] هذه ثمرة من ثمرات الجهاد الإسلامي، ثمرة من ثمرات الجهاد في فارس أن فُتحت بلاد الأندلس بعد ذلك بعشرات الأعوام، وخالد بن الوليد إن شاء الله مشارك في الأجر لمن فتح بلاد الأندلس، نصير هذا لما أسلم أخذ يتدرج في الإسلام حتى أصبح عالمًا في الإسلام وأصبح مجاهدًا من المجاهدين وكان فارسًا مغوارًا حتى أنه ترقى في المناصب حتى أصبح في زمن الدولة الأموية هو قائد جيوش معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه فتولى هذه القيادة سنوات كثيرة حتى إن ابنه الذي هو موسى بن نصير الغلام النصراني القديم هذا أصبح يتربى في بيت الخلافة مع أولاد معاوية وأولاد الأمراء والخلفاء،

فتربى موسى بن نصير على حياة الجهاد والدين ونشر الإسلام وما إلى ذلك، ثم أصبح موسى بن نصير شابًا ثم كبر بعد ذلك وأخذ يتولى المناصب حتى أصبح هو قائد جيوش الأمويين في منطقة مصر، ساعتها الوالي على مصر عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك بن مروان، ثم بعد ذلك أصبح والي إفريقيا سنة ٨٥ ، ومنذ أن أصبح والي إفريقيا وهو الذي ثبت أقدام الإسلام هناك في إفريقيا بعد أن انتقض الناس عن الإسلام وقد كانوا دخله عليه من قبل على يد عقبة بن نافع رحمه الله ،طيب موسى بن نصير رحمه الله نظر في بلاد شمال إفريقيا وقال يا ترى لما الناس كل حين ترتد عن الإسلام لماذا يدخل الناس الإسلام فترة من الزمان ثم يعودوا وينتكسوا بعد ذلك ويحاربوا المسلمين، عقبة بن نافع أُغتيل في بلاد شمال إفريقيا قُتل على يد البربر وهو في طريق عودته من المغرب الأقصى قُتل في القيروان، فلماذا يحدث هذا الأمر بصورة متكررة؟ وجد أن فيه خطأين للسابقين وتجنبهما رحمه الله موسى بن نصير ولذلك ثُبت الإسلام في هذه البلاد بعد ذلك، الأمر الأول: أن عقبة بن نافع ومن معه ومن تبعه كانوا يفتحون البلاد فتحًا سريعًا جدًا ، فتح سريع جدًا لا يستطيعوا فيه أن يحموا ظهورهم إذا توغل يطمع في كثرة الدخول في أماكن أخرى كثيرة فلا يحمي ظهره فينقلب عليه الناس ويحيطوا به ويقتلوه، فبدأ موسى بن نصير يفتح البلاد في أناةٍ شديدة وفي هدوء وفي حذر كحذر خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه ، بدأ يتقدم خطوة خطوة ويُأمّن ظهره، ثم يدخل خطوة أخرى ويُأمن ظهره فأتم فتح البلاد في ٧ سنوات أو في ٦ سنوات بينما أخذ يعني عقبة بن نافع الأمر في شهور معدودة فهذا أول أمر، الأمر الثاني: أنه وجد أنه كان هناك تعليم ضعيف للإسلام لهؤلاء القوم لم يعرفوا الإسلام حق المعرفة فبدأ يعلّمهم الإسلام وبدأ يأتي بالتابعين من منطقة الشام ومنطقة الحجاز ليعلّموا الناس الإسلام، فأحب الناس الإسلام ودخلوا فيه أفواجًا، دخل البربر في دين الله سبحانه وتعالى، وبدأ يأخذ في صبر شديد يعلم الناس هذا الدين حتى أصبح البربر من المنطقة

هم جند الإسلام وأهله، موسى بن نصير بعد أن استتب له الأمر في شمال إفريقيا فكر كما ذكرنا في الحلقة السابقة في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة/ من ١٢٣] فأخذ الفكرة وقال البلاد المجاورة له هي بلاد الأندلس إذًا لابد أن اذهب وافتح بلاد الأندلس ، كان موسى بن نصير رحمه الله قد أتم فتح الشمال الإفريقي كله إلا مدينة سبتة، مدينة سبتة الآن هي مدينة من المدن المغربية بلاد المغرب، تقع على مضيق جبل طارق مباشرةً، بلاد الأندلس يفصل بينها وبين المغرب مضيق جبل طارق، ومضيق جبل طارق هذا ليس مضيق هينًا بسيطًا ، هذا عرضه في بعض المناطق ١٣ كيلو، ويصل عرضه في بعض المناطق إلى ٣٧ كيلو ، فمنطقة واسعة على حدودها مينائين شهيرين كبيرين ميناء طنجة وميناء سبتة فميناء سبتة هذا لم يفتح حتى هذه اللحظات التي نتحدث فيها فتح الشمال الإفريقي فُتح كل الشمال الإفريقي ما عدا ميناء سبتة وميناء طنجة فُتح بالإسلام ولخطورة هذا المكان، ولّى على ميناء طنجة رجل من القواد المهرة المشهورين جدًا في التاريخ الإسلامي وهو طارق بن زياد رحمه الله ولاه على ميناء طنجة ، وطارق بن زياد هذا من البربر من قبائل البربر الأصلية التي تعيش في مناطق الشمال الإفريقي، أي ليس بعربي رحمه الله ، ونحن لما تجئ في دماغنا كلمة البربر نظن أن وجوههم سوداء وأنهم ناس من الزنوج أو ما إلى ذلك، لكن البربر هم شعوب شعورها شقراء وعيونها زرقاء ولونها أبيض حتى إن بعض المحللين يقولوا أنهم من أصول أوروبية شديدي الشبه بالأوروبيين، فلذلك يعني كَن طارق بن زياد رحمه الله في وصفه لكي تعيشوا معنا في الجو يعني كان وصفه ضخم الجثة جسمه كبير جدًا شعره أشقر عينه زرقاء وكان رجل وسيم جدًا يعني، هذا طارق بن زياد رحمه الله ومع ذلك يعني طبعًا كل هذه الأمور يعني لم تقف في طريق جهاده إلى الله سبحانه وتعالى، فتولى طارق بن زياد رحمه الله ولاية مدينة طنجة القريبة جدًا من سبتة التي لم تُفتح والقريبة من بلاد الأندلس، موسى بن نصير

رحمه الله لما فكر في فتح الأندلس لم تكن هذه الفكرة فكرة جديدة بل سبحان الله كانت هي قديمة جدًا من أيام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، انظر سيدنا عثمان بن عفان يقول قول لطيف جدًا، القسطنطينية كانت قد استعصت على الحملات الإسلامية في أيام سيدنا عثمان بن عفان وصل الفتح إلى كل هذه الصورة والقسطنطينية فتحها كان صعب وكان في فترات طويلة ولم تُفتح إلى بعد قدوم الخلافة العثمانية الراشدة وفتح القسنطينية على يد محمد الفاتح رحمه الله لكن انظر إلى كلام سيدنا عثما بن عفان يقول: إن القسطنطنية إنما تُفتح من قِبل البحر من قِبل البحر وأنتم إذا فتحتم الإندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر، يعني يريد أن يفتح المسلمون الأندلس ومن الأندلس يتجهوا، الأندلس هذه في أقصى غرب أوروبا يتجهوا خلال أوروبا كلها حتى يفتحوا القسطنطينية من الغرب وليس من الشرق، من قبل البحر البحر الأسود في ذلك الوقت إذًا فكرة فتح الأندلس فكرة قديمة راودت المسلمين منذ عهد سيدنا عثمان بن عفان لكن المسلمون لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه المنطقة في المغرب العربي إلا في هذا الزمان زمن الدولة الأموية ، في فترة حكم موسى بن نصير على الشمال الإفريقي، تعالوا هكذا نحلل الموقف ونرى يا ترى موسى بن نصير يفكر كيف في هذه الفترة، نحن نريد نفتح بلاد الأندلس هو عنده مشاكل ضخمة جدًا في فتح بلاد الأندلس ما هي المشاكل هذه؟ لكي نعرف نحلها معه، فكر كما هو يفكر موسى بن نصير عنده المشكلة الأولى أن المسافة بن المغرب والأندلس ١٣ كيلو متر على الأقل وليس عند المسلمين سفن كافية لعبور هذه العقبة المائية الكبيرة، المسلمون معظم فتوحاتهم كانت بريّة لهم بعض المواقع مثل ذات الصواري أو فتح قبرص أو ما إلى ذلك يعني بعض المواقع القليلة لكن ليست لهم سفن ضخمة تحمل جيوش وتعبر بها مضيق جبل طارق في هذا الوقت، إذًا هذه مشكلة من المشاكل التي قابلته، المشكلة الثانية أن جزر البليار جزر البليار هذه جزر في شرق الأندلس قريبة جدًا من الأندلس جزر البليار الآن تبع أسبانيا، فهذه

الجزر مملوكة من الروم الروم النصارى ولو موسى بن نصير دخل وفتح الأندلس ستكون هذه الجزر في ظهره، وهو تعلم في طريقة الفتح لديه أنه يحمي ظهره حتى لا يقع في أخطاء السابقين فجزر البليار مشكلة بالنسبة له لازم يحلها قبل ما يدخل على بلاد الأندلس، المشكلة الثالثة أن ميناء سبتة الذي هو ميناء يطل على مضيق جبل طارق لم يُفتح حتى الآن يحكمه رجل اسمه يوليان أو جوليان هذا رجل نصراني كان يحكم هذا الميناء وكانت له علاقات طيبة بملك أسبانيا الأسبق أو ملك الأندلس الأسبق ،ملك الأندلس الأسبق كان اسمه غيطشة ، وغيطشة هذا حدث عليه إنقلاب وتولى الحكم في الأندلس رجل اسمه لذريق أو رودريكو ، لكن العرب كانوا ينطقونه بهذا الاسم لذريق، فلذريق هذا كان يحكم بلاد الأندلس ويوليان الذي هو كان صاحب الملك السابق يحكم سبتة، ما يقدر موسى بن نصير يعبر إلى منطقة الأندلس وفي ظهره يوليان، نعم يوليان مع خلاف مع الزريق لكن من أدراه أنه ينقلب عليه ويساعد لذريق حربه في نظير مقابل مادي أو أجر أو ما إلى ذلك ، المشكلة الرابعة أن قوات الفاتحين المسلمين التي جاءت من جزيرة العرب أو من الشام ومن اليمن قوات محدودة قليلة منتشرة في كل الشمال الإفريقي، فكيف يأخذ من هذه القوات وينتقل إلى منطقة الأندلس قد تنتقض عليه بلاد الشمال الإفريقي وقد لا يستطيع أن يفتح بلاد الأندلس بهذا العدد القليل من المسلمين، المشكلة الخامسة أن قوات النصارى في الأندلس ضخمة جدًا كانت النصارى كما ذكرنا تحكم بلاد الأندلس تحت قيادة لذريق وكانت كميات الجيوش فيها كبيرة والرجل كان قويًا وكان متكبرًا وقوات ضخمة وعدة وقلاع وحصون وهذه مشكلة أيضًا تواجه موسى بن نصير، والمشكلة الأخيرة والسادسة ولعل هناك مشاكل أخرى كانت تقابله لا نعلم كل هذه المشاكل، المشكلة السادسة أن أرض الأندلس بالنسبة لموسى بن نصير ومن معه مجهولة تمامًا، أرض لم تعبرها سفن المسلمين من قبل لا يعرف أي شئ عن أرض الأندلس ولا جغرافية الأندلس وما إلى ذلك، وإن كانت الأنباء تترامى أن هذه البلاد صعبة

جدًا جدًا في الفتح لماذا؟ لأن جغرافية الأندلس إلى الآن طبعًا لما تجئ تدرس جغرافية الأندلس تجد فيها أمورًا شاقة جدًا على جيوش الفاتحين الأندلس أرض كلها جبال والجبال هذه تبقى شاقة جدًا على الجيوش وبالذات في هذه الآونة من الحركة بالخيول والحركة بالعتاد على نقل البغال والحمير وما إلى ذلك صعب جدًا حركة هذه الدواب في الجبال أيضًا فيها أنهار كثيرة وبحيرات كثيرة وهذه تعتبر عوائق يعني ضخمة في عبور الجيوش وبالذات في ذلك الزمن، يبقى نحن عندنا مشاكل كبيرة جدًا أمام موسى بن نصير رحمه الله ومع ذلك هو يصر على فتح بلاد الأندلس، طيب يحل المشاكل هذه كيف؟ كيف واجه موسى بن نصير رحمه الله كل هذه المشاكل الضخمة التي أمامه حتى يفتح بلاد الأندلس لم يكسل أبدًا عن فتح بلاد الأندلس مع كل هذه العوائق، لكن بدأ في أناةٍ شديدة يرتب الأمور أول شئ بدأ ينشأ سفن بدأ يبني موانئ ، هذا أمر قد يطول لكن سبحان الله كان عنده همة عالية جدًا، بنى أكثر من ميناء في منطقة الشمال الإفريقي أشهرها ميناء القيروان طبعًا مدينة القيروان كانت موجودة قبل ذلك أسسها عقبة بن نافع رحمه الله لكن عمل فيها بناء ضخم جدًا بدأ يبني فيه سفن للمسلمين، ثم بدأ يعلم البربر الإسلام في مجالس خاصة يعلمهم الإسلام، يعني يعطي لهم كدورات مكثفة هكذا تعليم الإسلام، وبدأ يكون فرق من البربر، حتى تكون هي جيش الإسلام وسبحان الله في أي دولة من الدول حاربت حربًا غير دول الإسلام إستحالة أن تغير من طبائع الناس وتغير من ولائهم وحبهم حتى يقاتلوا معك بعد سنتين أو ثلاث سنوات فقط من الفتح الإسلامي يصبح كل همه أن ينصر هذا الدين، فرنسا قعدت ١٣٠ سنة في الجزائر وخرجت والناس أيضًا مسلمين والناس أيضًا على دينهم القديم وفي حماستهم للإسلام ويرون الصحوة الإسلامية ونسأل الله لهم العافية في هذه المشاكل التي تقابلهم في هذه الآونة الأخيرة، لكن الإسلام انتشر في البربر وبدأ موسى بن نصير يعلم الناس الجهاد في سبيل الله بدأ يعلم الناس بذل النفس لله سبحانه وتعالى وكيف تموت في سبيل الله أمر عجيب جدًا

لا يتكرر إلا مع المسلمين فبدأ المسلمون يكثـروا وبـدأ الجـيش الإسـلامي الموجود في الشمال الإفريقي جلّه من البربر الذين هم كانوا من حوال ٥ أو ٦ سنوات محاربين لهذا الدين أصبحوا هم عماد هذا الدين وهم جند هذا الـدين، الأمر الثالث.ولى طارق بن زياد على قيادة الجيش

الإسلامي المتجه إلى فتح بلاد الأندلس، طارق بن زياد رجل جمع بين التقوى والورع والكفاءة الحربية والجهاد في سبيل الله والرغبة في أن يموت في سبيل الله وهو بربري ليس بعربي لكي نعرف أنه ليس لعربي على أعجمي فـضل وليس لأعجمي على عرب فضل إلا بالتقوى، هذا الرجل مع كونه بربريًـا إلا أن موسى بن نصير قدمه على العرب لما له من الكفاءة ولما له من الفـضل ليست دعوة الإسلام دعوة ترجع إلى عنصر مـن العناصـر ليـست دعـوة عنـصرية ولا هـي دعـوة قبَليّـة ولكـن هـي دعـوة للعـالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء/١٠٧] صلى الله عليه وسلم ثم أن طارق بن زياد لكونه من البربر يستطيع أن يقـود البربر أولاً لن تكون هناك أي عوامل نفسية في داخل هذا البربر الذي دخـل في الإسلام حديثًا ثم أنه يفهم لغة البربر ليس كل البربر يتقنوا الحديث باللغـة العربية لكن طارق بن زياد رضي الله عنه وأرضاه كـان يتحـدث اللغتـين العربية بطلاقة والبربرية أيضًا، وهو رجل يصلح أن يقود مثل هـذ الجـيش، والأمر الرابع الذي عمله موسى بن نصير ويدل على حنكة وحكمـة عظيمـة جدًا لهذا القائد الذي يعني أُغفل شرح دوره في التاريخ الإسلامي، هذا القائـد أول حاجة عملها بعد هذا هو فتح جزر البليار أول حاجة أن يأمن ظهره قبـل ما يدخل على بلاد الإندلس، أخذ الجيش وفتح جزر البليار وضمها إلى أملاك المسلمين وأصبح هكذا ظهره محمي من ناحية الشرق جزر البليار تقـع فـي شرق بلاد الأندلس في البحر الأبيض المتوسط يعني طيب يعنـي كـل هـذه الأمور لكن بقيت عنده مشاكل مشكلة سبتة عليها واحد اسمه يوليان وسبتة هذه ميناء حصين جدًا وما عارف يحل مشكلة سبتة حل مشكلة عدد الجـيش مـن

البربر وحل مشكلة السفن نسبيًا ما قدر يعمل سفن كثيرة طبعًا في وقت قليل ،بدأ في بناء السفن في سنة ٨٧ أو ٨٨ ولا زال ما يعرف بلاد الأندلس هذه شكلها ماذا مجهولة عنده فيريد يحل هذه المشاكل انظر إلى تدبير الله سبحانه وتعالي الرجل موسى بن نصير استنفد الوسع واستنفد الطاقة فعل ما عليه انظر كيف يدبر له ربن العالمين سبحانه وتعالى

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال/ من ١٧]

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج/من ٣٨]

هكذا فتجئ فكرة في دماغ يوليان هذا ليس للمسلمين أي دخل فيها المسلمون بعيدون عن يوليان ، لكن يوليان لوحدة قعد يفكر فيقول إن الأرض تتآكل من حولي المسلمين الآن بدأوا يكثروا حولي يعني أنا قدرت أصبر اليوم وأصبر غدًا وأصبر بعده كيف أقدر أصبر على حرب المسلمين حرب طويلة؟ أيضًا يوليان بداخله حقد كبير على لذريق حاكم الأندلس في ذلك الوقت لماذا؟ لأن لذريق هذا قتل غيطشة الذي هو الملك الذي كان موجود قبله وكان هناك علاقات طيبة جدًا بين غيطشة ويوليان أولاد غيطشة راحوا استنجدوا بيوليان لكي يساعدهم في حرب لذريق أولاد غيطشة هؤلاء ليست لهم طاقة بلذريق ولا يوليان له طاقة بلذريق ، طيب يعمل ماذا يوليان؟ هذا المكان الذي عليه سيروح وأيضًا لذريق لن يعرف يجئ عنده لأن لذريق مع خلاف معه هو من المؤيدين لأولاد الملك السابق فما يقدر يدخل أرض أسبانيا طيب يروح أين يوليان بعد هذا؟ يعني لو راح سيروح أين؟ الحاجة الثالثة التي جاءت في ذهن يوليان أن أولاد غيطشة لهم من الضياع الضخمة جدًا في أرض أسبانيا قد صُدرت وأخذها لذريق هذا الحاكم ، ولذريق هذا كان قد أذاق الشعب الأمرّين فرض عليهم كثير جدًا من الضرائب شعب أسبانيا كله يكرهه وعذبهم ويعني كان متنعمًا وشعبه في بؤسٍ شديد كل الأفكار هذه اعتملت في ذهن يوليان فيوم من الأيام والي طنجة الذي هو طارق بن زياد رحمه الله يجلس في بلده في طنجة على بعد عدة كيلومترات من ميناء سبتة يجد أن فيه رسل من يوليان

هي التي تجئ لكي تكلم طارق بن زياد تتفاوض معه، طارق بن زياد أمامه عرض يقدمه يوليان من تدبير رب العالمين سبحانه وتعالى عرض عجيب جدًا يقول له ماذا؟ يقول له أنا أعرض عليك ٣ أمور في مقابل، الثلاثة أمور هي: **الأمر الأول:** أن أسلمك ميناء سبتة نحن بقى لنا كثير ما عارفين نفتح ميناء سبتة هو سيسلمه له هكذا من عنده، أن أسلمك ميناء سبتة، الأمر الثاني: سأمدك ببعض السفن التي تساعد جيشك في عبور مضيق جبل طارق إلى الأندلس، فموسى بن نصير كان عمل بعض السفن لكن ما عنده سفن كافية فهذا يقول له سأعطيك السفن التي ناقصة أنت استنفدت الوسع لديك ربنا سيجيئك بسفن حتى من أعدائك ، انظر إلى تدبيره سبحانه وتعالى المحكم الأمر الثالث: سأعطي لك المعلومات الكافية عن أرض الأندلس سأشرح لك أرض الأندلس كأنك تسير فيها فطبعًا موسى بن نصير ما شاء الله كل الأمور اتحلت أمامه طبعًا هذا كان طارق بن زياد والي طنجة من قِبل موسى بن نصير ، موسى بن نصير ساعتها كان قاعد في القيروان التي هي تعتبر عاصمة الشمال الإفريقي حينها في تونس طيب في مقابل ماذا؟ يوليان ماذا تريد أمام هذا العرض المغري جدًا جدًا للمسلمين قال: أريد ضيعات وأملاك غيطشة ،غطيشة له ٣ آلاف ضيعة مُصادرة ٣ آلاف عزبة أو ٣ آلاف ملك أو جنة أو حديقة كبيرة جدًا موجودة في بلاد الأندلس، يملكها غيطشة ملكًا شخصيًا له ولأولاده ، هذه الأملاك صادرها لذريق أنت تدخل بلاد الأندلس تحكم بلاد الأندلس وتظل حاكمًا ونحن نسمع ونطيع لك على أن تعطينا هذه الضيعات وهذه الأملاك، طارق بن زياد لما سمع هذا الأمر سعد سعادة جمة ما أهون الثمن المسلمون أبدًا يا أخوة والله ما فكروا في مغنم في فتحهم هذه البلاد ما فكروا في دنيا ما فكروا في مال ما فكروا في ثروة كل ما يريدون أن يدخلوا هذه البلاد يعلموا الناس الإسلام لكن كانت هذه الأموال عندهم أشياء لا ينظروا إليها مطلقًا بل إن الناس إذا دخلوا في الإسلام كان لهم مال المسلمين وعليهم ما على المسلمين، بل لو دفعوا الجزية للمسلمين حتى لو دفعوا الجزية

للمسلمين يترك لهم كل ما يملكون في أيديهم لا يدفعوا إلا الجزية فقط وإن شاء الله سيأتي وقت نتعرف فيه على موضوع الجزية في الإسلام ، فالمسلمين أصلاً غير راغبين في هذه الدنيا التي يمكلها غيطشة ولذريق ويوليان وما إلى ذلك لا ليس راغبين في هذه الأمور ولم يأتوا من أقصى بلاد العالم إلى هذه المنطقة في العالم حتى يجمعوا مالاً أو يجمعوا ثروة طيب نعطيك هذه الثروات ما أجمل الطلب في مقابل هذا الفتح العظيم لبلاد الأندلس من تدبيره سبحانه وتعالى ، طارق بن زياد رحمه الله يأخذ هذه المعلومات ويعود إلى موسى بن نصير رحمه الله في القيروان ، ويخبره بذلك الأمر فيسر بذلك سرورًا عظيمًا، لكن يمشي بالترتيب السليم للأمراء، يبعث رسالة إلى الوليد بن عبد الملك رحمه الله يقول له أن عندنا عرض شكله كذا كذا كذا، فيسمح له الوليد بن عبد الملك بعبور الأندلس لكن يشترط عليه شرطًا وكان يفكر فيه موسى بن نصير ألا يدخل بلاد الأندلس إلا بعد أن يختبرها بسرية من سرايا المسلمين ، احذر أن تعتمد على شرح يوليان الذي سيعطيه لك لمنطقة الأندلس قد تسترشد بهذا الأمر فقط لكن لا تعتمد عليه قد يخون عهده قد يتفق من ورائك مع لذريق أو مع غيره من الناس لازم تبعث سرية بنفسك وتتأكد أن هذه المعلومات صحيحة ، وجهز موسى بن نصير رحمه الله سرية من خمسمائة رجل على رأسهم طريف بن مالك أو طريف بن ملوك حسب الروايات المختلفة وهو من البربر أيضًا انظر إلى قيادة هذه المنطقة جميعها من البربر حديثي الإسلام لكن الإسلام غيرهم كثيرًا انظر لو كان طارق بن زياد استمر في ديانته التي كان يعبد كان وثنيًا قبل أن يدخل في الإسلام كان سيكون ذكره في التاريخ هل كان سيحفر اسمه في التاريخ مثلما فعل فتح الأندلس وتبعات فتح الأندلس أم أنه كان سيختفي مع الذين اختفوا من البربر الذي كانوا يعبدون غير الله حتى دخل عليهم الإسلام،طريف بن مالك رحمه الله أخذ خمسمائة من المسلمين وعبر بهم من المغرب إلى الأندلس في رمضان سنة ٩١ من الهجرة ثم بدأ يدرس منطقة الأندلس الجنوبية منطقة التي سينزل لها الجيش الإسلامي بعد هذه

الفترة ثم عاد بنجاح إلى موسى بن نصير وشرح له جغرافية هذه المنطقة وقعد موسى بن نصير بعد عودة طريف بن مالك رحمه الله عام كامل في أناة شديدة يجهز جيشه ويعد العدة حتى أعد في خلال هذه السنة ٧ آلاف مقاتل ، ٧ آلاف جيش النصارى الموجود في الشمال أعداد ضخمة جدًا من البشر كما سيأتي لكن هذا هو العدد الذي استطاع أن يجمعه فبدأ بهم الفتح الإسلامي، ولّى عليهم طارق بن زياد رحمه الله ٧ آلاف ثم بدأ هذا الجيش يعبر مضيق جبل طارق بدأ العبور في شعبان من سنة ٩٢ من الهجرة ونزلوا على جبل أول ما نزلوا عُرف بعد ذلك في التاريخ بجبل طارق ومضيق جبل طارق ساعتها طبعًا ما كان اسمه هذا الاسم لكن إلى الآن حتى في اللغة الأسبانية اسمه مضيق جبل طارق فنزل على هذا الجبل وانتقل منه إلى منطقة واسعة تمسى الخضراء وهناك قابل الجيش الجنوبي للأندلس، لم يقابل الإغريق وجيش النصارى الضخم لكن كانت هناك حامية في هذه المنطقة في الجنوب فقابلها طارق بن زياد رحمه الله وعرض عليهم أمورًا قال لهم: إما أن تدخلوا في الإسلام ولكم ما لنا وعليكم ما علينا ونترك كل أملاككم في أيديكم على أن تدينوا بدين الله سبحانه وتعالى أول تدفعوا الجزية للمسلمين وسنترك لكم أيضًا كل ما في أيديكم أو أنكم تدخلوا معنا في قتال ولا نؤخركم إلا ثلاث هكذا كانت دعوة المسلمين، طبعًا النصارى القوط الموجودين في هذا المكان أخذتهم العزة وبدأوا يقاتلوا المسلمين فقاتلهم طارق بن زياد رحمه الله فانتصر عليهم، كانت الحرب إلى حدٍ ما في جالة بين الفريقين القوت النصارى القوت القوت فهذه المنطقة لم تكن بالقوة الكبيرة لم يكن هو جل جيش القوتي في هذه المنطقة فانتصر عليهم طارق بن زياد وزعيم القوت في هذه المنطقة أرسل رسالة سريعة جدًا إلى لذريق في طليطلة ، طليطلة هذه هي عاصمة الأندلس في ذلك الزمن وكانت تقع في منتصف بلاد الأندلس يعني مثل القاهرة هكذا بالنسبة لجمهورية مصر العربية تقع في منتصف البلد، فبعث رسالة بسرعة إلى لذريق يقول له ماذا؟ يقول له: أدركنا يا لذريق فإنه قد نزل علينا قومٌ لا

ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء ، حاجة غريبة جدًا ناس يطلبوا أننا ندخل في دينهم ويتركوا لنا كل شئ ، هم ما متعدوين على هذا هذه سياسة ليست يعني معروفة لهم، معروف عندهم أن الفاتح أو المحتل للبلد يأخذ من خيراته ويأخذ من أفضاله ويأخذ من أمواله ثم يترك هذا البلد ويسير يقتل ويذبح ووو لكن بمجرد أن ندخل في دينهم أن يتركوا كل شئ أو ندفع الجزية لهم ويتركوا لنا كل شئ هذا لم نعهده من قبل ثم أنهم في ليّلهم من القوّام لله سبحانه وتعالى ومن المصلين له يعني وجد طائفة عجيبة جدًا من البشر يعني في الصلاة وكأنهم من الرهبان وفي القتال كأنهم من المحاربين الأشداء الذين تمرسوا على القتال طيلة حياتهم فلا يدري أهل الأندلس أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء، وصلت الرسالة إلى لذريق فجن جنونه وأخذه الغرور وجمع من الناس ١٠٠ ألف مقاتل ١٠٠ ألف رجل من الفرسان وجاء بهم من الشمال إلى الجنوب، طارق بن زياد السبعة آلاف الذين معه جلهم من الرجّالة ومعه خيل قليل ، يعني تخيل ٧ آلاف بدون تجهيز من الخيول أمام ١٠٠ ألف رجل ،طبعًا طارق بن زياد وجد هذا القياس يعني صعب فأرسل رسالة إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد فأرسل له موسى بن نصير ٥ آلاف رجل آخرين أيضًا رجّالة على رأسهم طريف بن مالك رحمه الله ، الذي هو اكتشف أرض الأندلس منذ عام قبل ذلك فجاءت جيوش المسلمين ٥ آلاف وأصبح جيش المسلمين قوامه ١٢ ألف مقاتل ، طارق بن زياد رحمه الله أخذ يتجول في المنطقة يبحث عن أرض تصلح للقتال، حتى وصل إلى منطقة تسمى في التاريخ بوادي برباط وقد تجد أنها في بعض الكتب اسمها وادي لُكة أو وادي لَكة أو وادي لِكة كلها أسماء لهذا الوادي ، فوجد أن هذا المكان مكان مناسب، وانظر إلى فكر طارق بن زياد العسكري ، طارق بن زياد اختار المكان وادي برباط في خلفه وعن يمينه جبل في الجنوب وإلى الشرق جبل ضخم جدًا لكي يحمي خلفه ويحمي ميمنته فلا يستطيع أحد أن يلتف من حوله، وفي ميسرة الوادي بحيرة عظيمة جدًا فلا يستطيع أحد أيضًا أن يلتف حوله من جهة

اليسار ثم وضع على المدخل الجنوبي لهذا الوادي فرقة لحمايته بقيادة طريف بن مالك حتى لا يدخل عليه أحد من هذا المدخل الجنوبي فيباغت ظهر المسلمين ويصبح أمامه فقط الشمال مفتوحًا للنصارى حتى يستدرج قوات النصارى للحرب في هذه المنطقة فلا يلتف أحد من حوله في هذه الأرض التي تعتبر إلى حدٍ كبير مجهولة بالنسبة للمسلمين مهما درسوها ومهما عرفوها، وانتظر في هذا المكان لذريق، ومن بعيد جاء لذريق جاء ومعه ١٠٠ ألف فارس وجاء ومعه البغال محملة بالحبال، لماذا معه حبال؟ في ظنه أن يقيد المسلمين ويأخذهم عبيدًا بعد موقعة وادي برباط، ١٢ ألف مسلم ويجيء من بعيد ١٠٠ ألف مقاتل من القوت، طبعًا الموقعة في نظره يعني موقعة منتهية فجاء في.. وغرور يحمل الحبال لتقييد المسلمين وجاء وقد جلس على سريرٍ محلى بالذهب يحمل على بغلين وهو يلبس التاج الذهبي والثياب الموشاة بالذهب يعني يجئ في دنياه لم يستطع أن يتخلى عن دنياه حتى في لحظات القتال وحتى في لحظات الحروب ،اللقاء يتم في ٢٨ رمضان في سنة ٩٢ من الهجرة الحقيقة شهر رمضان لما تجئ تدرسه في التاريخ الإسلامي تجد أنه دائمًا شهر معارك وفتوحات وانتصارات وشهر قيام وصيام وقرآن ولا يدري الإنسان لماذا تحول شهر رمضان إلى شهر مسلسات جديدة وأفلام جديدة وفوازير وسهل للفجر ونوم لحد منتصف النهار وتزويغ من العمل وخناقات ومشاكل ولما تجئ لواحد تقول له يعني أنت تتخانق وأنت صائم يقول لك اعذرني أصلي أنا صائم فلازم يكون خُلقه ضيق لكن سبحان الله انظر إلى المسلمين كيف كانوا يفعلون في رمضان جهاد المسلمون في الأندلس في رمضان ٢٨ رمضان في سنة ٩٢ هجريًا تدور معركة من أشرف المعارك في تاريخ المسلمين موقعة وادي برباط قد يُشفق الناظر إلى الجيشين على جيش المسلمين يقول: هؤلاء اثني عشر ألفًا في مقابل مائة ألف من النصارى القوت يعني يدخل في قلبه شفقة على جيش المسلمين لكن والله الناظر المحلل يجد أن الشفقة كل الشفقة على جيش النصارى في هذه الموقعة

شتان بين الفريقين شتان بين فريقٍ خرج طائعًا مختارًا راغبًا في الجهاد وبين فريقٍ خرج مكرهًا مضطرًا مجبورًا على القتال شتان بين فريق أسمى أمانيه أن يموت في سبيل الله وبين فريق أسمى أمانيه أن يعود إلى أهله وإلى ماله، هذا فريق يقف فيه الجميع في صف واحد كصفوف الصلاة الغنيّ بجوار الفقير والوزير بجوار الغفير والحاكم بجوار المحكوم بينما هذا فريق يملك فيه بعض الناس الآخرين ويستعبد بعضهم بعضًا ،هذا فريق له قائد رباني طارق بن زياد رحمه الله، جمع بين التقوى والحكمة وجمع بين الرحمة والقوة وجمع بين العزة والتواضع، وهذا فريق له قائد متسلط مغرور ألهب ظهر شعبه بالسياط وعاش منعمًا وشعبه في بؤسٍ شديد هذا فريق إذا انتصر وُزعت عليه أربعة أخماس الغنائم جيش المسلمين هذا شرع الله سبحانه وتعالى يقول أن الجيش المنتصر يأخذ أربعة أخماس الغنائم لا يأخذ عشرة جنيهات في الشهر أو يأخذ عشرين جنيه في الشهر بحيث أن الناس تبارك له على أن هو يعني أخذ إعفاء من الجيش أليس كذلك؟ الناس تلاقيها فرحانة جدًا تعافيت من الجيش بينما زمان لا ، الناس تتشوق إلى الجهاد في سبيل الله وفيه حافز نعم من الدنيا لكن الله سبحانه وتعالى مطلع على القلوب ويعلم قد يكون هناك شئ من التحريك بهذه الغنائم وأربعة أخماس الغنائم كانت تُوزع على الجيوش الإسلامية ، لدرجة أن سيدنا عمر بن الخطاب في موقعة من مواقع المسلمين غنم المسلمون جواهر عديدة جدًا لكسرى فارس فالجيش الإسلامي ما عارف يوزع الجواهر على الجيش ،كيف أوزع أربعة أخماس الجواهر على الجيش الإسلامي ، راح سيدنا عمر بن الخطاب وفي ورع شديد باع هذه الجواهر الثمينة جدًا ومن هذا الثمن وزع أربعة أخماس على الجيش وخمس دخل إلى بيت المال لازم أربعة أخماس من الغنائم تذهب إلى الجيش الفاتح، فهذا جيش يأخذ أربعة أخماس الغنائم وهذا جيش لا يأخذ شيئًا بل يذهب كل شئ إلى الحاكم المتسلط المغرور، هذا فريق يؤيده خالق الكون سبحانه وتعالى ومالك

الملك سبحانه وتعالى، وهذا فريق يحارب ربه ويتطاول على شرعه وعلى قانونه، بإختصار وبإيجاز هذا فريق الآخرة وهذا فريق الدنيا شتان بين الفريقين فعلى من تكون الشفقة؟ على جيش المسلمين أم على جيش القوت في هذه الموقعة؟ على من تكون الشفقة وقد قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة/٢١] على من تكون الشفقة وقد قال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء/من١٤١] هكذا بدأت الموقعة دارت الموقعة إبتداءً من ٢٨ رمضان أتراها قد استمرت ساعة أو ساعتين أو يومًا أويومين؟ استمرت ٨ أيام متصلة، تخللها عيد الفطر المبارك، عيد الفطر يوم من الأيام في أثناء هذا القتال الشرس الضاري الطويل بين المسلمين، أمواج من النصارى تنهمر على المسلمين والمسلمون صابرون رجال من المؤمنين ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب/من٢٣] المؤمنون صابرون مجاهدون يومًا والثاني والثالث والرابع حتى تنتهي المعركة في اليوم الثامن ثم منّ الله على المسلمين بالنصر بعد أن علِم صدق إيمانهم وعلم صبر المسلمين على هذا القتال الطويل ٨ أيام متصلة وقُتل لذريق في هذه الموقعة أو فر في رواية إلى الشمال، لكن اختفى ذكره من الوجود وبدأت الأندلس تفتح صفحة جديدة من الفتح الإسلامي الراقي المتحضر لهذه البلاد وغنِم المسلمون غنائم عظيمة جدًا في موقعة وادي برباط كان أهم هذه الغنائم الخيول فأصبح الجيش الإسلامي كله خيّاله بعد أن كان جله رجّالة قبل هذه الموقعة لكن هل كان هذا بلا ثمن؟ جيش المسلمين كان ١٢ ألف في بدء موقعة وادي برباط ، في آخر يوم من أيام وادي برباط كان قد استشهد من المسلمون ٣ آلاف مقاتل ٣آلاف شهيد دماء غالية جدًا روت أرض الأندلس وأوصلت هذا الدين إلينا وإلى غيرنا من الناس لم يصل إلينا هذا الدين بتضحيات بسيطة أو تضحيات قليلة لكن وصل هذا الدين بدماء غالية قبل الإنتقال من موقعة وادي برباط إلى ما بعدها في الأندلس، نناقش

قضية اُشتهرت كثيرًا في التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي وهي قضية حرق طارق بن زياد رحمه الله للسفن التي عبر عليها من المغرب إلى بلاد الأندلس في هذه الموقعة موقعة وادي برباط وفي فتح الأندلس أتراها حقيقة أم تراها من الخيال؟ يقولون أن طارق بن زياد حرق السفن كلها حتى يحمس الجيش على القتال وقال لهم: البحر من ورائكم والعدو من أمامكم ، فليس لكم نجاة إلا بالسيوف، هكذا يعني تصور الرواية وبعض المؤرخين مع صدق الرواية وبعض المؤرخين مع بطلان الرواية ، والحق أن هذه الرواية لا يجب أبدًا أن تستقيم، هذه الرواية رواية من الروايات الباطلة التي أدخلت إدخالاً على تاريخ المسلمين لماذا يا ترى أقول الكلام هذا؟ الشئ الأول أن هذه الرواية ليست لها سند صحيح من الروايات الإسلامية عندنا علم اسمه علم الرجال وعلم الجرح والتعديل ولابد أن تكون الروايات عن أناس موثوق فيهم، هذه الرواية لم ترد أبدًا أبدًا في كتابات المسلمين الموثوق في تأريخهم، إنما جاءت فقط في الروايات الأوروبية التي كتبت عن موقعة وادي برباط الرواية ليس لها سند صحيح، الأمر الثاني أنه لو حدث حرق لهذه السفن بلا شك كان سيكون هناك رد فعل من موسى بن نصير أو الوليد بن عبد الملك سؤالاً عن الواقعة لأن طبعًا أمر غريب جدًا إن قائد يحرق سفنه فلابد أن يكون هناك حوار وتداول بين موسى بن نصير وبين طارق بن زياد حول هذه القضية ولابد أن يكون هناك تعليق من الوليد بن عبد الملك ولابد أن يكون هناك تعليق من علماء المسلمين هل جاز هذا الفعل أم لم يجز ؟ فلذلك الكتب اختفي منها تمامًا رد الفعل على هذه الحادثة مما يعطي شكًا كبيرًا في حدوثها، الأمر الثالث أن المصادر الأوروبية أشاعت هذا الخبر لأمر واضح جدًا، المصادر الأوروبية والمحللون الأوروبيون لا يستطيعون أبدًا أن يفسروا كيف ينتصر ١٢ ألف من الرجال الذين هم رجّالة ليس معهم خيول على ١٠٠ ألف فارس في بلادهم وفي عقر دارهم وفي أرض عرفوها وأرض ألفوها كيف ينتصر هؤلاء القلة على هذه الكثرة العظيمة جدًا من البشر فقالوا أن طارق بن زياد

حرق سفنه فأصبح أمام المسلمين حل واحد فقط للقتال للهروب من الموت ولذلك استماتوا في القتال فانتصروا، لكن لو كانت الظروف طبيعية كانوا أخذوا الجيش لديهم وانسحبوا من البلاد وركبوا السفن وعادوا إلى بلادهم، هذا لأن الأوروبين لا يستطيعون أبدًا أن يفقهوا القاعدة الإسلامية المشهورة والمعروفة والمسجلة في كتابه سبحانه وتعالى ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة/من ٢٤٩] الناظر إلى صفحات التاريخ الإسلامي يجد أنه من الطبيعي جدًا أن ينتصر المسلمون بأعداد قليلة على غيرهم من الجيوش بل إن الأصل الأصل المتكرر في معظم المعارك الإسلامية أن يكونوا المسلمون قلة وأن يكون الكافرون كثرة وأعداء المسلمون يهزموا بهذا العدد القليل من المسلمين بل إنه من العجب العجاب أنه لو زاد المسلمون في العدد كُتبت عليهم الهزيمة كما حدث في حنين ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة/٢٥] وهذا الأمر سوف نتعرض له إن شاء الله في حوادث الأندلس اللاحقة، يبقى إذًا الأوروبيون يحاولون أن يشيعوا هذه الشائعة حتى يدخلوا في روع الناس أن المسلمين ما انتصروا إلا لظروف خاصة جدًا لكن ليس من الطبيعي أن ينتصروا ، الشئ الرابع الذي ضد هذه الرواية نحن قلنا أن الشئ الأول أنها ليست لها سند صحيح الشئ الثاني أنه ليس هناك رد فعل واضح في الكتب عن موقف موسى بن نصير أو الوليد بن عبد الملك الشئ الثالث أن المسلمين كانوا متعودين ينتصروا بهذه الأعداد القليلة جدًا من البشر وهذا الشئ الذي كانت المصادر الأوروبية ما قادرة تفهمه،الشئ الرابع أن المسلمين ليس متحاجين لتحميس بحرق السفن المسلمين جاؤا إلى هذه الأماكن راغبين في الجهاد في سبيل الله طالبين للموت في سبيل الله فليس ممكن يحتاج القائد أنه يحرق لهم السفن لكي يشجعهم في القتال في سبيل الله بعض الناس تقول لك هذا حدث مسبوق حدث قبل هذا في فتح الفرس لليمن القائد الفارسي الذي فتح

اليمن حرق السفن لديه لكي يحمس الجنود الفرس أقول لك نعم هذا ممكن يحصل ممكن القائد الفارسي يحمس الناس لديه بحرق السفن، مثل ما كان الفرس يجبروا جنودهم على الحرب ضد المسلمين بربطهم في سلاسل مثل موقعة ذات السلاسل المشهورة لخالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه ، نعم هكذا أقدر أفهم بالنسبة لأهل الدنيا لكن جيش المسلمين لا يحتاج لهذا التحميس حتى تفترض هذا الحرق، الشئ الخامس أنه ليس معقول قائد محنك مثل طارق بن زياد رحمه الله يحرق سفنه ويحرق خط الرجعة عليه ماذا لو هُزم في الموقعة وهذا أمر وارد جدًا، الأيام دول قد تحدث الكرة على المسلمين فترة من الفترات ربنا سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ وخلي بالنا بقى من الاستثناء ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال/١٥،١٦]

أي أنه هناك إحتمال أن ينسحب المسلمون من ميدان المعركة إما تحيزًا إلى فئة وفئة المسلمين كانت في المغرب في الشمال الإفريقي فكيف يحرق طارق بن زياد سفنه فيقطع على نفسه الإنحياز إلى فئة المسلمين أو يقطع على نفسه التحرف إلى قتال جديد والإستعداد إلى قتال جديد ما نرى هذا الحرق إن كان حدث إلا تجاوزًا فرعيًا خطيرًا لا يقدم عليه رجل في ورع وتقوى وعلم وجهاد طارق بن زياد رحمه الله وما كان المسلمون حكامهم وعلماؤهم ليسكتوا على مثل هذا الحدث إن كان حدث من طارق بن زياد ،الحاجة الأخيرة التي تريد على هذه الرواية أن طارق بن زياد لا يملك كل السفن هذا بعض السفن مؤجرة من يوليان أعطاه له بأجرة حتى يعبر عليها ثم يعيدها بعد ذلك إلى يوليان القائد الذي موجود في ميناء سبتة الذي هو بعد هذا طبعًا سينتقل إلى أسبانيا فليس من حق طارق بن زياد أن يحرق هذه السفن، لكل هذه الأمور

نقول أن هذه الرواية غالب الأمر مختلطة وما أُشيعت إلا لتهـون مـن فـتح الأندلس وتجعله أمرًا محتمًا على المسلمين لأنهم ليس لهم ظهر ولـيس لهـم رجعة، طيب ما هو الموقف بعد موقعة وادي برباط الشهيرة، طارق بن زياد القائد الفز القائد المحنك بعد هذه الموقعة يعلم أنه إن أكمل الفتوح فـي هـذه اللحظة فهي أفضل الفرص لفتح الأندلس مع أنه فقد ٣ آلاف شهيد في موقعـة وادي برباط لكنْ هو ينظر فيجد أولاً أن الروح المعنوية عند جيشه عالية جدًا لأن جيشة ١٢ ألف انتصروا على ١٠٠ ألف واحد ،الحاجة الثانية أن الـروح المعنوية عند القوتيين في الحضيض نتيجة الهزيمة، الحاجة الثالثة أن الجـيش القوتي هُزم أو قُتل منه كثير وتفرق منه بالفرار الكثير ، فأصبحت القوة أمـام طارق بنْ زياد ضعيفة،

الحاجة الرابعة أنه يكون قد قُتل لذريق في الموقعة أو حتى إن لم يُقتل فعموم الناس تكره هذا الرجل ففرصة يعلم الناس دين الله سبحانه وتعالى فقد يـدخل معه الناس في هذه الظروف في دين الله، الحاجة الخامسة أن يوليان على عهد معه ولا يدري أحد إن كان سيخالف عهده مستقبلاً أم لن يخالف فعليه أن ينتهز هذه الفرصة وينطلق لفتح بلاد الأندلس بعد موقعة وادي بربـاط لـذلك أخـذ طارق بن زياد جيشه مباشرة بعد إنتهاء الموقعة وتوجه في اتجاه الشمال لفتح بقية بلاد الأندلس، منها اتجه إلى اشبيلية من وادي برباط اتجه إلى اشـبيلية ، واشبيلية هي أعظم مدن الجنوب على الإطلاق ولكن سبحان الله لمـا اقتربـوا جيش المسلمين من اشبيلية تحقق فيه حديث رسول صلى الله عليه وسلم الـذي جاء في صحيح البخاري: "نُصرت بالرعب مسيرة شهر" ففتحت المدينة أبوابها للمسلمين دون قتال وصالحت على الجزية على حصانة هذه المدينـة وعلـى إرتفاع الأسوار وعلى قوة الحامية لكن فتحوا الأبواب ودفعوا الجزية للمسلمين وأكمل طارق بن زياد رحمه الله الفتوح بعد اشبيلية لكن قبـل أن نكمـل مـع طارق بن زياد، وقفة مع الجزية التي دفعها أهل اشبيلية وغيرهم من الناس في الأندلس وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي المفتوح في ذلك الوقت ، الجزية

هي ضريبة يدفعها أهل الكتاب بصفة عامة أو حتى يدفعها المجوس أو يدفعها المشركون في رأي بعض الفقهاء، وإن كان هذا هو الرأي الغالب، الجزية يدفعونها نظير أن يدافع عنهم المسلمون لا يحمل الذين يدفعوا الجزية سلاحًا ليدافعوا به عن أنفسهم لكن على المسلمين أن يدافعوا عنهم نظير هذه الجزية بل إن فشل المسلمون في الدفاع عنهم زدت إليهم الجزية ، وقد تكرر ذلك في بعض المواقف في التاريخ الإسلامي وسنتعرض لها إن شاء الله في أحاديث لاحقة، الجزية تؤخذ فقط من الرجال لا تؤخذ من النساء الجزية تؤخذ فقط من الكبار البالغين لا تؤخذ على الأطفال الجزية تؤخذ فقط من الأصحاء لا تؤخذ من المرضى الغير القادرين على القتال ، لا تؤخذ من أصحاب العاهات لا تؤخذ من الأعمى لا تؤخذ من الكسيح ، لا تؤخذ من الرجل المعتكف للعبادة والذي لا يقاتل بمعنى أدق هي لا تؤخذ إلا من القادرين على القتال، لا تؤخذ إلا من الغني لا تؤخذ من فقير ، بل إن الفقير قد يأخذ من بيت مال المسلمين ، الفقير الذي هو من أهل الكتاب نصراني أو يهودي أو مشرك قد يأخذ من بيت مال المسلمين إن كان هو في بلد تُحكم بالإسلام هي الجزية في مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون ومع ذلك هي أقل بكثير مما يدفعه المسلمون كان في هذا الزمن الرجل الذي يدفع الجزية كان يدفع دينار واحد في السنة الكاملة جزية للمسلمين بينما كان المسلم يدفع زكاة ٢،٥ % من إجمالي الدخل الذي عنده إن كان بلغ نصابه وحال عليه الحول، فالمبالغ التي كان يدفعها المسلمون في الزكاة كانت أضعاف ما يدفعه أهل الكتاب وغيرهم من الجزية، وفي حالة إذا أسلم سقطت عنه الجزية وفي حالة إذا شارك مع المسلمين في حروبهم دفعوا له أجرة على حربه مع المسلمين، الجزية كانت أقل بكثير من الضرائب التي كان يفرضها عليهم أصحاب الحكم في بلادهم من جلدتهم ومن أبناء شعوبهم، الجزية أقل من أي ضريبة في العالم، بل إن الزكاة نفسها أقل من أي ضريبة في العالم، من في الدنيا يدفع ضريبة ٢،٥ % فقط؟ هذا الناس تدفع عشرة وعشرين وخمسين في المائة وأحيانًا سبعين في المائة ضرائب ، بينما

ضريبة في العالم، من في الدنيا يدفع ضريبة ٢،٥ % فقط؟ هذا الناس تدفع عشرة وعشرين وخمسين في المائة وأحيانًا سبعين في المائة ضرائب ، بينما في الإسلام الزكاة ٢،٥ % والجزية أقل من ذلك ، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ألا يكلف أهل الكتاب فوق طاقاتهم فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف:

"من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالإسلام كان دين رحمة كبيرة جدًا بهؤلاء كان يدافع عنهم وكانوا يستفيدون بكل مقدرات البلد في نظير هذه الجزية البسيطة التي يدفعونها للمسلمين.

الدولة الأموية


الدولة الأموية في أقصى اتساعها

كان فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين من الهجرة؛ أي في عصر الدولة الأموية، وتحديدًا في خلافة الوليد بن عبد الملك- رحمه الله- الخليفة الأموي الذي حكم من عام (٨٦هـ=٧٠٥م) إلى عام (٩٦هـ=٧١٥م)؛ وهذا يعني أن فتح الأندلس كان في منتصف خلافة الوليد الأموي.

والحقّ أن الدولة الأموية ظُلمت ظلمًا كثيرًا في التاريخ الإسلامي؛ وأُشيع عنها الكثير من الافتراءات والأكاذيب والأحداث المغلوطة التي تُشوّه صورتها، وبالتالي تنال من صورة التاريخ الإسلامي في أزهى عصوره -بعد

الحكم بالشريعة الإسلامية- أن التاريخ الإسلامي لم يكن إلاّ في عهد أبي بكر وعمر، بل لقد وصل الأمر إلى الطعن في تاريخ أبي بكر وعمر مع علم الجميع بفضلهما.

ولا يخفى على أحد أن المراد من ذلك هو أن يترسَّخ في الأذهان استحالة قيام دولة إسلامية من جديد، فإذا كان هذا شأن السابقين القريبين من عهد الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم؛ وإذا كان هذا شأن دولتي بني أمية وبني العباس القريبتين من عهد النبوة ومع ذلك لم تستطع إحداهما أن تُقيم حكمًا إسلاميًّا صالحًا -كما يزعمون- فكيف بالمتأخِّرين؟! وهي رسالة يُريدون أن يَصِلُوا بها إلى كل مسلم، وليس لهم من غرض وراء ذلك إلاّ أنهم ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢]

وقفة إنصاف لبني أمية (40-132 هـ=٦٦٠-٧٥٠م)

الدولة الأموية كغيرها من الدول الإسلامية لها الأيادي البيضاء والفضل الكبير على المسلمين في شتّى بقاع الأرض، ونظرة واحدة على عدد المسلمين الذين دخلوا الإسلام في زمن حكمها تكفي للردِّ على الافتراءات والمزاعم التي حِيكت في حقِّها، فهذا إقليم شمال إفريقيا بكامله دخل الإسلام في عهد بني أمية؛ ابتداء من ليبيا وحتى المغرب، وإذا كانت الفتوح الإسلامية لهذه البلاد قد بدأت في عهد عثمان بن عفان ؓ ؛ فإن هذه البلاد قد ارتدَّت على عقبها ثم فُتحت من جديد في عهد بني أمية.

كانت الدولة الأموية تفتح البلاد بالإسلام في أربع جبهات في وقت واحد، منها جبهة الغرب التي وصلت إلى الأندلس -وهو ما نتحدث عنه في هذه المقالات- لكن ثمة ثلاث جبهات أخرى: كانت في بلاد السند على يد محمد بن القاسم الثقفي، وفي بلاد ما وراء النهر حتى الصين على يد قتيبة

بن مسلم الباهلي، وفي بلاد القوقاز في الشمال على يد مسلمة بن عبد الملك المرواني.

فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وأشرقت شمس الإسلام على بلادٍ كانت تعبد الأصنام والأوثان والنار والملوك، وانزاحت من وجه العالم خرافاتٌ وأباطيل، وأبصر الناس -بفضل الله الذي جرى على يد بني أمية- نور الله المبين، فأقبلوا على الإسلام زرافات ووحدانًا، ثم ما لبثوا أن كانوا من جنوده وأبطاله وعلمائه ورُوّاده، وقطفت الأُمّة الإسلامية عبر كل تاريخها ثمار الزرع الذي غرسه بنو أمية، فكم من رءوس الأُمّة ومُقدّميها -في العلم والفقه والتفسير والأدب والطب والجغرافيا والهندسة والكيمياء والفلسفة- كانوا من هذه البلاد التي فتحها بنو أمية! مثل:

البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، والطبري وابن خلدون والذهبي، وابن سينا والفارابي والكندي والبيروني، وسلسلة طويلة تستعصي على الحصر، فتح الإسلام بلادهم ثم قلوبهم، ثم فتح بهم بلادًا وقلوبًا أخرى كثيرة.

كان الجهاد في أيام الأمويين أمرًا طبيعيًّا؛ يخرج إليه الناس ابتغاء مرضاة ربهم، وتبليغًا لدعوة ربّ العالمين، وإضافة إلى ذلك فقد دُوِّنَت السُّنّة النبوية في خلافتهم، وحُكِّم شرع الله وطُبّق في دولتهم.

ولقد قال فيهم الإمام الكبير العَلَم ابن حزم كلمة ما أصدقها، قال: «وكانت دولة عربية لم يتخذوا قاعدة، إنما كان سُكنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجانَ الأموال ولا بناءَ القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد، ويُكاتبوهم بالعبودية والمُلك، ولا تقبيل الأرض ولا رِجْلٍ ولا يَدٍ، وإنما كان غرضهم الطاعةَ الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمّال، ويولّون الآخرين في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي

أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد. وبعثوا إليها الجيوش، وولّوْا عليها مَن ارتضوا من العمال... فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلّب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بهم ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يكُ في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرًا على أهْل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير.«

ومع كل هذا فإنّا لا نقول بتبرئتهم من كل خطأ أو عيب؛ فالنقص والخطأ شيمة البشر، ومن المؤكّد أن هناك أخطاءً كثيرةً في تاريخ بني أمية، لكن -بلا شكٍّ- كل هذه الأخطاء تذوب في بحر حسناتهم وبحر أفضالهم على المسلمين، فقد امتدَّ حُكم بني أمية اثنين وتسعين عامًا، من عام (٤٠هـ=٦٦٠م) إلى (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وكان أول خلفاء بني أمية الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه- ورضي الله عن أبيه أبي سفيان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - ذلك الخليفة الذي لم يَسْلَم من ألسنة كثير من الناس؛ فطعنوا في تاريخه وفي خلافته رضى الله عنه، ولقد كذبوا، فليتنا نَصِلُ إلى معشار ما فعله معاوية بن أبي سفيان للإسلام والمسلمين.

وإن كان هذا ليس مجال الحديث عن بني أمية إلاّ أنَّ هذه المقدمة البسيطة قد تُفيد -بمشيئة الله- في الحديث عن الأندلس، فبعد معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه تتابع الخلفاء الأُمويون، وكان أشهرهم عبد الملك بن مروان- رحمه الله، ومَنْ تَبِعَه من أولاده، وكان منهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وقد تخلّلهم الخليفة الراشد المشهور عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، وهو خليفة أموي من أبناء الدولة التي يطعنون فيها، وهو الذي ملأ الأرض عدلاً ورحمةً وأمنًا ورخاءً؛ حتى عدّه المؤرخون خامس الخلفاء الراشدين.

أمَّا الجانب السيِّئ من تاريخ دولة بني أمية فإنه يكمن في السنين السبع الأخيرة من تاريخهم، تلك التي شهدت الكثير من المآسي، والكثير من الاختلاف عن المنهج الإسلامي، وكانت سُنَّة الله تعالى؛ فحين فسد الأمر في الدولة الأموية قامت دولة أخرى وهي الدولة العباسية، أمَّا الأندلس وفَتْحُها فيبقى حسنةً من أعظم حسنات بني أمية.

معركة شذونة

معركة شذونة أو وادي لكة معركة وقعت في ١٩ يوليو ٧١١ م بين المسلمين بقيادة طارق بن زياد وجيش الملك القوطي الغربي رودريغو الذي يعرف في التاريخ الإسلامي باسم لذريق. انتصر الأمويون انتصارا ساحقا أدى لسقوط دولة القوط الغربيين وبالتالي سقوط معظم أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سلطة الخلفاء الأمويين.

ما قبل المعركة

عين موسى بن نصير من قبل الدولة الأموية واليا للمغرب خلفا لحسان بن النعمان وواجه في بداية فترة حكمه العديد من الثورات من قبل البربر عمل على قمعها واستعادة ما استولي عليه من مدن المغرب كطنجة التي حررت واختار موسى طارق بن زياد واليا لها.

بعد أن قضى موسى على الفتن المنتشرة ودانت له جميع أراضيها لم تبق له سوى مدينة سبتة التي كان يحكمها الكونت يوليان التي تقول بعض المصادر أنه كان مواليا لحكام أيبيريا القوطيين ويزا الذي يعرف في التاريخ العربي باسم غيطشة وابنه أخيلا الثاني وكان أن قام لذريق بانقلاب على غيطشة مما أثار حنق يوليان وأراد الانتقام وبالتالي استعان بالقوة الإسلامية المتنامية لدحر لذريق. تذكر بعض المصادر الأخرى أمورا أخرى بأنه كانت ليوليان ابنة أرسلها لبلاط لذريق -كما كان يفعل جميع النبلاء في ذاك

العصر – لتخدم عنده فأعجب بها لذريق وراودها عن نفسها وفض بكارتها مما أثار غضب يوليان وعزم على الأخذ بالثأر.

أخبر يوليان موسى بن نصير برغبته وأنه سيساعده إذا أراد غزو إسبانيا خاصة وأن موسى كان يرنو لذلك ويطمح إليه، واتفقا بينهما على تسلم مدينة سبتة مقابل معاونة المسلمين ليوليان ضد لذريق، وبذلك وافق كلا الطرفين على هذا الاتفاق.

استشار موسى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فأجابه قائلا «خضها بالسرايا حتى تختبرها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال». أرسل موسى سرية للاستطلاع قوامها ١٠٠ فارس و٤٠٠ من المشاة تحت قيادة طريف بن مالك الذي توغل في الأندلس حتى وصل الجزيرة الخضراء.

بعد الحملة بعام تقريبا انطلقت قوات المسلمين تحت قيادة طارق بن زياد وفي سفن الكونت يوليان حاكم طنجة حتى وصلت للمنطقة الصخرية الساحلية التي تعرف اليوم باسم جبل طارق. وتقدم طارق وجيشه المقدر بحوالي ٧٠٠٠ شخص من العرب والبربر نحو قادس التي احتلها والجزيرة الخضراء التي قاوم حاكمها سانتشو مقاومة عنيفة الأمر الذي ألحق بعض الخسائر في صفوف المسلمين مما استدعى من موسى بن نصير إرسال ٥٠٠٠ جندي لمعونة طارق بن زياد.

في هذه الأثناء كان لذريق يقوم بإخماد ثورة في بمبلونة في شمال البلاد التي كانت غارقة في الحروب والنزاعات الأهلية وبمجرد أن سمع بتحركات طارق اتجه مباشرة جنوبا صوب قرطبة بجيش قوامه ١٠٠ ألف مقاتل ليواجه المسلمين عند وادي لكة قرب مدينة قادس.

تاريخ الأندلس

المعركة

انضم لجيش طارق بن زياد الكونت يوليـــان وبعـــض كبـــار الدولـــة القوطية من أعداء لذريق وعدد من جنودهم. تلاقى الجمعان قرب نهـــر وادي لكة. دامت المعركة ٨ أيام وقاوم القوط مقاومة عنيفة في بادئ الأمـــر إلا أن انسحاب لوائين (أحدهم بقيادة أخيه الأرشيدوق أوباس) من أصل ٣ ألوية مـــن جيش لذريق أدى لضعضعة الأمور وإرباك الجيش.

يذكر أن لذريق اختفى أثره بعد المعركة، ويجمع أغلب الرواة على أنه مات كما يجمع أغلب المؤرخين على مقتل كل وجهاء البلاد ما عدا بِلاَي (أو بيلايو الأستورياسي، لدى الغرب) الذي هرب دون أن يشارك في القتال واتجه شمالا وقام بتأسيس مملكة أستورياس في الركن الشمالي الشرقي مما يعـــرف الآن بإسبانيا وهي مناطق قام المسلمون بغزوها مرات عديدة وانسحبوا منها..

ما بعد المعركة

بعد هذا النصر تعقب طارق فلول الجيش المنهزم الذي لاذ بـــالفرار، وسار الجيش مستوليا على بقية البلاد، ولم يلق مقاومة عنيفة في مسيرته نحو الشمال، وفي الطريق إلى طليطلة بعث طارق بحملات صغيرة لفـــتح المـــدن، فأرسل مغيثًا الرومي إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة، فتمكنت من فتحها.

وسار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة مخترقًا هـــضاب الأنـــدلس، وكانت تبعد عن ميدان المعركة بما يزيد عن ستمائة كيلومتر، فلما وصلها كان أهلها من القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم، ولم يبق سوى قليـــل مـــن السكان، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من ظل بها من أهلها وترك لأهلها كنائسهم، وجعل لأحبارهم ورهبانهم حرية إقامة شعائرهم، وتابع طارق زحفه

شمالا فاخترق قشتالة ثم ليون، وواصل سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية، ولما عاد إلى طليطلة تلقى أوامر من موسى بن نصير بوقف الفتح حتى يأتي إليه بقوات كبيرة ليكمل معه الفتح. عبور ابن نصير إلى الأندلس

كان موسى بن نصير يتابع سير الجيش الإسلامي في الأندلس، حتى إذا أدرك أنه في حاجة إلى مدد بعد أن قتل منه في المعارك ما يقرب من نصفه، ألزم طارقًا بالتوقف؛ حرصًا على المسلمين من مغبة التوغل في أراض مجهولة، وحتى لا يكون بعيدًا عن مراكز الإمداد في المغرب، ثم عبر هو في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر إلى الجزيرة الخضراء في (رمضان ٩٣هـ= يونيه ٧١٢م)، وسار بجنوده في غير الطريق الذي سلكه طارق، ليكون له شرف فتح بلاد جديدة، فاستولى على شذونة، ثم اتجه إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها ، ثم قصد إشبيلية وماردة فسقطتا في يده، واتجه بعد ذلك على مدينة طليطلة حيث التقى بطارق بن زياد في سنة (٩٤هـ= ٧١٣م).

وبعد أن استراح القائدان قليلا في طليطلة عاودا الفتح مرة ثانية، وزحفا نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية أراجون، واستوليا على سرقطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدن، ثم افترقا، فسار طارق ناحية الغرب، واتجه موسى شمالا، وبينما هما على هذا الحال من التوغل، وصلتهما رسالة من الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، يطلب عودتهما إلى دمشق، فتوقف الفتح عند النقطة التي انتهيا إليها، وعادا إلى دمشق، تاركين المسلمين في الأندلس تحت قيادة عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي شارك أيضا في الفتح، بضم منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسبة، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرًا من الرفق والتسامح

وبدأت الأندلس منذ أن وقعت في يد المسلمين تاريخها الإسلامي، وأخذت في التحول إلى الدين الإسلامي واللغة العربية، وظلت وطنا للمسلمين

طيلة ثمانية قرون، كانت خلالها مشعلا للحضارة ومركزًا للعلم والثقافة، حتى سقطت غرناطة آخر معاقلها في يدي الإسبان المسيحيين سنة (٨٩٧هـ = ١٤٩٢م).

لم يبق في الأندلس مقاومة تذكر سوى من بيلايو الأستورياسي الذي أسس مملكة أستورياس في الركن الشمالي الشرقي من البلاد ويجعله مؤرخي الغرب قائد حروب الاسترداد وأول من بدأ بها حيث خاض معركة كوفادونجا مع نفر قليل من رجاله وانتصر فيها.

موسى بن نصير وقرار فتح الأندلس

لم يكن موسى بن نصير -رحمه الله- هو أول مَنْ فَكّر في فتح الأندلس، وإنما كانت فكرة فتح الأندلس فكرة قديمة؛ فلقد استطاعت الجيوش الإسلامية أيام عثمان بن عفان الوصول إلى القسطنطينية ومحاصرتها، إلاّ أنها لم تستطع أن تفتحها، فقال عثمان بن عفان : "إن القسطنطينية إنما تُفتح من قِبَل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر آخر الزمان".

أي: إنه على المسلمين لكي يتمكّنوا من فتح القسطنطينية أن يفتحوا الأندلس أولاً، ثم يتّجهون منها بعد ذلك إلى القسطنطينية -في شرق أوربا- ويقصد عثمان بالبحر ما كان يُعرف بالبحر الأسود في ذلك الوقت، لكن المسلمين لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الأندلس إلاّ أيام بني أمية، وفي ولاية موسى بن نصير على الشمال الإفريقي.

موسى بن نصير وعقبات فتح الأندلس

استتبّ الأمر لموسى بن نصير في شمال إفريقيا، وانتشر الإسلام وبدأ الناس يُقبلون على تعلّم دينهم، فلمّا رأى موسى بنُ نصير ثمار عمله، بدأ يُفكِّر في نشر الإسلام في البلاد التي لم يصلها بعدُ، فبدأ يُفَكِّر في فتح بلاد الأندلس، والتي لا يفصلها عن شمال إفريقيا سوى المضيق الذي صار يُعْرف بعد الفتح

الإسلامي بـ(مضيق جبل طارق)، ولكن كانت هناك عدّة عقباتٍ؛ كان أهمها ما يلي:

العقبة الأولى: قلة السفن

وجد موسى بن نصير أن المسافة التي سيقطعها في البحر بين المغرب والأندلس لا تقلّ عن ١٣ كم، ولم يكن لديه سفنٌ كافيةٌ ليعبر بجيشه هذه العقبة المائية؛ فمعظم معارك المسلمين -باستثناء بعض المواقع مثل: ذات الصواري وفتح قبرص- كانت بريّة؛ ومن ثَمّ لم تكن هناك حاجة كبيرة إلى سفن ضخمة، ولكن الآن الأمر مختلف، وهم في حاجة للسفن الضخمة لتنقل الجنود وتَعْبر بهم المضيق ليصلوا إلى الأندلس.

العقبة الثانية: وجود جزر البليار النصرانية في ظهره

كان موسى بن نصير قد تعلّم من أخطاء سابقيه؛ فلم يكن يخطو خطوةً حتى يُؤَمِّن ظهره أولاً، وفي شرق الأندلس كانت تقع جزرٌ تُسَمَّى جزر البليار -وهي عدّة جزر تقع أمام الساحل الشرقي لإسبانيا، وأهمها ثلاثة جزر هي: مَيُورقَة ومَنُورقَة ويَابِسَة، وتُسَمَّى في المصادر العربية بالجزر الشرقية- وهي قريبة جدًّا من الأندلس؛ ومن هنا فإن ظهره لن يكون آمنًا إن دخل الأندلس، وكان عليه أولاً أن يحمي ظهره.

العقبة الثالثة: وجود ميناء سبتة المطل على مضيق جبل طارق في أيدي نصارى على علاقة بملوك الأندلس

لم يكن المسلمون حينئذٍ قد فتحوا مدينة سَبْتَة، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي مهم، ولها ميناء يطلّ على مضيق جبل طارق، فكانت آنئذٍ تحت حكم رجل نصراني يُدْعَى (يُليان)، الذي كانت تربطه علاقات طيبة بملك الأندلس السابق غِيطشَة، وغِيطشَة هذا كان قد تعرَّض لانقلاب قادَه قائد له يُدعى لُذريق، وتولى لُذريق حُكم الأندلس نتيجة هذا الانقلاب، فخشي موسى

بن نصير إن هو هاجم الأندلس أن يتحالف يُليان مع لُذريق ضدَّه نظير مقابل مادي أو تحت أي بند آخر، فيُحاصروه ويقضوا عليه هو وجنوده.

العقبة الرابعة: قلة عدد المسلمين

كانت العقبة الرابعة التي واجهت موسى بن نصير هي أن قوات المسلمين الفاتحين التي جاءت من جزيرة العرب ومن الشام واليمن محدودة جدًّا، وكانت في الوقت نفسه منتشرة في بلاد الشمال الإفريقي؛ ومن ثَمَّ قد لا يستطيع أن يُتِمَّ فتح الأندلس بهذا العدد القليل من المسلمين، هذا مع خوفه أن تنقلب عليه بلاد الشمال الإفريقي إذا هو خرج منها بقواته.

العقبة الخامسة: كثرة عدد النصارى

في مقابل قوَّة المسلمين المحدودة كانت قوات النصارى تقف بعُدَّتها وضخامتها عقبةً في طريق موسى بن نصير لفتح الأندلس، وكان للنصارى في الأندلس أعدادٌ ضخمةً<a >، هذا بجانب قوَّة عُدَّتهم وكثرة قلاعهم وحصونهم، وإضافة إلى ذلك فهم تحت قيادة لُذريق القائد القوي.

العقبة السادسة: طبيعة جغرافية الأندلس، وكونها أرضًا مجهولة بالنسبة للمسلمين

ميناء سبتة كان البحر حاجزًا بين المسلمين وبلاد الأندلس، فلم يكونوا على علمٍ بطبيعتها وجغرافيتها؛ وهذا ما يجعل الإقدام على غزو أو فتح هذه البلاد أمرًا صعبًا، فضلاً عن هذا فقد كانت بلاد الأندلس تتميَّز بكثرة الجبال والأنهار، تلك التي ستقف عقبةً كئودًا أمام حركة ايِّ جيش قادم، خاصةً إذا كانت الخيول والبغال والحمير هي أهمَّ وسائل ذلك الجيش في نقل العُدَّة والعَتَاد.

موسى بن نصير ومواجهة العقبات

لم يستسلم موسى بن نصير رغم هذه العقبات التي كانت موجودة في طريق فتح الأندلس، بل زادته هذه العقبات إصرارًا على فتحها، ومن هنا بدأ -وفي أناةٍ شديدة- يُرَتِّب أموره ويُحَدِّد أولوياته، فعمل على مواجهة هذه العقبات على النحو التالي:

أولا: بناء الموانئ وإنشاء السفن

بدأ موسى بن نصير في عام (٨٧ أو ٨٨هـ=٧٠٦ أو ٧٠٧م) ببناء الموانئ التي تُشَيَّد فيها السفن، وإن كان هذا الأمر ربما يطول أمده، إلاّ أنه بدأه بهمة عالية وإرادة صلبة؛ فبنى أكثر مِن ميناءفي الشمال الإفريقي.

ثانيا: تعليم الأمازيغ (البربر) الإسلام

وفي أثناء ذلك بدأ موسى بن نصير -أيضًا- يبذل جهودًا أكبر لتعليم الأمازيغ (البربر) الإسلامَ في مجالس خاصة لهم، أشبه بما نُسَمِّيه الآن الدورات المكثّفة، فلمّا اطمأنّ إلى فهمهم للإسلام بدأ يعتمد عليهم ويستعملهم في جيشه، وهذا الصنيع من الصعب -إن لم يكن من المستحيل- أن نجده عند غير المسلمين؛ فلم تستطع دولةٌ محارِبَةٌ أو فاتحة غير الدول الإسلامية أن تُغَيِّر من طبائع الناس وحُبِّهم وولائهم الذي كانوا عليه؛ حتى يُصبحوا هم المدافعين عن هذه الدولة والناشرين لدينها؛ خاصّة إذا كانوا حديثي عهدٍ بهذا الفتح أو بهذا الدينِ الجديد، فهذا أمر عجيب حقًا، ولا يتكرّر إلاّ مع المسلمين وحدهم؛ فقد ظلّت فرنسا -على سبيل المثال- في الجزائر مائة وثلاثين عامًا، ثم خرجت جيوشها، بينما ظلّ الجزائريون كما كانوا على الإسلام لم يتغيَّرُوا، بل زاد حماسهم له وزادت صحوتهم الإسلامية.

علّم موسى بن نصير الأمازيغ (البربر) الإسلام عقيدةً وعملاً، وغرس فيهم حُبَّ الجهاد وبَذْل النفس والنفيس لله ؛ فكان أن صار جُلُّ الجيش

الإسلامي وعمادُه من الأمازيغ (البربر) الذين كانوا منذ ما لا يزيد على خمس سنوات من المحاربين له.

ثالثا: تولية طارق بن زياد على الجيش

القائد هو قِبلة الجيش وعموده، بهذا الفَهْم ولّى موسى بن نصير قيادةَ جيشه - المتّجه إلى فتح بلاد الأندلس - القائدَ الأمازيغي (البربري) المحنّك طارق بن زياد (٥٠-١٠٢هـ=٦٧٠-٧٢٠م) ذلك القائد الذي جمع بين التقوى والورع، والكفاءة الحربية، وحُبِّ الجهاد، والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله، ورغم أنه كان من الأمازيغ (البربر) وليس من العرب إلاّ أن موسى بن نصير قدّمه على غيره من العرب، وكان ذلك لعدة أسباب؛ منها:

١- **الكفاءة:** لم يمنع كون طارق بن زياد غير عربي أن يُولّيَه موسى بن نصير قيادةَ الجيش؛ فهو يعلم أنه ليس لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي فضلٌ إلاّ بالتقوى؛ فقد وجد فيه الفضل على غيره، والكفاءة في القيام بهذه المهمة على أكمل وجه، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلُّ على أن دعوة الإسلام ليست دعوة قَبَلِيّة أو عنصرية تدعو إلى التعصب، وتُفَضِّل عنصرًا أو طائفةً على طائفة؛ إنما هي دعوة للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

٢- **قدرته على فَهم وقيادة قومه:** إضافة إلى الكفاءة التي تميَّز بها طارق بن زياد كان لأصله الأمازيغي (البربري) الفضلُ في القضاء على أيٍّ من العوامل النفسية التي قد تختلج في نفوس الأمازيغ (البربر) الذين دخلوا الإسلام حديثًا؛ ومِن ثَمَّ استطاع قيادتهم وتطويعهم للهدف الذي يصبو إليه، ثُمَّ لكونه أمازيغيًّا (بربريًّا) فهو قادر على فهم لغة قومه؛ إذ ليس كل الأمازيغ (البربر) يُتقنون الحديث بالعربية، وكان طارق بن

زياد يُجيد اللغتين العربية والأمازيغية (البربرية)؛ ولهذه الأسباب وغيرها رأى موسى بن نصير أنه يصلح لقيادة الجيش فولاّه إيّاها.

رابعًا: فتح جزر البليار وضمها إلى أملاك المسلمين

من أهمّ الوسائل التي قام بها موسى بن نصير تمهيدًا لفتح الأندلس، وتأمينًا لظهره -كما عهدناه- قام بفتح جزر البليار -التي ذكرناها سابقًا- وضمِّها إلى أملاك المسلمين، وبهذا يكون قد أمَّن ظهره من جهة الشرق، وهذا العمل يدلّ على حُنكته وبراعته في التخطيط والقيادة، ومع هذا كلِّه فقد أُغفِل دورُه في التاريخ الإسلامي كثيرًا.

سرية طريف بن مالك

مشكلة سبتة

ميناء سبتة استطاع موسى بن نصير أن يتغلّب على قلّة عدد الجيش من خلال الأمازيغ (البربر) أنفسهم، وتغلّب -كذلك- على العقبة المتمثِّلة في قلّة السفن نسبيًّا ببناء موانٍ وصناعةِ سفنٍ جديدة، وبقيت أرض الأندلس -كما هي- أرضًا مجهولة له، وكذلك ظلّت مشكلة ميناء سبتة قائمة لم تُحَلّ بعدُ، وهو ميناء حصين جدًّا يحكمه النصراني يُليان، وقد استنفد موسى بن نصير جهده وطاقته، وفعل كل ما في وُسْعِه، ولم يجد حلاً لهاتين المشكلتين، وهنا تدخّل الأمر الإلهي والتدبير الرباني: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

وهذا ما حدث بالفعل وتجسّد في فعل يُليان صاحب سَبْتَة، وكان على النحو التالي:

- فكّر يُليان جدّيًا في الأمر من حوله، وكيف أن الأرض بدأت تــضيق عليه، وتتآكل من قِبَل المسلمين الذين يزدادون قوّة يومًــا بعــد يــوم، وتساءل: إلى متى سيظلُّ صامدًا أمامهم إن هم أتوا إليه؟

- ومن جانب آخر كان يُليان مع ذلك يحمل الحقد الدفين لـــ لُذريق حاكم الأندلس؛ ذلك الذي قتل صديقه غيطشَة ، وقد كان بين يُليان وغيطشَة علاقات طيبة؛ حتى إن أولاد غيطشَة من بعده استنجدوا بـــ يُليان هذا ليُساعدهم في حرب لُذريق، ولكن لم يكن لــ يُليان طاقة بلُذريق، كما لم يكن لأولاد غيطشَة -أيضًا- طاقة به، ومن هنا كان ثمة عداء دفين بين صاحب سَبْتَة وحاكم الأندلس؛ ومن ثَمَّ فإلى أين ســيفرُّ يُليــان إن استولى المسلمون على ميناء سَبْتَة؟!

- وتَذْكُر الكثيرُ من الروايات أن السبب الرئيس في توتُّر العلاقــة بــين يُليان حاكم سَبْتَة ولُذريق حاكم الأندلس، ما فعله الأخير بابنة يُليان؛ إذ إنه اغتصبها، فلمَّا أُخبر بذلك يُليان أقسم أن ينال منه، ولم يجد أمامـــه إلاّ أن يُساعد المسلمين ويُوَفِّر لهم بعض التسهيلات.

- والأمر الأخير الذي نتوقّع أنه دار في خَلَدِ يُليــان هــو أن ظــروف الأندلس الداخلية كلها كانت تصبُّ في مصلحة المسلمين؛ إنْ هم أرادوا فتح الأندلس، فكان يُليان على علم بأن لُذريق قد بالغ في ظلم شــعب الأندلس، وفَرَضَ عليهم الضرائب الباهظة؛ فعاشوا في فقــر وبــؤس شديدين؛ بينما هو في النعيم والمُلك؛ وهذا ما جعلهم يكرهونه ويتمنَّوْنَ الخلاص منه، كما أنه قد عاد إلى اضطهاد اليهود، وكان قد رُفع عنهم الاضطهاد أيام غيطشَة، فلمَّا جاء لُذريق أعاد العنف والقهر؛ لدرجــة أنهم أرسلوا وفدًا ليُقابل طارق بن زياد ويستحثّه على فتح الأندلس[٢]، هذا إلى جوار رغبة يُليان في استعادة ممتلكات وضِياع أولاد غيطشَة الكثيرة في الأندلس، والتي كان لُذريق قد صادرها.

عرض يليان

من تدبير ربِّ العالمين أن اختمرت هذه الأفكار جيدًا في عقل يُليـان، بينما كان موسى بن نصير -آنذاك- قد استنفد جهده وتحيَّر في أمـره -فـإذا بيُليان يُرسل إلى طارق بن زياد والي طَنْجَة (على بعد عدَّة كيلو مترات مـن ميناء سَبْتَة) برُسُلٍ من قِبَله يعرض عليه عرضًا للتفاوض، أمَّا تـدبير العنايـة الإلهية والمفاجأة الحقيقية فكانت في بنود هذا العرض وهذا الطلب العجيـب، الذي نصَّ على ما يلي:

١- نسلِّمك ميناء سَبْتَة. (وكانت تلك معضلة حَارَ المسلمون أعوامًـا فـي الاهتداء إلى حلٍّ لها؛ حيث كانت فوق مقدرتهم).

٢- نمدُّك بالمعلومات الكافية عن أرض الأندلس.

أمَّا المقابل فهو: ضيعات وأملاك غِيطشَة التي صادرها لُذريق، وكان لغيطشَة ثلاثة آلاف ضيعة، وكانت مِلكًا لأولاده مـن بعـده، فأخـذها مـنهم لُـذريق وصادرها.

ما أجمل العرض وأحسن الطلب!

بهذا العرض أراد يُليان صاحب سَبْتَة أن يتنازل للمسلمين عن سَـبْتَة، ويُساعدهم في الوصول إلى الأندلس، ثم حين يحكمها المسلمون يسمع يُليـان ويُطيع، على أن يردَّ المسلمون بعد ذلك ضيعات وأملاك غِيطشَة، فما أجمـل العرض! وما أحسن الطلب! وما أعظم السلعة! وما أهون الثمن!

إن المسلمين لم يُفكِّروا يومًا في مغنم أو ثروة أو مـالٍ حـالَ فـتحهم البلاد، ولم يرغبوا يومًا في دنيا يملكهـا غِيطـشَة أو يُليـان أو لُـذريق.. أو غيرهم؛ فقد كان هدفهم تعليم الناس الإسلام، وتعبيدهم لربِّ العباد ، فإذا دخـل الناس في الإسلام كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المـسلمين، ولـو لـم يدخلوا في الإسلام وأرادوا دفع الجزية فحينئذٍ يُترك لهم كل ما يملكون.

ومن هنا كان الثمن هيِّنًا جدًّا والعرض غاية الآمال، فبعث طارق بن زياد إلى موسى بن نصير -وكان في القيروان عاصمة الشمال الإفريقي آنذاك (وهي في تونس الآن)- يُخبره هذا الخبر، فسُرَّ سرورًا عظيمًا، ثم بعث موسى بن نصير بدوره إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يُطلعه -أيضًا- الخبر، ويستأذنه في فتح الأندلس، فكتب إليه الوليد: أن خُضْهَا بالسرايا؛ حتى تختبر شأنها، ولا تُغَرِّرْ بالمسلمين في بحرٍ شديد الأهوال. فراجعه: إنه ليس ببحر؛ وإنما هو خليج، يُتبيَّن للناظر ما وراءه. وهنا أَذِنَ له الوليد بن عبد الملك، إلاّ أنه شرط عليه شرطًا كان قد فكّر فيه قبل ذلك موسى بن نصير نفسُه، وهو: ألاّ يدخل بلاد الأندلس حتى يختبرها بسَرِيَّة من المسلمين، فما يُدريه أن المعلومات التي سيُقَدِّمها له يُليان عن الأندلس ستكون صحيحة؟! ومَنْ يضمن له ألاّ يخون يُليان عهده معه، أو يتّفق مِنْ ورائه مع لُذريق، أو مع غيره؟

سَرِيَّة طريف بن مالك

جزيرة طريفوصلت رسالة الإذن من الخليفة الوليد بن عبد الملك فجهَّز موسى بن نصير بالفعل سريةً من خمسمائة رجل، وجعل على رأسهم طَرِيف بن مالك، وكان طريف -أيضًا- من الأمازيغ (البربر).

سار طريف بن مالك -ويكنى أبا زرعة- من المغرب على رأس خمسمائة من المسلمين (أربعمائة راجل معهم مائة فارس) صوب الأندلس، واستقلّ أربعة مراكب فوصلها في رمضان عام ٩١هـ=٧١٠م)، وتَذْكُر بعض الروايات أن طريفًا قام بعدّة غارات وغنم غنائم كثيرة من أموال وأمتعة وأسرى أيضًا.

وقد قام طريف بن مالك / بمهمته على أكمل وجه في دراسته لمنطقة الأندلس الجنوبية، التي سينزل فيها الجيش الإسلامي بعد ذلك، (وقد عُرِفَت هذه الجزيرة فيما بعدُ باسم هذا القائد فسُمِّيَتْ جزيرة طريف)، ثم عاد بعد

انتهائه منها إلى موسى بن نصير وشرح له ما رآه، وفي أناةٍ شديدةٍ وعملٍ دءوبٍ ظلّ موسى بن نصير بعد عودة طريف بن مالك عامًا كاملاً يُجَهِّز الجيش ويُعِدُّ العُدَّة، حتى جَهَّزَ في هذه السنة سبعةَ آلافِ مقاتلٍ، وبدأ بهم الفتح الإسلامي للأندلس رغم الأعداد الضخمة لقواتِ النصارى هناك.

فتح الأندلس ومساعدة يُليان واليهود

شبهة مساعدة يليان

تكثر بعض الروايات العربية والأجنبية من ذِكْر يُليان حاكم سَبْتَة وتُقحمه في كل مرحلة من مراحل فتح المسلمين لبلاد الأندلس، وتُفيد بأن التفكير في فتح الأندلس لم يأتِ إلاّ بعد عرض يُليان المساعدة على المسلمين، أو طلبه المساعدة من المسلمين لإرجاع أولاد غِيطشَة إلى حكم الأندلس، والانتقام من لُذريق الذي نال من عِرْض ابنته.

وحقيقة الأمر أن الاتصال بين يُليان حاكم سَبْتَة وبين طارق بن زياد وموسى بن نصير جاء مواتيًا في الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير (والي إفريقية) يُفَكِّر في فتح الأندلس، وذلك بعد فتح طَنْجَة المشرفة على الأندلس، فمن الطبيعي جدًّا أن تكون الأندلس هي الخطوة الثانية التي يُفَكِّر فيها موسى بن نصير، ونحن لا ننفي الاتصال بين الجانبين الإسلامي والإسباني؛ ولكن لا نجعله السبب الرئيس لفكرة الفتح؛ لأنه يُقَلِّلُ من قيمة الفتح الإسلامي للبلاد؛ حيث يَدَّعِي البعض أن مساعدات يُليان وتسهيلاته لطارق هي التي ساعدت في نجاح الفتح، ولكننا لا نستبعد أن يكون ذلك عاملاً مساعدًا من عوامل نجاح عملية الفتح، ولا يُستبعد -كذلك- أن يكون يُليان قدَّم تسهيلات للمسلمين؛ خاصة فيما يتعلّق بأماكن البلاد وسبل مداخلها ومخارجها، أمّا أن يكون العامل الوحيد فهذا أمر تأباه الحقيقة التاريخية.

شبهة مساعدة اليهود

أمّا ما يتعلّق بمساعدة اليهود للمسلمين وتقديمهم التسهيلات اللازمة لإتمام عملية الفتح، فليس لها أساس من الصحّة لأسباب عدة؛ منها:

لا توجد أي إشارة في المصادر والمراجع العربية عن أي تسهيلات قدّمها اليهود للمسلمين؛ إذ لو كانت هناك مساعدة لذكرها المؤرخون للتاريخ الأندلسي وهم كثر، ولتناقلتها الرواة جيلاً بعد جيل؛ كما ذكروا مساعدة يُليان وتناقلوها.

ليس من الداعي أن نُقحم اليهود في عملية الفتح؛ خاصّة بعد أن علمنا أن فكرة الفتح نفسها فكرة إسلامية صميمة؛ قبل أن يْعرض يُليان أو أولاد غيطشَة أو اليهود المساعدة على المسلمين، فكان من حكمة القائد الفذِّ موسى بن نصير أن يستغلّ هذه الفرصة، خاصة وهم أدرى الناس بمداخل الأندلس ومخارجها.

المتتبِّع لسير عملية الفتح التي قام بها المسلمون للمدن الأندلسية، يتّضح له أن المسلمين لم يكونوا على علم بوجود أعداد كثيرة من اليهود في بلاد الأندلس، فصاحب (أخبار مجموعة) يقول عن فتح إِلْبِيرة: «فحَصَروا مدينتها فافْتُتِحَتْ، فألفَوا بها يومئذٍ يهودًا». ويقول لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) عن فتح طارق بن زياد لغَرْنَاطَة مدينة إِلْبِيرة: «فحاصروا مدينتها، وفتحوها عَنْوَة، وألفوا بها يهودًا ضمُّوهم إلى قَصَبَة غَرْنَاطَة، وصار لهم ذلك سُنَّة مُتَّبَعَة؛ متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودًا، يضمونهم إلى قصبتها، ويجعلون معهم طائفةً من المسلمين يسدونها».

وهذا ينفي وجود أي صلة لليهود بالفتح؛ إذ لو كان لهم صلة لَعَلِمَ المسلمون بأماكن تواجدهم بالأندلس، وصيغة «ألفوا» توحي بعدم المعرفة المسبقة للأمر، وكأنّ الأمر مفاجأة.

لا يُستَبْعَد أن يكون إقحام اليهود في عملية الفتح متعمَّدًا، ويكون الهدف من ذلك هو التقليل من عملية<a >الفتح الإسلامي العظيم، والنصر المؤزّر الذي حقّقه طارق بن زياد على القوط على الرغم من قلّة عدد المسلمين بالنسبة للجيش الأندلسي، الذي كان يفوقه أضعافًا.

طارق بن زياد والعبور إلى الأندلس

تحرّك طارق بن زياد

بعد عام من الحملة الاستطلاعية الناجحة التي قادها طريف بن مالك -رحمه الله، وبعد أن انتهى موسى بن نصير من وضع خطة الفتح، وفي شعبان من سنة ٩٢هـ= يونيه ٧١١م تحرّك هذا الجيش المكون من سبعة آلاف فقط من جنود الإسلام، وعلى رأسه القائد طارق بن زياد.

يقول ابن الكردبوس: «وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقًا مُكبًّا على الدعاء والبكاء والتضرُّع لله تعالى، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين...».

حملة طارق وسفن العبور

كثيرًا ما يتردّد في تاريخ الفتح الإسلامي للأندلس الحديث عن السفن التي استعملها الجيش الإسلامي في عبوره إلى الأندلس، وفي هذه السطور نُوَضِّح بعض الأمور المهمة عن حقيقة تلك السفن، ومدى نسبتها إلى يُليان حاكم سَبْتَة من خلال النقاط التالية:

- أتم المسلمون فتح بلاد شمال أفريقيا قبل فتح الأندلس بعقود طويلة، ومعلوم أن الشمال الإفريقي تطلُّ شواطئه على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وهذا يجعلهم يُفَكِّرُون في توفير السفن اللازمة لحمايتها من أي اعتداء بيزنطي؛ وهو متوقَّع لِمَا كان بين الدولة الإسلامية والبيزنطيين من عداء مستحكم؛ وهذا لا يجعلهم يتوجَّهُون إلى استعارة السفن، بل يجب أن تكون مملوكة لهم.

- سبق للمسلمين نشاط بحري حربي في الشمال الإفريقي؛ ففي عام ٤٦هـ وجَّه معاويةُ بن حُدَيْج عبدَ الله بنَ قيس لغزو صقلية، فكان أول مَنْ غزاها، وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان.

- كان اهتمام المسلمين واضحًا بصناعة السفن منذ وقت مبكِّر بعد فتح إفريقية، فأقاموا دارًا لصناعة السفن في تونس في عهد الحسان بن النعمان والي الشمال الإفريقي ٧٦-٨٦هـ.

- فُتِحَتْ طَنْجَة في ولاية عقبة بن نافع سنة ٦٣هـ، وهي ميناء صالح لصناعة السفن.

- استعمل طريف بن مالك أربعة سفن للعبور بسريته الخمسمائة، وهذه السفن هي التي استعملها طارق بن زياد لعبور سبعة آلاف مسلم من المضيق إلى الأندلس، ولم يُذكر اسم يُليان في هذا السياق، بل وتُصرِّح بعض الروايات بأن موسى بن نصير قد عمل من السفن عِدَّة؛ يقول المقري: «وكان موسى منذ وَجَّه طارقًا لوجهه قد أخذ في عمل السفن؛ حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددًا كملت بهم عدة مَنْ معه اثني عشر ألفًا؛ أقوياء على المغانم، حِرَاصًا على اللقاء، ومعهم يُليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله؛ يدلُّهم على العورات، ويتجسَّس لهم الأخبار». وتَذْكُر بعض الروايات أن السفن التي حملت الجيش الإسلامي إلى الأندلس هيَّأها له يُليان حاكم سَبْتَة، ويقول ابن عذاري في البيان المغرب: «فكان يُليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنُّون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل الناسَ فوجًا بعد فوج إلى الأندلس». فبناءً على هذه الروايات فالسفن ليست يُليان وإنما عاون في تأجيرها لمعرفته بها.

- القيام بعملية فتح بلادٍ مثل بلاد الأندلس لا يمكن أن يفي بحاجتها استعارة سفن؛ لا سيما وأن النشاط البحري مألوف عند المسلمين، وسبق التهيُّؤ لفتح الأندلس قبله بعدَّة سنوات، وامتلاك السفن وصناعتها أحد هذه الأسباب.

كل هذا يُؤَكِّد أن أكثر السفن التي استعملها المسلمون في فتح الأندلس كانت إسلامية الصنع، أنتجتها دار قريبة، أو جُلِبَتْ من دور أخرى بعيدة.

طارق بن زياد على أرض الأندلس

موقع جبل طارق والجزيرة الخضراء تحرَّك الجيش الإسلامي وعبر المضيق -الذي عُرِف فيما بعد باسم قائد هذا الجيش مضيق جبل طارق- من خلال السفن؛ وذلك لأن طارق بن زياد حين عبر المضيق نزل عند هذا الجبل، وقد ظلَّ إلى الآن -حتى في اللغة الإسبانية- يُسَمَّى جبل طارق ومضيق جبل طارق، ومن جبل طارق انتقل طارق بن زياد إلى منطقة واسعة تُسَمَّى الجزيرة الخضراء، وهناك قابل الجيش الجنوبي للأندلس، وهو حامية جيش النصارى في هذه المنطقة؛ فلم تكن قوَّة كبيرة.

وكعادة الفاتحين المسلمين فقد عرض طارق بن زياد عليهم الدخول في الإسلام، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويتركهم وأملاكهم، أو يدفعون الجزية ويترك لهم -أيضًا- ما في أيديهم، أو القتال، ولا يُؤَخِّرهم إلاَّ ثلاثًا، لكن تلك الحامية أخذتها العزَّة وأبت إلاَّ القتال؛ فكانت الحرب سجالاً بين الفريقين؛ حتى انتصر عليهم طارق بن زياد، فأرسل زعيمُ تلك الحامية وكان اسمه تُدْمير رسالة عاجلة إلى لُذريق -وكان في طُلَيْطِلَة عاصمة الأندلس آنذاك- يقول له فيها: أدْرِكْنا يا لُذريق؛ فإنه قد نزل علينا قوم لا ندري أهُمْ من أهل الأرض أم من أهل السماء؟! قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتُهم فلتنهض إليَّ بنفسك.

لقد كان المسلمون فعلاً أناسًا غرباء -بالنسبة لهم- فالذي عندهم أن الفاتح أو المحتلّ لبلد آخر إنما تقتصر مهمته على السلب والنهب لخيرات البلد، والذبحِ والقتلِ في كثير من الأحيان؛ أمّا أن يجدوا أناسًا يعرضون عليهم الدخول في دينهم ويتركون لهم كل شيء، أو أن يدفعوا لهم الجزية ويتركون لهم -أيضًا- كل شيء؛ بل ويحمونهم من الأعداء، فهذا ما لم يعهدوه من قبلُ في حياتهم؛ بل ولا في تاريخهم كله، وفضلاً عن هذا فقد كانوا في قتالهم من المهرة الأكْفَاء، وفي ليلهم من الرهبان المُصلّين، وقد أبدى قائد تلك الحامية دهشته وعجبه الشديد من أمر هؤلاء المسلمين؛ وتساءل في رسالته إلى لُذريق عن شأنهم: أهُم من أهل الأرض، أم من أهل السماء؟! وصدق؛ فهم من جند الله ومن حزبه: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أولى الانتصارات في الأندلس
معركة شذونة.. وادي لكة.. وادي برباط

لما وصلت أنباء تَقَدُّم طارق بن زياد إلى لُذريق -وكان في الشمال- لم يتهيَّب الموقف للمرَّة الأولى؛ لاعتقاده أن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات النهب، لن تلبث أن تتلاشى، ولكن حين وصلته أنباءُ تَقَدُّمِ المسلمين ناحية قُرْطُبَة، أسرع إلى طُلَيْطلَة وحشد حشوده، وأرسل قوّة عسكرية بقيادة ابن أخته بنشيو -وكان أكبر رجاله- للتصدّي لهم، ووقع القتال بالقرب من الجزيرة الخضراء، فكانوا عند كل لقاء يُهْزَمون، وقُتِلَ قائدهم بنشيو، وفرَّ مَنْ نَجَا من جنوده في اتجاه الشمال؛ ليُخبروا لُذريق بما جرى، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب.

معركة وادي برباط ٩٢هـ-٧١١م وفتح الأندلس وتسمى كذلك معركة شذونة ووادي لكة

حين وصلت رسالة الفارّين المنهزمين إلى لُذريق وقعت عليه وَقْعَ الصاعقة؛ فجُنَّ جنونُه، وفي غرورٍ وصلفٍ جمع جيشًا قِوَامه مائةُ ألف من الفرسان ، وجاء بهم من الشمال إلى الجنوب يقصد جيشَ المسلمين، وكان طارق بن زياد في سبعة آلاف فقط من المسلمين جُلُّهم من الرَّجَّالة، وعددٍ محدود جدًّا من الخيل، فلمَّا أبصر أمرَ لُذريق وجد صعوبة بالغة في المواجهة، سبعة آلاف أمام مائة ألف؛ فأرسل إلى موسى بن نصير يستنجده ويطلب منه المدد، فبعث إليه طريف بن مالك على رأس خمسة آلاف آخرين من الرجَّالة -أيضًا- تحملهم السفن.

وصل طريف بن مالك إلى طارق بن زياد وأصبح عدد الجيش الإسلامي اثني عشر ألف مقاتل، وبدأ طارق بن زياد يستعدُّ للمعركة؛ فكان أول ما صنع أن بحث عن أرض تصلح للقتال، حتى وجد منطقة تُسمَّى وادي بَرْبَاط، وتُسَمِّيها بعض المصادر أيضًا وادي لُكّة وكذلك معركة شذونة، وكان لاختيار طارق بن زياد لهذا المكان أبعاد إستراتيجية وعسكرية مهمة؛ فقد كان مِن خلفه وعن يمينه جبل شاهق، وبه حَمَى ظهرَهُ وميمنته؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يلتفَّ حوله، وكان في ميسرته -أيضًا- بحيرة فهي ناحية آمنة تمامًا، ثم وضع على المدخل الجنوبي لهذا الوادي أي في ظهره فرقة قوية بقيادة طريف بن مالك؛ حتى لا يُباغت أحدٌ ظهرَ المسلمين؛ ومن ثَمَّ يستطيع أن يستدرج قوات النصارى من الناحية الأمامية إلى هذه المنطقة، ولا يستطيع أحدٌ أن يلتفَّ من حوله.

ومن بعيد جاء لُذريق في أبهى زينة؛ يلبس التاج الذهبي والثياب الموشّاة بالذهب، وقد جلس على سرير محلّى بالذهب يجرُّه بغلان، فهو لم يستطع أن يتخلّى عن دنياه؛ حتى وهو في لحظات الحرب والقتال، وقَدِمَ على رأس مائة ألف من الفرسان، وجاء معه بحبالٍ محمّلةٍ على بغالٍ! ولا تتعجَّب

كثيرًا؛ إذا علمت أنه أتى بهذه الحبال ليُقَيِّد بها أيدي المسلمين وأرجلهم بعد هزيمتهم المحقّقة -في زعمه- ثم يأخذهم عبيدًا، وهكذا في صلف وغرور ظنَّ أنه حسم المعركة لصالحه؛ ففي منطقه وبقياسه أنَّ اثني عشر ألفًا يحتاجون إلى الشفقة والرحمة؛ وهم أمام مائة ألف من أصحاب الأرض.

وفي ٢٨ من شهر رمضان سنة ٩٢هـ= ١٩ من يوليو سنة ٧١١م بوادي بَرْبَاط دارت معركة هي من أشرس المعارك في تاريخ المسلمين، وإن الناظر العادي إلى طرفي المعركة ليدخُلُ في قلبه الشفقة -حقًا- على المسلمين؛ الذين لا يتعدَّى عددهم الاثني عشر ألفًا، وهم يُواجهون مائة ألف كاملة، فبمنطق العقل: كيف يُقاتِلُون؟ هذا فضلاً عن أن ينتصروا.

بين الفريقين

معركة شذونة, وادي لكة, وادي برباطرغم المفارقة الواضحة بين الفريقين إلاّ أنَّ الناظر المحلِّل يرى أن الشفقة كل الشفقة على المائة ألف، فالطرفان ﴿خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] ؛ وشتّان بين الخصمين! شتان بين فريق خرج طائعًا مختارًا، راغبًا في الجهاد، وبين فريق خرج مُكرهًا مضطرًا مُجبرًا على القتال! شتان بين فريق خرج مستعدًا للاستشهاد، مسترخصًا الحياة من أجل عقيدته، متعاليًا على كل روابط الأرض ومنافع الدنيا، أسمى أمانيه الموتُ في سبيل الله، وبين فريق لا يعرف من هذه المعاني شيئًا، أسمى أمانيه العودة إلى الأهل والمال والولد! شتان بين فريق يقف فيه الجميع صفًا واحدًا كصفوف الصلاة؛ الغنيُّ بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير، والحاكم بجوار المحكوم، وبين فريق يمتلك فيه الناس بعضهم بعضًا ويستعبد بعضهم بعضًا!

فهذا فريق يقوده رجل رباني -طارق بن زياد- يجمع بين التقوى والكفاءة، وبين الرحمة والقوَّة، وبين العزَّة والتواضع، وذاك فريق يقوده متسلِّط مغرور، يعيش مترفًا مُنعَّمًا، بينما شعبه يعيش في بؤس وشقاء، وقد

ألهب ظهره بالسياط! هذا جيش تُوَزّع عليه أربعةُ أخماس الغنائم بعد الانتصار، وذاك جيش لا ينال شيئًا، وإنما يذهب كله إلى الحاكم المتسلط المغرور؛ وكأنما حارب وحده! هذا فريق ينصره ويُؤيّده الله ربُّه؛ خالق الكون ومالك الملك، وذاك فريق يُحارب الله ربَّه ويتطاول على قانونه وعلى شرعه! وبإيجاز فهذا فريق الآخرة وذاك فريق الدنيا، فعلى مَنْ تكون الشفقة إذًا؟! على مَنْ تكون الشفقة وقد قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]؟! على مَنْ تكون الشفقة وقد قال: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؟! فالمعركة إذًا باتت وكأنها محسومة قبلاً.

وادي برباط وشهر رمضان

هكذا وفي شهر رمضان بدأت معركة وادي بَرْبَاط -أو وادي لكة أو معركة شذونة- غير المتكافئة ظاهريًّا، والمحسومة بالمنطق الرباني، بدأت في شهر الصيام والقرآن، الشهر الذي ارتبط اسمه بالمعارك والفتوحات والانتصارات، وعلى مدى ثمانية أيام متصلة دارت رحى الحرب، وبدأ القتال الضاري الشرس بين المسلمين والنصارى، أمواج من النصارى تنهمر على المسلمين، والمسلمون صابرون صامدون؛ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وعلى هذه الحال ظلّ الوضع طيلة ثمانية أيّام متّصلة انتهت بنصر مؤزّر للمسلمين؛ بعد أن علِمَ اللهُ صبرهم وصِدْق إيمانهم، لقد سطر المسلمون بقيادة طارق بن زياد ملحمة من ملاحم الجهاد التي لم تشهدها بلاد المغرب والأندلس من قبلُ؛ ثمانية أيام تتلاطم فيها السيوف وتتساقط فيها أشلاء القتلى والشهداء، لقد قاتل الجيش القوطي قتالاً شديدًا يُعَبِّر عن شدّة بأس وقوّة شكيمة؛ ولكن هيهات أن تصمد تلك القوّة أمام صلابة الإيمان وقوة العقيدة التي يتحلّى بها الجيش المسلم؛ واثقًا بربه متيقِنًا النصر! ويصف ابن عذاري جيش

المسلمين وهم في هذا الجوِّ المتلاطم في المعركة فيقول: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجَّالة، ليس فيهم راكب إلاّ القليل؛ فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى ظنّوا أنه الفناء».

وفي نفح الطيب يقول المقري: كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتّصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هَزَمَ الله المشركين؛ فقُتِلَ منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم -بعد ذلك بدهر طويل- ملبسة لتلك الأرض. وأمّا لُذريق فقيل: إنه قُتِلَ. وفي رواية: إنه فرَّ إلى الشمال. لكنَّ ذِكْره اختفى إلى الأبد.

والحقيقة التي أثبتتها هذه المعركة -وغيرها من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي- أن المسلمين لا ينتصرون إلاّ بقوتهم الإيمانية؛ إن هذا الفتح يعود إلى قوّة المسلمين بتمكّن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم، إن تفوّق المسلمين مستمدٌّ دومًا من إيمانهم بعقيدتهم؛ وليس من سوء أحوال الآخرين، كما أن الإسلام ينبع تفوّقه وسبقه من ذاتيّته القوية وعقيدته النقية وتشريعه المكين؛ لأنه من وحي الله تعالى.

نتائج معركة وادي برباط

تمخّضَت عن هذه المعركة عدّة نتائج؛ كان أهمها:

١- طوت الأندلس صفحة من صفحات الظلم والجهل والاستبداد، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الرقيِّ والتحضُّرِ.

٢- غنم المسلمون غنائم عظيمة؛ كان أهمها الخيول، فأصبحوا خيَّالة بعد أن كانوا رجَّالة.

٣- بدأ المسلمون المعركة وعددهم اثنا عشر ألفًا، وانتهت المعركة وعددهم تسعةُ آلاف؛ فكانت الحصيلة ثلاثة آلاف من الشهداء رَوَوْا

بدمائهم الغالية أرض الأندلس، فأوصلوا هذا الدين إلى الناس، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا.

خطبة طارق بن زياد

أورد ابن خلكان في وفيات الأعيان والمقري التلمساني في نفح الطيب أنه لما اقترب جيش لُذريق من الجيش الإسلامي، قام طارق بن زياد في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه، ثم قال: «أيها الناس؛ أين المفرّ؟! والبحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، فليس لكم والله! إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلتُم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوبُ من رعبها منكم الجراءةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقته إليكم مدينتُه المحصّنة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت. وإني لم أُحَذِّركم أمرًا أنا عنه بنَجْوَة، ولا حملتُكم على خُطّة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ إلاّ وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً؛ استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حَظّكم فيه أوفر من حَظّي، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحورِ الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدُّرِّ والمَرْجَان، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيَان[٥]، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عُرْبانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا؛ ثقةً منه بارتياحكم للطِّعَان، واستماحِكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حَظّه معكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكوْن مغنمها خالصًا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذِكْرًا في الدارين. واعلموا أنّي أول مجيب إلى ما دعوتُكم إليه، وأنّي

عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لُذَرِيق فقاتلُه -إن شاء الله تعالى- فاحملوا معي، فإنْ هلكتُ بعده فقد كَفَيْتُكم أمره، ولن يُعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذلون»

ولنا وقفات مع هذه الخطبة

١- لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر القرن الأول الهجري، وغير متوقّع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.

٢- ذكر في الخطبة: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانًا». والذي انتخبهم القائد موسى بن نصير والي إفريقية وليس الوليد.

٣- كان المتوقّع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن وأحاديث الرسول الأمين ، أو وصايا وأحداثٍ ومعانٍ إسلامية تُناسب المقام كالمعهود.

٤- إن طارقًا -وأكثر الجيش- من الأمازيغ البربر؛ مما يجعل من المناسب أن يخاطبهم بلغتهم؛ إذ ليس من المتوقّع أن تكون لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوًى عالٍ.

مسألة حرق السفن

طارق بن زياد وحرق السفنقبل الانتقال إلى ما بعد وادي بَرْبَاط، لا بدَّ لنا من وقفةٍ أخرى؛ أمام قضية اشتهرت وذاع صيتها كثيرًا في التاريخ الإسلامي بصفةٍ عامّةٍ، والتاريخ الأوربي بصفةٍ خاصةٍ، وهي قضية حرق طارق بن زياد للسفن التي عَبَر بها إلى بلاد الأندلس قبل موقعة وادي بَرْبَاط مباشرة.

فما حقيقة ما يُقال من أن طارق بن زياد أحرق كل السفن التي عبر عليها؟ وذلك حتى يُحَمِّس الجيش على القتال، وقد قال لهم: البحر من ورائكم والعدوُّ من أمامكم، فليسَ لكم نجاة إلاّ في السيوف.

في حقيقة الأمر هناك من المؤرخين مَنْ يُؤَكِّد صحَّة هذه الرواية، ومنهم مَنْ يُؤَكِّد بطلانها، ونحن مع مَنْ يرى أنها من الروايات الباطلة؛ وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أن هذه الرواية ليس لها سند صحيح في التاريخ الإسلامي؛ فعِلْمُ الرجال وعِلْمُ الجرح والتعديل الذي تميَّز بهما المسلمون عن غيرهم يُحيلاننا إلى أن الرواية الصحيحة لا بُدَّ من أن تكون عن طريق أناس موثوق بهم، وهذه الرواية لم تَرِدْ قطُّ في روايات المسلمين الموثوق بتأريخهم، وإنما أتت إلينا من خلال المصادر والروايات الأوربية التي كتبت عن معركة وادي بَرْبَاط.

ثانيًا: أنه لو حدث وأحرق طارق هذه السفن بالفعل لتطلّب ذلك ردَّ فعل من قِبَل موسى بن نصير أو الوليد بن عبد الملك استفسارًا عن هذه الواقعة، أو حوارًا بين موسى بن نصير وطارق بن زياد حول هذه القضية، أو تعليقًا من علماء المسلمين عن جواز هذا الفعل من عدمه، وكل المصادر التاريخية التي أوردت هذه الرواية وغيرها لم تذكر على الإطلاق أي ردِّ فعل من هذا القبيل؛ مما يُعطي شكًّا كبيرًا في حدوث مثل هذا الإحراق.

ثالثًا: أن المصادر الأوربية قد أشاعت هذا الأمر؛ لأن الأوربيين لم يستطيعوا أن يُفَسِّروا كيف انتصر اثنا عشر ألفًا من المسلمين الرجَّالة على مائة ألف فارس من القوط النصارى في بلادهم وفي عقر دارهم، وفي أرض عرفوها وألِفوها؟! ففي بحثهم عن تفسيرٍ مقنعٍ لهذا الانتصار الغريب قالوا: إن طارق بن زياد قام بإحراق السفن لكي يضع المسلمين أمام أحد أمرين: الغرق في البحر من ورائهم، أو الهلاك المحدق من قِبَل النصارى من أمامهم، وكلا الأمرين موت محقّقٌ؛ ومن ثَمَّ فالحلُّ الوحيد لهذه المعادلة الصعبة هو الاستماتة

في القتال؛ للهروب من الموت المحيط بهم من كل جانب؛ فكانت النتيجة الطبيعية الانتصار، ولو كانوا يملكون العودة لكانوا قد ركبوا سفنهم وانسحبوا عائدين إلى بلادهم.

وهكذا فسَّر الأوربيون النصارى السرَّ الأعظم -في زعمهم- في انتصار المسلمين في وادي بَرْبَاط، وهم معذورون في ذلك؛ إذ لم يفقهوا القاعدة الإسلامية المشهورة والمسجّلة في كتاب الله U والتي تقول: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالناظر في صفحات التاريخ الإسلامي يجد أن الأصل هو أن ينتصر المسلمون وهم قلّة على أعدائهم الكثيرين؛ بل ومن العجيب أنه إذا زاد المسلمون على أعدائهم في العدد، واغترُّوا بتلك الزيادة أن تكون النتيجة هي الهزيمة للمسلمين، وهذا هو ما حدث يوم حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

ومن هنا فقد حاول الأوربيون -عن جهلٍ منهم وسوء طوية- أن يضعوا هذا التفسير وتلك الحُجَّة الواهية؛ حتى يُثبِتُوا أن النصارى لم يُهزَمُوا في ظروفٍ متكافئة، وأن المسلمين لم ينتصروا إلاَّ لظروف خاصة جدًّا.

رابعًا: متى كان المسلمون يحتاجون إلى مثل تلك الحماسة التي تُحرق فيها سفنُهم؟! وماذا كانوا يفعلون في مثل هذه المواقف -وهي كثيرة- والتي لم يكن هناك سفن ولا بحر؟! فالمسلمون إنما جاءوا إلى هذه البلاد راغبين في الجهاد، طالبين الموت في سبيل الله؛ ومن ثَمَّ فلا حاجة لهم بقائد يُحَمِّسُهم بحرق سفنهم، وإنْ كان هذا يُعَدُّ جائزًا في حقِّ غيرهم.

خامسًا: ليس من المعقول أن قائدًا محنّكًا مثل طارق بن زياد -رحمه الله- يُقدِمُ على إحراق سفنه، وقطع خطِّ الرجعة على جيشه، فماذا لو انهزم

المسلمون في هذه المعركة، وهو أمر وارد وطبيعي جدًّا؟ ألم يكن من الممكن أن تحدث الكرّة على المسلمين؛ خاصة وهم يعلمون قول الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

[الأنفال: ١٥- ١٦].

فهناك إذًا احتمال أن ينسحب المسلمون من ميدان المعركة؛ وذلك إمّا متحرِّفين لقتال جديد، وإمّا تحيُّزًا إلى فئة المسلمين، وقد كانت فئة المسلمين في المغرب في الشمال الإفريقي؛ فكيف إذًا يقطع طارق بن زياد على نفسه التحرُّف والاستعداد إلى قتال جديد، أو يقطع على نفسه طريق الانحياز إلى فئة المسلمين؟! ومن هنا فإنّ مسألة حرق السفن هذه تُعَدُّ تجاوزًا شرعيًّا كبيرًا، لا يُقدِم عليه مثل طارق بن زياد -رحمه الله، وما كان علماء المسلمين وحُكّامهم ليقفوا مكتوفي الأيدي حيال هذا الفعل إن كان قد حدث.

سادسًا: وهو الأخير في الردِّ على هذه الرواية أن طارق بن زياد كان لا يملك كل السفن التي كانت تحت يديه؛ فبعضها -كما ذكرتْ بعضُ الروايات- أن يُليان صاحب سَبْتَة قد أعطاها له بأجرةٍ ليعبر عليها ثم يُعيدها إليه بعد ذلك؛ فيعبر بها يُليان إلى الأندلس -كما أوضحنا سابقًا- ومن ثَمَّ فلم يكن من حقِّ طارق بن زياد إحراق هذه السفن.

لكل هذه الأمور نقول: إن قصة حرق السفن هذه قصة مختَلَقة، وما أشيعت إلاّ لتُهَوِّن من فتح الأندلس وانتصار المسلمين.

طارق بن زياد يتوغل في بلاد الأندلس

بعد النصر الكبير الذي أحرزه المسلمون في وادي بَرْبَاط، تدفّق الناس من المغرب والشمال الإفريقي إلى جيش طارق ، فتضخّم جيش طارق إلى حدٍّ يصعب تقديره ، فوجد طارق بن زياد أن هذا الوقت هو أفضل الفرص

لاستكمال الفتح وإمكان تحقيقه بأقل الخسائر؛ وذلك لِمَا كان يراه من الأسباب الآتية:

١- النتيجة الحتمية لانتصار اثني عشر ألفًا على مائة ألف؛ وهي الروح المعنوية العالية لدى جيش المسلمين.

٢- ازدياد عدد الجيش المسلم بما انضمَّ إليه من المتطوعين في المغرب والشمال الإفريقي.

٣- ما أصاب القوط النصارى من فقدان الثقة، التي تجسَّدت في انعدام الروح المعنوية.

٤- وإضافة إلى انعدام الروح المعنوية فقد قُتل من القوط النصارى وتفرَّق منهم الكثير؛ فأصبحت قوتهم من الضعف والهوان بمكانٍ.

٥- وجد طارق بن زياد أن انتهاء لُذَريق المستبدّ -قُتِلَ أو فرَّ هاربًا- عن الناس والتأثير فيهم فرصة كبيرة لأن يُعلِّم الناسَ دين الله ؛ ومن ثَمَّ فهم أقرب إلى قبوله والدخول فيه.

٦- لم يضمن طارق بن زياد أن يظلّ يُليان صاحب سَبْتَة على عهده معه مستقبلاً؛ ولذلك فعليه أن يستفيد من هذه الفرصة ويدخل بلاد الأندلس مستكملاً الفتح.

لهذه الأسباب أخذ طارق بن زياد جيشه بعد انتهاء المعركة مباشرة واتّجه شمالاً؛ لفتح بقيّة بلاد الأندلس، قاصدًا طُلَيْطلَة عاصمة القوط، التي كانت تُحضِّر لاختيار قائد جديد بعد اختفاء لُذريق، وفيها جرى التنافس بين أتباع لذريق وبين أتباع غِيطشة.

الجزية في الإسلام

ا بُدّ هنا -قبل استكمال مسيرة الفتح- من وقفة مع طبيعة الجزية في الإسلام؛ لبيان حقيقتها وما يُثار حولها من شبهات، فلم يكن المسلمون بدعًا بين الأمم حين أخذوا الجزية من البلاد التي فتحوها ودخلت تحت ولايتهم؛ فإنّ أَخْذَ الأمم الغالبة للجزية من الأمم المغلوبة أمرٌ حدث كثيرًا ويشهد به التاريخ، ورغم ذلك فقد كثر الكلام حول أمر الجزية في الإسلام، وحول دعوة القرآن لأخذها من أهل الكتاب؛ حتى رأى البعض أن الجزية هذه ما هي إلاّ صورة من صور الظلم والقهر، والإذلال للشعوب التي دخلت تحت ولاية المسلمين، وفي هذا إجحاف كبير ومغايرة للحقيقة، نحن بصدد الكشف عنها وبيانها فيما يلي:

أولا: تعريف الجزية

الجزية في اللغة مشتقة من مادة ج ز ي بمعنى جَزاهُ بما صنع؛ تقول العرب: جزى يجزي، إذا كافأ عما أُسدي إليه، والجزية مشتقة من المجازاة على وزن فِعلة؛ بمعنى: أنهم أَعطَوْها جزاءَ ما مُنِحوا من الأمن.

وهي في الاصطلاح تعني: ضريبة يدفعها أهلُ الكتاب بصفة عامة - ويدفعها المجوس في آراء أغلب الفقهاء، والمشركون في رأي بعضهم- نظير أن يُدافع عنهم المسلمون، وإن فشل المسلمون في الدفاع عنهم تُرَدّ إليهم جزيتُهم، وقد تكرّر هذا في التاريخ الإسلامي كثيرًا.

ثانيًا: على مَنْ تفرض الجزية؟

من رحمة الإسلام وعدله أن خصّ بالجزية طائفةً ومنع أخذها من آخرين؛ فهي:

- تؤخذ من الرجال ولا تؤخذ من النساء.
- تؤخذ من الكبار البالغين ولا تؤخذ من الأطفال.

- تؤخذ من الأصحاء ولا تؤخذ من المرضى وأصحاب العاهات غير القادرين على القتال.
- تؤخذ من الغني ولا تؤخذ من الفقير؛ بل إن الفقراء من أهل الكتاب النصارى واليهود والمجوس والمشركين قد يأخذون من بيت مال المسلمين؛ إن كانوا في بلد يُحكَم فيها بالإسلام.

أي أنها تُؤْخَذ من القادرين الذين يستطيعون القتال فقط، ولا تؤخذ حتى من القادرين الذين تفرَّغوا للعبادة.

ثالثا: قيمة الجزية

فليُلاحظ كلُّ مَنْ يطعن في أمر الجزية ويقول: إنها صورة من صور الظلم والقهر والإذلال للشعوب. خاصَّة حين يعلم أنها تُدفَع في مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون؛ وله أن يعلم -أيضًا- أن قيمة الجزية هذه أقلُّ بكثير من قيمة ما يدفعه المسلمون في الزكاة؟!

في هذا الوقت الذي دخل فيه المسلمون الأندلس كانت قيمة ما يدفعه الفرد ممن تنطبق عليه الشروط السابقة من الجزية للمسلمين دينارًا واحدًا في السنة؛ بينما كان المسلم يدفع ٢,٥٪ من إجمالي ماله إن كان قد بلغ النصاب وحال عليه الحول، وفي حالة إسلام الذمِّيِّ تسقط عنه الجزية، وإذا شارك مع المسلمين في القتال دفعوا له أجره، فالمبالغ التي كان يدفعها المسلمون في الزكاة كانت أضعاف ما كان يدفعه أهل الكتاب وغيرهم في الجزية -تلك الزكاة التي هي نفسها أقل من أي ضريبة في العالم- فهناك مَنْ يدفع ١٠ و٢٠٪ ضرائب، بل هناك مَنْ يدفع ٥٠ وأحيانًا ٧٠٪ ضرائب على ماله؛ بينما في الإسلام لا تتعدَّى الزكاة ٢,٥٪؛ فالجزية كانت أقلَّ من الزكاة المفروضة على المسلمين؛ وهي بهذا تُعَدُّ أقلَّ ضريبة في العالم، بل كانت أقلَّ بكثير مما كان يفرضه أصحاب الحُكْم أنفسُهم على شعوبهم وأبناء جِلْدَتهم.

وفوق ذلك فقد أمر الرسول ألاّ يُكَلّف أهلُ الكتاب فوق طاقاتهم، بل تَوَعّد مَنْ يظلمهم أو يُؤذيهم؛ فقال: «ألاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أي: أنا الذي أخاصمه وأحاجُّه يوم القيامة.

فتوحات طارق بن زياد في الأندلس

انطلق طارق بن زياد بجيشه الرئيسي نحو طُلَيْطلَة، ووزع باقي الجيش -الذي كثر عدده- في سرايا إلى أنحاء الجزيرة المختلفة؛ توجّه طارق بن زياد إلى مدينة إِسْتِجَة Ecija وهي -أيضًا- من مدن الجنوب، وكانت فلول القوط قد تجمّعت بها واستعدّت لمعركة أخرى مع المسلمين، ففتح في الطريق شَذُونَة ثم مورور، ثم في إِسْتِجَة قاتل المسلمون قتالاً عنيفًا، لكنه -بلا شَكٍّ- أقلُّ مما كان في وادي بَرْبَاط؛ فقد فَقَدَ النصارى معظم قوتهم في موقعة وادي بَرْبَاط، وقبل أن ينتصر المسلمون في أواخر المعركة فتح النصارى أبوابهم وصالحهم طارق على الجزية.

وثمة فارق كبير جدًّا بين أن يُصالح النصارى على الجزية، وبين أن يفتح المسلمون المدينة فتحًا؛ لأنه لو فتح المسلمون هذه المدينة فتحًا أي: بالقتال لكان لهم أن يأخذوا كل ما فيها، أمّا إنْ صالح النصارى على الجزية؛ فإنهم يظلّون يملكون ما يملكون ولا يدفعون إلاّ الجزية، التي كانت تُقَدَّر آنذاك بدينارٍ واحد في العام.

من إِسْتِجَة وبجيش لا يتعدّى تسعة آلاف رجل بدأ طارق بن زياد بإرسال السرايا لفتح المدن الجنوبية الأخرى[٢]، وانطلق هو بقوّة الجيش الرئيسة في اتجاه الشمال؛ حتى يصل إلى طُلَيْطلَة عاصمة الأندلس آنذاك، فقد بعث بسرية إلى قُرْطُبَة، وسرية إلى غَرْنَاطَة، وسرية إلى مَالَقَة، وسرية إلى مُرْسِيَة، وهذه كلها من مدن الجنوب المنتشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والمطلّة على مضيق جبل طارق، وكان عدد الرجال في هذه السرايا

لا يزيد على سبعمائة رجل، ومع ذلك فقد فُتحت قُرْطُبَة على قوتها وعظمتها بسرية من تلك التي لا تتعدّى سبعمائة رجل؛ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، كذلك كانت الحملات الأخرى التي أرسلها إلى غَرْنَاطَة وإِلْبيرة ومَالَقَة تفتح البلاد والمدن، وفتحت مُرْسِيَة وقاعدتها أوريولة صلحًا

طارق بن زياد على أعتاب طليطلة

وطُلَيْطِلَة مدينة قديمة من مدن إسبانيا تقع في وسط شبه جزيرة أيبريا على مسافة ٩١ كيلو مترًا جنوب غرب مدريد –العاصمة الإسبانية الحالية– ويُحيط بها نهر التاجو من جهات ثلاث في وادٍ عميق يسقي مساحات شاسعة من أراضيها.

وكان موسى بن نصير –رحمه الله– الذي اتّسم بالحكمة والأناة– قد أوصى طارق بن زياد ألاّ يتجاوز مدينة جَيَّان أو لا يتجاوز مدينة قُرْطُبَة، وأمره ألاّ يُسرع في الفتح في طريقه إلى العاصمة طُلَيْطِلَة حتى لا يحوطه جيش النصارى.

لكن طارق بن زياد وجد أن الطريق إلى طُلَيْطِلَة مفتوحٌ أمامه، وليس فيه صعوبات تُذْكَر؛ فاجتهد رأيه، وعلى خلاف رأي الأمير موسى بن نصير وجد أن هذا هو الوقت المناسب لفتح طُلَيْطِلَة العاصمة، التي تُعدُّ أحصن مدن النصارى على الإطلاق؛ فهي محاطة بجبال من جهة الشمال والشرق والغرب، أمَّا الجهة الجنوبية –وهي الجهة المفتوحة– فقد كان عليها حصن كبير جدًّا، فرأى أنه إن هاجمها في هذه الفترة التي يُصيب النصارى فيها الضعف الشديد، فلن يستطيعوا معه مقاومة جيش المسلمين ويتمكّن من فتحها، وهذا ما قد يتعذّر بعد ذلك فلا يستطيع فتحها، وثبتت براعة طارق فقد فتحت المدينةُ أبوابها له، ودخلها دون قتال على قلّة ما معه، وانعدام المدد من خلفه.

ثم لم يكتفِ طارق بفتح العاصمة، بل واصل الزحف شمالاً، فاخترق قشتالة وليون وطارد فلول القوط حتى أسترقة، فلجئوا إلى آخر الشمال الغربي

عند جبال جيليقية الشامخة، وعبر طارق جبال أشتوريش استوريياس حتى وصل إلى خليج غسقونية بسكونية على المحيط الأطلسي، فكانت هذه نهاية فتوحاته.

موسى بن نصير يأتي بالمدد

تَقَدُّمُ طارق بن زياد بهذه السرعة في بلاد الأندلس لم يَنَلْ قَبُولاً لدى موسى بن نصير؛ إذ وجد فيه تهوُّرًا كبيرًا لا يُؤْمَن عواقبه، وكان قد عُرِفَ عن موسى بن نصير الأناةُ والحكمةُ والصبرُ في كل فتوحاته في شمال إفريقيا حتى وصوله إلى المغرب؛ ومن ثَمَّ فقد بعث برسالة شديدة اللهجة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالكفِّ عن الفتح، والانتظار حتى يصل إليه؛ وذلك خشية أن تلتفَّ حوله الجيوش النصرانية.

وفي أثناء ذلك بدأ موسى بن نصير يُعِدُّ العُدَّة لإمداد طارق بن زياد بعد أن انطلق إلى هذه الأماكن البعيدة الغائرة في وسط الأندلس، فجَهَّز من المسلمين ثمانية عشر ألفًا.

من أين جاءوا؟

إن المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها قد انهمروا على أرض الأندلس حين علموا أن فيها جهادًا، فقد كان جُلُّ الاثني عشر ألف مسلم الذين فتحوا الأندلس مع طارق بن زياد من الأمازيغ البربر، أمَّا هؤلاء الثمانية عشر ألفًا فهم من العرب الذين جاءوا من اليمن والشام والعراق، اجتازوا كل هذه المسافة البعيدة حتى وصلوا إلى بلاد المغرب، ثم عبروا مع موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس نصرةً ومددًا لطارق بن زياد.

طارق بن زياد وموسى بن نصير

فتوحات موسى بن نصير

طارق بن زياد وموسى بن نصير, لقاء الأبطالكان موسى بن نصير قائدًا محنّكًا، له نظرة واعية وبُعْدُ نظرٍ ثاقب، ولم يكن يومًا كما يَدَّعِي أناس أنه عطّل طارق بن زياد عن الفتح؛ حسدًا أن يُنسَب إليه وحده فتحُ بلاد الأندلس؛ ومن ثَمَّ أراد أن يشترك في الأمر معه؛ ذلك أنّ طارق بن زياد من عُمَّال موسى بن نصير، وواليه على الأندلس، وحسنات طارق بن زياد تُعَدُّ في ميزان موسى بن نصير رحمهما الله؛ فقد دخل الإسلام على يديه، ولكن كانت رؤية موسى بن نصير تستند إلى الحفاظ على جيش المسلمين من الهلكة وهو بعيد عن أرضه لم تستقر خطوط إمداده؛ لا سيما والجيش قد اخترق أرض الأندلس نحو العاصمة، وظلّت كثير من المدن في ظهره غير مفتوحة ولا آمنة.

من ثَمَّ فقد قَدِمَ موسى بن نصير وسلك بالجيش نحو المدن التي لم يفتحها طارق؛ فتوجّه نحو إِشْبِيلِيَة وفي الطريق أعاد إخضاع شَذُونَة، وافتتح قَرْمُونَة –وهي يومئذٍ من أمنع معاقل الأندلس– ثم حاصر إِشْبِيلِيَة حصارًا شديدًا، طال مداه شهورًا حتى فَتَحت أبوابها أخيرًا، ثم تجاوزها موسى بن نصير إلى الشمال، ولم يكن يفتح المناطق التي فتحها طارق بن زياد، وإنما اتجه ناحية الشمال الغربي، وهو الاتجاه الذي لم يسلكه طارق بن زياد؛ فقد أراد استكمال الفتح ومساعدة طارق بن زياد؛ وليس أخذ النصر أو الشرف منه.

واصل موسى بن نصير سيره نحو طارق بن زياد، وفي طريقه فتح الكثير من المناطق العظيمة حتى وصل إلى منطقة تسمى مَارِدَة ، كل هذا وطارق بن زياد في طُلَيْطِلَة ينتظر قدومه، وكانت مَارِدَة من المناطق التي

تجمَّع فيها كثير من القوط النصارى، فحاصرها موسى بن نصير حصارًا بلغ مداه -أيضًا- شهورًا، كان آخرها شهر رمضان، ففي أواخره وفي عيد الفطر المبارك وبعد صبر طويل فتحت المدينة أبوابها، وصالح أهلها موسى بن نصير على الجزية، وهكذا كانت تمرُّ الأعياد على المسلمين في جهاد لنشر دين الله في ربوع العالمين.

عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح البرتغال

لم يكتفِ موسى بن نصير بذلك، بل أرسل ابنه عبد العزيز بن موسى بنِ نصير -رحمهم الله جميعًا- الذي تربَّى كأبيه وجدِّه على الجهاد؛ ليفتح مناطق أوسع ناحية الغرب، وقد توغَّل عبد العزيز في الغرب كثيرًا؛ حتى إنه في فترات معدودة فتح كل غرب الأندلس، التي تسمى حاليًا دولة البرتغال، فقد وصل إلى لَشْبُونَة وفتحها ثم فتح البلاد الواقعة في شمالها، وبهذا يُعَدُّ عبد العزيز بن موسى بنِ نصير فاتح البرتغال.

موسى بن نصير وطارق بن زياد.. لقاء الأبطال واستكمال الفتح

تذكر بعض المصادر أنه لما التقى موسى بن نصير وطارق بن زياد أمسك موسى بطارق وعنَّفه ووبَّخه، بل تذكر -أيضًا- أنه قيَّده وضربه بالسوط، وبعضها يقول: إنه حبسه وهمَّ بقتله. إلاَّ أننا نقطع بأن هذا لم يحدث، وإنما الذي حدث أن موسى بن نصير قد عنَّف طارق بن زياد بالفعل على معصيته له بعدم البقاء في قُرْطُبَة أو جَيَّان واستمراره حتى طُلَيْطِلَة -كما ذكرنا- وقد كان تعنيفًا سريعًا؛ ولا نشكُّ في أنه كان لقاءً حارًّا بين بطلين افترقا منذ سنتين كاملتين، منذ رمضان سنة ٩٢هـ= يوليو ٧١١م وحتى ذي القعدة سنة ٩٤هـ= أغسطس ٧١٣م، فقد أخذت الحملة التي قادها طارق بن

زياد حتى وصلت إلى طُلَيْطِلَة عامًا كاملاً، وكذلك استغرقت الحملة التي قادها موسى بن نصير حتى قابل طارقًا في المكان نفسه عامًا كاملاً.

ومما يدلُّ على تلك العلاقة السامية بين هذين القائدين العظيمين ما جاء في نفح الطيب من أن موسى بن نصير لما سمع بانتصار طارق عبر الجزيرة بمَنْ معه ولحق به، فقال له: يا طارق؛ إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس فاستبحه هنيئًا مريئًا. فقال له طارق: أيها الأمير؛ والله! لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط، أخوض فيه بفرسي -يعني البحر الشمالي أي: المحيط الأطلنطي- من ناحية شمال شبه جزيرة الأندلس .

فكأن موسى بن نصير تنازل عن الأندلس لطارق من قبل أن يأتيه أمر الوليد بهذا؛ لِمَا أُعجب به من عمل طارق وجهاده، بل وتنازل عنها إعجابًا وبطيب نفس «هنيئًا مريئًا»، ثم إن طارقًا لم يكن ممن يهمه الولاية والإمارة، بل شغله حُبُّ الجهاد، وما رضي عنه بغيره، ولو كان المنصب على الجزيرة الغنية.

وبعد اللقاء اتَّحَدَا معًا واتجها إلى فتح منطقة الشمال؛ لاستكمال عمليات الفتح، ففتحا مناطق عِدَّة؛ كان منها -على سبيل المثال- منطقة بَرْشُلُونَة ففتحاها، ثم اتجها إلى مدينة سَرَقُسْطَة؛ وهي أعظم مدن الشمال الشرقي. ففتحوها، وفي منطقة الشمال قام موسى بن نصير بعملٍ يُحْسَد عليه؛ فقد أرسل سريَّة خلف جبال البِرِينيه، وهي الجبال التي تفصل بين فرنسا وبلاد الأندلس، وتقع في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، عبرت هذه السرية جبال البرينيه، ثم وصلت إلى مدينة تُسمَّى أَرْبُونَة، وتقع هذه المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبذلك يكون موسى بن نصير قد أسس نواةً لمقاطعة إسلامية سوف تكبر مع الزمان، كما سيأتي بيانه بمشيئة الله.

وبعد هذه السرية الوحيدة التي فتحت جنوب غرب فرنسا اتجه موسى بن نصير بجيشه إلى الشمال الغربي حتى وصل إلى آخره، وقد ظلّ المسلمون يفتحون مدن الأندلس؛ المدينة تلو الأخرى حتى تمّ الانتهاء من فتح كل بلاد الأندلس، إلاّ منطقة واحدة في أقصى مناطق الشمال الغربي وتُسمى منطقة الصخرة أو صخرة بلاي، وهي تقع على خليج بسكاي عند التقائه مع المحيط الأطلنطي.

ففي زمن قُدِّر بثلاث سنوات ونصف -ابتدأ من سنة ٩٢هـ=٧١١م وانتهى في آخر سنة ٩٥هـ= ٧١٤م- كان قد تمّ للمسلمين فتح كل بلاد الأندلس عدا صخرة بلاي هذه، وحين عزم موسى بن نصير على أن يُتِمّ فتح هذه الصخرة ويستكمل الفتح إلى نهايته، أتاه ما لم يكن يتوقّعه.

لو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدّقه أحد؛ لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه... والحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في حدّ ذاته؛ إذ لا يُصدّق المرء وهو يتتبّع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به -بهذا النظام، وبهذا النظر البعيد- إنما كانوا بربرًا لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات، الحق أن الإسلام قد خطا بمعتنقيه خلال القرن الأول بضعة قرون إلى الأمام، وهذا تاريخ الرومان في إفريقية: لم يوفقوا إلى تحضيرها على نحو يُقارب ما فعله الإسلام -ولو من بعيد- في بضعة قرون، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن؟!

ولو ذكرنا أن موسى أكمل عمل طارق، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطّة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها: فقد قُضِيَ على المقاومة واحتلت العاصمة في أول وثبة، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب، ثم فتح المسلمون إقليم سَرَقُسْطَة وتتبّعوا فلول المقاومة في معاقلها في الشمال والشمال الغربي، ثم فتحوا أقصى الغرب، وخُتم العمل بفتح الجنوب الشرقي. ولو أن مجلسًا

للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وُفِّق إلى خير من ذلك، وتلك ناحية ينبغي ألاّ تغيب عن ذهن أحدنا وهو يدرس هذا الفتح؛ لأنها في الواقع تدلّ على نبوغ حربي عند هؤلاء المسلمين الأولين].

الوليد بن عبد الملك ووقف فتوحات الأندلس

رسالة الوليد بن عبد الملك

من أقصى بلاد المسلمين.. من دمشق.. من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تصل رسالة إلى موسى بن نصير وطارق بن زياد بأن يعودا أدراجهما إلى دمشق، ولا يستكملا الفتح، حزن موسى بن نُصير وأسِفَ أشدَّ الأسف، لكن لم يكن بُدٌّ من الاستجابة والعودة كما أُمر.

ولنا أن نندهش مع موسى بن نصير لماذا هذا الأمر الغريب؟! ولماذا الاستدعاء في هذا التوقيت خاصة؟! إلاّ أن هذه الدهشة سرعان ما تتبخّر حين نعلم سبب ذلك عند الوليد بن عبد الملك، وكان كما يلي:

خط سير جيوش طارق بن زياد وموسى بن نصير

١- كان الوليد بن عبد الملك يشغله همٌّ توغُّل المسلمين بعيدًا عن ديارهم؛ فهو المسئول عن المسلمين الذين انتشروا في كل هذه المناطق الواسعة، وقد رأى أن المسلمين توغّلوا كثيرًا في بلاد الأندلس في وقت قليل، وخشي -رحمه الله- أن يلتفّ النصارى من جديد حول المسلمين؛ فإن قوة المسلمين مهما تزايدت في هذه البلاد، فهي قليلة وبعيدة عن مصدر إمدادها، فأراد ألاّ يتوغّل المسلمون أكثر من هذا.

٢- كان من الممكن للوليد بن عبد الملك أن يُوقِف الفتوح دون عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد، لكن كان هناك أمر آخر عجيب قد سمعه الوليد بن عبد الملك؛ جعله يُصِرُّ على عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق؛ ذلك أنه قد وصل إلى علمه أن موسى بن

نصير يُريد بعد أن ينتهي من فتح بلاد الأندلس أن يفتح كل بلاد أوربا حتى يصل إلى القسطنطينية من الغرب.

كانت القسطنطينية قد استعصت على المسلمين من الشرق، وكثيرًا ما ذهبت جيوش الدولة الأموية إليها ولم تُوفَّق في فتحها، وهنا فكَّر موسى بن نصير أن يخوض كل بلاد أوربا؛ فيفتح إيطاليا ثم يوغوسلافيا ثم رومانيا ثم بلغاريا ثم منطقة تركيا الحالية، حتى يصل إلى القسطنطينية من جهة الغرب؛ أي أنه سيتوغَّل بالجيش الإسلامي في عمق أوربا منقطعًا عن كل مدد، فأفزع هذا الأمر الوليد بن عبد الملك، وخشي على جيش المسلمين من الهَلَكَة؛ فعجَّل بأمر عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد.

همة عالية

فتح القسطنطينية هنا لا بُدَّ لنا أن نقف وقفة عند هذه الهمَّة العالية التي كانت عند موسى بن نصير؛ خاصة إذا علمنا أنه عندما كان يُفَكِّر هذا التفكير كان يبلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة؛ فلله دَرُّه! شيخ كبير ومع ذلك يجاهد في سبيل الله، ويركب الخيول، ويفتح المدينة تلو المدينة، يحاصر إِشْبِيلِيَة شهورًا ويحاصر مَارِدَة شهورًا، ثم يفتح بَرْشُلُونَة وسَرَقُسْطَة والشمال الشرقي، ثمَّ يتَّجه إلى الشمال الغربي ويتجه إلى الصخرة يُريد أن يفتحها، ثم هو يُريد أن ينطلق إلى فرنسا وإيطاليا وغيرها حتى يصل إلى القسطنطينية!

أيُّ همَّة هذه التي امتلكها هذا الشيخ الكبير؟! التي تجعله يفعل كل هذا ويُؤَمِّل لهذا التفكير وعمره خمسٌ وسبعون سنة! إنه ليضرب المثل لرجالات المسلمين اليوم وشيوخهم الذين بلغوا مثل عمره أو أقل منه، وظنُّوا أنهم قد «خرجوا على المعاش» وانتهت رسالتهم بخروجهم هذا؛ فهي رسالة واضحة لهم بأن رسالتهم في الحياة لم تنتهِ بعدُ، فمَنْ لتعليم الأجيال؟! ومَن لتوريث الخبرات؟! ومَن لتصحيح المفاهيم؟!

فقد بدأ موسى بن نصير فتح الشمال الإفريقي وقد تجاوز الستين من عمره؛ أي تجاوز سنَّ المعاش في زمننا هذا، ثم ها هو ذا في سنِّ الخامسة والسبعين يحزن حزنًا شديدًا، ولكن على أي شيء كان حزنه؟! حزن أولاً على أمر الوليد بن عبد الملك له بتركه ساحة الجهاد، وقد كان محبًّا له؛ علّه ينال الشهادة التي لم تُصِبْهُ، ثم حزن ثانيًا حزنًا شديدًا؛ لأن الصخرة لم تُفتَح بعدُ، ثم حزن ثالثًا -وكان حزنه أشدّ- لأنه لم يستكمل حُلْمَ فتح القسطنطينية من قِبَل الغرب كما كان يتمنى.

وفي هذا يذكر المَقَّرِيُّ صاحب نفح الطيب أن موسى بن نصير ترك الأندلس «وهو مع ذلك متلهِّف على الجهاد الذي فاته، أَسِيفٌ على ما لحقه من الإزعاج، وكان يُؤَمِّل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجة فرنسا، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتّخذ مخترَقَه بتلك الأرض طريقًا مَهْيَعًا يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم -من المشرق وإليه- على البرِّ لا يركبون بحرًا».

عودة وأمنية

لم يجد موسى بن نصير إلاّ أن يسمع ويُطيع لأمر الوليد بن عبد الملك، فأخذ طارقَ بن زياد وعاد أدراجه إلى دمشق، وعندما وصل وجد الوليد بن عبد الملك في مرض الموت، ثم لم يلبث أن مات وتولّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان على رأي أخيه في استبقاء موسى بن نصير في دمشق؛ خوفًا من هلكة جيش المسلمين في توغّله داخل بلاد أوربا نحو القسطنطينية.

وبعد عام من قدوم موسى بن نصير سنة ٩٧هـ=٧١٦م كان سليمان بن عبد الملك ذاهبًا إلى الحجِّ، وهذا ما وافق اشتياقًا كبيرًا من قِبَل موسى بن نصير؛ فقد عاش في أرض الجهاد في شمال إفريقيا وبلاد الأندلس أكثر من

عشر سنين لم يَعُدْ فيها مرَّة واحدة، فما كان منه إلاّ أن رافق سليمان بن عبد الملك في طريقه إلى الحجّ في ذلك العام.

وفاة موسى بن نصير

وفي طريقه إلى هناك قال موسى بن نصير: اللهم إن كنت تُريد لي الحياة فأعدني إلى أرض الجهاد، وأمِتْني على الشهادة، وإن كنت تُريد لي غير ذلك فأمتني في مدينة رسول الله . ووصل -رحمه الله- إلى الحجِّ، وبعد حجِّه وفي طريق عودته مات في مدينة رسول الله ، ثم دُفِنَ مع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

وهكذا كانت همم الصالحين وقلوبُ المَوْصُولين برب العالمين، فقد بلغ من الكبر عِتِيًّا؛ إلاّ أنه قدّم أكثر مما عاش، ظلّ قلبه معلّقًا بحُبِّ ربه حتى دعاه، فكانت الخاتمة وكانت الإجابة، عاش بين الأسنّة في أقصى بلاد الأندلس، إلاّ أنه مات بعد الحجّ في مدينة رسول الله ، فلله دَرُّه من قائد وقدوة!

لقد مات القائد المسلم موسى بن نُصير بعد أن ملأ جهادُه -بقيادة المدِّ الإسلامي المبارك- ودِيانَ المغرِب الإسلامي الشمال الإفريقي والأندلس وجباله وسهوله وهضابه، ووَجَّه دعاةَ الحق لإسماع ساكنيه نداءَ الخير؛ فيُخرجهم من الظلمات إلى النور المبين... كان موسى بن نصير يقود هذا الجهاد في شبه الجزيرة الأندلسية وهو يبلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة، ممتطيًا جواده؛ يهبط في وديانها ويرتفع على صخراتها، يتحرّك فيه إيمانٌ بالله العلي الكبير، فتسمو نفسه وتتجدّد طاقته وتحدوه لإعلاء كلمة الله ورفع رايته في كل مكان، فيندفع قويَّ الجنَان رغم ما علا رأسه من الشّيْب الوقور، يقوده إصرار العقيدة السمحة، وهِمَّة الإيمان الفتيِّ، وتُفَتِّق طاقاته كلمةُ الله، وتُقيمَ قوتها إيمانًا يعلو على أي اعتبار.

مصير طارق بن زياد

أمَّا رفيق الدرب طارق بن زياد فقد انقطعت أخباره كُلِّيَّةً بعد رحيله إلى دمشق مع موسى بن نصير، ولا أحدٌ يدري هل عاد مرَّة أخرى إلى الأندلس أم بَقِيَ في دمشق؟!

مهما بلغ المؤرخ في الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاء حقِّه، ولو فكَّر أحدنا في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سرًّا من أسرار قوَّة الإسلام، وناحية من نواحي امتيازه؛ فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح -بغير الإسلام- إلاَّ قائدًا خاملاً لجماعة من البربر منسيين في ركن من أركان الأطلسي، فجاء الإسلام فجعل منه قائدًا فاتحًا، وسياسيًّا محنّكًا يقود الجيوش ويفتح الأمصار، ويُوَقِّع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين بالإعجاب، فلو لم يكن للإسلام من أثر إلاّ تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه، فكيف وقد بثّ الإسلام هذه الروح في كل مكان أظلّته رايته، وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت وحققه على أتم وجه؟! .

رحل موسى بن نصير وطارق بن زياد من الأندلس إلى دمشق بعدما وصلا بفتوحاتهما إلى غرب فرنسا، إلاّ أنه كانت هناك منطقة صغيرة جدًّا في أقصى الشمال الغربي من بلاد الأندلس لم تُفتَح بعدُ، ولم يخطر على بال أحد من المسلمين أنه سيأتي يومٌ وتكون تلك المنطقة هي نواة الممالك النصرانية التي ستنشأ فيما بعدُ، وستكون صاحبة اليد الطُّولَى في سقوط الأندلس بعد ذلك بقرون.

تلك هي منطقة الصخرة التي لم يستكمل المسلمون فتحها، وكانت فيها طائفة كبيرة من النصارى، وأغلب الظنِّ أنه لو بقي موسى بن نصير أو طارق بن زياد ما تركوها، إلاّ أننا نستطيع أن نقول: إن التهاون في أمر بسيط جدًّا قد يُؤَدِّي إلى ويلات عظيمة على مَرِّ الزمن، فلا بُدَّ أن يأخذ المسلمون كلّ أمورهم بالعزم والحزم وعدم الطمأنينة، إلاّ بعد استكمال النهايات على أتَمِّها.

الفصل الثالث

عصر الولاة ٩٥ - ١٣٨هـ

عصر الولاة

عصر الولاة في الأندلس بعد انتهاء عهد الفتح يبدأ عهد جديد في تاريخ قصة الأندلس يُسمَّى عصر الولاة، الذي يبدأ من عام ٩٥هـ=٧١٤م ويستمرُّ مدَّة اثنين وأربعين عامًا حيث ينتهي عام ١٣٨هـ=٧٥٥م ، وعهد الولاة يعني أنَّ حُكم الأندلس في هذه الفترة كان يتولاّه رجل يتبع الحاكم العام للمسلمين، وهو الخليفة الأموي الموجود في دمشق في ذلك الوقت.

وإذا نظرنا إلى عصر الولاة نرى أنه قد تعاقب فيه على حكم الأندلس اثنان وعشرون واليًا، أو عشرون واليًا تولّى اثنان منهم مرتين؛ فيُصبح مجموع فترات حكم الأندلس اثنتين وعشرين فترة خلال اثنين وأربعين عامًا؛ أي أن كل والٍ حكم سنتين أو ثلاث سنوات فقط.

ولا شكَّ أن هذا التغيير المتتالي للحكام قد أثَّر تأثيرًا سلبيًا على بلاد الأندلس، إلاّ أن هذا التغيير في الواقع كان له ما يُبَرِّرُه؛ حيث كان هناك في بادئ الأمر كثيرٌ من الوُلاة الذين يُستَشْهَدون أثناء جهادهم في بلاد فرنسا، ثم جاءت مرحلة كان فيها كثيرٌ من الوُلاة يُغَيَّرون عن طريق المكائد والانقلابات والمؤامرات.. وما إلى ذلك.

ومِنْ هنا نستطيع أن نُقَسِّم عهد الولاة بحسب طريقة الإدارة وطريقة الحكم إلى فترتين رئيستين مختلفتين تمامًا؛ حيث كانت الفترة الأولى فترة جهاد وفتوح وعظمة للإسلام والمسلمين، وتمتدُّ من بداية عهد الولاة من عام ٩٥هـ=٧١٤م وحتى عام ١٢٣هـ=٧٤١م؛ أي: سبعة وعشرين عامًا.

وكانت الفترة الثانية فترة ضعف ومؤامرات ومكائد وما إلى ذلك، واستمرَّت من سنة ١٢٣هـ=٧٤١م وحتى سنة ١٣٨هـ=٧٥٥م؛ أي مدَّة خمس عشرة سنة، وفي تناولنا لفترتي عهد الولاة هاتين لن ندخل في ذكر تفاصيل كُلٍّ منهما، وإنما سنقتصر على بعض الولاة فقط؛ لما لهم من الأهمية في دراستنا هذه.

عهد القوة

بصفة عامَّة تميَّزت الفترة الأولى من عهد الولاة بعِدَّة أمور؛ كان من أهمها:

نشر الإسلام في بلاد الأندلس

بعد أن تمكَّن المسلمون من توطيد أركان الدولة الإسلامية في هذه البلاد بدءوا يُعَلِّمون الناس الإسلام، ولأن الإسلام دين الفطرة فقد أقبل عليه أصحاب الفِطَر السوية من الناس عندما عرفوه، فاختاروه بلا تردُّد؛ فلقد وجد الإسبان في الإسلام دينًا متكاملاً شاملاً يُنَظِّم كل أمور الحياة، وجدوا فيه عقيدة واضحة وعبادات منتظمة، وجدوا فيه تشريعات في السياسة والحكم والتجارة والزراعة والمعاملات، وجدوا فيه تواضع القادة الفاتحين، وجدوا فيه كيفية التعامل والتعايش مع الأخ والأب والأم والزوجة والأبناء والجيران والأقرباء والأصدقاء، ووجدوا فيه كيفية التعامل مع العدوِّ والأسير، ومع كل الناس.

لقد تعوَّد الإسبان في حياتهم -قبل ذلك- فصلاً كاملاً بين الدين والدولة؛ فالدين عندهم لا يعدو أن يكون مجرَّد مفاهيم لاهوتية غير مفهومة، يتعاطونها ولكن لا يستطيعون تطبيقها، وفي التشريعات والحكم يُشَرِّع لهم مَنْ يحكمهم وَفق هواه، وحسبما يُحَقِّق مصالحه الشخصية، أمَّا في الإسلام فقد وجدوا أن الأمر يختلف عن ذلك تمامًا؛ فلم يستطيعوا أن يتخلَّفوا عن الارتباط به والانتساب إليه؛ فدخلوا فيه أفواجًا.

وفي مدَّةٍ قليلة أصبح عموم أهل الأندلس السكان الأصليين يدينون بالإسلام، وأصبح المسلمون من العرب والأمازيغ البربر قلّةً بينهم، وأصبح أهل الأندلس هم جند الإسلام وأعوان هذا الدين، وهم الذين اتّجَهُوا بعد ذلك إلى فتوحات بلاد فرنسا.

نشأة جيل المولدين

كان من جرّاء انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين، وانتشار الإسلام بصورة سريعة أن نشأ جيل جديد عُرِفَ باسم جيل المولّدين، وهم أبناء الذين أسلموا من أهل الأندلس الأصليين، فقد كان الأب عربيًّا أو أمازيغيًّا بربريًّا والأم أندلسية.

إلغاء الطبقية ونشر الحرية العقائدية

ألغى المسلمون الطبقية التي كانت سائدة قبل ذلك؛ حيث جاء الإسلام وساوى بين الناس جميعًا؛ حتى كان الحاكم والمحكوم يقفان سويًّا أمام القضاء للتحاكم في المظالم، وعمل المسلمون في هذه الفترة على إتاحة الحريَّة العقائدية للناس؛ فتركوا للنصارى كنائسهم، وما هدموها قطُّ، وما كانوا يُحَوِّلونها إلى مساجد إلاّ إذا وافق النصارى على بيعها لهم، وكان بيع الكنائس للمسلمين يُقَدَّر بأثمانٍ باهظة، أمَّا إن رفضوا بيعها تركها المسلمون لهم.

وهذه المواقف العظيمة إنما كانت تحدث والنصارى محكومون من قِبَل المسلمين، وعلينا أن نَعِيَ هذا الأمر جيدًا، ونقارن صنيع المسلمين هذا بما فعله النصارى بعد انتهاء الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس، فيما عُرِفَ باسم محاكم التفتيش الإسبانية.

الاهتمام بالحضارة المادية

قنطرة قرطبةاهتمَّ المسلمون في هذه الفترة بتأسيس الحضارة المادية أو المدنية؛ فأسَّسوا الإدارة، وأقاموا العمران، وأنشئوا القناطر والكباري؛ ومما يدلُّ على براعتهم في هذا الأمر تلك القنطرة العجيبة التي تُسَمَّى قنطرة قُرْطُبَة

، وكانت من أعجب القناطر الموجودة في أوربا في ذلك الزمن، كــذلك أنــشأ المسلمون دورًا للأسلحة وصناعة السفن، وبدأت الجيوش الإســلامية تقــوى وتتعاظم في هذه المنطقة.

تقليد الإسبان للمسلمين في كل شيء

كان من السمات المميِّزة -أيضًا- في هذه الفترة الأولى من عهد الولاة أن الإسبان بدءوا يُقَلِّدُون المسلمين في كل شيء؛ حتى أصبحوا يتعلَّمُون اللغة العربية التي يتكلَّمها الفاتحون، بل كان الإسبان النصارى واليهــود يفتخــرون بتعليم اللغة العربية في مدارسهم.

اتخاذ المسلمين قرطبة عاصمة لهم

كذلك كان من بين السمات المميزة لهذه الفتــرة -أيــضًا- أن اتخــذ المسلمون قُرْطُبَة عاصمةً لهم ؛ وقد كانت طُلَيْطِلَة في الشمال قبل ذلــك هــي عاصمة الأندلس، ولكن وجد المسلمون أنها قريبة من فرنسا وقريبة من منطقة الصخرة، وهما من مصادر الخطر عليهم؛ فرأوا أن طُلَيْطِلَة بذلك مدينة غيــر آمنة؛ ومن ثَمَّ فلا يمكن أن تكون هي العاصمة؛ لذلك اختاروا مدينة قُرْطُبَــة، التي تقع في اتجاه الجنوب؛ لانتفاء الأسباب السابقة، وحتى تكــون -أيــضًا- قريبة من المدد الإسلامي في بلاد المغرب.

قرطبة

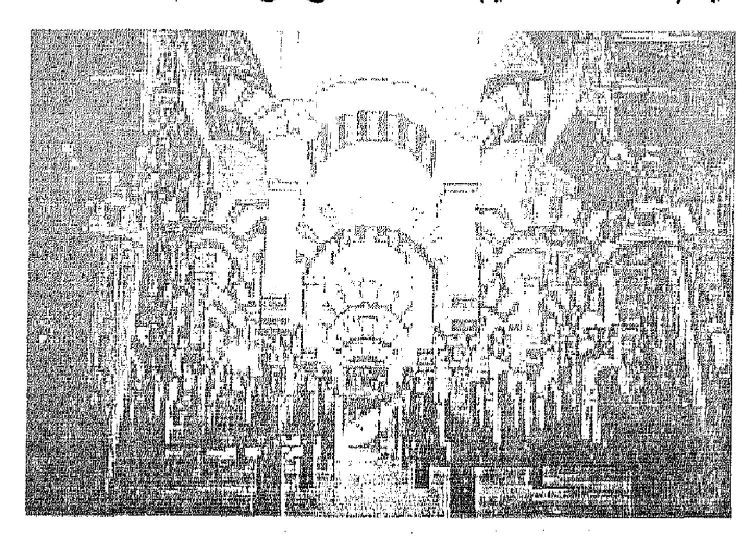
قرطبة (بالإسبانية:Córdoba) مدينة وعاصمة مقاطعة قرطبة التابعة لمنطقة أندلوسيا في جنوب إسبانيا وتقع على ضفة نهر الوادي الكبيــر، علــى دائرة عرض (38°) شمال خط الاستواء يبلغ عدد سكانها حــوالي ٣٢٨,٦٥٩ نسمة (تعداد سنة ٢٠١١). اشتهرت أيام الحكم الإسلامي لإسبانيا حيث كانــت عاصمة الدولة الأموية هناك. من أهم معالمها

تاريخ قرطبة

قرطبة الرومانية

تأسست قرطبة مستوطنةً رومانية على الجانب الشمالي لنهر الوادي الكبير (نهر بيتيس قديماً) في عصر جمهورية روما سنة ٢٠٦ قبل الميلاد، ثم صارت عاصمة لولاية بيتيكا (جنوب إسبانيا) ضمن الإمبراطورية الرومانية. وقد ظلت قرطبة مدينة رومانية لمدة تزيد عن سبعة قرون، ولذلك ما زالت في قرطبة آثار من الحكم الروماني، أبرزها الجسر الروماني ("بوينتي رومانو") الذي يقطع الوادي الكبير، وأطلال معبد روماني، بالإضافة إلى ضريح روماني مكتشف حديثاً. وظهر في قرطبة في تلك الفترة الفيلسوف سينيكا.

بعد سقوط الدولة الرومانية على يد الغزوات المتتابعة من قبل القبائل الجرمانية ("البرابرة")، انحدرت على شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال حالياً) بعض هذه القبائل كالوندال والآلان، وتبعهم القوط الغربيون الذين كان أمر الجزيرة بأكملها، بما فيها قرطبة، قد آل إليهم وقت وصول المسلمين في القرن الثامن الميلادي (الأول الهجري)، بعد صراع مع الروم البيزنطيين.



مسجد قرطبة

عصر الولاة

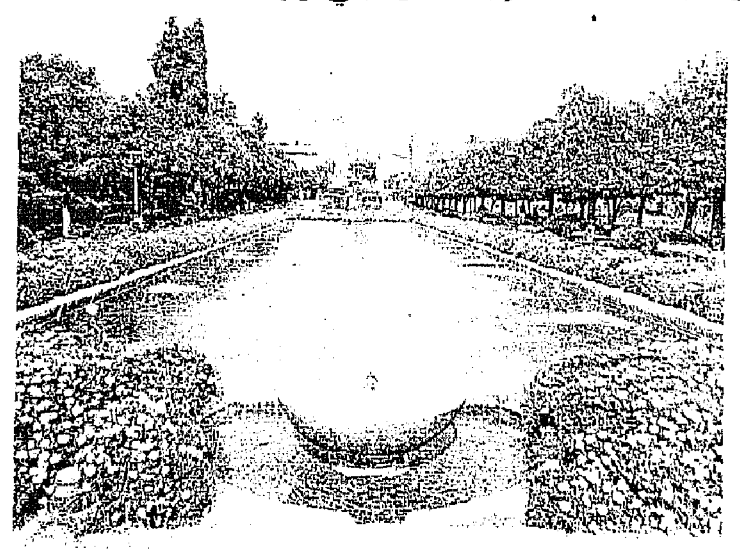
فتح المسلمون الأمويون قرطبة على يد القائد مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م ، بعد أن عبر بقواته إلى أيبيريا (التي سماها المسلمون ببلاد الأندلس) وقتل ملكها لذريق (رودريك). وقد جعل الأمويون الأندلس ولاية تابعة لولاية المغرب، حتى جعلها عمر بن عبد العزيز ولاية الأندلس تتبع للعاصمة الأموية في دمشق بشكل مباشر. وجعل الأمويون قرطبة مقراً لولاتهم على الأندلس فظلت كذلك حتى سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين عام ٧٥٠ م.

العصر الأموي

و لكن لم يعل شأن قرطبة إلا مع قدوم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس فاراً من العباسيين، فاستولى على مقاليد الأمور في الأندلس الإسلامية وجعل قرطبة عاصمة له عام ٧٥٦ م. وقد كان هذا بداية لعصر قرطبة الذهبي، حيث أصبحت عاصمة الأندلس الإسلامية بأكملها وأهم مدينة في شبه الجزيرة، وفي عهد الداخل بدأ العمل على جامع قرطبة الكبير الذي لا زال قائماً في المدينة اليوم. واستمر الحكم بيد الأمويين من سلالة عبد الرحمن الداخل في هذه الفترة.

و قد تعرضت الدولة الأموية لعدد من الثورات المتعاقبة وفقد أمراؤها مقاليد الأمور حتى تمكن أحد أحفاد الداخل، عبد الرحمن الثالث الملقّب بالناصر، من إعادة توطيد ملك الأمويين وإخضاع معظم الأندلس لسلطته في قرطبة، وذلك في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري). وقد بلغت به القوة إلى أن اتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين، مستنداً إلى ما اعتبره حق أسرته القديم في الخلافة السابق لحق بني العباس. وقام الناصر بنقل حكومته إلى مدينة جديدة اختطها على بعد أميال من قرطبة أسماها الزهراء، إلا أن قرطبة ظلت المدينة الرئيسية في البلاد. بعد أحداث وقعة الربض وصلت المدينة

لأوج مجدها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١)، وابنه الحكم الثاني (٩٦١ -٩٧٦)، ثم تلاهم الحاجب المنصور بن أبي عامر (٩٨١ - ١٠٠٢)، الذي استولى على مقاليد السلطة في قرطبة وصيّر الخليفة الأموي سجيناً في قصوره في الزهراء وابتنى له قصراً للحكم في طرف قرطبة أسماه بالمدينة الزاهرة. وقد كانت دولة قرطبة من أهم الدول الأوروبية في القرن العاشر، كما كانت منارة للعلم والثقافة في أوروبا، وعاصمة من عواصم الأدب والثقافة العربية والإسلامية، وأنجبت المدينة في هذه الفترة الشاعر ابن زيدون، والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي، والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المدنيات.



قصر قرطبة

أ - عصر الاستقرار ٩٥- ١٢٣هـ.

الجهاد في فرنسا

كان الجهاد في فرنسا من أهم السمات المميزة لهذه الفترة من عهد الولاة، فاتخذت خطوات كبيرة في هذه الفترة، وسنذكر بعض الولاة الذين كان لهم سَبْقٌ وحضور في عملية الجهاد في بلاد فرنسا.

عبد العزيز بن موسى بن نصير

كان أول الولاة على الأندلس هو عبد العزيز بن موسى بنِ نصير – رحمه الله–(ت٩٧هـ=٧١٦م)، وكان كأبيه في جهاده وتقواه وورعه، كان يقول عنه أبوه موسى بن نصير: عرفتُه صَوَّاما قَوَّاما. وقال عنه الزركلي في الأعلام: «أمير فاتح، ولاّه أبوه إمارة الأندلس عند عودته إلى الشام سنة ٩٥هـ=٧١٤م فضبطها وسدَّد أمورها، وحمى ثغورها، وافتتح مدائن، وكان شجاعًا حازمًا، فاضلاً في أخلاقه وسيرته».

السمح بن مالك الخولاني ت ١٠٢هـ=٧٢١م:

السمح بن مالك الخولانيتُعَدُّ ولاية السَّمْح بن مالك الخَوْلانيّ هي الولاية الرابعة للأندلس، فبعد أن قُتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بإشْبِيلِيَة في رجب ٩٧هـ، اجتمع أهل الأندلس على تولية أيوب بن حبيب اللّخْمِيّ، وهو ابن أخت موسى بن نصير، ولم تدم ولايته إلاّ ستة أشهر فقط؛ أي في سنة ٩٧هـ=٧١٦م ، ثم كانت ولاية الأندلس إلى الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ= مارس ٧١٦م، من قِبَل عامل إفريقية محمد بن يزيد، فبقي الحرُّ واليًا عليها ثلاث سنين؛ فنقل الحرُّ الثقفي العاصمة من إِشْبِيلِيَة إلى قُرْطُبَة وقيل: في زمن أيوب اللّخْمِيّ.

ثم لما تُوُفِّيَ الخليفة سليمان بن عبد الملك في صفر ٩٩هـ= سبتمبر ٧١٧م، خلفه عمر بن عبد العزيز –رحمه الله، فعيَّن السمح بن مالك واليًا على الأندلس في رمضان عام ١٠٠هـ، وجعل ولايتها تابعة للخلافة مباشرة؛ نظرًا لأهميتها وكثرة شئونها.

فتُعَدُّ ولايةُ السَّمْحِ بن مالك الخَوْلانِيّ –رحمه الله– على الأندلس من حسنات الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز –رحمه الله (٦١-١٠١هـ=٦٨١-٧٢٠م)؛ فقد حكم عمر بن عبد العزيز –رحمه الله– المسلمين

سنتين ونصف على الأكثر ٩٩-١٠١هـ= ٧١٨-٧٢٠م ، وفي هـذه الفتـرة الوجيزة عَمَّ الأمن والرخاء والعدل كل بلاد المسلمين.

جهاد السمح بن مالك:

فتوحات السمح بن مالكاختار عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- السمحَ بن مالك الخَوْلاني، ذلك القائد الربَّاني المشهور في التاريخ الإسـلامي، وهـو القائد الذي انطلق إلى بلاد فرنسا مجاهدًا، وكانت بفرنسا مدينة إسلامية واحدة هي مدينة أرْبُونَة، تلك التي فتحها موسى بن نصير / بسرية من السرايا ، لكن السمح بن مالك الخَوْلاني فتح كل منطقة الجنوب الغربي لفرنسا، ثـم أسَّـس مقاطعة ضخمة جدًّا وهي مقاطعة سبتمانيا.

أخذ السمح الخولاني يستكمل الفتوح في جنوب غرب فرنـسا، وفـي الوقت ذاته أرسل يُعَلِّم الناس الإسلام؛ سواء في فرنسا أو في الأندلس، إلى أن لقي ربه شهيدًا في معركة تولوز بطرسونة يوم عرفة سنة ١٠٢هـــ=٩ مـن يونيه ٧٢١م .

ولاية عنبسة بن سحيم (ت ١٠٧هـ=٧٢٥م)

لما سقط السمح بن مالك شهيدًا في أرض الجهاد، اختار أهل الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغَافِقِيَّ -رحمه الله- أميرًا عليهم، واستطاع بمهارته العسكرية أن يجمع شتات المسلمين، ويعود إلى الأندلس في (ذي الحجة سـنة ١٠٢هـ)، وكانت هذه ولايته الأولى، ولم تدم إلاَّ شهرين؛ فقد عزله يزيد بـن أبي مسلم عامل إفريقية، وولَّى بدلاً منه عَنْبَسَة بْن سُحَيْم -رحمه الله- وذلـك في (صفر ١٠٣هـ).

جهاد عنبسة بن سحيم

كان عنبسة بن سحيم -رحمه الله- قائدًا تقيًّا وَرِعًـا، وإداريًّـا فـذًّا، ومجاهدًا حَقَّ الجهاد، حكم بلاد الأندلس من سنة (١٠٣هـ=٧٢١م) إلى سـنة (١٠٧هـ=٧٢٥م) ، فوصل في جهاده إلى مدينة (سانس Sens)، وهي تبعـد

عن باريس بنحو ثلاثين كيلو مترًا، وهذا يعني أن عنبسة بن سحيم -رحمه الله- قد وصل إلى ما يقرب من ٧٠٪ من أراضي فرنسا، ويعني هذا -أيضًا- أن ٧٠٪ من أراضي فرنسا كانت بلادًا إسلامية، فقد أوغل عنبسة بن سحيم -رحمه الله- في غزو الفرنج.

ويرى (إيزيدور) أسقف بَاجَة في ذلك العصر أن فتوحات عَنْبَسَة كانت فتوحات حِذَق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة؛ ولذلك تضاعف في أيامه خَرَاج بلاد الغال -فرنسا- وافتتح (قرقشونة Carcassona) صلحًا بعد أن حاصرها مدّة، وأوغل في بلاد فرنسا فعبر نهر الرون إلى الشرق، وأُصيب بجراحات في بعض الوقائع ، فاستُشهِدَ عنبسة بن سحيم -رحمه الله- وهو في طريق عودته إلى الأندلس في (شعبان ١٠٧هـ= ديسمبر ٧٢٥م)

ولاية عبد الرحمن الغافقي (١١٢هـ=٧٣٠م)

بعد استشهاد عَنْبَسَة بن سُحَيْم -رحمه الله- بدأت الأمور في التغيُّر؛ فقد تولّى حكم الأندلس مِن بعده مجموعة من الولاة على غير عادة السابقين، فعلى مدى خمس سنوات فقط (١٠٧-١١٢هـ=٧٢٥-٧٣٠م) تولّى إمارة الأندلس ستة ولاة، كان آخرهم رجل يُدعى الهيثم بن عبيد الكلابي -أو الكناني حسب بعض الروايات- وكان عربيًّا متعصبًا لقومه وقبيلته.

ومن هنا بدأت الخلافات تدبُّ بين المسلمين: المسلمون العرب من جهة والمسلمون الأمازيغ (البربر) من جهة أخرى، وكانت خلافات بحسب العِرْقِ وبحسب العنصر، وهو أمر لم يحدث في تاريخ المسلمين منذ فتح الله على المسلمين هذه المناطق وحتى هذه اللحظة، ولم تمرّ خلافات العصبيات هذه مرور الكرام، وإنما دارت معاركُ ومشاحناتٌ بين المسلمين العربَ والمسلمين الأمازيغ (البربر) ، حتى مَنَّ الله على المسلمين بمَنْ قضى عليها ووحّد الصفوف من جديد، وبدأ يبثُّ في الناس رُوح الإسلام الأولى، التي

جمعت بين الأمازيغ (البربر) وبين العرب، والتي لم تُفَرِّق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى، ذلك هو عبد الرحمن الغَافِقِيُّ -رحمه الله.

عبد الرحمن الغافقي

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغَافِقِيّ العَكِّيّ (ت ١١٤هـ=٧٣٢م)، ينتسب إلى قبيلة (غافق) وهي فرع من قبيلة (عك) باليمن، ويُكنى أبا سعيد, وكان من كبار القادة الغزاة الشجعان، وهو أحد التابعين -رحمه الله.

مولد عبد الرحمن الغافقي

ربما يكون وُلِدَ في اليمن ورحل إلى إفريقية، وَفَدَ على سليمان بن عبد الملك الأموي في دمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس، ووليَ قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس.

فكر الغافقي العسكري

تميَّز القائد عبد الرحمن الغافقي من الناحية العسكرية بالحسم، وهو مبدأ في غاية الأهمية، ويحتاج إليه القائد؛ حتى لا تتشتَّت الأمور ويبعد الهدف في ظلِّ التراخي عن اتخاذ القرار وتأخير ذلك عن وقته.

كما تميَّز أسلوبه العسكري النابع من فكره الصائب بالتوازن، بين ما يملك من قوى وما يُريد من أهداف، إضافة إلى اعتماد مبدأ الإعداد قبل التلاقي؛ أي: إعداد الجنود والشعب كله قبل المعركة إعدادًا قويًّا من كافَّة النواحي، والتأكُّد من توافر كل أنواع القوة؛ بداية من قوة الإيمان بالله، مرورًا بقوَّة التماسك والأخوة بين أفراد الجيش جميعًا، بل وأفراد الشعب، وانتهاءً بقوة الساعد والسلاح، وهي القوة المادية، وعدم الاستهانة أو التقليل من شأن أي نوع من أنواع هذه القوى؛ فإن أي قصور في أي نوع منها كفيلٌ بجلب الهزيمة على الجيش كله.

خلق الغافقي

وكان ، من أحسن الناس خُلُقًا ، وكانت إنسانيته هذه تنبع من تربيته الإسلامية الصحيحة على يد الصحابة –رضي الله عنهم؛ فلا عجب إذا رأينا منه حُسْنَ السيرة في أخلاقه مع رعيته، ولا عجب إذا رأينا العدل والورع والصبر على الرعية، وإسداء المعروف للناس دون انتظار أي مقابل؛ فهو ليس بحاجة إلى أحد من الناس؛ فهو أمير وقائد، ويمتلك مقومات كثيرة غير أنه ينتظر الأجر من الله .

قال عنه الذهبي –رحمه الله: عبد الرحمن بن عبد الله الغَافِقِيّ أمير الأندلس وعاملها لهشام بن عبد الملك. روى عن ابن عمر، وعنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وعبد الله بن عياض، وذكره ابن بشكوال فيمن دخل الأندلس من التابعين.

وذكر الحميدي أنه روى الحديث عن ابن عمر، وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وكان صالحًا جميل السيرة في ولايته، كثير الغزو للروم، عَدْلَ القسمة في الغنائم

فتوحات عبد الرحمن الغافقي

بعد أن وحّد عبد الرحمن الغافقي –رحمه الله– المسلمين، وتيقّن أن قوة الإيمان قد اكتملت، توجّه بهم ناحية فرنسا ليستكمل الفتح من جديد، ودخل مناطق لم يدخلها السابقون، فوصل إلى أقصى غرب فرنسا، وأخذ يفتح المدينة تلو المدينة، ففتح مدينة آرل، ثم مدينة بودرو Bordeauxثم مدينة طلوشة، ثم مدينة بواتييهPoitiers، ثم وصل إلى تور Tours ، وهي المدينة التي تسبق باريس والمسافة الفاصلة بينهما حوالي ٢٩٥كم، والمسافة بينها وبين قُرْطُبَة حوالي ألف كيلو متر؛ أي أنه توغّل كثيرًا جدًّا في بلاد فرنسا في اتجاه الشمال.

وعلى بعد بحوالي ٢٥ كم إلى الشمال الشرقي لمدينة بواتييه عسكر عبد الرحمن الغافقي في منطقة تُسَمَّى البلاط ، عند قصر قديم مهجور كان بها، ثم بدأ في تنظيم جيشه لملاقاة جيش النصارى، وكان عدد جيشه يصل إلى خمسين ألف مقاتل؛ ولذا تُعَدُّ حملة عبد الرحمن الغَافِقِيّ -رحمه الله- هي أكبر حملة تدخل إلى بلاد فرنسا

وقفة في تاريخ ومصادر معركة بلاط الشهداء

لموقعة بلاط الشهداء ظرف خاص لسنا نجده في الكثير من المواقع؛ ذلك أن المصادر الإسلامية تصمت تمامًا عن ذكر تفاصيل هذه المعركة، وهذا في حقيقة الأمر من العجائب التي لا نعرف لها تفسيرًا بعدُ، فإمَّا أن ما كُتب عن المعركة ما زال مفقودًا في بطون المخطوطات غير المنشورة، ينتظر لحظة النور وهنا تنسجم الأمور؛ فالمسلمون لم يتوقَّفُوا في التأريخ لهزيمة مهما كانت قاسية لا في الأندلس ولا في غير الأندلس، لا في القديم ولا في الحديث منذ غزوة أُحُد وحُنَين، وحتى سقوط غَرْنَاطة، أو الهزائم الكبرى التي قبلها كالعِقَاب مثلاً.

فإن لم يكن ما كُتب عن المعركة مفقودًا، وكان المسلمون قد توقَّفُوا في الحديث عنه لسبب ما، فإننا لا نجد في هذه اللحظة إلاّ أن نسير مع المؤرخ المحقق الدكتور حسين مؤنس الذي أدهشه قلة التفاصيل، واجتهد في معرفة السبب فلم يجد إلاّ أن قال: «الواقع أن المسألة لا تُعَلّل إلاّ بشيء واحد: هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدَّة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرَّد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم، فاندرجت في مدارج النسيان، وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبقَ في ذاكرة الرواة منها شيء إلاّ أن أهل الإسلام قد هزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و١١٥ هـ».

وحين خلت تفاصيل المعركة من الرواية الإسلامية لم يبقَ في المتاح إلاّ الرواية الأوربية المسيحية عنها، وهي روايات حافلة بكثير من التفاصيل،

وبكثير من الأساطير كذلك.. ولقد تشبعت الروايات الأوربية بالمبالغات في وصف المعركة ووصف النصر العظيم للفرنجة، والهزيمة الساحقة الماحقة للمسلمين، مبالغة مَنْ رأى فيها إنقاذ المسيحية من الفناء على يد الإسلام الزاحف بسرعة مدهشة، والذي لم يقف أمامه حتى الآن شيء، فإذ به ينتقل من الشرق إلى الغرب، ومن جنوب المتوسط إلى شماله، ويكاد يجعل بحر المتوسط بحيرةً تامّةً لمملكته الناهضة.

إذًا فكلُّ ما نعرفه عن تفاصيل بلاط الشهداء مأخوذ من الرواية الأوربية لا غير، وخلاصة ما تُقَدِّمه الرواية الغربية نميل إلى تصديقه بعد استخلاصه من المبالغات، وإن كان لا يسلم من مؤاخذات واعتراضات كذلك، وسنعرض لها بعد توقُّفنا أمام المعركة.

الكثرة والغنيمة من عوامل الهزيمة

رغم ضخامة حملة عبد الرحمن الغَافِقِيّ -رحمه الله- تلك إلاّ أنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنًا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه؛ ومن ثَمَّ فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثَقُلَ في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المحاربون ينظرون إلى هذه الغنائم، ويُفتَنُون بهذه الأموال الضخمة التي حصَّلوها.

ثم عندما وصل عبد الرحمن الغَافِقِيُّ -رحمه الله- بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجدَّدت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والأمازيغ (البربر) من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه أمر معروف ومُتَّفق عليه، وأخذ كلٌّ ينظر إلى ما بيد الآخر؛ يقول العرب: إنهم أحقُّ لأفضليتهم. ويقول الأمازيغ البربر: نحن الذين فتحنا البلاد. ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرَّقوا قطُّ بين عربٍ وأمازيغ بربر، بل ما فرَّقوا بينهم وبين مَنْ دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك.

يمكننا أن نضيف -أيضًا- ما قد يكون من زهو واغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفًا من المجاهدين عدد لم يُسبَقْ في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزَّة، وظنُّوا أنهم لن يُغلَبوا بسبب كثرتهم هذه، لا سيما وأنهم اكتسحوا الجنوب والوسط الفرنسي، ولم تقف لهم قوَّة ذات بال.

معركة بلاط الشهداء

معركة بلاط الشهداءالتقى الجيشان؛ خمسون ألفًا من المسلمين أمام أربعمائة ألف استطاع شارل مارتل تجميعهم من كل شيء طالته يداه؛ فمحاربون ومرتزقة، وفرنجة وهمج قادمون من الشمال، وأمراء وعامة وعبيد، واندلع القتال بين الجيشين لمدَّة تسعة أيام لا غالب ولا مغلوب.

حتى إذا كان اليوم العاشر، حمل المسلمون على الفرنج حتى كادوا ينتصرون إلاَّ أن فرقة من فرسان الفرنجة استطاعت أن تنفذ إلى معسكر الغنائم في خلف الجيش الإسلامي، وهنا صاح الصائح ينادي على الغنائم، فقفلت فرقة من الفرسان في قلب الجيش الإسلامي إلى الخلف مدافعة عن الغنائم، فاهتزَّ قلب الجيش الإسلامي، ثم اهتزَّ وضع الجيش جميعه مع هذه الحركة المفاجئة، وما كان عبد الرحمن الغافقي -رحمه الله- ينادي على الناس ويحاول تجميعهم من جديد حتى أصابه سهم ألقاه من على فرسه شهيدًا، فصارت الطامَّة طامتان: ارتباك حركة الجيش، واستشهاد القائد العظيم.

بالغت الروايات الأوربية كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شَكٍّ رقم مبالغ فيه جدًّا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يَتَعَدَّ خمسين ألفًا، أو ثمانين في أقصى التقديرات.

بعد انقضاء اليوم العاشر انسحب المسلمون إلى الجنوب، وجاء اليوم الحادي عشر فنهض الفرنجة لمواصلة القتال، فلم يجدوا من المسلمين أحدًا، فتقدَّمُوا على حذر من مضارب المسلمين فإذا هي خالية، وقد فاضت بالغنائم

والأسلاب والخيرات، فظنّوا الأمر خدعة، وتريّثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه، ولم يُفَكِّر أحد منهم في تتبُّع المسلمين؛ إما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركًا، أو ربما لأن شارل مارتل اطمأن أنه يستطيع العودة إلى بلاده في الشمال مطمئنًا إلى انصراف المسلمين عنها.

قصة الغنائم

رأي الدكتور عبد الرحمن الحجي

يرفض الدكتور عبد الرحمن الحجي في كتابه «التاريخ الأندلسي» قصة الغنائم هذه، ويسوق في الردِّ عليها جملة من الأمور هي: عدم ثبوت شيء متعلق بأن ثمة نزاعًا كان بين العرب والبربر لا من قبل المعركة ولا في الوقت الذي تلاها، كذلك ما يبدو في قصة الغنيمة من أسطورية تجانب ما عُرف عن الأهداف العليا للفتح الإسلامي، ولما عُرف عن الفاتحين في فرنسا من الزهد في مثل هذه الأمور، كما أنه من الغريب أن يحمل الفاتحون غنائمهم وهم متوجهون إلى معركة يعرفون أنها حاسمة، ولو قُدِّر أن اجتمع لهم مثل هذا القدر الضخم من الغنائم -كما تصف الرواية الأوروبية- لكانوا أودعوها مدنًا مفتوحة وما حملوها معهم؛ لا سيما وقد أظهرت لنا طبيعة الفتوح في الأندلس اهتمام المسلمين بالخيل والسلاح تحديدًا لا بغير ذلك من الغنائم، كذلك تتناقض الرواية الأوروبية حين تقول بأن الفرنج لم يكتشفوا حيلة المسلمين وانسحابهم إلاّ في صبيحة اليوم التالي، وقد كانوا يتجهزون لقتال، ما يعني أنه لم تكن تبدو بوادر انتصار لهم ولا هزيمة للمسلمين، فضلاً عن أن تكون هزيمة ساحقة كما تمَّ تصويرها، بل الأرجح في هذه الحالة أن المسلمين انسحبوا بشكل تكتيكي طبيعي لَمَّا استشهد الغافقي، وهو قرار عسكري يُؤخذ بلا حرج حين تبدو صعوبة المعركة، ولا يعني في حدِّ ذاته هزيمة فادحة.

إلاّ أننا لا نميل كل الميل إلى كلام الدكتور الحجي، وإن كان طرح بعض ما يحتاج إلى دراسة متخصصة، ذلك أن الفاتحين من البشر ويجوز أن يحرصوا على الغنائم وأن يُفتنوا بها، وليسوا -على عظمتهم- بأكرم من الصحابة -رضي الله عنهم- الذين فُتنوا بها في غزوة أُحُد، كما أن الهزيمة في بلاط الشهداء إذا لم تكن كبيرة لكُنّا سمعنا بعودة أخرى للمسلمين إلى تلك المناطق، إلاّ أن ذلك لم يحدث؛ وهذا ما يعطينا الإيحاء القوي -الذي يفتقر للدليل الأكيد- بأنها كانت حقًا هزيمة مؤثّرة، وبها توقّفت الفتوحات في شمال فرنسا، كذلك لا يُفسِّر الدكتور الحجي طبيعة الصعوبات التي تدفع المسلمين لانسحاب ليس بعده رجعة، وقد عهدناهم في كل مراحل التاريخ -وفي فتح الأندلس نفسها- يُقاتلون في عدد وعدّة أقل كثيرًا من عدوهم، وفي أرض لا يعرفونها كما يعرفها أصحابها.

رأي الدكتور عبد الحليم عويس

وأمّا الدكتور عبد الحليم عويس فيبدو أنه ممن يميل إلى تفسير الغنائم كسبب للهزيمة؛ يقول: «قصة الغنيمة في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تُلقيه علينا -كذلك- أغرب! لقد بدأت أولى هزائمنا بسبب الغنيمة، ولقد وقفنا مرغمين -عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا، بسبب الغنيمة- كذلك! فقصة الغنيمة.. هي قصة الهزيمة في تاريخنا. كان قائد المعركة الأولى هو الرسول .. وخالف الرماةُ أمرَه، وخافوا من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة.. فكانت أُحُد، وشهد الجبل العظيم استشهاد سبعين رجلاً من خِيرَة المسلمين.. بسبب الغنيمة.. نعم بسبب الغنيمة!

معركة بلاط الشهداءوكان قائد المعركة الأخيرة عبد الرحمن الغافقي آخر مسلم قاد جيشًا إسلاميًا منظمًا لاجتياز جبال البرانس، ولفتح فرنسا، وللتوغّل -بعد ذلك- في قلب أوربا. وهُزِمَ الغافقي.. سقط شهيدًا في ساحة بلاط الشهداء إحدى معارك التاريخ الخالدة الفاصلة.. وتداعت أحلام المسلمين في فتح أُوربا، وطَوَوا صفحتهم في هذا الطريق.. وكان ذلك للسبب نفسه الذي

استفتحنا به دروس الهزيمة.. أعني بسبب الغنيمة. ومنذ تمَّ الاستقرار في المغرب العربي، وإسبانيا الإسلامية، وهم يطمحون إلى اجتياز جبال البرانس وفَتْح ما وراءها، هكذا أراد موسى بن نصير، لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي أن يُغامِر بالمسلمين في طريق مجهولة، ثم فكّر على نحو جدي السمحُ بن مالك الخولاني والي الأندلس ما بين عامي ١٠٠-١٠٢هـ، وتقدّم فاستولى على ولاية سبتمانيا إحدى المناطق الساحلية المطلّة على البحر الأبيض المتوسط جنوب فرنسا، وعبر -بذلك- السَّمْح جبال البرانس، وتقدَّم فنزل في أرض فرنسا مُنعطِفًا نحو الغرب؛ حيث مجرى نهر الجارون، مُستوليًا في طريقه على ما يقابله من البلدان، حتى وصل إلى تولوز -في جنوب فرنسا- لكنه لم يستطع أن يستقرَّ فيها، وقُتِلَ السَّمْحُ، وتراجعت فلول جيشه تحت قيادة أحد قواده عبد الرحمن الغافقي فكأن السَّمْح لم ينجح إلاّ في الاستيلاء على سبتمانيا».

وعلى كل حال، فما زال الباحثون في انتظار الجديد الذي تجود به الأيام من نفائس المخطوطات، مما عسى أن يساعدنا في فهم هذه المعركة التي بها توقفت فتوحنا في أوربا.

النصر الكارثي

ربما يبدو هذا العنوان غريبًا على البعض؛ لكنه في الحقيقة كان ما أثبته الواقع وشهد به التاريخ، ولقد فطن إلى هذا المعنى بعض المنصفين من مؤرخي أوربا، قال أناتول فرانس: "إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتيه -بلاط الشهداء- حين هَزَم شارل مارتل الفرسان العرب -المسلمين- في بواتيه سنة ٧٣٢م، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوربية".

بين التاريخ والواقع

يقول الله في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغترُّوا بهذه الدنيا التي فُتحت عليهم فتنافسوها؛ ففي الحديث عن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله قال: «فَوَاللَّهِ! مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». فسُنَّة الله في خلقه أنه إن فُتِحَت الدنيا على الصالحين؛ فاغترُّوا بها وتنافسوا فيها؛ فإنها ستُهلكهم لا محالة كما أهلكت مَنْ كان قبلهم؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة؛ وهو العنصرية والعصبيَّة القَبَلِيَّة، التي كانت بين العرب والأمازيغ (البربر) في هذه بلاط الشهداء، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذه العصبية ووَعَته كتبهم، وظلّ في ذاكرتهم على مدار التاريخ، حتى مرَّت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة ١٨٣٠م حتى سنة ١٩٦٠م، فلمّا قامت الحركات الاستقلاليّة منذ سنة ١٩٢٠م وما بعدها، فكّرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة، ولم تجد أمامها إلاّ إشاعة الفتنة بين العرب والأمازيغ (البربر)، وضَرْب بعضهم ببعض، فكانت تُشيعُ بين الأمازيغ البربر أنهم قريبون من العنصر الآري وهو العنصر الأوربي، وبعيدون عن العنصر السامي وهم العرب؛ أي: أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء. وذلك للتشابه الكبير بين الأمازيغ (البربر) والأوربيين في المظهر، وهذا ما لا يعترف به الإسلام ولا يُقِرُّه على الإطلاق، فمعيار التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتفِ فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق الأمازيغ (البربر)، في حين منعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق؛

وذلك حتى يتمّ فصل الأمازيغ (البربر) عن العرب تمامًا في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء، إلاّ أنها لم تُفلح على الإطلاق في تحويل الأمازيغ البربر من الإسلام إلى النصرانية، فظلّ الأمازيغ (البربر) على إسلامهم، وإن كانت لغتهم قد تغيّرت.

وكانت قبائل الأمازيغ (البربر) تمثّل ١٥٪ من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية، إلاّ أنهم كانوا يتمسّكون بالعربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، لكن حين قامت فرنسا بنفخ نار العصبية، بدأت تُذْكي الروح الأمازيغية (البربريّة) في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تُعَلِّم اللغة الأمازيغية؛ حتى إنها أنشأت في فرنسا عام ١٩٦٧م أكاديميةً خاصةً لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية؛ رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، وقامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة، وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة الأمازيغية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من الأمازيغ (البربر) لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا؛ حتى إنها في عام ١٩٩٨م أنشأت ما يُسمَّى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تُجَمِّع الأمازيغ (البربر) من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتُعَلِّمهم اللغة الخاصة بهم؛ وكل ذلك لفصل الأمازيغ (البربر) عن العرب، تلك الجموع التي ما هي إلاّ جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في بلاط الشهداء وما تلاها فلم تتوانَ، وفي الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد مسلم عربي، كانت هي نفسها التي رفضت المشروع الذي تَقَدَّم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة ١٩٩٩م بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي ردَّ عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تُريد بلقنة فرنسا. أي: جعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العِرْقِ وبحسب العنصر، فهذا الأمر -في رأيهم- حلال على الجزائر حرام على فرنسا!

وقفات بعد معركة بلاط الشهداء

بعد استشهاد عبد الرحمن الغَافِقِيّ -رحمه الله- في موقعة بلاط الشهداء في منطقة بواتيه، وبعد هزيمة المسلمين فيها انسحب المسلمون، وتوقّفت الفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة، وقبل استكمال الطريق والخوض في تفاصيل ما حدث بعد بلاط الشهداء، هناك بعض النقاط المهمّة، والتي نَوَدّ الوقوف أمامها قليلاً.

أولها: لماذا لم يقم أهل الأندلس بالثورات رغم ضآلة الحاميات الإسلامية في الأندلس؟

كان قِوَامُ الجيش الإسلامي في بلاد الأندلس ثلاثين ألفَ مقاتلٍ، كان مع طارق بن زياد منهم اثنا عشر ألفًا، وقد استُشهِد منهم في وادي بَرْبَاط ثلاثةُ آلافٍ، واستشهد مثلُهم في الطريق من وادي بَرْبَاط إلى طُلَيْطِلَة، فوصل طارق بن زياد إلى طُلَيْطِلَة بستة آلاف فقط من الرجال، ثم عبر موسى بن نصير بثمانية عشر ألفًا، فأصبح قِوَام الجيش الإسلامي أربعة وعشرين ألف مقاتل، تمّ توزيعهم على كل مناطق الأندلس الواسعة وبعض مناطق جنوب فرنسا، كحاميات إسلامية وفاتحين لمناطق أخرى لم تُفْتَح.

فلماذا لم يقم أهل هذه البلاد -على سَعَتِها- بالثورة على المسلمين، أو على الحاميات الإسلامية الموجودة فيها؛ رغم قِلّتها الملحوظة التي لا تُقارَن بعدد السكان على الإطلاق؟!

ومثل هذا السؤال هو العجب كل العجب! فالسؤال الذي كان متوقعًا هو: لماذا يثور أهل الأندلس؟ وليس لماذا لم يثوروا؟ كان أهل الأندلس قبل دخول الإسلام يعيشون ظلمًا مريرًا وضنكًا شديدًا؛ تُنهب أموالهم وتُنتهك أعراضهم فلا يعترضون؛ حُكّامهم في الثروات والقصور يتنعّمُون، وهم لا يجدون ما يسدّ الرمق، يزرعون الأرض وغيرُهم يأكل ثمارها، بل إنهم يُباعون ويُشترَوْن مع تلك الأرض التي يزرعونها.

فلماذا إذًا يثور أهل الأندلس؟! أيثورون من أجل هذا الذي أذاقهم العذاب ألوانًا؟! أم يثورون من أجل ظهور لُذريق جديد؟! أم يثورون من أجل ذكريات أليمة مليئة بالجوع والعطش، والنهب والسرقة، والظلم والتعذيب والتنكيل، والفساد والرشوة والجبروت؟!

ثم ماذا كان البديل المطروح؟ إنه الإسلام الذي حملته أرواح المسلمين الفاتحين، إنه الإسلام الذي حرَّم كل ما سبق، وجاء ليقول لهم: تعالَوْا أُعْطِكم بدلاً من الظلم عدلاً؛ ليس هبةً مني، لكنه حقٌ لكم ولقومكم وأولادكم وذريتكم من بعدكم. إنه الإسلام الذي لم يُفَرِّق بين حاكم ومحكوم، فإن حدث لأيٍّ منكم مظلمة قام القاضي لا يُفَرِّق بين المسلم واليهودي والنصراني، أيًّا كان شكله أو لونه أو جنسه.

إنه الإسلام الذي لا يرفع من قيمة الأشخاص بقدر أموالهم أو صورهم أو أجسامهم؛ إنما بقدر أعمالهم، والأعمال متاحة للجميع الغني والفقير، الحاكم والمحكوم، إنه الإسلام الذي يقول فيه الحاكم لك: إنْ كنتَ من المسلمين وكنت غنيًّا فلن تدفع إلاَّ ٢,٥٪ زكاةً لأموالك، إذا بلغت النِّصابَ، وحال عليها الحَوْلُ، وإن كنت فقيرًا فلن تدفع شيئًا، بل ستأخذ من بيت مال المسلمين إلى أن تغتني.

وإن كنت من غير المسلمين وكنت غنيًّا وقادرًا على القتال -وليس غيرَ ذلك- فستدفع جزيةً؛ هي أقل بكثير من زكاة المسلمين، نظير أن يُدَافعوا عنك، وإن هم فشلوا في الدفاع عنك فستُرَدُّ إليك أموالك.

إنه الإسلام خلاص الشعوب؛ وحين عرفه أهل الأندلس تمسَّكوا به، واعتنقوه اعتناقًا، ولم يرضَوْا عنه بديلاً؛ فكيف يحاربونه ويُضَحُّون بهذا النعيم المقيم في الدنيا والآخرة من أجل حياة المرارة والعذاب والذلِّ والحرمان؟!

ثانيا: ولكن البعض سيقول: هل من المعقول أن كل أهل الأندلس أعجبوا بهذا الدين؟! ألم يكن هناك ولو رجل واحد يُريد أن يثور ويعترض حبًا في سلطان أو مصلحة كانت قد ضُيِّعت عليه؟!

نقول: بلى؛ كان هناك كثير من الناس من أصحاب المصالح، الذين كان لهم أعوان كثيرون أرادوا أن يثوروا على حكم الإسلام؛ ليسترجعوا مجدهم، ويُحَقِّقوا مصالح كانت لهم، أمَّا لماذا لم يثوروا؟ فالجواب عنده في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

فلقد كانت للمؤمن زمنَ الفتوحات رهبة في قلوب النصارى واليهود، وفي قلوب المشركين بصفة عامّة، فالله يُلقي على المؤمن جلالاً ومهابةً؛ فيخافه القريب والبعيد، يقول : «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[٣]. ويقول : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

ولم يكن هذا الرعب بسبب بشاعة في الحرب، أو إجرام منقطع النظير، إنما كان هبة ربانية لجند الله ولأوليائه، فلم تكن حرب الإسلام إلاّ رحمةً للناس كل الناس؛ فها هو ذا كما جاء في الحديث الشريف عن بُريدة حين كان يُوَدِّع الجيوش فكان يخاطبهم؛ قائلاً: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا».

وفي رواية: «وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا وَلاَ امْرَأَةً».

فأين هذا من حروب غير المسلمين مع المسلمين؟! أين هذا مِن قَتْلِ مائتي ألف مسلم من المدنيين في البوسنة والهرسك وكوسوفا؟! أين هذا من فِعْل الروس في الشيشان، وفِعْل الهنود في كشمير، وفِعْل اليهود في فلسطين، وفِعْل أميركا في أفغانستان والعراق؟!

فرغم أن الرهبة والرعب أُلقِيَ في قلــوب الأعــداء، إلاّ أن حــروب المسلمين كانت رحمة للعالمين؛ حتى لقد سَعِدَ الذين لم يدخلوا في الإسلام مــن اليهود والنصارى في ظلِّ حكم الإسلام أيما سعادة؛ عملاً بقولــه : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فقد تُرِكَتْ لهم كنائسُهم، وكان لهم قضاءٌ خاصٌّ بهم، ولم يُفَــرَّق بــين مسلم ونصراني ويهودي في مظلمة؛ فكان العجب حقًا أن يثوروا، العجب كل العجب أن ينقلبوا على الإسلام، والعجب كل العجب أن يرفضوا حكم الإســلام وقد جاء من عند حكيم خبير، يَعْلَمُ ما يُصلِحُ كونَه وأرضــه وعبيــده؛ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ثالثا: تساؤل البعض عن عوامل الهزيمة في بلاط الشهداء؛ إذ كيف تتعلق قلوب هذا الجيل القريب من عهد رسول الله وصحابته -وهو جيل التابعين أو تابعي التابعين- بالغنائم وحب الدنيا؟! وكيف تظهر فيهم هذه العنصرية القبلية؟!

وللإجابة على الشقِّ الأول من هذا السؤال، نقــول: إذا كانــت هــذه العوامل قد حدثت في سنة ١١٤هـ=٧٣٢م فإنها قد حدثت مع الصحابة فــي عهد الرسول سنة ٣هـ=٦٢٥م وذلك في غزوة أُحُد، والتي نزل فيها قولــه مخاطبًا الصحابة: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمــران: ١٥٢]، وكأنَّ غزوة أُحُدٍ تُعيد نفسَها من جديد في بلاط الشهداء.

فقد نزلت هذه الآية في الصحابة حين خالفوا أمر الرســول ، ونــزل الرماة وتركوا مواقعهم طلبًا للغنيمة، بعد أن تيقّنوا من النصر، فكانت الهزيمة بعد النصر؛ حتى إن عبد الله بن مسعود قال: ما كنتُ أحسب أنَّ مِنّا مَنْ يُريد

الدنيا حتى نزلت هذه الآية: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهكذا في بلاط الشهداء كانت الغَلَبَةُ للمسلمين في أول المعركة في أول يومين أو أول ثلاثة أيام، ثم لما التفّ النصارى حول الغنائم يأخذونها – وكان قد وقع حبُّها في قلوب المسلمين– حدث الانكسار في الجيش ثم هُزِمُوا.

يقول ابن كثير –رحمه الله– في تفسير قوله : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾؛ أي: لم يستأصلكم في هذه الموقعة، وأعطاكم الفرصة للقيام من جديد. وهكذا في بلاط الشهداء، لم يُستأصَلِ الجيش الإسلامي، لكنه عاد وانسحب ليقوم من جديد.

وإذا جئنا إلى ما قبل أُحُد، وإلى الرّعيل الأول من الصحابة في غزوة بدر وجدنا –أيضًا– صورةً من صور بلاط الشهداء، وذلك حين انتصر المسلمون ثم اختلفوا على الغنائم؛ حتى إن سورة الأنفال التي نزلت بعد ذلك تُعَظِّم من هذا النصر المجيد قد بدأت بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. وهو كلام له وَقْعُ السِّهَام على الصحابة، لكنه أمر قد حدث وهو أصيل في النفس البشرية.

ومن هنا فما حدث في بلاط الشهداء ليس بجديد؛ لأنه من عيوب النفس البشرية، وقد حدث مثله في بدر وفي أُحُد، لكن كان هناك اختلافٌ؛ فالرسول بعد غزوة أُحُد تدارك الأمر بسرعة؛ فحمّس المسلمين على الجهاد، وذكّرهم بالآخرة حتى قاموا في حمراء الأسد، فكانت الغلبة وردُّ الاعتبار، أمّا بعد بلاط الشهداء فلقد قام بالفعل رجل من المسلمين هو عقبة بن الحجاج – رحمه الله–، يُحَمِّسهم ويُشَجِّعهم، إلاّ أنه لم تحدث موقعة بعد بلاط الشهداء

كموقعة حمراء الأسد بعد أُحُد -يسترد فيهـا المـسلمون اعتبـارهم وثقـتهم بأنفسهم.

كذلك اختلف الفريقان في أن معظم جيش المسلمين في بلاط الـشهداء لم يرجع عن حبِّه للدنيا وتعلّقه بها، أمّا في أُحُد فقد قال عـنهم : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ؛ ولذلك لم يَعُدِ المسلمون بعد بلاط الشهداء كما عادوا بعد أُحُد مباشرة.

ومن أَوْجُهِ الشبه الكبيرة -أيضًا- بين أُحُد وبلاط الشهداء أنه عنـدما أُشيع خبر وفاة الرسول في أُحُد حدث الانكسار، وانهزم المـسلمون وفـرُّوا، وكذلك بالنسبة لبلاط الشهداء، فحينما قُتِلَ عبدُ الرحمن الغافقي -رحمـه الله- انسحب المسلمون، وانكمشوا على أنفسهم إلى الداخل، وهنـا تكمـن العبـرة والعِظَة من أحداث المسلمين المتكرِّرة وشديدة التشابه.

مشكلات القومية والعنصرية

وهي الشق الثاني من الـسؤال، وكـسابقتها فـإن مـسألة القوميـة والعنصرية كانت قد ظهرت -أيضًا- في عهد الرسول ، وهذا لا يُعَدُّ قَـدْحًا في هذا العهد أو في هؤلاء الصحابة، بقدر ما هو بيانٌ لأمور فُطِرَت وجُبِلَـت عليها النفسُ الآدمية، لكن فرقٌ بين أن تعود هذه النفس إلى طريق بارئها وبين أن تتمادى في غيِّها.

ولعلّنا نذكر هنا تلك الحادثة المشهورة التي حدثت بين أبي ذرٍّ وبـين بلال بن رباح ؛ حين عيَّره أبو ذرٍّ بأُمِّه في خلاف بينهما؛ قائلاً لبلال: يـابن السوداء.

فذهب بلال إلى رسول الله مغاضبًا يحكي له ما حدث، فما كـان مـن الرسول إلاّ أن غضب غضبًا شديدًا، وقال لأبي ذرٍّ: «طَفُّ الـصَّاعِ ، إِنَّـكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَـانَ أَخُـوهُ

تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

والعبرة هنا بردِّ فعل أبي ذرٍ حيال هذا الغضب من رسول الله ، وحيال هذا الذنب الذي اقترفه، فمَا كان من أبي ذرٍ إلاّ أن وضع رأسه على التراب مُصرًّا على أن يطأ وجهَه بلالٌ بقدمه؛ حتى يُكَفِّر عن خطيئته تلك، وكان رَدُّ فعل بلال أن غفر لأبي ذرٍ، ورفض أن يطأ وجهه، وقد حدث مثل هذا -أيضًا- بين الأوس والخزرج، حين فَتَنَ بينهم شاسُ بن قيس، فقالت الأوس: يا لَلأوس. وقالت الخزرج: يا لَلْخَزرج. وحينها قال الرسول : «اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ».

وليس أدل على تلك القَبَلِيَّة مما حدث بمجرَّد وفاة الرسول من فتنة بني حنيفة، واجتماع الناس حول مُسَيْلِمَة الكَذَّاب، حتى سُئِلَ رجلٌ من أتباع مُسَيْلِمَة: أتعلم أن محمدًا صادق ومسيلمة كاذب؟ فأجاب قائلاً: والله أعلمُ أنَّ محمدًا صادق، وأن مسيلمةَ كاذب، ولكنَّ كاذب بني ربيعة، أحبُّ إليَّ من صادق مضر. هكذا كانت النظرة قَبَلِيَّة تمامًا في نظر هذا الرجل، ولو لَمَسَ الإيمانُ قلبَه ما قال مثل قولته هذه.

إذًا فقد ظهرت العنصرية والقبلية منذ عهد رسول الله ، إلاّ أن الرسول كان يتدارك هذا الأمر بسرعة، ويُحَفِّز الناس بالإيمان ويُقَرِّبهم إلى ربهم، ويُذَكِّرهم بالآخرة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. فسرعان ما يتجاوزون ما حدث ولا يعودون،

ب ـ عصر الاضطراب والثورات ١٢٣ – ١٣٨ هـ

الفترة الثانية من عهد الولاة

تبدأ هذه الفترة سنة ١٢٣هـ=٧٤١م وحتى سنة ١٣٨هـ=٧٥٥م ، وقد شهدت هذه الفترة حروبًا كثيرة ونزاعات متجدِّدة تحكّمت فيها العصبيات

القبلية والعنصرية البغيضة، التي اتخذها ولاة الأندلس في ذلك الحين دَيْنًا لهم في تعاملهم؛ سواء مع العرب أو الأمازيغ (البربر)؛ مما أدّى إلى ظهور ثورات متعدِّدة، ودخول أفكار جديدة لم تعهدها الأندلس من قبلُ.

ثورات الخوارج في المغرب والأندلس

بوفاة عقبة بن الحجاج -رحمه الله- آلت ولاية الأندلس إلى عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ مرّة ثانية ١٢٣هـ=٧٤٢م ، وقد حفلت ولايته الثانية هذه بأحداث جسام، كادت أن تعصف بالإسلام في الأندلس كلية، كان أخطرها تجدُّد الصراع العنصري البغيض بين العرب والأمازيغ البربر، وظهور طائفة الخوارج، الذين أشعلوا أُوَار الحرب وقادوا الثورة على عمال بني أمية، الذين أساءوا استعمال السلطة والمعاملة مع الأمازيغ (البربر)؛ مما أتاح للأمازيغ (البربر) اعتناق تلك الأفكار الخارجة عن الدين؛ فقد وجدوا فيها مناصًا لنيل حقوقهم المغتصبة من جَوْر الولاة.

بدأت الفتنة الأمازيغية (البربرية) الكبرى في المغرب العربي على يد الخوارج، الذين تغلغلوا في صفوف الأمازيغ البربر ونشروا تعاليمهم، التي لاقت قبولاً واسعًا في المجتمع الأمازيغي البربري، الذي يُعاني من ظلم الولاة، فخرجوا بقيادة زعيمهم ميسرة المطغري -أو المدغري- على حاكم طَنْجَة عمر بن عبد الله المُرَادِيّ ;وقتلوه، وزحفوا إلى بلاد السوس في الغرب وقتلوا عاملها إسماعيل بن عبيد الله، كان لكل هذا وقع الصدمة على عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية، فجمع جموعه وجيَّش جيوشه؛ ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاظم قوّة الخارجين عليه، فالتقى الفريقان من العرب والأمازيغ البربر عند وادي شليف، وكانت الهزيمة المنكرة للعرب؛ فقد قُتِلَ فيها أشرافهم وفرسانهم وأبطالهم؛ لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك سنة ١٢٣هـ=٧٤٢م .

وبلغت أخبار الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فغضب غضبته الشهيرة؛ وقال: «والله! لأغضبنّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنّ لهم جيشًا أوله

عندهم وآخره عندي». فعزل هشامُ بن عبد الملك عبيدَ الله بن الحبحاب، واستقدمه في جمادى الآخرة سنة ١٢٣هـ، وبعث كلثوم بن عياض القُشَيْرِيّ على رأس جيش بلغ ثلاثين ألفًا، وعَهِد له بولاية إفريقية وضَبْط أمورها، وجعل معه ابن أخيه بَلْج بن بشر القُشَيْرِيّ، وثعلبة بن سلامة العَامِلِيّ ، واستعدّ الجيشان العربي بقيادة كلثوم بن عياض والأمازيغي البربري بقيادة خالد بن حميد الزَّنَاتِيّ، واقتتلوا قتالاً شديدًا، لكن دارت الدائرة على العرب، وقُتِلَ قائدهم كلثوم بن عياض، واستطاع بَلْج بن بشر أن ينجو بنفسه وبعضًا من جنده، وتحصَّنوا بمدينة سَبْتَة، وفرض الأمازيغ البربر الحصار على بَلْج ومَنْ معه لمدَّة سنة كاملة ١٢٣، ١٢٤هـ، وكانوا طوال هذا العام يستغيثون بعبد الملك بن قَطَن والي الأندلس، ولكن بلا مجيب!

ثورات الخوارج في الأندلس

ويبدو أن عَدْوَى الخروج على الحكّام انتقلت إلى الأندلس، فلم تلبث الثورة أن انتقلت إلى أمازيغ بربر الأندلس، الذين أعلنوا العصيان، وبدءوا بجِلِّيقِيَّة وأستورقة في الشمال الغربي للأندلس حيث الكثافة الأمازيغية البربرية، فقتلوا العرب وطردوهم من البلاد، إلاّ ما كان من سَرَقُسْطَة فقد كانت الغلبة فيها للعرب.

وبعد أن ثَبَّت الأمازيغ البربر أقدامهم في تلك المناطق، زحفوا باتجاه المدن الكبرى للسيطرة عليها من خلال ثلاثة جيوش، وَفْقَ خُطّة ذكية أدركت مواطن الضعف في الولاية الأندلسية، وعملت على استغلالها:

الأول: إلى طُلَيْطِلَة عاصمة الثغر الأدنى.

الثاني: إلى قُرْطُبَة عاصمة الأندلس.

الثالث: إلى الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب للبلاد.

وأمام هذا الزحف الأمازيغي البربري لم يجد عبد الملك بن قَطَن بُدًّا من الاستعانة ببَلْج وأصحابه المحاصرين في سَبْتَة، وقد كان لا يرضى أن يُغيثهم، ولا يرضى أن يُنزلهم الأندلس حتى أكلتهم المجاعة، فبعث إليهم بالسفن والمئونة، وسمح لهم بالعبور إلى الأندلس؛ لإخماد الثورة الأمازيغية البربرية، التي كادت أن تعصف به ، وكانت المواجهة الأولى بين بَلْج بن بشر والجيش الأمازيغي البربري الثالث المتجه ناحية الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، وقد وقعت المعركة في ذي القعدة من عام ١١٣هـ على مقربة من شَذُونَة، وأثبت فيها الجنود الشاميون بقيادة بَلْج بن بشر شجاعة وإقدامًا، رجّحت كِفّة النصر فيها للعرب، وفي التوقيت نفسه كانت قُرْطُبَة تصدُّ هجمات الجيش الأمازيغي البربري الثاني، وبمجرَّد أن انتصر بَلْج بن بشر على الجيش الثالث لحق بقُرْطُبَة فقاتل مع عبد الملك بن قَطَن الجيشَ البربري الثاني، فهزماه هزيمة ساحقة، حتى لم يبقَ من الأمازيغ البربر إلاّ الشريد، الذي لحق

بالجيش الأول المحاصر لطُلَيْطِلَة، وهناك عند وادي سليط جرت معركة طاحنة سُحق فيها الجيش الأمازيغي البربري الأول، وسُحقت ثورتهم، وتشتّت جمعهم، وتفرّقوا في البلاد، ولم تقم لهم بعدها قائمة.

العصبية القبلية بين القيسية واليمنية

مقتل عبد الملك بْن قطن

خرج عبد الملك بن قَطَن مظفّرًا بعد أن أنهى ثورة الأمازيغ (البربر) في الأندلس، ولكنه لم يطمئن على سلطانه ما دام بَلْج بن بشر وجنوده الشاميون في الأندلس، وكانت هواجس ابن قَطَن في محلِّها، فعندما عرض على بَلْج الجلاء من الأندلس، طبقًا لما اتفقا عليه قبل دخول بَلْج الأندلس، رفض بَلْج بن بشر وجنوده الشاميون أن يعودوا مرَّة أخرى إلى المغرب بعدما أنقذوا الأندلس وابن قَطَن، وقال بَلْج بأنه ولي الأندلس بعهد من عمِّه كلثوم بن عياض، الذي ولاّه الخليفة أمر المغرب، وأيّده في هذا ثعلبة بن سلامة، وتنادوا بخلع ابن قطن وتولية بلج، فانحازت إليهم العرب اليمانية في الأندلس، وهجموا على ابن قَطَن -الذي كان قد قارب التسعين من العمر- في قصره بقُرْطُبَة، واعتقلوه ثم صلبوه، وذلك في ذي القعدة ١٢٣هـ= سبتمبر ٧٤١م.

العصبية القبلية بين القيسية واليمنية

العصبية القبلية كان لمقتل عبد الملك بن قَطَن ردُّ فعل مؤلم ومؤثِّر، ألهب مشاعر الحقد والضغينة، وجدَّد الصراع بين القيسية واليمنية؛ فقد توجَّهت جموع المتحالفين مع قَطَن وأمية ابنا عبد الملك بن قَطَن نحو قُرْطُبَة، ودارت بينهم وبين الشاميين معركة ضارية عند أقوة برطورة في شوال (١٢٤هـ=٧٤٢م)، قاتل فيها الشاميون قتالَ مَنْ يطلب الموت دون الحياة؛ فهي معركة مصيرية بالنسبة لهم، فهم إمَّا أن يكونوا بعدها أو ألاَّ يكونوا؛ لذلك كان النصر حليفهم، وفيها أُصيب بَلْج بن بشر بسهم، تسبَّب في موته بعدئذ، واختار الشاميون بعده ثعلبة بن سلامة العَامِلِيّ أميرًا عليهم.

في هذه الأثناء تجمّعت جموع المتحالفين مرّة أخرى ناحية قُرْطُبَة للقضاء على الشاميين، فخرج لهم ثعلبة بن سلامة وجنده إلاّ أنه هُزم هزيمة منكرة، وانسحب إلى مَارِدَة وتحصن بها، وصادف ذلك عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة ١٢٤هـ)، فأحكموا الحصار على الشاميين، واطمأنّوا إلى النصر وغرّهم ما هم فيه من القوة، وشعر ثعلبة بذلك؛ فأرسل إلى عامله على قُرْطُبَة يستنجده ويطلب منه المساعدة العسكرية، فوصلت المساعدة من قُرْطُبَة في صبيحة عيد الأضحى، واستغلّ ثعلبة انشغال المحاصرين عنه باحتفالاتهم، فباغتهم بالهجوم، وكانت مقتلة عظيمة، دفع فيها المتحالفون عليه الثمن باهظًا، ولم يتورّع الشاميون عن القتل، ولا عن استرقاق أسراهم من الرجال والنساء والأطفال، البالغ عددهم عشرة آلاف أو يزيد، وقد حملهم ثعلبة إلى قُرْطُبَة، وهو يُريد أن يقتلهم جميعًا، إلاّ أن حنظلة بن صفوان -والي إفريقية للخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك- بعث أبا الخطّار حسام بن ضرار الكلبي لإنقاذ الموقف في الأندلس، بعد أن كادت العصبية القبلية تعصف به، وذلك في رجب سنة (١٢٥هـ=٧٤٣م)، وقد رضي البلديون والشاميون به.

أبو الخطار حسام بن ضرار

وصل أبو الخطّار على رأس الطالعة الثانية من الشاميين للأندلس بعد طالعة بَلْج بن بشر الأولى، فأظهر العدل والإنصاف، وأطلق سراح الأسرى والسبي، وتوحّدت كلمة المسلمين في الأندلس، وأنزل أهل الشام في الكُوَرِ، ومن هنا عاد الاستقرار والهدوء النسبي إلى الأندلس حينًا.

ولكن يبدو أن داء العصبية والقبلية كان متجذِّرًا في النفوس آنذاك، فما هي إلاّ أيام حتى غلبت النزعة القبلية على أبي الخطّار وهو يمني متعصب، ووصلت به عصبيته إلى أن تحاكم إليه يمني وقيسي، وكان القيسي أبلغ حُجة من اليمني، ولكن غلبت عليه عصبيته فحكم لليمني، فما كان للقيسي إلاّ أنه ذهب إلى زعيم قومه القيسية وهو الصّمِيل بن حاتم؛ ليطلب حقّه المسلوب، فذهب الصّمِيل إلى أبي الخطّار، فأهان أبو الخطّار الصّمِيلَ، وضربه حتى

اعوجّت عمامته، فقال له بعض الحجّاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجَوْشَن. فقال: إن كان لي قوم فسيُقِيمُونها. وكان ذلك إيذانًا باشتعال أُوَار الحرب مرّة أخرى بين القيسية واليمنية.

الصميل بن حاتم

استطاع الصّمِيل بن حاتم أن يجمع قومه، وأن يستقطب بعض الشخصيات اليمنية الساخطة على أبي الخطّار من اللخميين والجُذاميين، كان منهم ثَوَابَة بن سلامة العَامِلِيّ الجُذَامي، الذي وعده الصّمِيل بالولاية إن هو انتصر على أبي الخطّار.

وعجل أبو الخطّار إلى لقاء الصّمِيل وقومه القيسية، وكان اللقاء عند وادي لكة في رجب ١٢٧هـ= إبريل ٧٤٥م، وقد تفرّق جمع أبي الخطّار بعد أن تقاعس الكلبيون عن قتال بني عمومتهم من اللخميين والجُذَاميين، ووجد أبو الخطّار نفسه وحيدًا، فعزم على الفرار إلى قُرْطُبَة، ولكن الصّمِيل قبض عليه وسجنه وخلعه، وولّى مكانه ثَوَابَة بن سلامة الجُذَامي عام (١٢٨هـ=٧٤٥م)، فاجتمع رجال اليمنية من أنصار أبي الخطّار لنصرته، واستطاعوا التغلّب على حُرّاسه، وأخرجوه من سجنه بقُرْطُبَة، فأقام بين قبائل كلب وحمص، واعترفوا به واليًا شرعيًا على الأندلس، وبدأ أبو الخطّار يأخذ خطوات عملية نحو استعادة مُلكه الضائع، الذي سلبه منه القيسية بزعامة الصّمِيل، وتوجّه بجموعه إلى قُرْطُبَة ليأخذها، فخرج إليه ثَوَابَة بن سلامة، فتفرّق الناس عن أبي الخطّار، وانسحب بجيشه، ليُعِيدَ الكرة مرّة أخرى.

ولم ينعم ثَوَابَة بن سلامة بمُلك الأندلس طويلاً؛ فقد وافاه الأجل بعد عام من ولايته في المحرم (١٢٩هـ=٧٤٦م)، وبقيَت الأندلس أربعة أشهر بعده دون والٍ، مع أن الصّمِيل يستطيع أن يُنَادي بنفسه واليًا، إلاّ أنه لم يفعل، واكتفى برصد اللعبة السياسية وإدارتها من وراء الستار.

وقد تميزت هذه الفترة من عهد الولاة بكثرة المرشَّحين للولاية، ولكلٍّ منهم أتباعه، فهذا أبو الخطّار الكلبي، وهذا يحيى بن حريث الجُذَامي، وهذا عمرو بن ثَوَابَة مدعيًا أنه أحق بالولاية بعد أبيه، وفوق ذلك كله كان عقل الصَّمِيل بن حاتم وتدبيره، وليس أدلّ على ذلك قوله: «نُقَدِّم رجلاً يكون له الاسم ويكون لنا الحظُّ».

الصميل بن حاتم ويوسف الفهري

اشتد النزاع بين الأطراف المتنازعة على الولاية، وبدا كل منهم متمسكًا برأيه وأحقيته، محتميًا بقومه وعشيرته، وفي هذا الجوِّ المشحون بالعصبية، التي تُفضي إلى التقاتل والتناحر، توصَّل الصَّمِيل إلى حلٍّ يقضي بتقاسم السلطة بين القيسيين واليمنيين على شكل تعاقب سنوي في الحكم، واقتنع الطرفان، وبقيت المشكلة في أول والٍ للأندلس، وقد بادر القيسية بقيادة الصَّمِيل إلى تقديم شخصيتهم الأولى؛ فاقترح الصَّمِيل أن يكون يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ هو أول الولاة، واستطاع الصَّمِيل أن يُرْضِيَ يحيى بن حريث؛ فأعطاه كورة ريَّة فرضي بها وقنع، ووقع الاتفاق بين القيسية واليمنية على يوسف الفِهْرِيّ في جمادى الأولى (١٢٩هـ=٧٤٧م)، على أن يجتمع القوم بعد عام ليختاروا الشخصية اليمنية التي ستلي الأمر بعد يوسف الفِهْرِيّ.

معركة شقندة

وما أن استقرَّ الأمر في الأندلس، حتى عزل الصَّمِيل يحيى بن حريث الجُذَامي عن كورة ريَّة، حتى لا تقوى شوكته مرَّة أخرى ويكثر أنصاره من اليمنية؛ فاشتدَّ غضب يحيى بن حريث لهذا القرار، وسارت رُوح العصبية مرَّة أخرى، ووضع يحيى بن حريث يده في يد أبي الخطَّار، فاجتمعت كلمة الجُذَاميين والكلبيين وباقي اليمنية في الأندلس لمناصرة يحيى بن حريث، واجتمعت كلمة مضر وربيعة لمناصرة يوسف الفِهْرِيّ والصَّمِيل بن حاتم.

وزحف أبو الخطّار ويحيى بن حريث ناحية قُرْطُبَة، وعسكر الجيش عند نهر قُرْطُبَة (الوادي الكبير) عند قرية شقندة، وعبر الصّميل والفِهْرِيّ وجنودهما إليهما، ودارت معركة شقندة (١٣٠هـ=٧٤٧م)، وقد استمرّ القتال سجالاً بين الفريقين، حتى استعان الصّميل بعَوَامِّ السُّوق وغوغائها، فاشترك أربعمائة منهم في القتال، ليس لهم همٌّ إلاّ القتل، فلمّا رأى اليمنيون ذلك دبّ الرعب في قلوبهم، وخارت عزائمهم، وأثخن القيسية فيهم القتل، وكان منهم عمرو بن حريث وأبو الخطّار الكلبي الذي قُتِلَ بعد أن وقع في الأسر، وأراد الصّميل أن يشفي غليله وأحقاده من اليمنية، فأمر بالأسرى أن يُقتلوا صبرًا، فقُتِلَ منهم سبعون، ثم تَدَخّل حليفه أبو العطاء الجُذَامي فأمره أن يكُفَّ عن المذبحة فكَفَّ، وهكذا كُسرت شوكة اليمنية في الأندلس ودانت البلاد لأمر الفِهْرِيّ والصّميل، لا ينازعهما فيها أحد.

ولاية يوسف الفهري الفعلية على الأندلس

يبدو أن يوسف الفِهْرِيّ أردا الخلاص من تلك الوصاية الفعلية عليه من قِبَل الصّميل، فأمر بتعيين الصّميل عاملاً له على إقليم سَرَقُسْطَة في عام (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وقبِلَ الصّميل.

ولكن لماذا وافق الصّميل على عرض الفِهْرِيّ وقَبِلَ هذا الإبعاد المتعمّد؟!

كانت بلاد الأندلس تمرُّ بفترة قحط ومجاعة عظيمة؛ نتيجة للحروب المتزايدة بين العرب اليمنية والقيسية، وبين العرب والبربر، ودامت هذه المجاعة خمس سنوات (١٣١-١٣٦هـ=٧٤٩-٧٥٥م)، وقد سلم من هذه المجاعة إقليم سَرَقُسْطَة، فكان في حالٍ من الرغد والخير؛ لذلك قَبِل الصّميل العرض، كما أن الصّميل فطن إلى أن يوسف الفِهْرِيّ ما بعثه إلى سَرَقُسْطَة إلاّ ليذل به اليمنية وهم أكثر أهلها، إلاّ أن الصّميل فتح خزائنه ولم يأته صديق ولا عدوٌّ إلاّ أعطاه.

خلا الجوّ للفِهْرِيّ في قُرْطُبَة، فلم يَعُدِ الصّمِيل وصِيًّا عليه، ولكن يوسف الفِهْرِيّ كان ضعيف الشخصية ولم يكن له في أمور السياسة، فثار الناس عليه، وخرج عليه عامر بن عمرو العَبْدَرِيُّ، وهو يمني خاف أن يفعل الصّمِيل باليمنية في سَرَقُسْطَة ما فعله بهم في شقندة وما بعدها، وكان باستطاعة يوسف الفِهْرِيّ أن يقضي عليه في قُرْطُبَة إلاّ أن جبنه وتردّده حال دون ذلك؛ إذ رأى أن يأخذ برأي الصّمِيل أولاً، فنصحه الصّمِيل بقتله، وفطن عامر العَبْدَرِيُّ لمحاولة يوسف الفِهْرِيّ قتله، فصرف عامر العَبْدَرِيُّ نظره عن قُرْطُبَة، وأراد أن يقوم بعمل يقضي به على شوكة الصّمِيل ويوسف الفِهْرِيّ، وبما أن الرجل كان يمنيًّا متعصبًا، فقد فكّر في الالتجاء إلى اليمنية في سَرَقُسْطَة، والتحالف معهم على القضاء على القيسية، فكاتب زعيمًا من زعمائهم وهو الحباب الزهري، فاجتمعت كلمة اليمنية، وعزموا على حصار الصّمِيل في سَرَقُسْطَة، وذلك في عام (١٣٦هـ=٧٥٣م) .

فلما اشتدّ الحصار على الصّمِيل بعث إلى يوسف الفِهْرِيّ يطلب نجدته وعونه، ولكن يوسف الفِهْرِيّ تباطأ في الردّ عليه، ويبدو أن الفِهْرِيّ كان سعيدًا مسرورًا؛ لأنه سيتخلّص من وصاية الصّمِيل الثقيلة عليه، إلاّ أن أتباع الصّمِيل من القيسيين جمعوا جموعهم لنصرة زعيمهم الصّمِيل، وانضمّ إليهم نفر من بني أمية ومواليهم –لغرض غامض سنكشفه بعد قليل– وكان على رأسهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد.

وانطلقت جموع القيسية ومعهم بنو أمية ومواليهم لنجدة الصّمِيل، وما كادت تصل طلائعها حتى جزع المحاصرون ورفعوا الحصار عن الصّمِيل، وعلى الفور انطلق الصّمِيل ناحية قُرْطُبَة، ثم هاجم عامر العَبْدَرِيُّ والزهري سَرَقُسْطَة فاستوليا عليها، ثم أن الصّمِيل ويوسف الفِهْرِيّ هاجما المدينة، ووقع العَبْدَرِيُّ والزهري في قبضة الصّمِيل الذي أمر بقتلهما.

الفصل الرابع

عصر حكم بني أمية في الأندلس ١٣٨ - ٤٢٢هـ

و سقوط الدولة الأموية

اولا: موجز عن تاريخ الدولة الاموية

الدولة الأموية أو الخِلافَةُ الأُمَوِيَّةُ أو دولة بني أمية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦٢ - ٧٥٠ م) هي ثاني خلافة في تاريخ الإسلام، وأكبر دولة في تاريخ الإسلام. كان بنو أمية أولى الأسر المسلمة الحاكمة، إذ حكموا من سنة ٤١ هـ (٦٦٢ م) إلى ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)، وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق. بلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك، إذ امتدت حدودها من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً، وتمكنت من فتح إفريقية والمغرب والأندلس وجنوب الغال والسند وما وراء النهر.

يرجع الأمويون في نسبهم إلى أميّة بن عبد شمس من قبيلة قريش. وكان لهم دورٌ هام في عهد الجاهلية وخلال العهد الإسلامي. أسلَم معاوية بن أبي سفيان في عهد الرسول محمد، وتأسست الدولة الأموية على يده، وكان قبلاً واليًا على الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ثم نشب نزاع بينه وبين علي بن أبي طالب بعد فتنة مقتل عثمان، حتى تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بعد مقتل أبيه، فتأسست الدولة بذلك. أخذ معاوية عن البيزنطيين بعض مظاهر الحكم والإدارة إذ جعل الخلافة وراثيّة عندما عهد لابنه يزيد بولاية العهد، واتخذ عرشًا وحراسًا وأحاط نفسه بأبّهة الملك، وبنى له مقصورة خاصّة في المسجد، كما أنشأ ديوان الخاتم ونظام البريد. بعد وفاة يزيد اضطربت الأمور، فطالب ابن الزبير بالخلافة، ثم تمكن عبد الملك بن

مروان بن الحكم من هزمه وقتله في مكة سنة ٧٣ هـ، فاستقرت الدولة مجدداً.

جرت أكبر الفتوحات الأموية في عهد الوليد بن عبد الملك، فاستكمل فتح المغرب، وفتحت الأندلس بكاملها، وفتحت السند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي وبلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم. خلفه سليمان بن عبد الملك الذي توفي على أرض المعركة خلال قيادته حصار القسطنطينية، ثم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي يعد من أفضل الخلفاء الأمويين سيرة. وخلفه بعده ابن عمه يزيد، ثم هشام، الذي فتح في عهده جنوب فرنسا، وكان عهده طويلاً وكثير الاستقرار. وبعد موته دخلت الدولة في حالة من الاضطراب الشديد، حتى سيطر مروان بن محمد على الخلافة، فأخذ يتنقل بين الأقاليم ويقمع الثورات والاضطرابات، ثم التقى مع العباسيين في معركة الزاب فهزم وقتل، وكانت نهاية الدولة الأموية.

شهد عهد الدولة الأموية ثورات وفتناً كثيرة، وكان منفذوا أغلب هذه الثورات إما الخوارج أو الشيعة. من أبرز تلك الثورات.ثورة الحسين بن علي على يزيد بن معاوية، عندما طالب بالخلافة، فالتقت معه جيوش الأمويين في معركة كربلاء التي انتهت بمقتله. وقامت بعدها ثورات شيعية كثيرة للثأر له، منها ثورة التوابين وثورة المختار الثقفي، ثم هدأوا بعد قمعهما أكثر من نصف قرن حتى ثورة زيد بن علي. كما ثار الخوارج مراراً وتكراراً، ولم يهدؤوا إلا لقرابة عشرين عاماً بين أواسط عهد عبد الملك وبداية عهد يزيد. وقد كان لأشهر ولاة الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي دور كبير في إخماد هذه الثورات وتهدئتها خلال أواخر القرن الأول الهجري، خصوصاً وأنه كان والي العراق والمشرق، التي كانت - وخصوصاً مدينة الكوفة - ألد أعداء الحكم الأموي، فيما كانت الشام تعد حليفة الأمويين وعاصمتهم. من أشرس الثورات التي قامت على الدولة الأموية أيضاً ثورتا عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث.

التأسيس وخلافة معاوية

في أواسط عهد الخليفة عثمان بن عفان اشتعلت الفتنة في الدولة الإسلامية، وأخذت بالانتشار شيئاً فشيئاً، ثمّ أدت في شهر ذي الحجة من عام ٣٥ هـ (يونيو عام ٦٥٦ م) إلى مقتله. ولكن الفتنة لم تنته بذلك، فجاءَ عهد علي بن أبي طالب مليئاً بالقلاقل والنزاعات التي فشل في إنهاءِ مُعظمها. وفي النهاية اتفق في شهر رمضان من عام ٤٠ هـ (ديسمبر عام ٦٦٠ م) ثلاثة من الخوارج – هُم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله التميميّ وعمرو بن بكر التميميّ السعديّ – على أن يَقتل الأول منهمْ علياً بن أبي طالب والثاني معاوية بن أبي سفيان – والي الشام آنذاك – والثالث عمرو بن العاص – والي مصر آنذاك – معاً في نفس الليلة، فنجح الأول في مهمّته، وأما الاثنان الآخران ففشلا وقتلا. كان معاوية والياً على الشام منذ سنة ١٨ هـ بعد أن عيّنه كذلك عمر بن الخطاب، وعلى الرُّغم من حصول بعض الخلافات بينه وبين عليّ وخوضه معركة صفين معه، فقد أصرَّ على عدم ترك ولايته، وظلّ والي الشام حتى مقتل علي.

بعد مقتل علي مُباشرة بايع أهل العراق ابنه الحسن على الخلافة، فيما بايع أهل الشام بدورهم معاوية بن أبي سفيان. وهُنا حشد معاوية جيوشه وسار إلى الحسن، غير أن الحسن رفضَ القتال، وراسل معاوية للصُّلح، فسر هذا سروراً كبيراً بالعرض ووافق عليه، وعُقد الصلح في شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ (أغسطس سنة ٦٦١ م)، وهكذا تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وسُمّي ذلك العام بعام الجماعة لأن المسلمين اتفقوا فيه على خليفة لهم بعد خلاف طويل دام سنوات.

كانت حركة الفتوحات الإسلامية قد توقّفت تماماً منذ اشتعال فتنة مقتل عثمان سنة ٣٥ هـ، وظلّت متوقفة طوال عهد علي بن أبي طالب، حيث كانت الدولة منشغلة بنزاعاتها الداخلية. لكن بعد الاجتماع مجدداً على خلافة معاوية عادت الفتوحات من جديد، وقد ركّزت الفتوحات في عهده على الحرب

مع البيزنطيين (في شمال أفريقيا والجبهات البحرية) وفتوحات المشرق (في سجستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر). توقّفت الفتوحات في أرض الأناضول منذ فترة طويلة قبل حكم معاوية عند سفوح جبال طوروس قربَ مدينة مرسين، وهُناك أقام كل من المسلمين والروم على جانبي الحدود حصوناً وقلاعاً كثيرة، وعلى الرُّغم من الغزوات الكثيرة التي شنّها المسلمون في عهد معاوية (خصوصاً الصوائف والشواتي) فلم تتغير حدود الدولتين كثيراً. لكن من أبرز أحداث عهده تمكّن المسلمين من استعادة أرمينيا (والتي كانوا قد فتحوها سابقاً، لكنهم خسروها في أيام الفتنة)، بالإضافة إلى أن بعض غزوات الصوائف والشواتي التي تمكّنت من التوغل في الأناضول حتى عمورية (وهي قريبة من مدينة أنقرة).

كما أرسل معاوية سنة ٤٩ هـ (وقيل أيضاً سنة ٥٠ هـ، أي ٦٦٩ أو ٦٧٠ م) حملته الأولى لفتح القسطنطينية، وكانت بقيادة سفيان بن عوف الأزديّ، لكنها فشلت وحل الشتاء وصعبت ظروف القتال، وفي آخر الأمر عادت خاسرة إلى الشام، وقُتل فيها الكثير من المسلمين بينهم الصحابيّ أبو أيوب الأنصاري. ثم أرسل حملته الثانية بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٣ هـ (٦٧٣ م)، وتمكّن الأسطول في طريقه من فتح جزيرتي أرواد ورودس الواقعتين على ساحل آسيا الغربيّ، وقد أقام جيش المسلمين فيهما سبع سنين وجعلهما قاعدة لحصار القسطنطينية منها، ولذلك فقد سُميت أيضاً بـ«حرب السنين السبعة»، وكان المسلمون يُحاصرون المدينة خلال الصيف، ثم يرحلون في الشتاء، غير أن الروم صمدوا، واضطرّ معاوية بن أبي سفيان في النهاية إلى سحب الأسطول وإعادته إلى قواعده دون فتح القسطنطينية في سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م).

وضع معاوية بن أبي سفيان الصحابيّ عقبة بن نافع قائداً على جيش المغرب، وكان هو الذي قادَ العديد من الحملات في عهد معاوية في تلك البلاد. بنى عقبة بإذن من معاوية مدينة القيروان بين سنتي ٥٠ و٥٥ هـ

لتُصبح مركزاً للمسلمين تنطلق منه قواتهم للغزوات، وذلك بعد أن توسَّعت بلادهم وأصبحت أرض مصر بعيدة، كما عقدَ - هو وأبو المهاجر دينار من بعده - الكثير من الصُّلوح مع بربر المغرب، وأقاما معهم علاقات طيّبة، ونجحا في إدخال الكثير من قبائلهم في الإسلام. وعسكرياً، تتابعت فتوحات المغرب سيرها في عهد معاوية حتى فُتحَ أغلب المغرب الأوسط، ووصلت جيوش المسلمين إلى تلمسان. وأما في جبهة الشرق، فقّد فتحَ المسلمون سجستان فقوهستان في سنتي ٤٣ ـ ٤٥ هـ، وغزو بلاد اللان وما وراء النهر والسند وجبال الغور، غير أن أهالي هذه المناطق كانوا يَنكثون العهد مرة بعد أخرى، فعاد المسلمون لفتحها مجدداً مراراً وتكراراً.

كان من أبرز التغيرات على الصَّعيد السياسيّ في عهد معاوية بن أبي سفيان، أنه نقلَ عاصمة الدولة من الكوفة إلى دمشق (بعد أن كان علي قد نقلها من المدينة إلى الكوفة)، وقد أثار هذا سخطَ بعض أهل العراق والحجاز. كما شهدت الدولة في عهده فترة من الاستقرار والرخاء، ومُتابعة الفتوحات بعد توقف طويل. وقد ألغى معاوية في عهده نظام مجلس الشورى، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّ يَستشير أصحابه ومن حوله دائماً في أغلب أفعاله.[بحاجة لمصدر] وقد أنشأ نظاماً للشرطة لحماية وحراسته يُعيّنه بنفسه، كما طوّر ديوان البريد وأنشأ ديواناً جديداً لتنظيمه أكثر هو ديوان الخاتم.

انتقال الحكم إلى المروانيين

قامت - داخلياً - الكثير من القلاقل في بداية عهد معاوية بن أبي سفيان، حيث حاولَ الخوارج أن يثوروا من جديد على الخلافة، ولذلك فقد قاتلهم معاوية، وبحلول عام ٤٥ هـ نجحَ في إخماد ثورتهم وعادَ الاستقرار الداخليُّ إلى الدولة، وظلّ الوضع كذلك حتى وفاة معاوية في شهر رجب سنة ٦٠ هـ (شهر أبريل سنة ٦٨٠ م). وكان معاوية قد جعل أهل الشام والمدينة يُبايعون ابنه يزيد منذ سنة ٥٠ هـ، فكان ذلك، وأصبح يزيد وليَّ العهد ، وبما

أنه كان بعيداً عن دمشق عند وفاة والده فقد أخذ البيعة له الضحاك بن قيس، وعندما عاد بدأت الوفود بالقدوم لتعزيته بوفاة أبية وتهنئته بالخلافة.

أعاد يزيد تعيين عقبة بن نافع قائداً لجيوش المغرب، فقادَ هذا حملته الكبيرة سنة ٦٢ هـ التي عبرَ فيها ساحل شمال أفريقيا بأكمله حتى بلغ مدينة طنجة على سواحل المحيط الأطلسي، وهُناك قال مقولته الشهيرة: «اللهم اشهد أنّي قد بلغت المجهول، ولولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبَد أحدٌ دونك». لكن عندما كان عائداً من حملته هذه لم يَكن معه سوى جيش صغير من ٣٠٠ مقاتل بعد أن سرّحَ معظم جيشه وتركه يَسير أمامه على مسافة بعيدة، وعلمَ بذلك الرّوم ، فتحالفوا مع الأمير البربري كسيلة بن كمرم (الذي كان قد أسلم، لكنه ضغن لعقبة لأنه كان قد أهانه قبل ذلك) ونصبوا كميناً لجيش المسلمين، وقُتلَ في الكمين عقبة بن نافع وكل من كانوا معه، كما قتلَ في الكمين قائد المغرب السّابق أبو المهاجر دينار، وكان ذلك في عام ٦٣ هـ. وإثرَ اندحار جيش المسلمين فقد تمكّن كسيلة على رأس جيوش البربر من شقّ طريقه بسهولة واستعادة أرض إفريقية ومدينة القيروان، ومضى زمنٌ طويل قبل أن يَستعيد المسلمون هذه المناطق، واضطرُّوا على إثر ذلك إلى الانسحاب حتى إقليم برقة. كما شهدَ عهد يزيد بعض الفتوحات المحدودة في المشرق بخراسان وما وراء النهر.

لكن ظهرت مُشكلة جديدة مع بداية عهد يزيد، فقد كان من ضمن شروط تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أن يُصبح هو الخليفة بعد وفاة معاوية، غير أنه توفيَّ قبل معاوية بعشر سنوات، وعندما حدثَ ذلك اجتمع أهل الكوفة في بيت سليمان بن صرد الخزاعيّ، واتفقوا على مُراسلة أخيه الحسين بن علي بن أبي طالب بالقدوم إليهم لمُبايعته على الخلافة. وقد ارتاب عبد الله بن عباس من هذه الدعوة، ونصح الحسين بالحذر من أهل الكوفة وعدم الاستجابة له، غير أن عبد الله بن الزبير – الذي كان هو نفسه يَطمع بالخلافة، وأرادَ إبعاد الحسين عن الحجاز لكي تخلوا له – حثّه على الذهاب

وأقنعه بالاستجابة إليهم، فاقتنع الحسين بذلك. وكان الحسين قد رفضَ بيعة يزيد من قبل (وكان معارضاً لها منذ تعيينه ولياً للعهد)، وعندما جاءته رسائل أهل الكوفة أرسل ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستطلع الأوضاع، فبايعه هناك أكثر من ١٢،٠٠٠ من أهل المدينة، وعندما علمَ يزيد بذلك عزلَ النعمان بن بشير عن ولايتها وعيّن مكانه عبيد الله بن زياد، فقبضَ هذا سريعاً على مسلم بعد أن تركه أهل الكوفة وانفضّوا عنه وقتله. ووصلت هذه الأخبار إلى الحسين وهوَ في طريقه، لكن رجاله - وعددهم ٧٠ - أصرّوا على مواصلة السير للثأر لمسلم، والتقى هؤلاء قربَ كربلاء بجيش يفوقهم عدداً بـ٥٠ ضعفاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعلى الرغم من عرض الحسين السلام فقد أصرَّ عمر على أن يُسلّم الحسين نفسه كأسير حرب أو أنه سيبدأ القتال، ورفضَ الحسين، فوقعت معركة كربلاء في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ (١٢ أكتوبر سنة ٦٨٠ م)، وقُتلَ الحسين وكل من كان معه، وكانت تلك بادرة لانقسامات كبيرة في الدولة الإسلامية ستدوم قروناً طويلة.

كان عهد يزيد بالإجمال مليئاً بالفتن والقلاقل والانقسامات، ولذلك فقد سُمي بـ«الفتنة الثانية»، وكان من أكبر هذه الفتن في عهده مقتل الحسين، ويَبقى حادث آخر إلى جانبها. فعندما قُتلَ الحسين استغلّ عبد الله بن الزبير الحدث ليُشهِّر بيزيد ويُحرض أهل الحجاز عليه، وبالفعل بايعه أهل الحجاز ومصر، وحاصروا بني أمية في المدينة بمنزل مروان بن الحكم، فغضب يزيد غضباً جماً وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة، وأمره بمحاصرتهم ثلاثة أيام، فإن أبوا إطلاق سراح بني أمية ومُبايعته فليقاتلهم. وعندما بلغَ المدينة دخلها من جهة تُسمّى الحرّة، وهناك التقى أهلها، لكنهم رفضوا مبايعة يزيد، وكانت موقعة الحرة سنة ٦١ هـ، وهُزمَ أهل مكة وقتل ٣٠٠ منهم، ودخل مسلم المدينة عنوة واستباحها وقتل الكثير من أهلها وأجبرهم على مُبايعة يزيد بالقوّة. وبعد هذه الأحداث سارَ مسلم نحو مكة للقضاء نهائياً على ثورة ابن الزبير، وقد توفيَّ مسلم في الطريق إلى مكة، فأكمل قيادة الجيش

«الحصين بن نُمير»، لكن عندَ وصوله وجدَ ابن الزبير ورجاله مُعتصمين في الكعبة أملاً في الحصول على الأمان نظراً إلى حرمتها. غير أن جيش يزيد نصبَ المنجنيقات حول الكعبة وأخذ بضربها، وكان ذلك في صيف عام ٦٤ هـ (٦٨٣ م)، لكن سُرعان ما وصلت أنباء وفاة الخليفة يزيد، فاضطرب الجيش وعادَ إلى الشام تاركاً ابن الزبير دون قتله.

كان يُفتَرض أن يَرث معاوية بن يزيد الحُكم بعد أن عيَّنه والده ولياً للعهد قبل وفاته، لكنه تنازل عن الخلافة وقال أنه لا يُمكنه حمل عاتقها، وتوفيَّ بعد ذلك بأسابيعَ. وهُنا تقدم شيخ بني أمية ووالي المدينة مروان بن الحكم وطالبَ بالخلافة لنفسه وبايعه أهل المدينة واليمن، غير أن ابن الزبير أعلنَ نفسه خليفة في الآن ذاته، وبايعه أهل العراق ومصر بل ومعظم أهل الشام، ومنهم الضحاك بن قيس الفهريّ، فسارَ إليه مروان والتقاه في معركة مرج راهط، وقُتل الضحاك في المعركة وبُويع مروان، وقد استعادَ أيضاً مصر دون قتال كثير، كما أنه قضى سريعاً على ثورة التوابين عندما واجه عبيد الله بن زياد بجيش قوامه ٦٠،٠٠٠ مقاتل الثائرين الـ٣٠٠٠، غير أن مروان سُرعان ما توفيِّ في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) بعد حكم دامَ عشرة شهور. وقد تابع بعده ابنه عبد الملك، لكنه استلمَ الحكم وبلاد المسلمين مقسومة بين خمس دول، فإلى جانب الدولة الأموية في مصر والشام كانت هناك دولة ابن الزبير في الحجاز والعراق، كما نجحَ المختار الثقفي بعد ثورته في السِّيطرة على الكوفة، وسيطر بعض الخوارج بعد ثورتين على إقليمي الأهواز والنجدات. سُرعان ما قضى مصعب بن الزبير بجيشه على المختار الثقفي، والتحمَ عبد الملك بعد ذلك معه في «معركة دير الجاثليق» سنة ٧١ هـ فاستعاد العراق، وفي آخر الأمر أرسلَ جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة سنة ٧٣ هـ فحاصرَ ابن الزبير هُناك في الكعبة، وضربَ الكعبة بالمنجنيقات كما حدثَ من قبل، فأصابت الحجارة ابن الزبير وصرعته. كوفئ الحجاج بأن أصبح والي العراق والمشرق، وهكذا استتبَّ الحكم أخيراً

لخليفة واحد في البلاد بعد أن عصفَت الصراعات الداخلية بالدولة الأموية لعقد ونصفٍ تقريباً، وسُميت سنة ٧٣ هـ بـ«عام الجماعة الثاني».

عهد عبد الملك وأبنائه

م تستتبَّ الأمور تماماً في الدولة بسقوط الدولة الزبيرية، إذ ظلّت مشكلة الخوارج، الذين كلّف عبد الملك المهلب بن أبي صفرة الأزدي بقتالهم. وفي سنة ٧٦ هـ هاجمَ صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد الخارجي خيلاً لمحمّد بن مروان (والي الجزيرة) وسرقاها، وكان معهم آنذاك ١٢٠ شخصاً بايعا شبيب على الخلافة من أهل البصرة بعد أن نادى بها لنفسه، وبعدها دخلَ في حرب طويلة مع والي العراق والمشرق - الحجاج بن يوسف - الذي سيَّر إليه جيوشاً ضخمة، وقيل أنه خاضَ مع شبيب ٨٣ معركة في ١٠٠ يوم، ولم يَربح منها كلها سوى واحدة. وفي آخر الأمر فرَّ شبيب من جيوش الحجاج، ولكنه سقطَ في نهر بينما كان يَعبر جسراً في الأهواز وغرق بسبب ثقل دروعه سنة ٧٣ هـ، وبعدها لم تقم للخوارج قائمة حتى عهد عمر بن عبد العزيز.

الفتوحات الإسلامية في المغرب والأندلس منذ أيام عقبة بن نافع وحتى عبد الرحمن الغافقي

تسبَّبت النزاعات الداخلية في الدولة بشلّ حركة الفتوحات لعقد تقريباً، لكن عندما اتّحدت الدولة أخيراً من جديد في عام ٧٣ هـ (عام الجماعة الثاني) عادت الفتوحات من جديد. تولّى زهير بن قيس البلوي قيادة جبهة المغرب بعد موت عقبة بن نافع، وعزمَ على الثأر له، غير أنه لم يَستطع التحرك حتى عام ٦٩ هـ بسبب مشكلات الدولة الداخلية، وحينها قادَ جيشه نحوَ المغرب واستعاد القيروان وقتل قائد البربر كسيلة في «معركة ممس»، لكنّه قتل بدوره في كمين بيزنطيٍّ خلال عودته سنة ٧١ هـ. وبعد مقتل ابن الزبير عيّن عبد الملك حسان بن النعمان مكان زهير وأعطاه جيشاً ضخماً من

الشام ومصر قوامه ٤٠،٠٠٠ مقاتل، وتمكّن من القضاء على الوجود البيزنطيّ في شمال أفريقيا، كما دمّر مدينة قرطاجنة - أكبر مركز بيزنطي في المنطقة - بعد أن اقتتل فيها مع الروم والبربر وأجبرهم على الهرب نحو صقلية والأندلس، لكنه مع ذلك هزم على يد الكاهنة التي كانت تقود البربر خلفاً لكسيلة، وبعدها عادَ الرُوم البيزنطيون إلى قرطاجنة وعاثوا فيها فساداً، ولكن عبد الملك لم يَستطع إمداده بجيش لمقاومتهم. وفي النهاية وصلَ المدد أخيراً فتوجّه إلى قتال البربر سنة ٨٢ هـ وقتلَ كاهنتهم، ثم فتح فاس وقرطاجنة وجلّ المغرب، وبنى قربَ قرطاجنة مدينة تونس التي لا زالت قائمة إلى اليوم. وأما على جبهة الشام والأناضول فقد اضطرّ عبد الملك لمصالحة البيزنطيين ودفع مال لهم أثناء صراعه مع ابن الزبير لأنه لم يَكن يستطيع الدفاع ضد هجماتهم، لكن بعد انتهاء الصراع سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) كانت لعثمان بن الوليد موقعة كبيرة معهم في أرمينيا، حيث التقى ٦٠،٠٠٠ منهم بجيش قوامه ٤،٠٠٠، فهزمهم وقتل الكثير منهم ، وتُعرف هذه الموقعة بـ«معركة سبياستوبولس»، وقد تبعها فتح مُجمَل أرمينيا وضمُّها إلى الدولة الأموية.

كانت هناك غزوات كثيرة في عهد عبد الملك لبلاد ما وراء النهر، لكنها لم تُفتَح، حيث كان المسلمون يغزونها ويغنمون منها ثمّ يَنسحبون عائدين إلى معاقلهم، ومن أبرز غزواتهم غزوة بخارى سنة ٨٠ هـ. وقد كان من ملوك هذه الأرض الكبار ملك يُسمَّى «رتبيل» غزاه المسلمون مراراً وتكراراً، فغزاهم سنة ٧٩ هـ وقتل أميرهم «عبيد الله بن أبي بكرة»، فجهّز الحجاج بن يوسف جيشاً كبيراً سُمي بـ«جيش الطواويس» وأعطاه لعبد الرحمن ابن الأشعث ليغزو به رتبيل (على الرغم من البغض المتبادل الذي كان بين عبد الرحمن والحجاج)، فغزا ابن الأشعث رتبيل وفتح الكثير من أراضيه، لكنه أوقفَ القتال ولم يُكمل الفتوحات بعد ذلك، إنّما حرّض جيشه على الحجاج وعلى خلعه بل وخلعِ الخليفة، فوافقوه وبايعوه، وكانت تلك بداية واحدة من

أعنف الثورات ضد الحُكم الأموي على الإطلاق، مع أن وازعها لم يَكن دينياً أو مذهبياً إنما شخصياً. دخل ابن الأشعث البصرة وتبعه أهلها، ثم طُردَ منها فذهب إلى الكوفة، وقربها دارت وقعة دير الجماجم سنة ٨٣ هـ وهُزمَ فيها، فهربَ إلى سجستان وانتحرَ هناك. كان والي العراق والمشرق (خراسان وسجستان وغيرها) طوالَ عهد عبد الملك وجزء كبير من عهد ابنه من بعده هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد كان له دورٌ كبيرٌ في إخماد الخوارج وتهدئة الأوضاع في العراق بعد أن عصفت بها الثورات طوال العقود السابقة، حيث اتّخذ سياسة ترهيب ضدّ أهلها، وكان يُلاحق قادة الخوارج وكل من يَدعون لعصيان الخليفة وقتل الكثير منهم، وقد خلّف هذا سمعة سيّئة للدولة الأموية عند أهلها (على الرغم من أنهم كانوا بالفعل يبغضون الأمويين) كانت سبباً مهماً وبارزاً في سُقوط الدولة لاحقاً، كما فصلت بين أهل الشام كمؤيدين للخلافة وأهل العراق كمعارضين لها. وقد منحَ هذا الأمر الحجاج سُمعة سيئة في العراق، ويَقول البعض عنه أنه قتلَ ١٠٠ ألف من أهلها، ولو أن مثل هذا الرقم غير مُثبَت.

كان من أبرز الإنجازات في عهد عبد الملك أيضاً بناء مسجد قبة الصخرة في القدس بجوار المسجد الأقصى سنة ٦٩١ م، كما أنه عرَّب الكثير من الدواوين وعرب سكَّ النقود لمرة الأولى في تاريخ الدولة. وقد توفيَّ عبد الملك بن مروان بن الحكم في شهر شوال سنة ٨٦ هـ (أكتوبر سنة ٧٠٥م)، تاركاً الحكم لابنه الوليد، وقد جرت في عهده فتوحات عظيمة، وبلغت فيه الفتوحات الأموية ذروتها، حيث أنها يُمكن أن تعد الذروة الثانية للفتوحات الإسلامية بعدَ أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.

فتح الأندلس على يدي موسى بن نصير وطارق بن زياد في عهد الوليد بن عبد الملك

عُزلَ حسان عن المغرب في عهد عبد الملك وعُيِّن مكانه موسى بن نصير سنة ٨٦ وهُنا سارَ على رأس جيش كبير، وأتمّ فتح المغرب ، ونجحَ

في إدخال الكثير من قبائل البربر بها في الإسلام، وفي سنة ٩٠ هـ وصل إلى مدينة طنجة، ففتحها ووضعَ فيها حامية من ١٢،٠٠٠ رجل بقيادة طارق بن زياد الليثي. وحسبَ ما رواه الذهبي فقد جهّزَ موسى بن نصير ابنه عبد الله للفتح منذ عام ٨٦ هـ عندما أمره بفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة الواقعتين على ساحل الأندلس، لكن هناك أيضاً رواية أخرى أيضاً – رواها ابن الأثير – تذكر أنّ أمير مدينة سبتة «يوليان» دعى ابن نصير بنفسه لفتح الأندلس وتخليصه من حكم القوط الغربيين (الذي كانوا حكامها آنذاك)، وأخبره بأن البلاد كانت في حالة من الفوضى والنزاعات الداخلية وأنها لن تشهد مقاومة كبيرة. وقد استأذن ابن نصير الخليفة في الفتح، فأذن له إن تأكد من حسن نوايا يوليان، فأرسل حملة استطلاعية من ٥٠٠ رجل بقيادة طريف بن مالك، الذي أكد له أقوال يوليان، فأرسل طارق بن زياد مع ٧،٠٠٠ جنديٍّ إلى الأندلس في شهر رجب سنة ٩٢ هـ (مايو سنة ٧١١ م)، وهُنا عادَ ملك البلاد رذريق وسارَ إليه بـ١٠٠،٠٠٠ رجل، فأمده ابن نصير بخمسة آلاف، والتقى الجيشان في معركة وادي لكة التي انتصرَ فيها المسلمون وقُتل رذريق، وفُتحت الأندلس بعدها مدينة تلو الأخرى دون مقاومة تُذكَر. لكن وعلى الرُّغم من رغبة موسى بن نصير في إكمال الفتوحات، بل ونيّته في فتح أوروبا كلها من الأندلس حتى يَبلغ القسطنطينية من الغرب، فقد عارضَ الوليد بن عبد الملك مثل هذا الأمر بشدة لما قد يَعود به من عواقب على جيوش المسلمين في تلك البلاد البعيدة، وأمر ابن نصير وطارق بن زياد بالعودة إلى دمشق، فامتثلا لأمره وبقيا هناك حتى وفاتهما، وتوقّفت فتوحات أوروبا إثر ذلك حتى نهاية عهد الوليد.

وفي بلاد الروم – البيزنطيين – استمرّ الصوائف والشواتي على الدوام، لكن كانت الحدود الفعلية شبه ثابتة، حيث يَعود المسلمون دائماً إلى حصونهم بعد الغزوات. ومن الغزوات الكبيرة غزوتان لمسلمة بن عبد الملك، واحدة سنة ٨٩ هـ وصلَ فيها حتى مدينتي عمورية وهرقلية، وأخرى في

سنة ٩٢ هـ عبرَ فيها كل الأناضول حتى بلغ بحر مرمرة. كما غزا المسلمون في البحر جزيرتي ميورقة وصقلية سنة ٨٩ هـ، وجزيرة سردينيا سنة ٩٢ هـ.

محمد بن القاسم الثقفي ـ فاتح السند ـ وهو يقود جيشه إلى المعركة.

عيَّن الحجاج بن يوسف الثقفيّ قائدين في المشرق كان لهما دورٌ بارز جداً في الفتوحات خلال عهد الوليد بن عبد الملك. تولّى أولهما وهوَ قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة جيوش خراسان سنة ٨٧ هـ (٧٠٦م)، وقد باشرَ قتيبة فتوحاته في بلاد ما وراء النهر في العام نفسه، ففتح بيكند، ثم فتحَ بخارى وبلخ سنة ٩٠ هـ، وسمرقند سنة ٩٣ هـ، وكابل سنة ٩٤ هـ ، وأخيراً فتح كاشغر سنة ٩٦ هـ (وهي عاصمة تركستان الشرقية)، وهكذا بلغَ حدود الصين، ولم يَغزو الصين قط، غير أنه أجبر إمبراطورها على دفع الجزية للأمويين، وكانت تلك أقصى فتوحات المشرق، حيث عزل عن ولايته في العام ذاته، وقد بلغت بذلك مساحة الأراضي التي وُلّيَ عليها (وهي ولاية خراسان وعاصمتها آنذاك مرو) أكثر من ٤،٠٠٠،٠٠٠ كيلومتر مربع، وبلغ طول حدودها أكثر من ٤،٠٠٠ كم. وأما محمد بن القاسم الثقفي فقد تولّى في الوقت ذاته فتحَ إقليم السند، حيث سارَ في شهر ربيع الأول سنة ٨٩ هـ (٧٠٧ م) على رأس جيش قوامه ٦،٠٠٠ رجل وهو ابن سبعة عشر عاماً، وفتح مدينة «الدبيل» الواقعة مكان كراتشي اليوم سنة ٩٣ هـ، وفرَّ منها ملك السند داهر، الذي التقاه المسلمون لاحقاً في معركة على نهر مهران، وانتصروا فيها وقتلوا داهر على الرغم من استعانة الهنود بالفيلة في المعركة. وأخيراً فتحَ مدينة الملتان سنة ٩٤ هـ، وهي من أهم مدن تلك البلاد، وبذلك أتمَّ فتح السند وضُمّت بدورها إلى الدولة الأموية.

كان من الإنجازات البارزة الأخرى في عهد الوليد بناء الجامع الأموي الكبير أو مسجد بني أمية في مدينة دمشق، إذ كان متقسماً بين المسلمين

والمسيحيين لتأدية عباداتهم منذ فتح الشام، لكن مع ازدياد أعداد المسلمين قرَّر الوليد تحويله بأكمله إلى مسجد، وذلك مقابل تعمير أربع كنائس للمسيحيين في المدينة، وكان ذلك في السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة. ولكن بناء المسجد لم يَكتمل إلا بعد عشر سنوات، في عام ٧١٥ م، حيث أن العمل كان كبيراً واحتاجَ وقتاً طويلاً.كما قام الوليد بتوسعة المسجد النبوي في المدينة. واهتمَّ بتعبيد الطرق في الدولة، خصوصاً الطرق المؤديّة إلى مكة لتسهيل الحج إليها من أنحاء العالم الإسلامي.

توفيَّ الوليد في شهر جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ (فبراير سنة ٧١٥ م)، وتولّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك. وفي عهده فتحَ يزيد بن المهلب – والي خراسان – سنة ٩٨ هـ] إقليمي طبرستان وقهستان. وأما الحدث الأبرز في عهده فقد كان حصار القسطنطينية سنة ٩٨ هـ، وهو حصار أداره بنفسه مع أخيه مسلمة بن عبد الملك من أرض دابق، وظلّ هناك سنة كاملة، حتى توفيَّ وهو لا يزال في دابق في شهر صفر سنة [٩٩ هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م)، وقد امتُدحت خلافته وقيل عنه أنه أحسن إلى الناس ومعاملتهم بعد أن كان قد شدَّ عليهم الحجاج في أيام عبد الملك والوليد، كما امتُدحَ أيضاً لاختياره ابن عمه عمر بن عبد العزيز خليفة من بعده.

عهد عمر بن عبد العزيز

اشتُهرَ عهد عمر بن عبد العزيز بأنه عهد عمَّ فيه رخاءٌ واستقرارٌ عظيم في أنحاء الدولة الأموية، وسادَ فيه العدل، حتى أنه يُقال أن المتصدقين كانوا يبحثون فيه عن فقراء ليعطوهم المال فلا يَجدون،كما أنه كثيراً ما يُلقب نظراً إلى ذلك بـ«الخليفة الزاهد»أو «خامس الخلفاء الراشدين»، حيث قيل أن أيام الخلافة الراشدة قد عادت في عهده. عندما بُويع عمر على الخلافة قرَّر وقف الفتوحات نظراً لاتساع الدولة الكبير، وتوجَّه بدلاً من ذلك لتوطيد الحكم وإصلاحه والاهتمام بأمور الناس ودعوة أهل المناطق المفتوحة إلى الإسلام بدلاً من فتح المزيد من البلاد.

وقد أخذ عمر بن عبد العزيز أيضاً من أقربائه من بني أمية ما في أيديهم من مال وأعاده إلى بيت مال المسلمين، ووصفه بأنه «مظالم»، وقد أغضبَ ذلك بني أمية وجاءوا إلى بيته يَشتكون، غير أنه رفضَ رفضاً شديداً، وقال:

«إن الله بعثَ محمّداً - - رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافّة، ثم اختار له ما عند وترك للناس نهر شربهم سواء، ثم وليَ أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم وليَ عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضي الأمر إليَّ وقد يبسَ النهر الأعظم، فلم يُروَ أصحابُه حتى يعود إلى ما كان عليه.» .

كما قال سفيان الثوري: «الخلفاء خمسة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز، وما كان سواهم فهم منتزون». ومما يُروى أيضاً عن زهده أنه لم يَكن يُنفق على نفسه سوى درهمين اثنين في اليوم، ومرّة دخلَ عليه ابن عمه مسلمة فوجده بقميص بالٍ ومتسخ، فأمر زوجته فاطمة بإعطائه قميصاً نظيفاً، وعندما عادَ مجدداً وجده على الحال نفسها، فعاتبها، فأخبرته أنه لم يَكن يملك قميصاً غيره. وقد أصلح عمر بن عبد العزيز الأراضي الزراعية وحفر الآبار ومهّد الطرقات وعمّر الخانات (الفنادق) لأبناء السبيل، كما بنى المساجد، وحكمَ بعودة الأراضي المغتصبة غير المُسجّلة إلى بيت مال المسلمين، وساهمت إصلاحاته المختلفة هذه في القضاء على الفقر في أنحاء الدولة.

الجامع الأبيض في الرملة، فلسطين. تم بناؤه بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز.

شهدَ عهد عمر بن عبد العزيز أول تحرك جديدٍ للخوارج منذ أيام عبد الملك، بعد أن استكانوا لزهاء ثلاثة عقود منذ أيام الحجاج. وقد أرسل إليهم عمر جيشاً، غير أنه أمره بعدم الهُجوم، وفي حال سفك الخوارج دماءً أو

اعتدوا على الناس فليحول الجيش دون ذلك، وفي الآن ذاته بعث رسولاً إلى قائد الخوارج «بسطام اليشكوريّ» يدعوه إلى التوقف، وبعد عدّة مراسلة بينهما اقتنع بسطام بالتخلي عن التمرد. وأما الفتوحات والحروب فكانت محدودة في عهده، حيث أمرَ الجيش الذي أرسله سليمان لمحاصرة القسطنطينية بالرُّجوع، وعدى عن ذلك فلم تحدث في خلافته سوى بعض الغزوات في الأناضول وأذربيجان (كما اعتادَ المسلمون مع الروم في معظم أيام الأمويين).

توفيِّ عمر بن عبد العزيز في شهر رجب سنة ١٠١ هـ (يناير سنة ٧٢٠ م)، بعدَ أن دامت خلافته لسنتين ونصف تقريباً. وقد تولّى الخلافة بعده ابن عمِّه يزيد بن عبد الملك.

يَعتبر الكثير من المؤرخين – مثل ابن كثير – أن يزيد تأثر بعمر في بداية خلافته، وأرادَ اتباعه في خلافته وحسن سيرته، غير أن أقران السوء أفسدوه وعلى أي حال فإن يزيد بن عبد الملك لم يَكن ذا خبرة ومقدرات تؤهله للخلافة، إذ كان شاباً لا يزيد عمره عن ٢٩ عاماً قضى أغلب حياته في اللهو والترف، وقد كان يُمكن لعهده أن يَشهد انحطاطاً كبيراً للدولة لولا بعض رجالها الذين حافظوا على قوتها مثل مسلمة بن عبد الملك، وقد كان عهده بالفعل عهد ضعف نسبيٍّ للدولة.

غزا المسلمون إقليم الصغد في ما وراء النهر عدّة مرات خلال خلافة يزيد بعد أن نقض أهله عهدهم مع المسلمين (في سنتي ١٠٢ و١٠٤ هـ)، كما استمرُّوا بغزواتهم المعتادة في الصوائف والشواتي ضد البيزنطيين. كما كانت هناك موقعتان كبيرتان في فرنسا، حيث عبرَ السمح بن مالك الخولاني جبال البرانس بجيشه سنة ١٠٢ هـ وحاصرَ طولوز، فسار إليه دوق فرنسا والتقيا في معركة تولوز التي انتهت بهَزيمة المُسلمين. كما سار أمير الأندلس – عنبسة بن سحيم الكلبي – بعدها على رأس جيش إلى فرنسا وفتح سبْتمانيا وليون وتوغل في منطقة بورغونيا، وغزا في فترة مقاربة محمد بن يزيد جزيرة صقلية. وكان من أكبر الأحداث التي شهدها عهد يزيد ثورة ضخمة

للخوارج قادها يزيد بن المهلب، حيثُ ثار على الخليفة ودعا إلى خلعه، وبايعه أهل البصرة، ثم امتدّ نفوذه إلى الجزيرة الفراتية والبحرين وفارس والأهواز، غير أنه هُزمَ وقُتلَ ضد مسلمة - أخو يزيد - في معركة عفر قرب الكوفة بشهر صفر سنة ١٠٢ هـ (أغسطس سنة ٧٢٠م).

ذروة إتساع الدولة

الدولة الأموية في أقصى اتساعها (باللون الأخضر الفاتح) في عهد هشام بن عبد الملك

توفيّ يزيد بن عبد الملك في أواخر شهر شعبان من سنة ١٠٥ هـ (يناير سنة ٧٢٤ م)، وكان قد وَصَّى بالخلافة من بعده لأخيه هشام، فابنه الوليد. كان هشام بن عبد الملك - على عكس أخيه الذي سبقه - خليفة قوياً ذا خبرة وحنكة سياسية، وأدار الدولة بكفاءة عالية، وقد تمكن من الحفاظ على استقرارها طيلة عهده الطويل. وعلى الرُّغم من عدم حدوث فتوحات كبيرة في عهده بضمّ أراضٍ جديدة للدولة - كتلك في عهد الوليد - فقد كانت الغزوات واسعة جداً، وكان القتال محتدماً على جبهة الشرق في السند وما وراء النهر والشمال في الأناضول والقوقاز والغرب في الأندلس وجنوب غالة (فرنسا).

وعلى الرُّغم من ذلك فقد شهدَ عهد هشام بلوغ الدولة الأموية ذروة اتساعها وأقصى حدودها، التي امتدّت من أطراف الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً.

كان المسلمون قد بسطوا سيطرتهم على إقليم سبتمانيا منذ سنة ١٠١ هـ، وأصبحَ منذ ذلك الوقت مركزاً لهم للإغارة على مدينتي برغاندي وأقيتانية في جنوب فرنسا الحالية، وقد انتصرَ عليهم دوق أقيتانية في معركة طولوز على أيام يزيد وقتل قائدهم عنبسة بن سحيم الكلبي، غير أن المسلمين استأنفوا القتال بعدَ أن عين عبد الرحمن الغافقي والياً جديداً للأندلس، والذي قادهم على رأس جيش من ٨٠،٠٠٠ جندي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م)، فنهبوا

بونة وفرضوا الجزية على سان وفتحوا أفينيون. وقد تابع المسلمون تقدمهم، فانطلق عبد الرحمن على رأس جيش سنة ١١٢ هـ وفتح بوردو فأقيتانيا وبرديل وغيرها،[١٢٦] وفي النهاية خاض معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م)، ووصلت بذلك فتوحات الأمويين في المغرب أقصاها في عهد هشام، وظلّ المسلمون محتفظين بحدودهم هذه بجنوب فرنسا (عندَ سفوح جبال البرانس الشمالية) حتى سنة ١٨١ هـ

استمرّت الغزوات والصوائف والشواتي ضد البيزنطيين في عهد هشام بن عبد الملك كما كانت الحال طوال العهد الأموي، غير أن هذه الغزوات – كالعادة أيضاً – لم تغير حدود الدولتين الأموية والبيزنطية. وقد قطعت صائفة سنة ١٠٧ هـ البحر إلى جزيرة قبرص، وفتحَ مسلمة بن عبد الملك مدينة قيصرية سنة ١٠٨ هـ، ووصلَ سعيد وسليمان بن هشام إليها أيضاً في سنة ١١١ هـ، وقد نجحَ الثاني في هزم قسطنطين وأسره خلال الغزوة. وفي البحر الأبيض المتوسط غزا أمير إفريقية «حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع» جزيرة صقلية وفتح بها مدينة سرقوسة سنة ١٢١ هـ، كما غزا عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا سنة ١١٧ هـ وتمكن من السطيرة على قلعتها. غزا المسلمون أيضاً منطقة أرمينيا والقوقاز مراراً وتكراراً في عهد هشام، حيث غزاها الحجاج بن عبد الملك بداية وفرضَ عليها الجزية، غير أن غزوها أعيد بعدَ نقضها العهد مرات كثيرة، فقد حدث ذلك في سنة ١١٠ هـ، ثم ١١٢ هـ، ثم ١١٣ هـ، فقتلَ ابن خاقان الترك في الأخيرة، فتوجّه لقتال المسلمين انتقاماً لابنه سنة ١١٤ هـ غير أنه هزم، ثم نقض العهد مجدداً سنة ١١٧ هـ فغزاهم المسلمون مجدداً، ثم تكرّر الأمر ذاته سنة ١٢٠ هـ، وأخيراً غزى مروان بن محمد بلاد السرير سنة ١٢١ هـ وفرض عليها الجزية، كما شهدَ ذلك العام وفاة مسلمة بن عبد الملك بعد أن قاتل بشدة لعقود ضد الأتراك والبينزطيين.

وعلى جبهة الشرق استمرّت الغزوات طوال الوقت لكن دون تحقيق فتوحات كبيرة، فقد غزى المسلمون فرغانة سنة ١٠٦ هـ، ثم بلاد الجبل وجبال هراة وبلاد الختل، غير أن أهل الأخيرة نقضوا العهد فأعيد غزوها سنة ١١٢ هـ ، فرد سكانها بالأتراك بأن جاءوا وغزوا سمرقند فاقتتل معهم المسلمون قتالاً شديداً وانتصروا عليهم. وأعيد غزو بلاد الختل سنة ١١٩ هـ وقُتلَ ملكها «بدر طرخان»، كما قتل ملك الترك سنة ١٢٠ هـ. وقد غزى المسلمون ما وراء النهر ثلاث مرات سنة ١٢١ هـ وفرغانة مرتين سنة ١٢٣ هـ. لم تتوقف ثورات الخوارج في عهد هشام كما كانت الحال في أغلب فترة حكم الأمويين، وكان من أبرز ثوراتهم عليه ثورة «شبيب بن صحاري» الذي قُتلَ في معركة بالعراق سنة ١١٩ هـ، كما شهدت السنة نفسها ثورة في الجزيرة، وشهدَ عهد هشام أيضاً ثورتين في المغرب وثالثة في الأندلس للخوارج. غير أن أكبر الثورات في عهده على الإطلاق كانت ثورة زيد بن علي بن الحسين. وقد بدأت ثورته بأن أرسلَ إليه أهل الكوفة يقولون له: «إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية». فردَّ عليهم: «إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي». لكنه استجابَ لهم على الرغم من ذلك وأعلنَ الثورة على هشام سنة ١٢١ هـ وبايعه ١٥،٠٠٠ رجل، وكانت تلك أول ثورة للشيعة منذ عهد مروان بن الحكم.

وقد أمرَ هشام والي الكوفة «يوسف بن عمر الثقفي» بإخماد الثورة، فتوجَّه إلى زيد بن علي ، وهُنا انفضَّ عنه أغلب .ن بايعه فلم يبقى ممن كان معه سوى ٢٠٠ رجل، وقد هُزمَ وقُتلَ زيد في المعركة، ومع ذلك فقد حزنَ هشام على موته لكرهه سفك الدماء.

مرحلة السقوط

توفيِّ هشام بن عبد الملك في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م) ، وكان آخر من حكمَ من أبناء عبد الملك بن مروان، وبعده آل

الحكم إلى جيل الأحفاد ، وكانت تلك بادرة انحطاط الدولة. وقد كان حُكم جيل الأحفاد – المرحلة الثانية من عصر المروانيين – عهداً توقّفت فيه الفتوحات بعد كل ما حقّقته في العقود الماضية، وغرقت الدولة عوضاً عن ذلك في صراعاتها ونزاعاتها الداخلية. وقد كان وليُّ عهد هشام هو الوليد بن يزيد، حيث عينه والده يزيد بن عبد الملك ولي عهد ثانٍ نظراً إلى صغر سنه آنذاك، ولكن حتى عندما توفي هشام بعد عقدين كان لا يَزال شاباً يعيش حياة لهو وترف على شاكلة والده، ولم تكن لديه مؤهلات كافية للخلافة، وقد كان عهد الوليد الثاني هو بداية انحطاط وسقوط الدولة الأموية.

كان هشام يُخطط في عهده لوضع ابنه مسلمة ولياً للعهد بدلاً من الوليد، الذي لم يَرى فيه أهلاً للخلافة (على الرغم من أن مسلمة لم يَكن مختلفاً كثيراً في لهوه وترفه عن الوليد في الواقع)، وقد أيّده بعض من حوله في ذلك، مما أخاف الوليد من أن يُدبر هشام لقتله، لكن الأجل وافى هشام قبل أن يَحدث ذلك،فاستغلّ الوليد الفرصة وأخذ الخلافة لنفسه، ثمّ أخذ بملاحقة من أيّد تنصيب مسلمة ولياً للعهد مكانه وانتقمَ منهم مستغلاً سلطاته كخليفة. وقد أدّت انتقامات الوليد هذه إلى ثوران بعض القبائل التي انتمى إليها ضحاياه، والتي طالبت بالثأر، فاجتمع عدد كبيرٌ منها، وأيّد القدرية الثورة لأنها كانت ضد حكم بني أمية، وقد استمال هؤلاء يزيد بن الوليد، فقادهم وجمعَ ١٠،٠٠٠ رجل في دمشق بعدَ أن عرض عليهم الكثير من المال، ثمّ سار إلى منزل الخليفة فقبضَ على الوليد وقتله إذ أنه لم يَكن يملك حامية كبيرة،وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (أبريل سنة ٧٤٤ م)، وقد فتحَ مقتله باب فتن كبيرة عصفت بالدولة. حاولَ يزيد الثالث أن يَكون خليفة صالحاً وزاهداً على طريقة عمر بن عبد العزيز، فحاول التقشف،وأعادَ رواتب الجند إلى ما كانت عليه بعد أن رفعها الوليد في عهده، فأغضبَ هذا الجند الذين منحوه لقب «الناقص»،وقد فجعَ كثيرون آخرون بمقتل الخليفة ولم يُبايعوا يزيد، ولذلك فقد أخذت الدولة بالتدهور سريعاً في عهده، وسُرعان ما توفيِّ بعد حكم دام ستة

أشهر وفي السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة، بعدَ أن نصّب أخاه إبراهيم بن الوليد ولياً للعهد بناءً على طلب القدرية.

اضطّربت الأوضاع كثيراً عند وفاة يزيد، حَيث رفضَ الكثير من الناس بيعة أخيه إبراهيم واعتبروه هو ويزيد مسؤولين أساسيِّين عن مقتل الوليد والفتن التي فجّرها،وهُنا تدخل مروانِ بن محمَّد (ابن عم إبراهيم ويزيد ووالي أرمينيا وأذربيجان) وسارَ إلى دمشق على رأس جيش من ٨٠،٠٠٠ جنديّ،[١٤٣] وكان قد أتاها من قبل في أيام يزيد، لكن ذلك استرضاه ووعده بالإصلاح، ولكنه عزمَ هذه المرة على خلع الخليفة،ودخل المدينة في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م)، فهربَ منها إبراهيم، وبويع مروان بالخلافة.

كان مروان بن محمد خليفة قوياً ذو حنكة وكفاءة عاليتين في إدارة الدولة، وكان قائداً عسكرياً ذا خبرة عالية خاضَ حروباً طويلة مع البيزنطيين، وميّزه ذلك عن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، غير أن الأوان كان قد فاتَ لإصلاح أمور الدولة، وكانت قد سقطت بالفعل في فوضى ونزاعات داخلية عارمة، ولذلك فقد كانت نهايتها في عهده هو عندما بُويع مروان بالخلافة كان من الأشياء الأولى التي فعلها هي نقل العاصمة من دمشق إلى مدينة حران في الجزيرة،إذ أنه لم يَثق بمن في الشام، وكانت ثقته محصورة بمساعديه وقادته الذين عرفهم وتعامل معهم لسنوات طويلة خلال ولايته على أرمينيا وأذربيجان،غير أن هذا التصرف جاء بعواقب وخيمة. حيثُ ثار عليه أهل الشام، فبدأت الثورة من فلسطين، ثم زحفت إلى دمشق فحمص، وبذلك خسرَ تأييد أهل الشام أنفسهم وهم أنصار الأمويين الأساسيين، مع أنه سُرعان ما سار وقمع الثورة. لكن لم تستكن الأمور، فقامت الثورات واحدة تلو الأخرى، مرة في الجزيرة واليمن سنة ١٢٧ هـ، وأخرى في الموصل سنة ١٢٩ هـ، ثم في أفريقية في سنتي ١٣١ هـ و١٣٢ هـ،فضلاً عن الانقسامات الداخلية بين القبائل العربية المختلفة وداخل البيت الأمويّ نفسه. وقد أنهكت هذه

الثورات المتتالية مروان، فأخذ يَتنقل من منطقة إلى منطقة يُحاول السيطرة على الدولة ومنعها من الانهيار،لكنه تفاجأ وهو غارق في صراعاته الداخلية يَقمعها واحداً تلو الآخر بالمدّ العباسي يأتي من المشرق فيكتسح خراسان فالعراق،فسار إليهم ووقعت معركة الزاب الكبير في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)، وقد كانت هذه المعركة هي نهاية الدولة الأموية وسُقوطها ، وقُتلَ مروان بعدها ببضعة شهور.

أخذ العباسيون بعدَ قيام دولتهم بمُلاحقة بني أمية وقتلهم، ولذلك فقد فرَّ الكثير منهم بعيداً محاولين النجاة بأنفسهم. وقد كان من بين هؤلاء عبد الرحمن الداخل، الذي فرَّ إلى الأندلس، وأعلنَ استقلاله بها وتأسيس ولاية أموية في قرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م). وقد تمكّن الأمويون من البقاء بهذه الطريقة، فأسسوا الدولة الأموية في الأندلس، وظلّوا يحكمونها زهاء ثلاثة قرون، غير أن مصيرها في النهاية كان السُّقوط سنة ٤٢٢ هـ بعد أن تفككت الأندلس إلى إمارات صغيرة مستقلة.

الخلافة الأموية في الشرق

الوليد بن يزيد بن عبد الملك

الدولة الأموية في عهد هشام بن عبد الملك

بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١٢٥هـ) بدأت عوامل الضعف تسري في جسد الدولة الأموية، وبدت الخلافة وكأنها تسير نحو الهاوية؛ فبوفاة الخليفة هشام بدأت الاضطرابات والفتن والقلاقل تظهر على مسرحِ الأحداث، واستمرَّ الأمر كذلك نحوًا من سبع سنوات داخل البيت الأموي نفسه، فبعد وفاة هشام بُويع للخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني)، وقد استهلّ الوليد خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتمامًا شاملاً، ثم ما لبث أن ارتكب جنايات كثيرة؛ كان أعظمها تنكيله ببني عمه سليمان وهشام، وتنكيله بكبار رجال دولته، ثم إظهاره للمجون والخلاعة والعبث؛ مما عجّل بسقوط مُلْكه وخلافته، ثم قتله.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك

قُتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك إثْرَ ثورة قام بها يزيد بن الوليد بن عبد الملك اشترك معه فيها أمراء البيت الأموي واليمنية، وما أن تمّت البيعة ليزيد بن الوليد (يزيد الثالث) حتى قامت المعارضة العنيفة في وجهه، وتزعّمها أبناء عمومته، كما ثارت عليه الأقاليم الشامية، فلم يهنأ بخلافته طويلاً، ولم تَدُمْ خلافته سوى ستة أشهر (جمادى الآخرة - ذو الحجة سنة ١٢٦هـ)؛ حيث توفي في ذي الحجة، ليترك الشام -وهي الحصن الحصين للدولة الأموية- تشتعل نارًا، كما ترك أبناء أسرته منقسمين على أنفسهم، منشغلين بصراعاتهم عن الأخطار المحدقة بهم، وبصفة خاصة الخطر العباسي.

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

ثم بُويع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك عام (١٢٧هـ)، ولكن لم يتم له الأمر؛ إذ انقلب عليه مَرْوَان بن محمد وانتصر عليه في عين الجر، وبويع له بالخلافة في ربيع الآخر (١٢٧هـ)، فكانت مدّة خلافة إبراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر.

مروان بن محمد

تسلّم مَرْوَان بن محمد الخلافة الأموية ليُصَارع أحداثًا أقوى منه، ويُواجه دنيا مُدبِرَة ودولة ممزقة، قُدِّرَ له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها، فبعد حالة من السكون والاستقرار إِثْر بيعة مَرْوَان بن محمد بالخلافة، اندلعت الثورات في كل مكان في الدولة؛ فهناك ثورة في حمص، وأخرى في الغوطة، وثالثة في فلسطين، واضطرابات في العراق قام بها الخوارج والشيعة، وأخطر من ذلك كله كان انقلاب أمراء البيت الأموي عليه؛ كسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن العزيز، وقد كان انهماك مَرْوَان الثاني في إخماد الثورات والفتن؛ سببًا في انشغاله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق، خاصّة في خراسان التي كانت مركزًا للدعوة العباسية، وقد انتشرت في المنطقة انتشارًا واسعًا، واستقامت الأمور فيها لبني العباس؛ مما أدّى إلى اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها، وبدأت رايات العباسيين تنساح في البلاد انسياحًا سريعًا.

معركة الزاب

التقت سيوف الأمويين والعباسيين، ودارت بين الجيشين رحى معركة عنيفة عند نهر الزاب في شهر جمُادَى الآخرة عام (١٣٢هـ)، استمرّت أحدَ عشرَ يومًا انتهت بهزيمة مَرْوَان بن محمد ثم قَتْلِه، لتبدأ حِقبة جديدة في التاريخ الإسلامي، هي الخلافة العباسية.

أهم أحداث الفترة الثانية من عهد الولاة في الأندلس

نظرًا لتفاعل الأمور السابقة بعضها مع بعض، نستطيع بإيجاز شديد أن نُلَخِّص أهمَّ الأحداث التي تمخّضت عنها الفترة الثانية والأخيرة من عهد الولاة فيما يلي:

أولاً: فُقِدَت كثير من الأراضي الإسلامية في فرنسا.

ثانيًا: ظهرت مملكة نصرانية في الشمال الغربي عند منطقة الصخرة، تُسَمَّى مملكة (ليون).

ثالثًا: انفصل إقليم الأندلس عن الخلافة الإسلامية -الأموية في ذلك الوقت- وذلك على يد يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ.

رابعًا: انقسمت الأندلس إلى فرقٍ عديدةٍ متناحرة، وثورات لا نهاية لها، فكلٌّ يُريد التملك والتقسيم وفق عنصره وقبيلته.

خامسًا: أمر خطير جدًّا وهو ظهور فكر الخوارج، الذين جاءوا من الشام، واعتناق الأمازيغ (البربر) له؛ وذلك أن الأمازيغ (البربر) كانوا يُعانون ظلمًا شديدًا وعنصرية بغيضة من قِبَل يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ؛ مما مهَّد عقولهم لقبول هذا الفكر الخارج عن المنهج الإسلامي الصحيح واعتناقه؛ خَلاصًا مما يحدث لهم ممَّنْ ليسوا على فكر الخوارج.

سادسًا: زاد من خطورة هذا الموقف ذلك الحدث الجسيم الذي صدع الأمة الإسلامية في سنة (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وهو سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، الذي كان قيامًا دمويًّا رهيبًا، انشغل فيه العباسيون بالقضاء على الأمويين؛ ومن ثَمَّ فقد ضاعت قضية الأندلس وغابت تمامًا عن الأذهان.

ونتيجة لهذه العوامل جميعًا فقد أجمع المؤرخون على أن الإسلام كاد أن ينتهي من بلاد الأندلس، وذلك في عام (١٣٨هـ=٧٥٥م)، وأصبح أمر الأندلس يحتاج في إصلاحه إلى معجزة إلهية، وبالفعل حدثت المعجزة بفضل

من الله ومَنٍّ وكرمٍ منه على المسلمين؛ وذلك بدخول رجل يُدعَى عبدَ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي إلى أرض الأندلس، وذلك في شهر ذي الحجة عام (١٣٨هـ= مايو ٧٥٦م).

ملامح عهد الولاة الثاني

حب الدنيا

في أول هذا العهد كانت الأموال كثيرة والغنائم ضخمة، وفُتِحَت الدُّنيا عليهم، في حين يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا». وهكذا فُتِحَت الدنيا على المسلمين وانخرطوا فيها؛ فتأثَّر بذلك إيمانُهم.

ظهور العنصرية والقبلية

وتبعًا لتأثُّر الإيمان ظهرت العنصرية بصورة كبيرة، وحدثت انقسامات كثيرة في صفوف المسلمين داخل الأندلس؛ حدثت انقسامات بين العرب والأمازيغ (البربر)، وكانت جذور هذه الانقسامات منذ بلاط الشهداء، ثم حدثت انقسامات بين العرب أنفسهم، بين المضريين والحجازيين، وبين العدنانيين (أهل الحجاز) والقحطانيين (أهل اليمن)؛ حتى إنه كانت هناك خلافات وحروب كثيرة بين أهل اليمن وأهل الحجاز، ولقد وصل الأمر إلى أن حدثت انقسامات بين أهل الحجاز أنفسهم؛ بين الفِهْرِيين وبين الأمويين، بين بني قيس وبني ساعدة، وهكذا انقسم أهل الحجاز بعضهم على بعض.

ظلم الولاة

وإضافة إلى حبِّ الغنائم وتفاقم ظاهرة القبلية والنزعة العنصرية، وكخطوة لاحقة لهذا ظهر ما يمكن أن نُسمِّيه ظلم الولاة، فقد تولَّى أمر المسلمين في الأندلس ولاة ظلموا الناس وألهبوا ظهورهم بالسياط؛ كان منهم – على سبيل المثال– عبد الملك بن قَطَن، فقد كان ظالمًا جائرًا.

وعلى دربه سار يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ الذي تولّى عام (١٣٠هـ=٧٤٨م) وحتى آخر هذه الفترة، وآخر عهد الولاة كلية سنة (١٣٨هـ= ٧٥٥م)، فحدثت انكسارات جديدة وثورات عديدة داخل بلاد الأندلس .

ترك الجهاد

كنّا نتحدَّث منذ قليل عن الانتصارات الإسلامية والتاريخ المَجيد، وفتح الأندلس وفتح فرنسا، ثم ها هي ذي الدنيا قد تمكّنت من القلوب، وها هي ذي العنصرية قد ظهرت، وها هو ذا ظلم الولاة يُسْلِمُ الناس إلى هذه الثورات، وكردٍّ فعل طبيعي جدًّا لكلِّ هذا ترك الناسُ الجهاد، وتوقّفت الفتوحات في فرنسا، وتوقّفت الحروب ضد النصارى في الشمال الغربي في منطقة الصخرة، التي كان يتمركز بها مجموعة من النصارى منذ الفتح الأول لبلاد الأندلس، وكقاعدة ربانية وسُنّة إلهية فما تَرَكَ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلاّ ضرب الله عليهم الذلّ، يروي أبو داود عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن الرسول ﷺ قال: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ». وهكذا كان الحال حين ترك المسلمون الجهاد في فرنسا وأرض الأندلس، فسلّط الله عليهم الذلّ، وانقسموا على أنفسهم، وانشغلوا بدنياهم.

صقر قريش .. عبد الرحمن الداخل

نشأة عبد الرحمن الداخل

لكي نفهم قصة دخول عبد الرحمن بن معاوية إلـى أرض الأنـدلس، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً حتى سنة (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وهو زمن سقوط الدولة الأموية في المشرق، فقد قتل العباسيون كلّ مَن كان مُؤَهَّلاً من الأُمَوِيِّين لتولِّي الخلافة؛ فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء أبناء الأمراء (الأحفاد)، إلا قلّة ممَّن لم تصل إليهم سيوفُهم.

وكان من هؤلاء الذين لم تصل إليهم سيوف بني العباس– عبدُ الرحمن بن معاوية حفيدُ هشام بن عبد الملك الذي حكم من سنة (١٠٥هـ=٧٢٣م) إلى سنة (١٢٥هـ=٧٤٣م).

وقد نشأ عبد الرحمن في بيت الخلافة الأموي، وكان الفـاتح الكبيـر مسلمة بن عبد الملك عَمّ أبيه يراه أهلاً للولاية والحكـم، وموضـعًا للنجابـة والذكاء، وسمع عبد الرحمن ذلك منه مشافهة، فترك ذلك في نفسه أثرًا إيجابيًّا، ظهرت ثماره فيما بعدُ، ولما بلغ رَيْعَانَ شبابه انقلب العباسيون على الأمويين، وأعملوا فيهم السيف –كما ذكرنا– حتى لا يُفَكِّر في الخلافة أحدٌ منهم؛ فكـانوا يقتلون كلّ مَنْ بلغ من البيت الأموي، ولا يقتلون النساء والأطفال، وكان هـذا في سنة (١٣٢هـ).

هروب عبد الرحمن الداخل

هرب عبد الرحمن بن معاوية من مكانه ومستقره في قرية دير خنـان من أعمال قنسرين بالشام إلى بعض القرى في العراق ناحية الفـرات، ولكـن المطاردة العباسية المحمومة –بما جنّدته من مكافآت وعيون تبلغها الأنبـاء– بلغته في مكانه، وبينما كان يجلس في بيته؛ إذ دخل عليـه ابنـه ذو الأربـع سنوات يبكي فزعًا، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضًا معتزلاً في الظـلام في ركن من البيت؛ لأنه كان يُعاني من رمد في عينه، فأخذ يُسكِّن الطفل بمـا

يُسكّن به الأطفال، إلاّ أن الطفل ظلّ فزعًا مرعوبًا لم يهدأ، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرايات السود (رايات الدولة العباسية) خارج البيت، وكانت تعمُّ القرية جميعها، فعلم أنّه مطلوب، فرجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخاه هشام بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأنه يعلم أنهم لن يمسوهم بسوء.

وانطلق عبد الرحمن هاربًا -ومعه أخوه هشام- نحو الفرات، وعند الفرات أدركتهما خيول العباسيين، فألقيا بأنفسهما فيه وأخذا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون: أن ارجعا ولكما الأمان. وأقسموا لهما على هذا، كانت الغاية أن يقطعا النهر سباحة حتى الضفة الأخرى، إلاّ أن هشامًا لم يقوَ على السباحة لكل هذه المسافة، ثم أثّر فيه نداء العباسيين وأمانهم، فأراد أن يعود، فناداه عبد الرحمن يستحثّه ويُشَجِّعه: أن لا تَعُدْ يا أخي، وإلاّ فإنهم سوف يقتلونك. فردّ عليه: إنهم قد أعْطَوْنَا الأمان. ثم عاد راجعًا إليهم، فما أن أمسك به العباسيون حتى قتلوه أمام عيني أخيه، وعَبَر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلّم، أو يُفَكِّر من شدّة الحزن على أخيه ابن ثلاث عشرة سنة، ثم اتجه إلى بلاد المغرب؛ لأن أمّه كانت من إحدى قبائل الأمازيغ (البربر)، فهرب إلى أخواله هناك، في قصة هروبٍ طويلة جدًّا وعجيبة -أيضًا- عبر فيها الشام ومصر وليبيا والقيروان.

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى بَرْقَة (في ليبيا)، وظلّ مختبئًا فيها خمس سنين إلى أن يهدأ الطلب والمطاردات، ثم خرج إلى القيروان، وكانت القيروان حينئذٍ في حكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان قد استقلّ -فعليًّا- بالشمال الإفريقي عن الدولة العباسية.

كان عبد الرحمن بن حبيب من نسل عقبة بن نافع فاتح المغرب الأول، وكان ابن عم يوسف الفهري الذي كان يحكم الأندلس، وكان يرغب في أن يحكم الأندلس -أيضًا- إذ الأندلس تَبَعٌ للمغرب، وكان ظهور عبد الرحمن بن معاوية مما يُعَطِّل هذه الأماني.

لماذا يعطل ظهور عبد الرحمن بن معاوية آمال عبد الرحمن بن حبيب الفهري؟

إجابة هذا السؤال فيها جانب واقعي تقريري، وجانب آخر طريف يتمثّل في النبوءة!

عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان، والحاكم الفعلي لمنطقة الشمال الإفريقي، وابن عم صاحب الأندلس يوسف الفهري، يعلم أن عبد الرحمن بن معاوية -وهو الأموي سليل بيت الخلافة الأموية التي فتحت هذه البلاد، ونصبت هؤلاء الولاة على مقاليدها، وكانت تملك عزلهم وتوليتهم- لا يسعه أن يجلس في بيته قانعًا من الحياة بالعيش الطيب فحسب، بل لا بُدَّ له أن يطلب حقه في مُلك آبائه وأجداده الخلفاء، فما هذه إلاَّ بلاد هم الذين افتتحوها وملكوها وحكموها بالإسلام.

وهذا في الواقع صحيح جدًّا، وهو -بالمناسبة- التفسير الذي يُفَسِّر تلك الدموية البالغة التي استعملتها الدولة العباسية في القضاء على الأمويين؛ إذ ما دام وُجد أمويٌّ أو عصبة أموية فإنها لن تفتأ تُفَكِّر في استعادة مُلكها المغصوب؛ ومن هنا كان لا بُدَّ من اجتثاث الأمويين تمامًا لإنهاء هذه المعضلة الخطيرة، والتي أخطر ما فيها مسألة «الشرعية»؛ إذ حُكْم بني أمية لهذه البلاد بعد أن فتحوها بجهادهم لا يُشَكُّ في شرعيته، بينما انقلاب العباسيين على الأمويين موضع أخذ وردٍ وقيل وقال.

فظهور أموي في بلاد المغرب كعبد الرحمن بن معاوية يفتح في ذهن صاحب المغرب -كما سيفتح في ذهن صاحب الأندلس فيما بعدُ- بابًا من الخوف والتوجُّس والانزعاج؛ إذ الأموي أحق بحكم تلك البلاد، وهي من ميراث أجداده الخلفاء العظام.

دار هذا في ذهن عبد الرحمن بن حبيب، ولا شكَّ أنه دار -أيضًا- في ذهن كلِّ صاحب رأي، وكل مَنْ كان من أهل الحلِّ والعقد والرئاسة والزعامة. هذا هو الجانب الواقعي.

نبوءة مسلمة بن عبد الملك

أمَّا الجانب الطريف فهو مسألة النبوءة!

أجمعت كتب التاريخ على أن مسلمة بن عبد الملك -الفاتح العظيم وفارس بني أمية الذي تولَّى فتح بلاد الشمال والقوقاز كما ذكرنا- كان يتنبَّأ بزوال مُلك بني أمية في المشرق، ثم هروب فتى منهم لإحيائه في بلاد المغرب مرَّة أخرى! وتزيد بعض الكتب فتقول بأنه كان يتوقَّع أن يكون عبد الرحمن بن معاوية هو هذا الفتي الذي سيُقيم مُلك الأمويين في المغرب بعد زواله في المشرق.

وبهذه النبوءة يُفَسِّر كثير من المؤرخين أحداث هذه الفترة، فيُفَسِّرون بها إصرار العباسيين على مطاردة عبد الرحمن بن معاوية خاصة، ويُفَسِّرون بها اتجاه عبد الرحمن بن معاوية إلى بلاد المغرب، ويفسرون بها حُبَّ هشام بن عبد الملك ورعايته لحفيده عبد الرحمن هذا دون غيره من أبنائه وأحفاده، ويفسرون بها -أيضًا- سعي عبد الرحمن بن حبيب لقتل عبد الرحمن بن معاوية في القيروان.

وما يزيد في الطرافة أن النبوءة تقول بأن صاحب الأندلس يُرسل شَعْرَه ويجعل فيه ضفيرتين، فكان عبد الرحمن بن معاوية بهذا الوصف، وكذا كان عبد الرحمن بن حبيب أيضًا.

ما حقيقة هذه النبوءة في الواقع التاريخي؟

الحقيقة أن النبوءات دخلت في العديد من أحداث التاريخ، ولكن -على حدِّ علمي- في كل هذه الأحداث ليس من دليل يقول بأن هذه النبوءة وُجدت أو قيلت قبل وقوع الأحداث نفسها، ثم جاءت الأحداث تصدق النبوءة.

وهذه النبوءة التي نحن بصددها لا تختلف عن هذا، فليس في كتب التاريخ التي وصلت إلينا ما يُؤيِّد أنها نبوءة ظهرت قبل وقوع الأحداث، لا سيما وأننا نتحدَّث عن تاريخ مبكِّر جدًّا، في بداية القرن الثاني الهجري، قبل أن تُكتب المصادر التاريخية التي بين أيدينا.

والشاهد في موضوعنا أن عبد الرحمن بن حبيب كان يرجو هو -أيضًا- أن يكون صاحب الأندلس، فهو من أبناء الملوك، وهو صاحب جديلتين؛ ومن ثَمَّ فظهور مَنْ يُنافسه في النبوءة -أيضًا- كان من الخطر الذي لا بُدَّ من التخلُّص منه.

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد عرف بخبر النبوءة من خادم يهودي له كان قد خدم مسلمة بن عبد الملك، فأوصل ذلك الخادم لعبد الرحمن بن حبيب نبوءة مسلمة من أن قرشيًّا أمويًّا يملك بلاد المغرب بعد زوال الأمر من المشرق.

ولما كثر الهاربون الأمويون الواصلون إلى أرض المغرب، ازدادت خشية عبد الرحمن بن حبيب من تَكَوُّن عصبة أموية في بلاده، فأخذ في طرد الكثير منهم، وقتل اثنين من أبناء الوليد بن يزيد، وتزوَّج غصبًا بأخت إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وأخذ مالاً له، ثم جدَّ في طلب عبد الرحمن بن معاوية.

إلى بلاد الأندلس

بلغ ذلك عبد الرحمن الداخل الذي ما كان له أن تفوته مثل هذه الأمور، فلما أن طلبه عبد الرحمن بن حبيب كان قد خرج من القيروان إلى تادلا، ومنها إلى مضارب قبيلة نفزة بالمغرب الأقصى، وهم أخواله؛ إذ إن أمَّ عبد الرحمن كانت جارية من نفزة، ولم يكن الوضع هناك بالآمن؛ إذ إن وجود الخوارج في هذه المنطقة -وهم الذين يكرهون الأمويين- كان يجعل مقامه هذا -أيضًا- مقامًا على شفا جرف هارٍ.

في الواقع لم يَعُدْ أمام عبد الرحمن بن معاوية إلاّ بلاد الأندلس، وإذا جرينا وراء النبوءة فيمكننا أن نقول بأن بلاد الأندلس لم تكن فقط وجهته الوحيدة، بل كانت -أيضًا- مطلبه وغايته وهدفه القديم منذ أن سمعه صبيًا من عم أبيه مسلمة بن عبد الملك.

فعبد الرحمن مطلوب الرأس في أيِّ قُطْرٍ من بلاد المسلمين؛ ففي أقصى الشرق من فارس وما يليها تكمن شوكة العباسيين ومعقلهم الرهيب، وقد كانت فارس في هذه الأثناء تحت حكم الرجل القوي الجبار أبو مسلم الخراساني، الذي لُقِّبَ بحجاج بني العباس، وفي العراق عاصمة العباسيين، وفي الشام ومصر سلطة العباسيين مكينة كذلك، وفي الشمال الإفريقي وبلاد المغرب الإسلامي مطلوب من عبد الرحمن بن حبيب والخوارج.

هذا من ناحية الأخطار التي يمكن أن تحيط بالفرد العادي إن كان مطلوبًا، فكيف وهو من بني أمية الذين لا يأمن أحد الملوك على ملكه وتحت سلطانه واحد منهم؟! لم يكن يسعه في الحقيقة إلاّ أن يعيش أميرًا أو ملكًا، وإلاّ فلن يعيش. بذا قضى قانون الواقع على عبد الرحمن بن معاوية.

كانت الأندلس أصلح البلدان لاستقباله؛ وذلك لأنها:

أولاً: أبعد الأماكن عن العباسيين والخوارج.

وثانيًا: لأن الوضع في الأندلس ملتهب جدًّا؛ وذلك على نحو ما ذكرنا في عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري في نهاية الفترة الثانية من عهد الولاة؛ ففي هذا الجوِّ يستطيع عبد الرحمن بن معاوية أن يدخل هذه البلاد؛ ولو كانت تابعة للخلافة العباسية ما استطاع أن يدخلها، كما أنها لو كانت على فكر الخوارج ما استطاع -أيضًا- أن يدخلها؛ فكانت الأندلس أنسب البلاد له على وُعُورَتها واحتدام الثورات فيها.

عبد الرحمن الداخل في الأندلس

خطة دخول الأندلس

في سنة (١٣٦هـ=٧٥٣م) بدأ عبد الرحمن بن معاوية (عبد الرحمن الداخل) يُعِدُّ العُدَّةَ لدخول الأندلس، فعمل على الآتي:

أولاً: أرسل مولاه بدرًا إلى الأندلس لدراسة الموقف، ومعرفة القوى المؤثِّرة في الحُكم فيها، فلقد كانت الأندلس في تنازع بين اليمنية -وزعيمهم أبو الصباح اليحصبي- والقيسية -وزعيمهم أبو جوشن الصميل بن حاتم- وهم الذين كانوا عمادًا لدولة عبد الرحمن بن يوسف الفهري.

ثانيًا: راسل كلَّ محبِّي الدولة الأموية في أرض الأندلس بعد أن علِمَهم من مولاه بدر، والحقُّ أن كثيرًا من الناس في عهد الدولة الأموية وفي غيرها كانوا يُحِبُّون الأمويين كثيرًا، فمنذ ولاية معاوية بن أبي سفيان t على الشام في خلافة عمر بن الخطاب t، وفي خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهم جميعا، والمسلمون في أقطار الدولة الإسلامية يحبُّون بني أمية حبًّا شديدًا، فقد اشتهر بنو أمية على مَرِّ العصور بالسخاء والسياسة والحكمة، واكتساب ثقة الناس وحُسن معاملتهم، والجهاد في سبيل الله، ونشر الدين، وفتح البلاد، فكان لبني أمية داخل بلاد الأندلس الكثير من المؤيدين، والكثير من المحبين حتى من غير بني أمية من القبائل المختلفة.

ثالثًا: راسل كلَّ الأمويين في الأندلس يعرض عليهم فكرته، وأنه يعزم على دخول الأندلس ويطلب معونتهم ومددهم.

كانت الخطوة المؤثِّرة التي نجح فيها بدر -مولى عبد الرحمن الداخل- هو وصوله إلى موالي بني أمية في الأندلس، وشيخهم أبو عثمان، ومن خلالهم حاول التحالف مع القيسية، إلاّ أن الصميل بن حاتم -وقد كان زعيم القيسية الذين كانوا عماد الفهري- عَبَّر بوضوح عن مخاوفه من وجود أمير أموي في

البلاد، فوَضْع القيسية حينئذٍ لن يكون كما هو في ظلِّ الفهري الذي يستطيعون أن يأخذوا منه ويَرُدُّوا عليه. فذهبوا إلى اليمنية فرضوا وتمَّ لهم الأمر.

وإذًا، فقد نجح بدر في مهمته، فأرسل رسولاً إلى عبد الرحمن يقول له: إن الوضع أصبح جاهزًا لاستقبالك هناك. وحينما سأله عن اسمه، قال: تمام. قال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب. فقال: الله أكبر! الآن تمَّ أمرنا، وغَلَبْنَا بحول الله تعالى وقوته. وبدأ يُعِدُّ العُدَّةَ، ويجهِّز السفينة التي أخذته منفردًا إلى بلاد الأندلس.

عبد الرحمن الداخل في الأندلس

نزل عبد الرحمن الداخل -رحمه الله- على ساحل الأندلس بمفرده، واستقبله هناك مولاه بدر، وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكالعادة كان في الشمال يقمع ثورةً من الثورات.

وبمجرَّد أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس بدأ يُجَمِّع الناس من حوله؛ محبِّي الدولة الأموية، والأمازيغ (البربر)، وبعض القبائل المعارضة ليوسف بن عبد الرحمن الفهري، كما كان قد وصلت إلى الأندلس فلول من الأمويين الهاربين، إلى جانب التحالف المأخوذ مع اليمنية.

كان على رأس اليمنيين في ذلك الوقت أبو الصباح اليحصبي، وكان المقرُّ الرئيس لهم في إِشْبِيلِيَة، وهي المدينة الكبيرة التي كانت تُعَدُّ حاضرة من حواضر الإسلام في ذلك الوقت، فذهب عبد الرحمن بن معاوية بنفسه إلى إِشْبِيلِيَة، واجتمع طويلاً مع أبي الصباح اليحصبي، فبايعه أبو الصباح

وقبل القتال أرسل عبد الرحمن بن معاوية عدَّة رسائل إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري يطلب وُدَّه، وأن يُسَلِّم له الإمارة، ويكون الفهري رجلاً من رجاله في بلاد الأندلس، بحُكْم أنه حفيد هشام بن عبد الملك، لكن يوسف الفهري رفض ذلك، وجهَّز جيشًا وجاء ليحارب عبد الرحمن بن معاوية ومَنْ معه.

موقعة المصارة

من المؤسف حقًا أن يلتقي المسلمون بسيوفهم، لكن كثرة الثورات وكثرة الفتن والانقلابات جعلت الحلّ العسكري هو الحلّ الحتمي في ذلك الوقت؛ ففي (ذي الحجة ١٣٨هـ=مايو ٧٥٦م) وفي موقعة كبيرة عُرِفت في التاريخ باسم موقعة المصارة، دار قتال شرس بين يوسف بن عبد الرحمن الفهري من جهة ومعه القيسية، وعبد الرحمن بن معاوية الذي يعتمد في الأساس على اليمنيين من جهة أخرى.

وقبل القتال كان أبو الصباح اليحصبي (رئيس اليمنيين) قد سمع بعض المقولات من اليمنيين تقول: إن عبد الرحمن بن معاوية غريب عن البلاد، ثم إن معه فرسًا عظيمًا أشهب، فإن حدثت هزيمة فسيهرب من ساحة القتال، ويتركنا وحدنا للفهريين.

وقد وصلت عبدَ الرحمن بن معاوية تلك المقولة، فقام وفي ذكاءٍ شديد يفوق سنَّ الخامسة والعشرين، وذهب بنفسه إلى أبي الصباح اليحصبي، وقال له: إن جوادي هذا سريع الحركة ولا يمكّنني من الرمي، فإن أردت أن تأخذه وتعطيَني بغلتك فعلت. فأعطاه الجواد السريع وأخذ منه البغلة يُقاتل عليها، وحينئذٍ قال اليمنيون: إن هذا ليس بمسلك رجل يُريد الهرب، إنما هو مسلك مَنْ يُريد الموت في ساحة المعركة.

ودارت معركة قوية، انتصر فيها عبد الرحمن بن معاوية، وفَرَّ يوسف الفهري.

عبد الرحمن الداخل وأمارات نجابة وعلم وذكاء

كانت عادة المحاربين أن يَتّبع الجيشُ المنتصرُ فلول المنهزمين والفارّين؛ ليقتلهم ويقضي عليهم؛ ومن ثَمّ يقضي على ثورتهم، وحين بدأ اليمنيون يُجَهِّزون أنفسَهم ليَتَتَبَّعوا جيش يوسف الفهري منعهم عبد الرحمن بن معاوية، وقال لهم قولةً ظلّت تتردّدُ في أصداء التاريخ، أمارةً على علمه

ونبوغه، وفهمٍ صحيح، وفكرٍ صائب في تقدير الأمور؛ قال لهم: «لا تستأصلوا شأفةَ أعداءٍ ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم».

يُريد –رحمه الله– أن هؤلاء الذين يقاتلوننا اليوم سيُصبحون غدًا من جنودنا؛ ومن ثَمَّ عونًا على أعدائنا من النصارى وغيرهم في ليون وفرنسا وغيرها، فهكذا –رحمه الله– كان ذا نظرة واسعة جدًّا تشمل كل بلاد الأندلس، بل تشمل كل أوربا، بل إني أراه بذلك التفكير يستطيع أن يُعِيد مُلك الشام بعد ذلك –أيضًا– إلى أملاك الأمويين؛ وذلك لما يلي:

أولاً: ليس في قلبه غلّ ولا حقدٌ على مَنْ كان حريصًا على قتله منذ سويعاتٍ قلائل.

ثانيًا: الفهم العميق للعدوِّ الحقيقي وهو النصارى في الشمال.

ثالثًا: رغم كونه لم يتجاوز الخامسة والعشرين إلاّ أنه كان يمتلك فهمًا واعيًا، وإدراكًا صحيحًا، وفقهًا وعلمًا وسعة اطلاع، عَلِمَ به أنه إن جاز له أن يُقَاتِلهم لتوحيد البلاد تحت راية واحدة، فهو في الوقت ذاته لا يجوز له شرعًا أن يتتبعهم، أو أن يقتل الفارِّين منهم، ولا أن يُجْهِزَ على جريحهم، ولا أن يقتل أسيرهم؛ لأن حكمهم حكم الباغين في الإسلام وليس حكمَ المشركين، وحكم الباغي في الإسلام أنه لا يُتَتَبَّع الفارُّ منهم، ولا يُقتَلُ أسيرُه، ولا يُجهَزُ على جريحه، بل ولا تُؤخَذ منه الغنائم.

وكانت الهزيمة بالغة، حتى إن عبد الرحمن الداخل لم يجد أحدًا في طريقه إلى قصر الحكم في قُرْطُبَة، وسيطر جنوده على ما في يد جنود يوسف من الأسلحة والمتاع وما إلى ذلك، إلاّ أن بعض الناس حاول انتهاب قصر يوسف الفهري نفسه وسبي أولاده وحريمه، فسارع وطرد الناس، وكسا من عَرِي من أولاد يوسف، وردَّ ما قدر على ردِّه، وهنا غضبت اليمنية وساءهم ذلك حين لم يستطيعوا أن ينتقموا من يوسف في أولاده ونسائه، وداخلهم أن عبد الرحمن الداخل تعصب لنسبه المضري.

وأقام عبد الرحمن بن معاوية الداخل بظاهر قُرْطُبَة ثلاثة أيام، حتى يترك الفرصة لأهل يوسف الفهري أن يجمعوا أمرهم وأن يخرجوا بأمان، فكان هذا بداية عفافه وحسن سيرته في الأندلس.

بين عبد الرحمن الداخل وأبي الصباح اليحصبي

ومن المفارقات أنه بعد انتهاء موقعة المصارة وحين لم يرضَ عبد الرحمن بانتهاب قصر يوسف الفهري ولا سبي أولاده، غضب أبو الصباح اليحصبي زعيم اليمنية، وفكر في أن ينقلب على عبد الرحمن بن معاوية نفسه، وكان مما قال: «يا معشر يمن؛ هل لكم إلى فتحين في يوم، قد فرغنا من يوسف وصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدام ابن معاوية؛ فيصير الأمر لنا، نقدِّم عليه رجلاً منا، ونحل عنه هذه المضرية». فلم يجبه أحد لذلك.

ووصلت هذه الأنباء إلى عبد الرحمن بن معاوية، فما كان منه إلاّ أن أسرَّها في نفسه، ولم يُبْدِها لهم، ولم يُعلِمْهم أنه يعلم ما يُضمِرُونه له؛ لكنه أصبح على حذرٍ شديدٍ من أبي الصباح اليحصبي.

لم يُرِدْ عبد الرحمن بن معاوية أن يُحدث خللاً في الصفِّ المسلم في هذه الأوقات، ولم يُرِدْ أن يُحْدِثَ خللاً بين الأمويين ومحبِّي الدولة الأموية وبين اليمنيين، في ذلك الوقت المليء بالثورات والمعارك الداخلية؛ إنما كان كلُّ هَمِّه هو تجميع الناس ثم حرب النصارى بعد ذلك، وبالفعل وبعد إحدى عشرة سنة من هذه الأحداث عزل عبدُ الرحمنِ أبا الصباح اليحصبي عن مكانه، واستطاع أن يمتلك زمامَ الأمور كلها في الأندلس .

صقر قريش وثورة العباسيين

بعد انتصار عبد الرحمن بن معاوية في موقعة المصارة ودخوله قُرْطُبَة عاصمة الأندلس في ذلك الوقت، لُقِّب عبدُ الرحمن بن معاوية بعبد الرحمن الداخل؛ لأنه أول من دخل من بني أمية قرطبة حاكمًا، فكان له الكثير من الأيادي البيضاء على الإسلام في بلاد الأندلس، وعُرِفت الفترة التي تلت

دخوله قُرْطُبَة بفترة الإمارة الأموية، وتبدأ من سنة ١٣٨هـ=٧٥٥م وتنتهي سنة ٣١٦هـ=٩٢٨م، وسُمِّيت إمارة لأنها أصبحت منفصلة عن الخلافة الإسلامية؛ سواء كانت في عصر الدولة العباسية أو ما تلاها بعد ذلك من العصور إلى آخر عهود الأندلس.

وبدأ عبد الرحمن الداخل بعد ذلك يُنَظِّم أمور الأندلس، وكانت هناك ثورات في كل مكان من أرض الأندلس، ورث بعضها وبعضها الآخر ثار عليه، وبصبر شديد وأناة عجيبة، أخذ عبد الرحمن الداخل يُرَوِّض هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، وتعامل مع كلٍّ منها بما يتوافق معها؛ فاستمال مَنِ استطاع من الثائرين، وحارب الباقين.

ففي فترة حُكمه -التي امتدَّت أربعة وثلاثين عامًا متصلة من سنة ١٣٨هـ=٧٥٥م وحتى سنة ١٧٢هـ=٧٨٨م - قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يقمعها بنجاح عجيبٍ الواحدة تلو الأخرى، ثم ترك البلاد وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن الداخل

تَعَرَّضَتِ الدولة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل لعدد كبير من الثورات، تزيد على خمس وعشرين ثورة تغلَّب عليها جميعًا؛ ومن هذه الثورات:

ثورة القاسم بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري ورزق بن النعمان الغساني، وثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة ١٤٣هـ=٧٦٠م ، وثورة هشام بن عروة الفهري سنة ١٤٤هـ=٧٦١م ، وثورات أخرى تتابعت عليه من سنة ١٤٤هـ إلى سنة ١٤٦هـ، وثورة العلاء بن مغيث اليحصبي سنة ١٤٦هـ=٧٦٣م ، وثورة سعيد اليحصبي اليماني سنة ١٤٩هـ=٧٦٦م ، وثورة أبي الصباح حيِّ بن يحيى اليحصبي سنة ١٤٩هـ=٧٦٦م ، وثورة البربر في الأندلس بزعامة شقيا بن عبد الواحد المكناسي سنة ١٥١هـ=٧٦٨م

، وثورة اليمانية في إشْبِيليّة بزعامة عبد الغافر اليحصبي وحيوة بن ملامس الحضرمي سنة ١٥٦هـ=٧٧٣م ، وثورة سليمان بن يقظان في بَرْشُلُونَة سنة ١٥٧هـ=٧٧٤م ، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة ١٦١هـ=٧٧٧م ، وثورة الحسين بن يحيى الأنصاري سنة ١٦٦هـ=٧٨٢م، وثورة محمد بن يوسف الفهري سنة ١٦٨هـ=٧٨٤م، وثورات أخرى كثيرة قامت ضده، ولكنه ما لبث أن أخمدها كلها وقضى عليها.

صقر قريش وثورة العباسيين

ولن نقف إلاّ أمام ثورة واحدة فقط من هذه الثورات الخمس والعشرين؛ وذلك لأهميتها الشديدة في فهم هذا الانفصال الذي حدث للأندلس عن الخلافة العباسية، وهذه الثورة حدثت في سنة ١٤٦هـ=٧٦٣م؛ أي: بعد حوالي ثمان سنوات من تولِّي عبد الرحمن الداخل حكم الأندلس، وقام بها رجل يُدعى العلاء بن مغيث الحضرمي.

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، والمؤسس الحقيقي للخلافة العباسية بعد أبي العباس السفاح، قد رَاسَلَ العلاء بن مغيث الحضرمي ليقتل عبد الرحمن بن معاوية؛ ومن ثَمَّ يضمُّ الأندلس إلى أملاك الخلافة العباسية.

وهذا يُعَدُّ أمرًا طبيعيًّا بالنسبة لأبي جعفر المنصور؛ إذ يُريد ضمَّ بلاد الأندلس -وهو البلد الوحيد المنشقّ من بلاد المسلمين- إلى حظيرة الخلافة العباسية الكبيرة، فجاء العلاء بن مغيث الحضرمي من بلاد المغرب العربي وعبر إلى بلاد الأندلس، ثم قام بثورة يدعو فيها للعباسيين، ويرفع الراية السوداء التي أرسلها له الخليفة أبو جعفر المنصور.

ولم يتوانَ عبد الرحمن الداخل عن محاربته، فقامت لذلك حرب كبيرة بين العلاء بن مغيث الحضرمي وعبد الرحمن الداخل، وانتصر عبد الرحمن الداخل كعادته في قمع الثورات، ووصلت الأنباء إلى أبي جعفر المنصور -

وكان في الحجّ- بأن عبد الرحمن الداخل قد هزم جيش العلاء الحضرمي هزيمة منكرة، وأن العلاء بن مغيث الحضرمي قد قُتل.

وهنا قال أبو جعفر المنصور: قَتَلْنَا هذا البائس. يعني العلاء بن مغيث الحضرمي؛ يُريد أنه قتله بتكليفه إيَّاه بحرب عبد الرحمن الداخل، ثم قال: ما لنا في هذا الفتى من مطمع، يعني: عبد الرحمن الداخل، الحمدُ لله الذي جعل بيننا وبينه البحر.

وكفّ أبو جعفر من ساعتها عن التفكير في استعادة بلاد الأندلس.

صقر قريش

يعد أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي هو الذي سمَّى عبد الرحمن الداخل بصقر قريش، وهو اللقب الذي اشتُهِرَ به بعد ذلك.

فقد ذُكِرَ أن أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني: مَنْ صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكّن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئًا!

قالوا: فمعاوية (معاوية بن أبي سفيان)؟ قال: لا.

قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئًا.

قالوا: يا أمير المؤمنين؛ فمَنْ هو؟

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًّا، منفردًا بنفسه؛ فمصَّر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدَّة شكيمته، إنَّ معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلّلا له صعبه؛ وعبدُ الملك ببيعة أُبْرِمَ عقدها؛ وأمير المؤمنين بطلب عِتْرَته، واجتماع شيعته، وعبد

الرحمن منفردٌ بنفسه، مؤيَّدٌ برأيه، مستصحبٌ لعزمه، وطّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقتَ والله! يا أمير المؤمنين.

وهكذا كان أبو جعفر المنصور العباسي معجبًا جدًّا بعبد الرحمن الداخل، وهو ما يمكن أن نُسَمِّيَه إعجاب اضطرار، أو هو إعجاب فرض نفسه عليه.

عبد الرحمن الداخل والخلافة العباسية:

تُثير قضية هذا الانفصال الطويل الذي دام بين الأندلس وبين الخلافة العباسية على مرِّ العصور عدّة تساؤلات في نفوس جميع المسلمين؛ فلماذا ينفصل عبد الرحمن الداخل –الرجل الورع التقيُّ الذي أقام دولة قوية في بلاد الأندلس– بالكلية عن الخلافة العباسية؟!

ووقفة عادلة مع هذا الحدث وتحليله واستجلاء غوامضه نستطيع القول بأن الدولة العباسية قد أخطأت خطأ فاحشًا بحقِّ الأمويين؛ وذلك بقتلهم وتَتَبُّعهم في البلاد بهذه الصورة الوحشية، فإذا كان الأمويون في آخر عهدهم قد فسدوا واستحقُّوا الاستبدال فليكن تغييرُهم، ولْيكُن هذا الاستبدال، ولكن على نهج رسول الله ، بلا قتل وسفك للدماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كان من المفترض على الدولة العباسية القائمة على أنقاض الأمويين أن تحتوي هذه الطاقات الأموية، وتعمل على توظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين، بدلاً من إجبارهم على خلق جيب من الجيوب في صُقْع بعيد من أصقاع البلاد الإسلامية في الأندلس أو في غيرها من بلاد المسلمين.

فهذا عبد الرحمن الداخل الذي نتحدّث عنه يصيح في اليمنيين بعد موقعة المصارة، ويقول لهم حين أرادوا أن يَتَتَبَّعُوا الفارّين من جيش يوسف بن عبد الرحمن الفهري: لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم. ليضمَّهم إلى جيشه بعد ذلك، فهكذا كان يجب على العباسيين أن يفعلوا، ويتركوا

الأمويين يدخلون تحت عباءتهم؛ حتى يستطيعوا أن يكونوا لهم جندًا وعونًا لا نِدًّا ومنافسًا، كما رأينا النتيجة بأعيننا.

عفو الرسول مع كفار مكة

وهذا -أيضًا- المثلُ الأعلى والقدوةُ الحسنَة رسولُ الله ، ماذا فعل بعد أن دخل مكة، وكان أهلها قد آذوه هو وأصحابه وطردوهم منها؟! وماذا قال عن أبي سفيان وهو مَنْ هو قبل ذلك؟! ما كان منه إلاّ أن دخل متواضعًا، وقال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ». أليس أبو سفيان هذا هو زعيم الكفر وزعيم المشركين في أُحُدٍ والأحزاب؟! فلماذا إذًا يقول عنه مثل هذا؟! إنما كان يُريد أن يخطب وُدَّه، ويضمَّه إلى صفِّه، وبالمثل فعل الرسول مع رءوس الكفر في مكة حين قال لهم: «مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» فقالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم. فرَدَّ عليهم بمقولته التي وعاها التاريخ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ».

وليس هذا من كرم الأخلاق فحسب، لكنه -أيضًا- من فنِّ معاملة الأعداء، وحُسْنِ السياسة والإدارة، فَلْنتخيَّلْ ماذا سيكون الموقف لو أن الرسول أقام الحَدَّ وقطع رءوس هؤلاء الذين حاربوا دين الله سنواتٍ وسنوات؟! بلا شكٍّ كان سيُحدِث جيبًا من الجيوب داخل مكة، وكان أهل مكة سينتهزون الفرصة تلو الأخرى للانقلاب على رسول الله ، وللانفصال عن الدولة الإسلامية.

لكن العجب العُجَاب كان في نتيجة ذلك بعد وفاته r ، فقد ارتدَّت جزيرة العرب جميعها، ولم يبقَ على الإسلام منها إلاّ المدينة ومكة والطائف، وقرية صغيرة تُسَمَّى هجر، ثلاث مدن وقرية واحدة فقط؛ أي أن مكة التي لم تدخل في الإسلام إلاّ قبل وفاة الرسول بثلاث سنوات فقط كانت في تعداد هذه المدن القليلة التي ثبتت على الإسلام ولم ترتدّ، وبلا شكٍّ فهو أثر فعل

رسول الله الذي لم يَنْسَوْه، فكان أن استُوعِبوا في داخل الدولـة الإسـلامية، وثبتوا وقت الزَّيْغ.

وكان هذا ما سيتكرَّر لو فعل العباسيون مثله واستوعبوا الأُمَوِيين فـي داخل الدولة العباسية؛ ولأنهم لم يفعلوا ذلك فكان أن اضْطُرَّ مَـنْ نجـا مـن الأمويين للذهاب إلى هذه البلاد والانشقاق بها عن دولة المسلمين.

وواقع الأمر يقول: إنه لو كان عبد الرحمن الداخل يضمن أن العـلاء بن مغيث الحضرمي سوف يَعفو عنه ويُعطيه إمارة الأنـدلس، أو أي إمـارة أخرى من إمارات الدولة العباسية إذا سلَّم الأمرَ إليه فلربما كان يفعـل، لكنـه كان يعلم أنه لو قبض عليه لقتله في الحال هو ومَنْ معه من الأمويين إن كانوا مرشّحين للخلافة، وهذا بالطبع ما دفعه لأن يبقى على عهده من الجهاد ضـد الدولة العباسية، وهو أمر مؤلم جدًّا، وحلقة مفرغة دخل فيها المسلمون نتيجـة العنف الشديد من قِبَلِ الدولة العباسية في بدء عهـدها، ولا شـكَّ أن الدولـة العباسية قد غيَّرت كثيرًا من نهجها الذي اتَّبَعَتْهُ أولاً، وتولَّى بعد ذلك رجـالٌ كثيرون حافظوا على النهج الإسلامي، بل إن أبا جعفر المنصور نفسه في آخر عهده كان قد غيَّر ما بدأه تمامًا، لكن كانت هناك قسوة شديدة في البَدْء؛ بهدف أن يستتبَّ لهم الأمر في البلاد، فمَنْ يحاول الالتفاف على مـنهج رسـول الله فستكون العاقبة دائمًا هي الخسران، وهكذا كان فقْدُ المسلمين لأرواحٍ طـاهرةٍ ودماءٍ كثيرةٍ غزيرة وطاقاتٍ متعددة، بل فقدوا الأندلس فلم تَعُدْ مددًا للمسلمين طيلة عهدها؛ فالعنف في غير محلِّه لا يُورِثُ إلاَّ عنفًـا، وطريـق الـدماء لا يُورث إلاَّ الدماء، والسبل كثيرة، ولكن ليس إلاَّ من سبيل واحـد فقـط؛ إنـه الطريق المستقيم طريق الله : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقفة مع عبد الرحمن الداخل في قضائه على الثائرين

ذكرنا -فيما سبق- أنه في خلال الأربع والثلاثين سنةً الممتدَّة من بداية حكم عبد الرحمن الداخل وحتى نهايته كان هناك أكثر من خمس وعشرين ثورةً في كل أنحاء الأندلس، وذكرنا -أيضًا- كيف روَّض بعضها وقمع غيرها بنجاح الواحدة تلو الأخرى، والتي كان من أهمِّها ثورة العباسيين التي قام بها العلاء بن مغيث الحضرمي، وكيف تَمَّ القضاء عليها.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل يجوز لعبد الرحمن الداخل أن يُقاتِل الثائرين وإن كانوا من المسلمين؟!

وحقيقة الأمر أن موقفه هذا في قتال الثائرين داخل أرض الأندلس لا غبار عليه؛ لأن الجميع كانوا قد اتفقوا عليه أميرًا للبلاد، وقد جاء عن رسول الله أنه قال: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ أي: مجتمع عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ فَأَرَادَ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ».

ومن هنا فقد كان موقف عبد الرحمن الداخل صارمًا مع الثوار؛ وذلك لقمع الانقلابات المتكرِّرَة، والتي تُضعِف من جانب الأمن والاستقرار في البلاد، إلاَّ أنه من الإنصاف أن نذكر أنه -رحمه الله- كان دائمًا ما يبدأ بالاستمالة والسلم وعرض المصالحة، ويكره الحرب إلاَّ إذا كان مضطرًّا.

وبلا شكٍّ فإن ثمن هذه الثورات كان غاليًا جدًّا؛ ففي السنوات الأربع من بداية دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ١٣٨-١٤٢هـ=٧٥٥-٧٥٩م سقطت كل مدن المسلمين التي كانت في فرنسا، وذلك بعد أن حكمها الإسلام طيلة سبعٍ وأربعين سنةً متصلة، منذ أيام موسى بن نصير / وحتى زمن سقوطها هذا، وهكذا سُنن الله الثوابت، فما أن شُغِل المسلمون بأنفسهم إلاَّ وكان التقلُّص والهزيمة أمرًا حتميًّا.

عبد الرحمن الداخل وبناء دولة الأندلس

حين استتبَّ الأمر لعبد الرحمن الداخل في أرض الأندلس، وبعد أن انتهى نسبيًّا من أمر الثورات بدأ يُفَكِّر فيما بعد ذلك، فكان أن اهتمَّ بالأمور الداخلية للبلاد اهتمامًا كبيرًا؛ فقام بما يأتي:

أولا: إنشاء جيش قوي

وفي بنائه لجيشه الجديد عمل على ما يلي:

١ـ اعتمد في تكوين جيشه على العناصر التالية

أ- اعتمد في الأساس على عنصر المولّدين، وهم الذين نَشَئُوا نتيجة انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين من أهل الأندلس.

ب- اعتمد كذلك على كل الفصائل والقبائل الموجودة في بلاد الأندلس، فضمَّ إليه كل الفصائل المُضَرِيَّة؛ سواء كانت من بني أمية أو من غير بني أمية، إلاّ أنه بعد ثورة اليمانية لمقتل أبي الصباح اليحصبي صار لا يطمئن إلى العرب، فأكثر مِنَ اتخاذ المماليك من غير العرب لا سيما البربر، حتى صار له منهم أربعون ألفًا، وبهم استقرَّ ملكه.

ج- كذلك اعتمد على عنصر الصقالبة؛ وهم أطفالٌ نصارى كان قد اشتراهم عبد الرحمن الداخل من أوربا، ثم قام بتربيتهم وتنشئتهم تنشئةً إسلامية عسكرية صحيحة.

وبرغم قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وحيدًا، فقد وصل تعداد الجيش الإسلامي في عهده إلى مائة ألف فارسٍ غير الرجّالة، مشكّلاً من كل هذه العناصر السابقة، والتي ظلّت عمادَ الجيش الإسلامي في الأندلس لدى أتباع وخلفاء وأمراء بني أمية من بعده.

٢ـ إنشاء المصانع ودور الأسلحة

أنشأ عبد الرحمن الداخل -صقر قريش- دُورًا للأسلحة؛ فأنشأ مصانع السيوف ومصانع المنجنيق، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طُلَيْطلَة ومصانع برديل.

٣ـ إنشاء أسطول بحري قوي

أنشأ -أيضًا- أسطولاً بحريًّا قويًّا، بالإضافة إلى إنشاء أكثر من ميناء؛ كان منها ميناء طُرْطُوشة وألمَرِيَّة وإِشْبِيلِيَة وبَرْشلُونَة وغيرها من الموانى.

٤ـ تقسيم ميزانية الدولة

كان عبد الرحمن الداخل يُقَسِّم ميزانية الدولة السنوية إلى ثلاثة أقسام: قسم يُنفقه بكامله على الجيش، والقسم الثاني لأمور الدولة العامَّة من مؤنٍ ومعمارٍ ومرتباتٍ ومشاريعَ وغير ذلك، والقسم الأخير كان يدَّخره لنوائب الزمان غير المتوقَّعة.

ثانيًا: الاهتمام بالعلم والجانب الديني

أعطى عبد الرحمن الداخل العلم والجانب الديني المكانة اللائقة بهما؛ فعمل على الآتي:

- نَشْر العلم وتوقير العلماء.
- اهتمَّ بالقضاء والحسبة.
- اهتمَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- كان من أعظم أعماله في الناحية الدينية بناء مسجد قُرْطُبَة الكبير، والذي أنفق على بنائه ثمانين ألفًا من الدنانير الذهبية، وقد تنافس الخلفاء من بعده على زيادة حجمه؛ حتى تعاقب على اكتماله في شكله الأخير ثمانية من خلفاء بني أميَّة.

وكان من العلماء في أيامه معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد الحضرمي، وكان من جِلَّة أهل العلم ومن كبار المحدِّثين، وقد أخذ عنه جملة

من الأئمة؛ منهم: سفيان الثوري، وابن عيينة، والليث بن سعد، ويُذْكَر أن مالك بن أنس قد روى عنه حديثًا، وكان عبد الرحمن الداخل قد ولاّه القضاء.

وكان من علماء الأندلس في عهده -أيضًا- سعيد بن أبي هند، والذي لَقّبه الإمام مالك بن أنس / بالحكيم؛ لِمَا عُرِفَ عنه من رجاحة عقله، وقد توفي أيام الداخل.

ثالثا: العناية الكبيرة بالجانب الحضاري المادي

ويبرز ذلك في الجوانب التالية:

- اهتمامه الكبير بالإنشاء والتعمير، وتشييد الحصون والقلاع والقناطر، وربطه أول الأندلس بآخرها.
- إنشاؤه الرُّصَافة، وهي من أكبر الحدائق في الإسلام، وقد أنشأها على غِرار الرصافة التي كانت بالشام، والتي أسَّسها جدُّه هشام بن عبد الملك -رحمه الله، وقد أتى لها عبد الرحمن بالنباتات العجيبة من كل بلاد العالم، فإذا نجحت زراعتها في الرصافة فإنها تنتشر في الأندلس كلها.

رابعًا: حماية حدود دولته من أطماع الأعداء

بالإضافة إلى إعداده جيشًا قويًا -كما أوضحنا سابقًا- وتأمينًا لحدود دولته الجديدة قام عبد الرحمن الداخل بخوض مرحلتين مهمتين:

المرحلة الأولى: كان عبد الرحمن الداخل يعلم أن الخطر الحقيقي إنما يكمن في دولتي ليون في الشمال الغربي، وفرنسا في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، فقام بتنظيم الثغور في الشمال، ووضع جيوشًا ثابتةً على هذه الثغور المقابلة لهذه البلاد النصرانية، وهي:

- الثغر الأعلى؛ وهو ثغر سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي في مواجهة فرنسا.

- الثغر الأوسط؛ ويبدأ من مدينة سالم ويمتدُّ حتى طُلَيْطلَة.
- الثغر الأدنى؛ وهو في الشمال الغربي في مواجهة مملكة ليون النصرانية.

المرحلة الثانية: كان عبد الرحمن الداخل -رحمه الله- قد تعلّم من آبائه وأجداده عادة عظيمة، وهي عادة الجهاد المستمرِّ وبصورة منتظمة كل عام، فقد اشتُهِرَت الصوائفُ في عهده؛ حيث كان المسلمون يخرجون للجهاد في الصيف وبصورة منتظمة؛ وذلك حين يذوب الجليد، وكان يتناوب عليهم فيها كبار قوّاد الجيش، بهدف الإرباك الدائم للعدوِّ، وهو ما يُسمُّونه الآن في العلوم العسكرية بالهجوم الإجهاضي المسبق.

عبد الرحمن الداخل.. الأمير الفذ

لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرِّخون عن عبد الرحمن الداخل، وإنّا لتعلونا الدهشة ويتملّكنا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا، أي في سنِّ خريج الجامعة في عصرنا.

ملَكٌ من السماء، أم ماذا هو؟! لن نذهب بعيدًا، وسنترك الحديث عنه إلى ابن حيّان الأندلسي، الذي يقول مُستَعرِضًا بعضًا من صفات عبد الرحمن الداخل:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، راسخ العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الْغَوْرِ، شديد الحدَّة، قليل الطمأنينة، بليغًا مفوَّهًا، شاعرًا محسنًا، سمحًا سخيًّا، طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتمّ به ويُؤْثِره، وكان قد أُعْطِيَ هيبة من وَلِيِّه وعدوِّه، وكان يحضر الجنائز، ويُصَلِّي

عليها، ويُصلِّي بالناس إذا كان حاضرًا الجُمَع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى».

شخصية تُشخِص الأبصار وتَبْهَر العقول، فمع رجاحة عقلـه وسـعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه -رحمه الله، ومع شدّته وحزمه وجهاده وقوّته كان -رحمه الله- شاعرًا محسنًا رقيقًا مُرهَف المشاعر.

ومع هيبته عند أعدائه وأوليائه إلاّ أنه كان يتبسَّط مع الرعية، ويعـود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويُصلِّي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليـل الطمأنينة، لم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم دون حرّاس، حتـى خاطبه المقرّبُون في ذلك وأشاروا عليه ألاّ يخرج في أوساط النـاس حتـى لا يتبسَّطوا معه.

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كـان فـي معاملته للناس، فقد جاء أن أحد الناس طلب منه حاجةً أمام أعين الحاضـرين، فقضاها له، ثم قال له: «إذا ألَمَّ بك خطب أو حزبك أمرٌ فارفعه إلينا في رقعة، لا تعدوك كيما نستر عليك خلتك، ونكف شمات العدوِ عنك بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا -عزَّ وجهه- بإخلاص الدعاء وصدق النية».

إنها لَتربية ربّانية لشعبه؛ فهو يُريد -رحمـه الله- أن يـربط النـاس بخالقهم، يُريد أن يُعلِّمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه أولاً، يُريـد أن يُعلِّمهـم أنـه يملكه ويملكهم جميعًا، ثم مراعاةً لعواطف النفس الداخلية، وحفظًا لماء وجـه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستر عليـك ولا يشمت أحدٌ فيك.

وها هو ذا -رحمه الله- لما انتصر على ثـائر سرقـسطة الحـسين الأنصاري، «أقبل خواصُّه يُهَنِّئونه، فجرى بينهم أحدُ مَنْ لا يُؤْبَهُ به من الجند، فهنّأه بصوت عال. فقال: والله! لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليَّ فيه النعمة مَنْ

هو فوقي فأوجب عليَّ ذلك أن أُنعِمَ فيه على مَنْ هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال، مَنْ تكون حتى تُقبل مهنِّئًا رافعًا صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟! وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة. فقال: ولعلّ فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة؛ لا أعدمنيه الله تعالى. فتهلّل وجه الأمير وقال: ليس هذا باعتذار جاهل. ثم قال: نَبِّهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا مَنْ يُنَبِّهنا عليها. ورفع مرتبته وزاد في عطائه». فهو هنا على رغم غضبه لمقام الإمارة إلاّ أنه حلم عليه ولم يُعاقبه بل زاد في مكافأته؛ لَمَّا تكشّفت له حكمة الجندي وفصاحته.

عبد الرحمن الداخل.. الإنسان

مع المدَّة الكبيرة التي حكمها القائد عبد الرحمن الداخل، ومع امتداد عمره، وموقعه القيادي في أي مكان ينزل فيه، مع هذا كله؛ لم يُؤثَر عنه أيّ خلق ذميم أو فاحش، بل مدحه العلماء بالعلم والفضل وحُسن الخلق؛ مما يدلّ على إنسانيته السامية، ومعدنه النفيس، وأخلاقُ الإنسان الحقيقية لا تظهر بوضوح إلاّ في وقت الشدَّة، وحياة عبد الرحمن كلها شدائد وحروب؛ مما يُظهِر أخلاقه بوضوح أمام أيِّ باحث في التاريخ، ويُحَدِّد ما إذا كانت حسنة أو سيئة.

وكان عبد الرحمن الداخل خطيبًا مفوّهًا يرتقي المنابر ويعظ الناس، فهو كما نعرف نشأ في بيت الإمارة، وهكذا الأمراء في ذلك العصر، كما كان -أيضًا- شاعرًا مرهف الحسِّ، قال سعيد بن عثمان اللغوي الذي توفي سنة أربعمائة: كان بقُرْطُبَة جَنَّة حديقة اتخذها عبد الرحمن بن معاوية، وكان فيها نخلة أدركتُها، ومنها تولَّدت كل نخلة بالأندلس.

قال: وفي ذلك يقول عبد الرحمن الداخل: [الكامل]

يَا نَخْلُ أَنْتِ غَرِيبَةٌ مِثْلِي *** فِي الْغَرْبِ نَائِيَةٌ عَنِ الأَصْلِ

فَابْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَيَّسَةٌ *** عَجْمَاءُ لَمْ تُطْبَعْ عَلَى خَبْلِ؟

لَوْ أَنَّها تَبْكِي إذًا لَبَكَتْ *** مَاءَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِتَ النَّخْلِ

لَكِنَّهَا ذَهِلَتْ وَأَذْهَلَنِي *** بُغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي[٥]

ومن شعره أيضًا: [الخفيف]

أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُيَمِّمُ أَرْضِي *** أَقْرِ مِنْ بَعْضِي السَّلامَ لِبَعْضِي

إنَّ جِسْمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرْضٍ *** وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ

قُدِّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا *** فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا اللهُ يَقْضِي

عبد الرحمن الداخل وفكره العسكري

تمتّع عبد الرحمن الداخل بفكر عسكري في غاية الدقّة والعجب؛ فحياته كلّها -تقريبًا- حروب ومناوشات منذ سقوط خلافة بني أمية وحتى وفاته، مرورًا بفراره عبر البلاد والصحارى والقفار والبحار، وانتهاءً بالثورات الكثيرة التي تغلّب عليها بلا استثناء؛ ليُوَطِّد مُلكه في بلاد الأندلس دون منازع.

ولولا ذكاؤه العسكري ما تغلّب على كل هذه الثورات، التي يحار العقل في كثرتها، وكيف قضى عليها جميعًا، ونعرض هنا لبعض ملامح فكره العسكري من خلال مواقفه في معاركه وبطولاته، التي شغلت طول حياته وعرضها؛ ومن هذه الملامح:

أولا: مبدأ المباغتة والحرص على المبادأة

فهو يُخَطِّط بدقّة من أجل الوصول إلى أهدافه، ثم هو لا يترك لخصومه الفرصة، بل يُسرع ليُباغتهم وهم في بداية أعمالهم القتالية المضادّة له، والتاريخ يُؤَكِّد أن أفضل وسيلة للقضاء على أعمال التمرُّد هو تطويقها منذ

بداياتها الأولى، وعدم السماح لها بالتطوُّر، والعمل على خنقها وهي لا تزال في مهدها، ويظهر هذا المبدأ واضحًا في معركة المصارة، فقد بات ليلته يستعدُّ للحرب بينما كان خصمه يحاول خداعه، بحُجَّة تأجيل القتال، وكانت المباغتة كاملة؛ بحيث لم تتمكّن القوات المضادّة من الصمود، على الرغم مما أظهرته في البداية من ضروب الشجاعة[٧]، والأمر مماثل بالنسبة لبقية حروب الأمير عبد الرحمن ومعاركه؛ حيث كان للمباغتة دور كبير وحاسم في تقرير نتائج القتال من قبل أن تبدأ المعركة.

ولم يكن حرص عبد الرحمن الداخل على الاحتفاظ بالمبادأة أقل من حرصه على المباغتة، فهو يحاول باستمرار وضع خصومه أمام مواقف تحرمهم من حرية العمل، ويفرض عليهم زمن المعركة، وكان في معاركه كلها يُجَابه قادة على درجة عالية من الكفاءة، فكان لا بُدَّ له من البحث عن الوسيلة التي تحرمهم من استخدام قدراتهم وإمكاناتهم.

ثانيًا: الاقتصاد في القوى والمحافظة على الهدف

وتظهر أهمية هذين المبدأين عند مطالعة سيرته، فقد كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والمعارك، وكان لا بُدَّ من الموازنة المستمرَّة بين الأهداف المتتالية للحرب، وبين القوى والوسائط اللازمة للتعامل معها، مع إعطاء الأولوية للأهداف الأكثر أهمية وخطورة عندما يظهر أن هناك أكثر من هدف يجب التعامل معه في وقت واحد، وهذا ما كان يحدث في معظم الأحيان، وأمام هذه المواقف بمجموعها كان لا بُدَّ من إجراء حسابٍ دقيقٍ لموازين القوى؛ بحيث يمكن استخدامها على أفضل صورة وفي أحسن وجه، وهذا ما أكّدته مجموعة الأعمال القتالية للأمير عبد الرحمن.

حياة صقر قريش في سطور

لقد كانت حياة القائد العظيم عبد الرحمن الداخل وقفًا على الجهاد وإقامة الدولة الإسلامية، وتثبيت بُنيانها، وإرساء دعائمها، وردِّ الطامعين فيها،

فكانت الأيام التي عاشها الأمير عبد الرحمن في طمأنينة وراحة لا تزيد على أيام قليلة، وكانت حياته حركة مستمرَّة في تنظيم الجيوش، وعقد الرايات، وتوجيه القوَّات، وتحصين الثغور، والقضاء على الفتن والثورات، ووضع أُسس البنيان الحضاري.

وفاته

عاش عبد الرحمن الداخل تسعًا وخمسين سنة؛ منها تسع عشرة سنة في دمشق والعراق قبل سقوط دولة الأمويين، وستُّ سنوات فرارًا من بني العباس وتخطيطًا لدخول الأندلس، وأربع وثلاثون سنة في المُلك ببلاد الأندلس، وتُوُفِّي بقُرْطُبَة ودُفِنَ بها في جُمادى الأولى ١٧٢هـ= أكتوبر ٧٨٨م.

الإمارة الأموية في الأندلس

لَّ عبد الرحمن الداخل يحكم الأندلس منذ سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) وحتى سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م) أي قُرابَةَ أربعةٍ وثلاثين عامًا -كما ذكرنا- وكانت هذه هي بداية تأسيس عهد الإمارة الأموية، والتي استمرَّت من سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) وحتى سنة (٣١٦ هـ=٩٢٨م).

وحتى نستطيع أن نفهم عهد الإمارة الأموية يمكنُنا تقسيمه إلى فتراتٍ ثلاثٍ كما يلي:

الفترة الأولى: فترة القوة

واستمرَّت مائة عام كاملة (١٣٨-٢٣٨هـ= ٧٥٥-٨٥٢م)، وتُعتَبَر هذه الفترة هي فترة القوَّة والمجد والحضارة، وكانت فيها الهيمنة للدولة الإسلامية على ما حولها من مناطق.

الفترة الثانية: فترة الضعف

وتُعَدُّ فترة ضعف، وقد استمرَّت اثنين وستين عامًا (٢٣٨-٣٠٠هـ=٨٥٢-٩١٣م).

الفترة الثالثة: فترة الانتقال للخلافة الأموية

وهي ما بعد سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م)، وحتى (٣١٦ هـ)، وهي فترة التأسيس والانتقال لعصر الخلافة الأموية.

الفترة الأولى: فترة القوة

تُمَثِّل هذه الفترة عهد القوَّة في فترة الإمارة الأموية؛ كانت البداية فيها لعبد الرحمن الداخل -رحمه الله- ثم خَلَفَه من بعده ثلاثة من الأمراء، كان أوَّلهم هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقد حكم من سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م) حتى سنة (١٨٠هـ=٧٩٦م) .

ولاية هشام بن عبد الرحمن الداخل

كان عبد الرحمن الداخل قد استقرَّ أمره على ابنه هشام خليفة له، فولاَّه العهد مع كونه أصغر من أخيه سليمان، فلقد كان أكفأ منه وأفضل، ولقد صدق حَدْسُه فيه؛ حيث كان الناس يُشبِّهونه بعد ذلك بعمر بن عبد العزيز في علمه وعمله وورعه وتقواه.

الفتنة بين أولاد عبد الرحمن الداخل

وكان هشام بن عبد الرحمن - هشام الرضا- بمَارِدَة عند موت أبيه، وقد عاد منها إلى قُرْطُبَة بعد ستة أيام من وفاة أبيه، فبايعه العوامُّ ورجال الدولة، وكان ذلك سنة ١٧٢هـ= ٧٨٨م، وكان أخوه سليمان بطُلَيْطلَة، فلما علم سليمان بالأمر غضب، وأعلن الثورة على أخيه، وجهَّز بالفعل جيشًا توجَّه به لقتال أخيه في قُرْطُبَة، فخرج إليه هشام بن عبد الرحمن الداخل والتقيا في

جَيَّان، ودارت بينهما حرب شديدة انتهت بهزيمة سليمان، ففرَّ عائدًا إلى طُلَيْطِلَة.

وكان لهشام أخٌ آخر يُسَمَّى عبد الله، وكان هشام يُحسن معاملته، ولكن يبدو أن عبد الله قد طمع فيما هو أكثر من ذلك، ففرَّ إلى أخيه سليمان في طُلَيْطِلَة، فلمَّا علم هشام بالأمر أشفق على عبد الله فأرسل له مَنْ يَرُدُّه ويترضَّاه، إلاَّ أن الرسول لم يلحق به.

ولم يبقَ أمام هشام إلاَّ أن يُبادر إلى أخيه سليمان -كما كان يفعل أبوه- قبل أن يبدأه سليمان -كما فعل من قبل- ويحاول هو مهاجمة قُرْطُبَة، وبالفعل خرج إلى طُلَيْطِلَة وحاصرها فترة، فحاول سليمان أن يستغلَّ الفرصة وفرَّ منها إلى قُرْطُبَة؛ ليستوليَ عليها في غياب أخيه، ولكن أهلها حاربوه، فحاول الاستيلاء على مَارِدَة؛ لأنها قريبة من قُرْطُبَة، ليستطيع تهديد قُرْطُبَة منها إلاَّ أن واليها استطاع ردَّه عن مَارِدَة، فهرب إلى مُرْسِيَة ثم إلى بَلَنْسِيَة، وأخوه يُطارده، فلمَّا دبَّ اليأس إلى نفسه، طلب الأمان، فأمَّنه وكان قد أمَّن عبد الله قبله، وتركهما يرحلان إلى بلاد الشمال الإفريقي.

عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل

وقد كان هشام بن عبد الرحمن الداخل -هشام الرضا- عالِمًا محبًّا للعلم، وقد أحاط نفسه -رحمه الله- بالفقهاء، وكان له أثر عظيم في بلاد الأندلس بنشره اللغة العربية فيها، وقد أخذ ذلك منه مجهودًا وافرًا وعظيمًا، حتى أصبحت اللغة العربية تُدرَّس في معاهد اليهود والنصارى داخل أرض الأندلس.

ومن أبرز التغيرات الجوهرية التي تمَّت بالأندلس في عهد هشام انتشار المذهب المالكي فيها، وقد كانت البلاد من قبل ذلك على مذهب الإمام الأوزاعي.

وكانت لهشام صولات وجولات كثيرة في الشمال مع الممالك النصرانية.

وكان من علماء عصره صعصعة بن سلامة الشامي، وكان المفتي أيام عبد الرحمن الداخل، وفي بداية عهد هشام بن عبد الرحمن، كما ولي الصلاة بقُرْطُبَة، وروى عنه عبد الملك بن حبيب وعثمان بن أيوب، كما كان من المحدثين في أيامه عبد الرحمن بن موسى، وقد روى عنه أصبغ بن خليل وغيره، وقد توفي هو وصعصعة بن سلامة أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل.

وفاة هشام بن عبد الرحمن الداخل

وتوفي هشام بن عبد الرحمن الداخل -هشام الرضا- في صفر ١٨٠هـ= إبريل ٧٩٦م فكانت خلافته سبع سنين وتسعة أشهر، وتوفي -رحمه الله- وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، ودُفِنَ في القصر، وصلّى عليه ابنه الحكم.

الحكم بن هشام (الحكم الربضي)

تولّى بعد هشام بن عبد الرحمن الداخل ابنه الحكم الشهير بالحكم الربضي، وذلك من سنة (١٨٠هـ=٧٩٦م) وحتى سنة (٢٠٦هـ=٨٢١م)، لكن الحكم لم يكن على شاكلة أبيه ولا على شاكلة جدِّه، فكان قاسيًا جدًّا، فرض الكثير من الضرائب، واهتمّ بالشِّعر والصيد، وقاوم الثورات بأسلوب غير مسبوق في بلاد الأندلس في عهد الإمارة الأموية؛ حتى وصل الأمر في آخر حياته إلى حرق بيوت الثائرين عليه، ونفيهم خارج البلاد.

ثورة الربض

من أشهر الثورات التي قمعها الحكم بن هشام - الحكم الربضي- ثورة الربض (٢٠٢ هـ= ٨٠٨ م) وهم قومٌ كانوا يعيشون في إحدى ضواحي قُرْطُبَة، وقد ثار أهلها ثورة كبيرة جدًّا عليه؛ بسبب ما عُرِفَ عنه من معاقرة الخمر، وتشاغله باللهو والصيد، وقد زاد من نقمة الشعب عليه قتله لجماعة

من أعيان قُرْطُبَة؛ فكرهه الناس، وصاروا يتعرَّضون له ولجنده مما حثَّه على تحصين قرطبة، فأقام حولها الأسوار، وحفر الخنادق، وجعل جنوده على مقربة منه؛ فزاد ذلك من حقد أهل قُرْطُبَة عليه، وزاد توجُّسهم منه، ثم حدث أن مملوكًا له اختلف مع أحد العوامِّ فقتله؛ فثار أهل الربض، وزحفوا إلى قصره وأحاطوا به فقاتلهم قتالاً شديدًا هو وجنده حتى تغلَّب عليهم.

ولم يكتفِ الحكم بهزيمتهم، بل أحرق وخرَّب ديارهم، وقتل ثلاثمائة من وجهائهم وصلبهم، وأمر بطردهم خارج البلاد؛ فتفرَّقوا في البلاد ومنهم مَنْ ذهب إلى الإسكندرية في مصر، وأقاموا فيها فترة ثم ارتحلوا عنها إلى جزيرة كريت، فأقاموا فيها دويلة عام (٢١٢هـ=٨٢٧م) استمرَّت مائة عام حتى استولى عليها البيزنطيون من بعد.

الجهاد في عهد الحكم بن هشام

ورغم أفعاله تلك إلاّ أن الحكم بن هشام لم يُوقِفْ حركة الجهاد؛ وذلك لأن الجهاد كان عادة في الإمارة الأموية؛ سواء في بلاد الشام أو في بلاد الأندلس، لكن كانت له انتصارات وهزائم في الوقت نفسه، وكنتيجة طبيعية لهذا الظلم الذي اتّصف به، وهذه العلاقة التي ساءت بين الحاكم والمحكوم سقطت بعض البلاد الإسلامية في يد النصارى؛ فسقطت بَرْشُلُونَة، وأصبحت تُمثِّل إمارة نصرانية صغيرة في الشمال الشرقي عُرِفَت في التاريخ باسم إمارة أراجون، وكانت متاخمة لحدود فرنسا بجوار جبال البرينيه في الشمال الشرقي للبلاد.

لكن الحكم بن هشام بفضل من الله ومَنٍّ عليه تاب عن أفعاله في آخر عهده، ورجع عن ظلمه، واستغفر واعتذر للناس عن ذنوبه، ثم اختار من أبنائه أصلحهم، وإن لم يكنِ الأكبر؛ ليكون وليًّا لعهده، وكان من حُسْنِ خاتمته أنه قام بهذا الاعتذار وهذه التوبة وهو في كامل قوَّته وبأسه، وذلك قبل موته بعامين.

ولاية عبد الرحمن الأوسط

بعد الحكم بن هشام تولّى ابنه عبد الرحمن الثاني، وهو المعروف في التاريخ باسم عبد الرحمن الأوسط (فهو الأوسط بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر كما سيأتي)، وقد حكم من سنة (٢٠٦هـ=٨٢١م) وحتى آخر الفترة الأولى (عهد القوة) من عهد الإمارة الأموية، وذلك سنة (٢٣٨هـ=٨٥٢م)، وتُعَدُّ فترة حكمه هذه من أفضل فترات تاريخ الأندلس، فاستأنف الجهاد من جديد ضدّ النصارى في الشمال، وألحق بهم هزائم عدَّة[١]، وكان حسن السيرة، هادئ الطباع، محبًّا للعلم، محبًّا للناس.

قال عنه الصفدي: كان عادلاً في الرعية بخلاف أبيه، جوادًا فاضلاً، له نظر في العلوم العقلية، وهو أول من أقام رسوم الإمرة، وامتنع عن التبذّل للعامّة، وهو أول من ضرب الدراهم بالأندلس، وبنى سور إِشْبِيلِيَة، وأمر بالزيادة في جامع قُرْطُبَة، وكان يُشَبَّه بالوليد بن عبد الملك، وكان محبًّا للعلماء مقرِّبًا لهم، وكان يُقيم الصلوات بنفسه، ويُصلِّي إمامًا بهم في أكثر الأوقات... وهو أول مَنْ أدخل كتب الأوائل إلى الأندلس، وعرّف أهلها بها، وكان حَسَنَ الصورة ذا هيئة، وكان يُكثِر تلاوة القرآن، ويحفظ حديث النبي ، وكان يُقال لأيامه أيام العروس، وافتتح دولته بهدم فندق الخمر وإظهار البِرِّ، وتملّى الناس بأيامه وطال عمره، وكان حَسَنَ التدبير في تحصيل الأموال وعمارة البلاد بالعدل، حتى انتهى ارتفاع بلاده في كل سنة ألف ألف دينار.

عهد عبد الرحمن الثاني

ومن أهم ما تميز به عهد عبد الرحمن الأوسط الأمور الثلاثة التالية:

أولا: ازدهار الحضارة العلمية

ومن أشهر العلماء في عصر عبد الرحمن الأوسط عباس بن فرناس -رحمه الله- (٢٧٤ هـ=٨٨٧م)، وكنيته أبو القاسم، وهو من أهل قُرْطُبَة، من موالي بني أمية، وبيته في برابر (تاكرنا) كان في عصر الخليفة عبد الرحمن الأوسط (في القرن التاسع للميلاد)، وله أبيات في ابنه محمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ٢٧٣هـ)، وكان فيلسوفًا شاعرًا، له علم بالفلك.

وهو أول مَنِ استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع (الميقاتة) لمعرفة الأوقات، ومَثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها، وهو أول طيار اخترق الجوَّ؛ أراد تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش، ومدَّ له جناحين طار بهما في الجوِّ مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذَّى في ظهره؛ لأنه لم يعمل له ذنبًا، ولم يَدْرِ أن الطائر إنما يقع على زِمِكِّه.

ولكنه -برغم هذه المحاولة الرائدة التي فشلت- كان عبقرية هائلة؛ حتى إن الصفدي بَعْدَ كثيرٍ من المدح له يصفه بأنه «له شخص إنسي وفطنة جني».

ثانيا: ازدهار الحضارة المادية

اهتمَّ عبد الرحمن الأوسط بالحضارة المادية (العمرانية والاقتصادية وغيرها) اهتمامًا كبيرًا، فازدهرت حركة التجارة في عهده؛ ومن ثَمَّ كَثُرت الأموال؛ ومن المهم أن نعلم أن بلاد الأندلس لم يكن فيها ما نُسَمِّيه بـ «التسوُّل»، فقد كانت هذه العادة في بعض البلاد الإسلامية الأخرى؛ لكنها لم تُعرَف في بلاد الأندلس.

كذلك تقدّمت وسائل الريّ في عهده بشكل كبير، وتمّ رصف الشوارع وإنارتها ليلاً في هذا العمق القديم جدًّا في التاريخ، في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش في جهلٍ وظلام دامس، كما أقام القصور المختلفة والحدائق الغنّاء، وتوسّع في ناحية المعمار حتى كانت المباني الأندلسية آية في المعمار في عهده -رحمه الله.

ثالثا: وقف غزوات النورمان

النورمان هم أهل إسكندنافيا، وهي بلاد تضمّ الدانمارك والنرويج وفنلندا والسويد، وقد كانت هذه البلاد تعيش في همجية مطلقة؛ فقد كانوا يعيشون على ما يُسَمَّى بحرب العصابات، فقاموا بغزوات عُرِفَت باسم «غزوات الفايكنج»، وهي غزوات إغارة على أماكن متفرِّقة من بلاد العالم، ليس لها من هَمٍّ إلاّ جمع المال وهَدْم الديار.

جهاد عبد الرحمن الأوسط

في عهد عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٠هـ=٨٤٥م) هجمت هذه القبائل على إشْبِيلِيَة من طريق البحر في أربع وخمسين سفينة، ودخلوها فأفسدوا فسادًا كبيرًا، ودمَّروا إشْبِيلِيَة تمامًا، ونهبوا ثرواتها، وهتكوا أعراضها، ثم تركوها إلى شَذُونة وألمَرِيَّة ومُرْسِيَة وغيرها من البلاد فأشاعوا الرعب، وعمَّ الفزع ، وهذه هي طبيعة الحروب المادية بصفة عامَّة، وشتَّان بين المسلمين في فتحهم للبلاد وبين غيرهم في معاركهم!

فلمَّا علم عبد الرحمن الأوسط -رحمه الله- بهذا الأمر ما كان منه إلاّ أن جهَّز جيشه وأعدَّ عُدَّته، وخلال أكثر من مائة يوم كاملة دارت بينه وبينهم معارك ضارية، أُغرِقَت خلالها خمسٌ وثلاثون سفينةً للفايكنج، ومنَّ الله على المسلمين بالنصر، وعاد النورمان إلى بلادهم خاسئين خاسرين.

ولم يجنح عبد الرحمن الأوسط بعدها إلى الدَّعَة أو الخمول، وإنما عمل على تفادي تلك الأخطاء التي كانت سببًا في دخول الفايكنج إلى بلاده فقام بما يلي:

أولاً: رأى أن إِشْبِيلِيَة تقع على نهر الوادي الكبير الذي يصبُّ في المحيط الأطلنطي، ومن السهولة جدًّا أن تدخل سفن الفايكنج أو غيرها من المحيط الأطلنطي إلى إِشْبِيلِيَة، فقام بإنشاء سور ضخم حول إِشْبِيلِيَة، وحصَّنها تحصينًا منيعًا، ظلّت بعده من أحصن حصون الأندلس بصفة عامة.

ثانيًا: لم يكتفِ بذلك بل قام -أيضًا- بإنشاء أسطولين قويين؛ أحدهما في الأطلسي والآخر في البحرِ الأبيض المتوسط؛ وذلك حتى يُدافع عن كل سواحل الأندلس، فكانت هذه الأساطيل تجوب البحار وتصل إلى أعلى حدود الأندلس في الشمال عند مملكة ليون، وتصل في البحر الأبيض المتوسط حتى إيطاليا.

وكان من نتيجة ذلك أنه فتح جزر البليار للمرة الثانية، وكذلك كان من نتيجة هزيمة الفايكنج في هذه الموقعة قدوم سفارة من الدانمارك محمَّلة بالهدايا تطلب وُدَّ المسلمين، وتطلب المعاهدة معهم.

وبلغت البلاد من القوة في عهد الأمير عبد الرحمن هذا أن جاءته الهدايا من القسطنطينية أيضًا

فترة الضعف في الإمارة الأموية

بوفاة عبد الرحمن الأوسط -رحمه الله- يبدأ عهد جديد في بلاد الأندلس، وهو فترة الضعف في الإمارة الأموية، ويبدأ من سنة (٢٣٨هـ=٨٥٢م) وحتى سنةِ (٣٠٠هـ=٩١٣م) أي حوالي اثنتين وستين سنة.

فلقد تولّى بعد عبد الرحمن الأوسط ابنه محمد بن عبد الرحمن الأوسط، ثم اثنان من أولاده؛ هما: المنذر وعبد الله، وحقيقة الأمر أن الإنسان

لِيَتَعجَّب: كيف بعد هذه القوَّة العظيمة والبأس الشديد والسيطرة على بلاد الأندلس وما حولها يحدث هذا الضعف وذلك الانحدار؟!

فمن سُنن الله U أن الأمم لا تسقط فجأة، بل يأتي السقوط متدرِّجًا وعلى فترات طويلة، ففي عهد الولاة الثاني ظهرت أسباب الضعف؛ منها:

أولاً: انفتاح الدنيا وحبُّ الغنائم.

ثانيًا: القَبَلِيَّة والقومية.

ثالثًا: ظلم الولاة.

رابعًا: ترك الجهاد.

وكل هذه الأسباب لم تنشأ فجأة، وإنما كانت بذورها قد نشأت منذ أواخر عهد القوَّة من عهد الولاة أثناء وبعد موقعة بلاط الشهداء.

إذًا لكي نفهم سبب ضعف الإمارة الأموية علينا أن نرجع قليلاً، وندرس الفترة الأخيرة من عهد القوة، ونبحث فيها عن بذور الضعف، والأمراض التي أدَّت إلى هلكة أو ضعف الإمارة الأموية في هذا العهد الثاني.

عوامل وأسباب ضعف الإمارة الأموية

كان من أهم أسباب ضعف الإمارة الأموية ما يلي:

أولا: كثرة الأموال وانفتاح الدنيا على المسلمين

من جديد كانت الدنيا قد انفتحت على المسلمين، وكثرت الأموال في أيديهم، وقد زاد هذا بشدّة في أواخر عهد القوة من الإمارة الأموية، فقد ازدهرت التجارة كثيرًا، ولم يُوجد هناك في البلاد فقير، وفُتِنَ الناسُ بالمال، وتكرَّر ثانية حديث رسول الله : «فَوَاللهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». وقال -أيضًا-: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ» وقد حذَّر الرسول من الدنيا مرارًا وتكرارًا وقلّل من قيمتها، فكان يقول : «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟» .

ثانيا: زرياب

اسم ليس بغريب لكنه كان كدابّة الأرض التي أكلت مِنْسأَةَ سليمان ؛ فسقط جسده على الأرض؛ زِريْاب هذا كان من مطربي بغداد، تربّى هناك في بيوت الخلفاء والأمراء؛ حيث كان يُغَنّي لهم ويُطربهم، وكان مُعلّمه هو إبراهيم الموصلي كبير مطربي بغداد في ذلك الوقت.
ومع كرِّ الأيام ومرِّ السنين لمع نجم زرياب في بغداد فغار منه إبراهيم الموصلي، فدبَّر له مكيدة فطُرِدَ من البلاد، أو أنه هدّده فهرب زرياب من نفسه دون مكائد كما في روايات أخرى.

وكانت مشارق الأرض الإسلامية ومغاربها متسعة جدًّا في ذلك الوقت، وبعد حيرة وجد زرياب ضالّته في الأندلس؛ حيث الأموال الكثيرة والحدائق والقصور، وهي صفات كثيرًا ما يعشقها أمثال هؤلاء، كما تكون – أيضًا– أرضًا خصبة لاستقبال وإيواء أمثالهم.

وغالب الأمر أن الأندلس إلى هذه الفترة لم تكن تعرف الغناء، إلاّ أن زرياب ذهب إلى هناك فاستقبلوه وعظّمُوه وأحسنوا وِفَادته، حتى دخل على الخلفاء، ودخل بيوت العامّة ونواديهم، فأخذ يُغَنّي للناس ويُعَلِّمهم ما قد تَعَلّمَه في بغداد، ولم يكتفِ زرياب بتعليمهم الغناء وتأليف ما يُسمَّى بالموشحات الأندلسية، لكنه بدأ يُعَلِّمهم فنون (الموضة) وملابس الشتاء والصيف والربيع والخريف، وأن هناك ملابس خاصّة بكل مناسبة من المناسبات العامّة والخاصّة.

ولم يكن الناس في الأندلس على هذه الشاكلة، إلا أنهم أخذوا يسمعون من زرياب ويَتَعَلّمُون؛ خاصّة وأنه قد بدأ يُعَلِّمهم -أيضًا- فنون الطعام كما عَلّمَهُم ملابس الموضة تمامًا، وأخذ يحكي لهم حكايات الأمراء والخلفاء والأساطير والروايات، وما إلى ذلك حتى تعلّق الناس به بشدّة، وتعلّق الناس بالغناء، وكَثُرَ المطربون في بلاد الأندلس، ثم بعد ذلك انتشر الرقص، وكان في البداية بين الذكور ثم انتقل إلى الإناث وهكذا.

الغريب أن دخول زرياب إلى أرض الأندلس كان في عهد عبد الرحمن الأوسط -رحمه الله؛ ذلك الرجل الذي اهتمّ بالعلم والحضارة والعمران والاقتصاد وما إلى ذلك، لكنه -ويا للأسف- ترك زرياب يفعل كل هذه الأمور، وينخر في جسد الأُمّة دون أن يدري أحدٌ.

ففي الوقت الذي انتعشت فيه النهضة العلمية وكَثُرَ العلماء، كان كلام زرياب المنمّق وإيقاعه الرّنّان يصرف الناس عن سماع العلماء إلى سماعه هو، ويصرف الناس عن سماع حديث رسول الله، وعن سماع قصص السلف الصالح إلى سماع حكاياته العجيبة وأساطيره الغريبة، بل - والله - لقد انصرف الناس عن سماع القرآن الكريم إلى سماع أغانيه والتعلُّق بلهوه ومجونه.

وليس هذا بعجيب أو جديد؛ ففي بداية دعوة رسول الله في مكة، وحين رآه النضر بن الحارث -وكان من رءوس الكفر- يخاطب الناس بالقرآن فيتأثَّرُون ويؤمنون بهذا الدين، ما كان منه إلاّ أن قطع أميالاً طويلة وذهب إلى بلاد فارس، وقضى هناك فترة طويلة يتعلّم حكايات رستم وإسفنديار، ويتعلّم الأساطير الفارسية، ثم اشترى قينتين (مغنيتين) وعاد إلى مكة، وفي مكة كان النضر بن الحارث يقوم بحرب مضادة للدعوة الإسلامية، فكان إذا وجد في قلب رجل ميلاً إلى الإسلام أرسل له القينتين تُغَنّيانه ما كان في بلاد فارس من حكايات رستم وإسفنديار؛ حتى يُلهياه عن هذا الدين، وظلّ على هذا النحو، وأنزل الله I فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وقد أقسم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنها ما نزلت إلاّ في الغناء.

وهكذا؛ فالشيطان لا يهدأ ولا ينام حتى في وجود هذه النهضة العلمية؛ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وكلما زاد الاهتمام بالدين، وارتقى مستوى الإيمان عند الناس، وتعلّقت قلوبهم بالمساجد، نشط الشيطان، وزادت حركته عن طريق زرياب ومَن سار على نهجه.

وإنه بالرغم من مرور أكثر من ألف ومائتي عام على وفاة زرياب هذا، إلا أن له شهرة واسعة في كل بلاد شمال إفريقيا، فلم يسمع الكثير من الناس عن السَّمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم -رحمهما الله- ولم يسمعوا عن عُقبَة بن الحجاج، أو سيرة عبد الرحمن الداخل، أو عبد الرحمن

الأوسط، ولم يسمعوا عن كثير من قادة المسلمين في فارس والروم وفي بلاد إفريقيا والأندلس؛ لكنهم سمعوا عن زرياب، ويعرفون سيرته وتفاصيل حياته، بل إن موشحاته الأندلسية ما زالت إلى يومنا هذا تُغنّى في تونس والمغرب والجزائر، وما زالت تُدرَّس سيرته الذاتية هناك على أنه رجل من قوّاد التنوير والنهضة، ويُمَجَّد في حربه ضدّ الجمود وكفاحه من أجل الفنّ، ولا يعلم الناس أن زرياب هذا ومَنْ سار على طريقه كان سببًا رئيسًا في سقوط بلاد الأندلس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثالثا: عمر بن حفصون

عمر بن حفصون (٢٤٠-٣٠٦هـ=٨٥٥-٩١٩م) كان مسلمًا من المولّدين؛ أي: من أهل الأندلس الأصليين، كان عمر بن حفصون قاطعًا للطريق، وكان يتزعّم عصابة من أربعين رجلاً، وحين بدأ الناس يركنون إلى الدنيا ويتركون الجهاد في سبيل الله زاد حجمه، واشتدّ خطره، وبدأ يثور في منطقة الجنوب؛ حتى أرهب الناس في هذه المنطقة، وأخذ يجمع حوله الأنصار فتوسّع سلطانه كثيرًا، فسيطر على كل الجنوب الأندلسي.

وفي سنة (٢٨٦هـ=٨٩٩م) قام عمر بن حفصون بعملٍ لم يتكرّر كثيرًا في التاريخ الإسلامي بصفة عامّة وتاريخ الأندلس بصفة خاصّة؛ فلكي يُعَضِّد من قوّته في آخر عهده، وبعد اثنين وعشرين عامًا من ثورته انقلب على عقبيه وتحوّل من الإسلام إلى النصرانية، وسمّى نفسه صمويل؛ وذلك بهدف كسب تأييد مملكة ليون النصرانية في الشمال، وهو وإن كان قد تركه بعض المسلمين الذين كانوا معه إلاّ أنه نال بالفعل تأييد مملكة ليون، في الوقت الذي تزامن مع توقّف الجهاد في ممالك النصارى.

بدأت (مملكة ليون) تتجرّأ على حدود الدولة الإسلامية؛ فبدأت تهاجمها من الشمال وعمر بن حفصون أو صمويل يُهاجمها من جهة الجنوب.

وكان من هذه الثورات الكبيرة -أيضًا- ثورة ابن حجاج في أشبيلية، وكانت هذه الثورة تمدُّ وتساعد عمر بن حفصون أو صمويل في ثورته ضد قُرْطُبَة.

ومثلها كانت ثورة ثالثة في شرق الأندلس في منطقة بَلَنْسِيَة، ورابعة في منطقة سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي، حيث استقلّت إمارة سَرَقُسْطَة -أيضًا- عن الإمارة الأموية في قُرْطُبَة، وخامسة في غرب الأندلس يقودها عبد الرحمن الجلِّيقي، وسادسة في طُلَيْطلَة، وهكذا ثورات وثورات أدَّت في نهاية الأمر إلى أن الحكومة المركزية للإمارة الأموية في قُرْطُبَة لم تَعُدْ تُسيطر على كل بلاد الأندلس إلاّ على مدينة قُرْطُبَة وحدها، إضافة إلى بعض القرى التي حوله.

ومن ثَمَّ فقد انفرط العقد تمامًا حتى سنة (٣٠٠هـ= ٩١٣م)، وتوزّعت الأندلس بين كثير من القوّاد، كُلٌّ يحارب الآخر، وكُلٌّ يبغي مُلكًا ومالاً.

تكون مملكة نافار

مملكة نافارذكرنا -سابقًا- أنه كانت هناك مملكتان نصرانيتان؛ هما مملكة ليون في الشمال الغربي ومملكة أراجون في الشمال الشرقي وعاصمتها بَرْشلُونَة، اللتان تكوّنتا زمن ضعف المسلمين في عهد الولاة الثاني، وهنا وفي الفترة الثانية من فترتي الإمارة الأموية تكوّنت في الشمال -أيضًا- مملكة نصرانية ثالثة كانت قد انفصلت عن مملكة ليون، وهي مملكة أو إمارة نافار، وتُكتَب في بعض الكتب العربية (نباره)، وتُعرَفُ الآن في إسبانيا بإقليم الباسك، ذلك الإقليم الذي يحاول الانشقاق عن إسبانيا.

هذه الممالك النصرانية الثلاث بعد أن كانت تخاف المسلمين في العهد الأول للإمارة الأموية، تجرَّأت كثيرًا على البلاد الإسلامية؛ فهاجمت شمال الأندلس، وبدأت تقتل المسلمين المدنيين في مدن الأندلس الشمالية.

الأندلس أواخر عهد الضعف

بعد اثنين وستين عامًا من الضعف الشديد، وبعدما تفاعلت عوامل السقوط مع بعضها البعض، نُلقي الآن نظرة عامّة على طبيعة الوضع في بلاد الأندلس أواخر عهد الضعف في الإمارة الأموية؛ أي سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م)، ونُوَضِّح أهمَّ الملامح التي سادت هذا العصر، والتي كانت من فعلِ ونتاجِ عوامل الضعف.

أولا: كثرة الثورات داخل الأندلس

كانت هناك ثورات لا حصر لها داخل الأندلس، بل واستقلالات في كثير من المناطق، والتي كان من أشهرها استقلال صمويل أو عمر بن حفصون؛ حيث استقلّ بالجنوب وكوَّن ما يشبه الدُّوَيْلة، فضَمَّ إليه الكثير من الحصون، حتى ضمَّ كل حصون إِسْتِجَة وجَيَّان، التي كانت عند فتح الأندلس من أحصن المناطق الأندلسية على الإطلاق، وكذلك كانت غَرْنَاطَة إحدى المدن التي في حوزته، والتي اتخذ لها عاصمة سمَّاها (بابشتر) وتقع في الجنوب بجوار أَلمَرِيَّة على ساحل البحر الأبيض المتوسط

ثانيا: قتل ولي العهد محمد بن عبد الله

أمر خطير آخر قد ظهر، وهو يُعَبِّرُ عن مدى المأساة والفتنة في ذلك الوقت، وهو أنَّ وَلِيَّ العهد للأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذي كان يحكم البلاد في ذلك الوقت قتله أخوه المطرف بن عبد الله، وكان ولي العهد هذا يُسمَّى محمد بن عبد الله، فأصبح الوضع من الخطورة بمكان.

وهكذا يكون الحال حين يختلف المسلمون ويتفرَّقون، وحين ينشغلون بدنياهم وبزريابهم وبأنفسهم؛ حكومات نصرانية في الشمال تهاجم المسلمين، ثورات واستقلالات في الداخل، قتلٌ لولي العهد القادم، بلاد إسلامية واسعة بغير ولي عهد في هذه المرحلة الحرجة.

ثالثا: ظهور نجم الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية

زادت الأمور تعقيدًا في بلاد الأندلس بظهور دولة جديدة في بلاد المغرب، كانت من أشدِّ الدول خطورة على بلاد الأندلس، وهي الدولة المسمَّاة بالفاطمية، واسمها الصحيح الدولة العبيدية.

ظهرت الدولة العبيدية في بلاد المغرب العربي سنة (٢٩٦هـ=٩٠٩م)؛ أي: قبل سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م) (نهاية الفترة الثانية من الإمارة الأموية) بأربع سنوات فقط، وكانت دولةً شيعيةً خبيثةً؛ همُّها الأول قَتْل علماء السُّنَّة في بلاد المغرب العربي، ومحاولة نشر نفوذها في هذه المنطقة، فانتشرت بصورة سريعة من بلاد المغرب إلى الجزائر وتونس، ثم إلى مصر والشام والحجاز وغيرها.

وأعلن ابن حفصون الطاعة لعبيد الله المهدي، ولا شَكَّ أن ذلك لم يكن حبًّا في العبيدين؛ ولكن احتياجًا لمددهم وأموالهم.

خامسا: تردي الأوضاع في بقية أقطار العالم الإسلامي

إذا تخطَّيْنَا بلاد الأندلس وألقينا نظرة على مجمل أقطار العالم الإسلامي في الشرق والغرب وجدنا ما يلي:

مصر والشام يحكمها الإخشيديون، الموصل يحكمها ابن حمدان، البحرين واليمامة يحكمها القرامطة، أصبهان يحكمها بنو بويه، خراسان يحكمها نصر الساماني، طبرستان يحكمها الدَّيْلَم، الأهواز يحكمها البُرِيديون، كرمان يحكمها محمد بن إلياس، الدولة العباسية أو الخلافة العباسية لا تحكم إلاَّ بغداد فقط، ولا تبسط سيطرتها حتى على أطراف العراق.

هكذا كان الوضع في أقطار العالم الإسلامي؛ لم يكن هناك أيُّ أمل في أيِّ مدد إلى بلاد الأندلس؛ حيث كانت كلها أقطار مشتتة ومفرقة، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!

وإن الناظر إلى بلاد الأندلس في ذلك الوقت ليرى أنه لا محالة من انتهاء الإسلام فيها، وأن ما هي إلا بضعة شهور أو سنوات قلائل حتى يدخل النصارى إلى الأندلس ويُحكِموا قبضتَهم عليها، ولن تُنقَذَ إلاّ بمعجزة جديدة مثل معجزة عبد الرحمن الداخل -رحمه الله-.

وبالفعل فإن الله I بمنّه وجُوده أنعم على المسلمين بتلك المعجزة للمرّة الثانية، فمَنّ عليهم بأمير جديد، وحّد الصفوف وقوّى الأركان، وأعلى من شأن بلاد الأندلس حتى أصبحت في عهده أقوى ممالك العالم على الإطلاق، وأصبح هو أعظم ملوك أوربا في زمانه بلا منازع، إنه عبد الرحمن الناصر.

الازدهار

رأينا كيف كان الوضع أواخر عهد الضعف من الإمارة الأموية، وكيف أن الناظر إلى بلاد الأندلس في ذلك الوقت يرى أنه لا محالة من انتهاء الإسلام فيها، وأنها ما هي إلاّ بضعة أشهر أو سنوات قلائل حتى يدخل النصارى الأندلسَ ويُحكِمُوا قبضتهم عليها.

عبد الرحمن الناصر (٢٧٧-٣٥٠هـ - ٨٩١-٩٦١م)

هو أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المرواني، وأُمُّه أمّ ولدٍ تُسمَّى (ماريا) أو (مرته أو مزنة)، وجدُّه السادس هو عبد الرحمن بن معاوية الأموي - صقر قريش - وقد وُلِدَ في قُرْطُبَة وعاش بها.

نشأ عبد الرحمن بن محمد يتيمًا؛ فعندما كان عُمرُه عشرين يومًا قَتَلَ عمُّه أباه؛ لأنه كان مؤهلاً للإمارة بعد أبيهما عبد الله الأمير السابع من أمراء الأمويين بالأندلس، وفتح الصبي عينيه على الدنيا ليجد الحياة قاتمة أمامه، ولم يكن البلاط الأموي المشغول بكثير من الأحداث -من ثورات داخلية ومطامع خارجية- لِيشغلَ نفسه بطفل صغير كهذا، غير أن جدَّه الأمير عبد الله -الذي

اتصف بالورع والتقوى والتقشف وحب الناس، وكان على درجة عالية من التدين- هذا الجد هو الذي تولّى تربيته، فنال الصبي الصغير نصيبًا كبيرًا من رعايته، وكان جزاءُ عَمِّه القتل، فقد قتله أبوه عبد الله، بعد أن تأكد من براءة أخيه مما اتُّهم به، ثم اهتم الأمير عبد الله بحفيده اهتمامًا كبيرًا وأولاه عناية خاصة ؛ ولعلّ ذلك عطفٌ وشفقةٌ عليه بعد مقتل أبيه، ونشأ عبد الرحمن في هذا الجو المليء بالأحداث المتتابعة.

وكان عبد الرحمن من ناحيته فتى شديد النجابة والنبوغ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقًا في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه، ودرس القرآن والسُّنّة وهو طفل لم يجاوز العاشرة، وبرع في النحو والشعر والتاريخ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية، حتى كان جده يُرَشِّحه لمختلف المهام، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه، وهكذا تعلّقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمرًا واضحًا مقضيًّا، بل يقال: إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده، وذلك بأن برئ بخاتمه إليه حينما اشتدّ عليه المرض كإشارة باستخلافه.

ولاية العهد لعبد الرحمن الناصر

لا شكّ أن سيرة عبد الرحمن الداخل -الجد الأكبر لعبد الرحمن- كانت تلهمه، كما أن قصة تأسيسه للدولة الأموية بعد عناء وجهاد وإرادة فولاذية كانت نصب عين عبد الرحمن، وهو يخوض ما يمكن أن نُسَمِّيَه رحلة التأسيس الثاني.

ومن الطرائف التي تندر في التاريخ أن أحدًا من أعمام عبد الرحمن، ولا من أعمام أبيه، حاول أن يعترضه في المنصب أو ينازعه فيه، بل كانوا أول مَنْ بايعوه حتى تكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبد الله قائلاً: «والله! لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنتُ أنتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد».

وقفات مع عبد الرحمن الناصر

إن دراسة كافّة جوانب حياة عبد الرحمن الناصر لَتحتاج إلى دراسة جادّة متأنّية، وعناية خاصّة تَفُوق هذه السطور، إلا أن هناك بعض الإشارات العامّة رأينا أن نقف أمامها بعض الشيء، فحينما تولى الحُكم كان يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنةً هجريةً؛ أي: إحدى وعشرين سنةً ميلادية، وبِلُغَةٍ أخرى فهو طَالِبٌ بالفرقة الثالثة أو الرابعة بالجامعة في أيامنا هذه، هذه واحدة.

أمّا الثانية فإنه يُخطئ مَنْ يَظُنُّ أن تاريخ عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- يبدأ منذ هذه السن أو منذ ولايته هذه على البلاد، فقد رُبِّي عبد الرحمن الناصر منذ نعومة أظافره تربية قلّما تتكرّر في التاريخ.

لم يكد يرى عبد الرحمن الناصر نورَ الدنيا حتى قُتِلَ أبوه، وهو بعدُ لم يبلغ من العمر إلا ثلاثة أسابيع فقط؛ ومن ثَمَّ قام على تربيته جدُّه الأمير عبد الله بن محمد، فربّاه -رحمه الله- ليقوم بما لم يستطع هو القيام به، ربّاه على سعة العلم وقوة القيادة، وحب الجهاد، وحُسن الإدارة؛ ربّاه على التقوى والورع، ربّاه على الصبر والحلم وعلى العزة والكرامة، ربّاه على العدل مع القريب والبعيد، ربّاه على الانتصار للمظلوم، ربّاه ليكون عبدَ الرحمن الناصر.

وهي رسالة إلى كل آباء المسلمين وأُولي الأمر منهم: إن لم نكن نحن عبد الرحمن الناصر فليكن أبناؤنا عبد الرحمن الناصر، وإذا كان كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه؛ فما بال تربية أبنائنا اليوم؟! هل نأمرهم بالصلاة عند سبع ونضربهم عليها عند عشر؟! هل نُحَفِّظ أبناءَنا القرآن، أم ندعهم يتعلمون اللغات فقط، ويحفظون الأغاني، وينشغلون بالكرتون؟! وتُرَى ما قدوة أولادنا الآن؟ وبمَنْ يتمثّلون ويُريدون أن يكونوا مثلهم؟! أعباء ضخمة، ولكن: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

والثالثة أنَّ عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- حين تولّى الحُكم كان على ثقةٍ شديدةٍ بالله U، وفي الوقت ذاته على ثقةٍ شديدةٍ بنفسه، وأنه قادر على أن يُغَيِّر، فهو يعي قول الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. فلم يدخل قلبَه يومًا شكٌّ أو يأسٌ أو إحباطٌ من صعوبة التغيير أو استحالته، أو أنّه لا أمل في الإصلاح.. فقام وهو ابن اثنين وعشرين عامًا، وحمل على عاتقه مهمّة ناءت بها السموات والأرض والجبال؛ مهمّة هي من أثقل المهام في تاريخ الإسلام.

عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس

عبد الرحمن الناصر وتغيير التاريخ:

يتولّى عبد الرحمن الناصر الحُكم ويقوم بأمر الإمارة، فإذا به -وسبحان الله- يُحيل الضعف إلى قوّة، والذلّ إلى عزّة، والفُرقَة إلى وَحْدَة، ويُبَدِّد الظلام بنور ساطع يُشرق في كل سماء الأندلس تحت مجدٍ وسيادةٍ وسلطان.

بعد تَوَلِّي عبد الرحمن الناصر الحُكم -وبهذه المؤهلات السابقة, وبهذه التربية الشاملة لكل مقوِّمات الشخصية الإسلامية السويِّة, وبهذه الثقة الشديدة بالله وبنفسه- أقدم على تغيير التاريخ, فقام بما يلي:

أولا: إعادة توزيع المهام والمناصب وإسناد الأمر إلى أهله

عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلسحين تولّى الحُكمَ لم يكن عبد الرحمن الناصر يملك من بلاد الأندلس سوى قُرْطُبَة وما حولها من القرى, ورغم أنها تُعَدُّ أكبر بلاد الأندلس، وتُمثِّل مركز ثقل كبير لكونها العاصمة, إلا أنها لم تكن تمثِّل أكثر من عُشْرِ مساحة الأندلس، وبدأ عبد الرحمن الناصر من هذه المساحة الصغيرة يُغَيِّر من التاريخ.

فقام بتغيير البطانة التي حوله -أو فريق العمل بمصطلحاتنا الآن- فعزل مَنْ رآه غير صالح للمنصب الذي هو فيه، وولّى مَنْ رأى فيهم الكفاءة والمقدرة وحُسن تدبير الأمور.

ثم أعلى من شأن العلماء, ورفع منزلتهم فوق منزلته نفسه، ورضخ لأوامرهم ونواهيهم، فطبّق ذلك على نفسه أولاً قبل أن يُطَبِّقه على شعبه، واجتهد قدر طاقته في تطبيق بنود الشريعة.

ولقد وَرَدَ أن عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- كان يحضر خطبة الجمعة، وكان يخطبها المنذر بن سعيد, وكان من أكبر علماء قُرْطُبَة في ذلك الوقت، وكان شديدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى على عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- الخليفة والأمير، وكان عبد الرحمن الناصر قد بنى لنفسه قصرًا كبيرًا، فأسرف المنذر في الكلام، وأسرع في التقريع لعبد الرحمن الناصر لبنائه ذلك القصر.

وحين عاد عبد الرحمن الناصر إلى بيته قال: «والله! لقد تعمّدني منذر بخطبته, وما عَنى بها غيري، فأسرَفَ عليَّ، وأفرَط في تقريعي، ولم يُحْسِنِ السياسة في وعظي؛ فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني».

وهنا أشار عليه رجل ممن كانوا حوله بعزله عن خطبة الجمعة، فردَّ عليه عبد الرحمن الناصر قائلاً: «أَمِثْلُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعزَل؟! يُعزَل لإرضاء نفسٍ ناكبةٍ عن الرشد, سالكةٍ غيرَ قصد؟! هذا والله لا يكون, وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصِدْقِه». وما عزله حتى مات.

وعلى مثل هذه المبادئ وهذه المعاني بدأ عبد الرحمن الناصر يُربِّي أهل قُرْطُبَة، وكان في انصياعه هو قدوة للناس جميعًا.

ثانيًا: القضاء على الثورات

بعد الانتهاء من الشأن الداخلي في قُرْطُبَة وتهيئته تمامًا بدأ عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- يتجه إلى المحيط الخارجي؛ حيث الثورات المتعدِّدة في كل أرض الأندلس, فأرسل حملة يقودها عباس بن عبد العزيز القرشي إلى قلعة رباح، التي كان قد ثار فيها واحد من زعماء البربر يُدعى الفتح بن موسى بن ذي النون, ومعه حليف قوي آخر يُدعى «أرذبلش»، وبعد معارك شديدة هُزم الفتح بن موسى وقُتل أرذبلش، وبعث برأسه إلى قُرْطُبَة حيث علّقها الناصر على باب السدة لإرهاب الثائرين، وطهرت قلعة رباح وما حولها من الثورة.. كان ذلك في ربيع الآخر من عام (٣٠٠ هـ), أي بعد شهر واحد من جلوسه على كرسي الملك.

ثم أرسل سرية أخرى في جمادى الأولى إلى الغرب فاستردت مدينة إستِجَة, التي كان يُسيطر عليها أتباع ابن حفصون, فحققت النصر على العصاة, وهدمت أسوار المدينة وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل؛ لتعود معزولة لا يمكنها أن تثور مرَّة أخرى.

ثم خرج عبد الرحمن الناصر بنفسه قائدًا على حملة عسكرية, فكان في توليه القيادة ما أثار نفوس الجنود بالحماسة والعزم, وتوجَّه بها إلى عُمَر أو صمويل بن حفصون (٢٤٠-٣٠٦هـ=٨٥٥-٩١٩م) وكان لتبكيره إليه ونهوضه إليه بنفسه ثلاثة أسباب:

الأول: أن هذا الرجل لا يختلف اثنان على أنه يستحقّ القتل؛ وذلك لأنه ارتدّ عن دين الله , وفارق جماعة المسلمين بخروجه عليهم؛ ومن ثَمَّ فقد أصبح قتاله فرضًا على المسلمين.

والثاني: أن ابن حفصون كان الثائر الأقوى والتهديد الأكبر من بين الثائرين في الجزيرة, وتركه على حاله ومواجهة صغار الثائرين, يُقَوِّي

مركزه, كما يُقَوِّي نفوس الثائرين الآخرين, ويضع صورة الحكم في قُرْطُبَة في حرج شديد, إذا ظهر أنها تتأخّر عن مواجهته.

والثالث: أنه يستطيع بذلك أن يحفِّزَ أهل قُرْطُبَة الذين كانوا قد ألفوا الثورات في هذه الآونة؛ حيث المعركة في منتهى الوضوح؛ فهي بين المسلمين والمرتدين.

في الطريق للقضاء على ثورة صمويل بن حفصون

استمرَّ مدى هذه الحملة طيلة ثلاثة أشهر كاملة؛ هي شعبان ورمضان وشوال من سنة (٣٠٠هـ= ٩١٣م) في العام نفسه الذي تولّى فيه -رحمه الله, واستردَّ فيها مدينة جَيَّان, وهي من المدن الحصينة في الأندلس, كما استردَّ فيها زهاء سبعين حصنًا من أمهات المعاقل الثائرة, وهزم فيها جيوش ابن حفصون هزائم منكرة.

ولكن ما زالت قوة صمويل بن حفصون كبيرة جدًّا؛ فالمدد يأتيه من الشمال من دول النصارى, ويأتيه -أيضًا- من الجنوب من الدولة العبيدية (الفاطمية), هذا فضلاً عن إمدادات مدينة إِشْبِيلِيَة, التي كان عليها حاكم مسلم من بني حجاج, لكنه كان متمرِّدًا على سلطة قُرْطُبَة, وكان يملك جيشًا مسلمًا كبيرًا.

وفكّر عبد الرحمن الناصر كثيرًا في كيفية قطع هذه الإمدادات عن صمويل بن حفصون, واهتدى أخيرًا في أن يبدأ بالهجوم على مدينة أشبيلية أكبر مدن الجنوب بعد قُرْطُبَة؛ وذلك بمنطق النزعة الإسلامية التي غلبت عليه؛ حيث أَمّل إن هو ذهب إلى إِشْبِيلِيَة واستطاع أن يُرغِم حَاكِمَها على الانضمام له, أو الانصياع إليه بالقوة أن ينضم إليه جيش إِشْبِيلِيَة المسلم الكبير, وبذلك تقوى جيوش الدولة الأموية, وتقوى شوكته.

وبالفعل -وبعونٍ من الله- كان له ما أمّل؛ حيث ذهب إلى إِشْبِيلِيَة بعد أقل من عام واحد من ولايته في سنة (٣٠١هـ= ٩١٤م), واستطاع أن يضمّها

إليه ؛ فقويت بذلك شوكته وعظم جانبه, فعاد إلى صمويل بن حفصون بعد أن قطع عنه المدد الغربي الذي كان يأتيه من إِشْبِيلِيَة, واستردَّ منه جبال رُنْدة ثم شَذُونَة ثم قَرْمُونَة , وهي جميعًا من مدن الجنوب.

تعمَّق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك ناحية الجنوب حتى وصل إلى مضيق جبل طارق فاستولى عليه, ويكون بذلك -أيضًا- قد قطع الإمدادات والمساعدات التي كانت تأتيه من الجنوب من الدولة العبيدية (الفاطمية) عن طريق مضيق جبل طارق, وسعى عبد الرحمن الناصر إلى أكثر من هذا؛ حيث قطع -أيضًا- طريق الإمدادات التي كانت تأتيه من الدول النصرانية في الشمال عن طريق المحيط الأطلسي, ثم مضيق جبل طارق, ثم البحر الأبيض المتوسط, ثم إنه وجد في البحر مراكب لابن حفصون كانت تأتيه بالمدد من بلاد المغرب العربي فأحرقها؛ وبذلك يكون عبد الرحمن الناصر قد قطع عن صمويل بن حفصون كل طرق الإمدادات والمساعدات التي كانت تمدُّه وتُقَوِّيه.

ولم يجد صمويل بن حفصون بُدًّا من طلب الصلح والمعاهدة من عبد الرحمن الناصر على أن يُعطيه اثنين وستين ومائة حصن من حصونه, ولأن البلاد كانت تشهد موجة من الثورات والانقسامات يُريد عبد الرحمن الناصر أن يتفرَّغ لها, فضلاً عن أنه سيضمن في يده اثنين وستين ومائة حصن, وسيأمن جانب عدوِّه؛ فقد قَبِلَ المعاهدة ووافق على الصلح مع صمويل بن حفصون.

عبد الرحمن الناصر يفاجئ الجميع ويتجه نحو الشمال الغربي

أصبحت قوَّة عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- تضمُّ قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة وجَيَّان وإِسْتِجَة، وهي جميعًا من مدن الجنوب، إضافة إلى حصون أخرى كثيرة - كما ذكرنا - وكل هذه المساحة كانت تُمَثِّل تقريبًا سُدُسَ مساحة الأندلس الإسلامية في ذلك الوقت, هذه أولاً.

وثانيًا: أن صمويل بن حفصون ما زال يملك حصونًا كثيرة، ويُسيطر سيطرة كاملة على الجنوب الشرقي من البلاد, لكن قُطِعت عنه الإمدادات الخارجية؛ سواء من النصارى أو الدولة العبيدية (الفاطمية) أو إِشْبِيلِيَة, فصار خطره محدودًا بالمقارنة بالحال من قبل.

وثالثًا: كان هناك تمرُّد في طُلَيْطِلَة (تقع في شمال قُرْطُبَة), ورابعًا: تمرُّد في سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي, وخامسًا: تمرُّد في شرق الأندلس في بَلَنْسِيَة, وسادسًا: تمرُّد في غرب الأندلس يقوده عبد الرحمن الجِلِّيقي.

أي أن الأندلس في عام (٣٠٢هـ= ٩١٥م) كانت مقسمة إلى ستة أقسام؛ قسم واحد فقط في يد عبد الرحمن الناصر, ويضمُ قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة وما حولهما, بما يُقارب سدس مساحة الأندلس -كما ذكرنا- والخمسة الأخرى مُوَزَّعة على خمسة متمردين, والمتوقَّع - إذًا - أن يحاول عبد الرحمن الناصر من جديد مقاومة أحد مراكز التمرُّد هذه, وبخاصة الأقرب منه.

وإن المرء ليقف متعجِّبًا حين يعلم أن عبد الرحمن الناصر ترك كل هذه التمرُّدات, واتّجه ببصره صوب الشمال الغربي؛ صوب مملكة ليون النصرانية مباشرة, فأرسل أحد قادته, فانتصر وغنم وسبى, ثم عاد في العام نفسه, غير أن النصارى أرادوا الانتقام لهزيمتهم, فعادوا لمهاجمة ديار المسلمين, فأُرْسِلَتْ إليهم صائفة في العام التالي, غير أن المسلمين هُزموا فيها, فتجرَّأ النصارى من بعدُ على مهاجمة الثغور, فأرسل عبد الرحمن الناصر إليهم في العام التالي جيشًا قويًّا أوقع بهم هزيمة مريرة.

فكأنه أراد أن يُعَلِّم الناس أمرًا ويُرسل إليهم برسالة في منتهى الوضوح كانت قد خَفِيَتْ عليهم؛ مفادها: أن الأعداء الحقيقيين ليسوا المسلمين في الداخل, إنما هم النصارى في الشمال؛ مملكة ليون, ومملكة نافار, وبهذا العمل استطاع عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- إحراج المتمردين إحراجًا كبيرًا أمام شعوبهم, كما استطاع أن يُحَرِّك العاطفة في قلوب الشعوب نحوه,

وكذلك تتحرك عواطف الشعوب نحو مَنْ يُدافع عن قضاياها الخارجية، ونحو مَنْ يحارب أعداءها الحقيقيين.

وهذه نصيحة إلى أولياء أمور المسلمين بألا يتهاونوا بعواطف الشعوب، وأن يُقدّروها حقّ قدرها، وأن يستميلوها بالتوجُّه نحو الأعداء الحقيقيين، بدلاً من الصراع مع الجار أو القُطر المسلم، فإذا كانت القضية هي فلسطين، أو الشيشان، أو كشمير، أو غيرها من قضايا المسلمين كانت الوَحْدة والتجمُّع، وكان الانسجام وعدم الفُرقة.

لم يمضِ عامان آخران حتى جاءته هدية من رب العالمين، ألا وهي موت صمويل بن حفصون مرتدًا وعلى نصرانيته في سنة (٣٠٦هـ=٩١٩م)، ذلك الثائر الأخطر في تاريخ الأندلس منذ الفتح، والذي ظلّت ثورته تؤرِق بلاط العاصمة الأندلسية ثلاثين عامًا، وكانت هذه بداية النهاية لمعاقل ابن حفصون التي تنازعها أولاده فافترقوا، ومنهم مَنِ انحاز إلى الناصر، فسهل على الناصر بعد مجموعة من المعارك الاستيلاء على كل معاقل ابن حفصون وتطهيرها في عام (٣١٦ هـ) .

عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس

لم يلتقط عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- أنفاسه، وقام في سنة (٣٠٨هـ= ٩٢١م) بالتحرُّك نحو نصارى الشمال بجيش كثيف، وفي طريقه نحو الشمال خاف صاحب طُلَيْطِلَة المستقل بها أن يغزوه عبد الرحمن فخرج بجيشه مع الناصر مُظهرا الطاعة، واتجه الجيشان نحو غزو الشمال، بعدها أصبح الطريق آمنًا نحو الشمال مباشرة؛ حيث سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي وطُلَيْطِلَة في وسط الشمال قد أصبحتا في يده.

وفي العام نفسه (٣٠٨هـ= ٩٢١م) وعمره - آنذاك - ثلاثون سنة فقط، قام عبد الرحمن الناصر على رأس حملة ضخمة جدًّا باتجاه نصارى الشمال، فكانت غزوة موبش الكبرى بين عبد الرحمن الناصر من جهة،

وجيوش ليون ونافار مجتمعة من جهة أخرى, واستمرَّت هذه الغــزوة طيلــة ثلاثة أشهر كاملة, حقق فيها عبد الرحمن الناصر انتصارات ضخمة وغنــائم عظيمة, وضمَّ إليه مدينة سالم وكانت تحت يد النصارى.

وبعد أربعة أعوام من غزوة موبش وفي سنة (٣١٢هــ= ٩٢٤م) قام عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- بنفسه بحملة ضخمة أخــرى علــى مملكــة نافار, واستطاع في أيام معدوداتٍ أن يكتسحها اكتساحًا, ويضم إلــى أمــلاك المسلمين مدينة بنبلونة عاصمة نافار, ثم بدأ بعدها يُحَرِّر الأراضي التي كــان قد استولى عليها النصارى في عهد ضعف الإمارة الأُموية.

وفي سنة (٣١٦هــ=٩٢٨م) أرسل عبد الرحمن الناصر حملة أخــرى إلى شرق الأندلس؛ لقمع التمرد الذي كان هناك, وضَمَّها بالفعل إلى أملاكه, ثم في العام نفسه أرسل حملة أخرى إلى غرب الأندلس فاستطاعت هزيمة عبــد الرحمن الجِلِّيقي؛ ومن ثَمَّ ضمَّ غرب الأندلس إلى أملاكه من جديد.

وبذلك وبعد ستة عشر عامًا من الكفاح المضني يكون -رحمه الله- قد وحَّد الأندلس كلها تحت راية واحدة؛ وحَّدها جميعًا ولم يتجاوز عمره آنــذاك ثمانية وثلاثين عامًا بعدُ.

إعلان الخلافة الأموية

عبد الرحمن الناصر وإعلان الخلافة الأمويةنظر عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- إلى العالم الإسلامي من حوله، فوجد الخلافة العباسية قد ضَعُفت، وكان المقتدر بالله الخليفة العباسي في ذلك الوقت قد قُتِل علــى يــد مــؤنس المظفر التركي، وقد تولَّى الأتراك حكم البلاد فِعْليًا، وإن كــانوا قــد أجلــسوا الخليفة العباسي القادر بالله على كرسي الحُكم.

ثم نظر الناصر لدين الله إلى الجنوب فوجد العبيديين (الدولة العبيديــة الفاطمية) قد أعلنوا الخلافة، وسمَّوا أنفسهم أمراء المؤمنين، فرأى أنه - وقــد وحَّد الأندلس، وصنع هذه القوة العظيمة - أحق بهذه التسمية وبــذلك الأمــر

منهم؛ فأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين، وسمى الإمارة الأموية بالخلافة الأموية.

ومن هنا يبدأ عهد جديد في الأندلس هو عهد الخلافة الأموية، وذلك ابتداء من عام (٣١٦هـ= ٩٢٨م) وحتى عام (٤٠٠هـ= ١٠١٠م)؛ أي: نحو أربع وثمانين سنة متصلة، وهو يُعَدّ (عهد الخلافة الأموية) استكمالاً لعهد الإمارة الأموية، مع فروق في شكليات الحكم وقوة السيطرة والسلطان لصالح الأخير.

حملات عبد الرحمن الناصر التوسعية

بعد ثلاث سنوات من إعلان الخلافة الأموية سنة (٣١٩هـ= ٩٣١م) اتجه عبد الرحمن الناصر جنوبًا نحو مضيق جبل طارق، وقام بغزو بلاد المغرب وحارب العبيديين (الفاطميين) هناك، فضم سَبْتَة وطَنْجَة إلى بلاد الأندلس، وتمّت له بذلك السيطرة الكاملة على مضيق جبل طارق، فبدأ بإمداد أهل السُّنّة في منطقة المغرب بالسلاح، لكنه لم يشأ أن يمدّهم بالجنود؛ تحسُّبًا لهجمات ممالك النصارى في الشمال.

خيانة حاكم سرقسطة

وفي سنة (٣٢٣هـ= ٩٣٥م) تَحْدُث خيانة من حاكم مملكة الشمال الشرقي (سَرَقُسْطَة) محمد بن هشام التُّجِيبي؛ حيث تحالف مع مملكة (ليون) النصرانية لحرب عبد الرحمن الناصر، وبكل حزم وقوة يأخذ عبد الرحمن الناصر جيشًا كبيرًا يتصدّى به لهذه الخيانة ويهاجم مدينة (سَرَقُسْطَة)، وعند أطراف المدينة يهاجمه جيش (سَرَقُسْطَة)، فيغزو عبد الرحمن الناصر قلعة حصينة، ويمسك بقوّاد هذا الجيش، ويقوم بإعدامهم على الفور أمام أعين الجميع في عمل لا يُوصف إلاّ بالكياسة والحزم.

وهنا أعلن حاكم (سَرَقُسْطَة) محمد بن هشام التُّجِيبي ندمه وعودته إلى عبد الرحمن الناصر، وكعادة الأبطال الدُّهاة والساسة الحكماء قَبِلَ منه –رحمه

الله– اعتذاره، ثم أعاده حاكمًا على (سَرَقُسْطَة)؛ رابحًا بذلك كل قلوب التجيبيين بعد أن كان قد تمكن منهم، متشبهًا في ذلك برسول الله حين قال لأهل مكة بعدما دخلها فاتحًا، وكانوا قد طردوه منها وآذوه هو وأصحابه: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ».

وبمنطق الحزم وقت الحزم والعفو عند المقدرة عَمِلَ عبد الرحمن الناصر؛ فأطلق حُكّام (سَرَقُسْطَة) بعد أن أعلنوا توبتهم، وأعاد التجيبيين إلى حكمهم؛ وفي سنة (٣٢٦هـ=٩٣٧م) بعث عبد الرحمن الناصر من سَرَقُسْطَة بحملة إلى أرض العدوِّ في الشمال، بقيادة نجدة بن حسين الصقلبي وأمر محمد بن هشام التجيبي بالخروج معه؛ اختبارًا لوفائه بالعهد، فخرج معه محمد، وقامت الحملة بواجبها؛ فاستولت على مدن وحصون، وهزمت النصارى هزيمة كبيرة، وعادت محملة بالغنائم إلى سَرَقُسْطَة.

موقعة الخندق أو سمورة

أن تسير الأمور هكذا على الدوام أمر في غاية الصعوبة، فليس هناك بشر لا يُخطئ، ولكل جواد كبوة. هذه ليست مبررات لما سيأتي بقدر ما هي بحث في العلّة والسبب في محاولةٍ لتجنُّبه وتفاديه ما دام سلّمنا أنه من شِيَم البشر؛ ففي سنة (٣٢٧هـ= ٩٣٩م) وبعد سبع وعشرين سنة من بداية عهد عبد الرحمن الناصر كانت قوّة الجيش الإسلامي قد بلغت شأوًا عظيمًا؛ حيث ناهزت المائة ألف مقاتل، والأندلس آنذاك تحت راية واحدة، أخذ عبد الرحمن الناصر هذا الجيش العظيم متجهًا إلى مملكة (ليون) النصرانية ليحاربهم هناك.

وفيما أشبه غزوة حُنَين تدور واحدة من أشرس وأعنف المعارك على المسلمين، سُمِّيَت بموقعة الخندق، وبانتهاء المعركة كان نصف عدد الجيش (خمسون ألفًا) بين القتل والأسر، وفرَّ عبد الرحمن الناصر مع النصف الآخر عائدين بأكبر خسارة وأثقل هزيمة.

وأرجع المؤرخون سبب الهزيمة إلى أن بعض المسلمين كانوا يجدون في قلوبهم من عبد الرحمن الناصر، فقبعوا للصفوف، وسارعوا في الهرب، وجرُّوا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم.

إلا أننا نعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة الظاهرة، ونرى أن الدولة التي بلغت هذا القدر من القوة، وخرج منها هذا الجيش المجهز، وتوالي انتصاراتها السابقة قد يكون أوقع في نفس عبد الرحمن الناصر ما كان قد وقع من قبل في نفس مَنْ هو خير منه؛ حين قالوا: «لن نغلب اليوم من قلة». فأخذ -كما أخذوا- درسًا ربانيًّا قاسيًا.

العودة إلى الجهاد

بعد موقعة سمورة أو موقعة الخندق أو خندق سمورة لم يستسلم عبد الرحمن الناصر -رحمه الله، وهو الذي رُبِّيَ على الجهاد والطاعة لربِّه ولرسوله، فعَلِمَ مواضع الخلل ومواطن الضعف، ومن جديد تدارك أمره، وقام ومعه العلماء والمربُّون يُحَفِّزون الناس.

ومن جديد أعدُّوا العُدَّة وقاموا بحرب عظيمة على النصارى سنة (٣٢٩هـ=٩٤١م) تلتها حملات مكثفة وانتصارات تلو انتصارات، ظلّت من سنة (٣٢٩هـ=٩٤١م) إلى سنة (٣٣٥هـ=٩٤٧م) حتى أيقن النصارى بالهلكة، وطلب ملك (ليون) الأمان والمعاهدة على الجزية، يدفعها لعبد الرحمن الناصر عن يدٍ وهو صاغر[٦]، وكذلك فعل ملك نافار فدفعوا جميعًا الجزية ابتداءً من سنة (٣٣٥هـ=٩٤٧م)، وإن لم يمنع هذا من نقض ونشوب بعض الحروب خلال هذه الفترة وحتى آخر عهده / سنة (٣٥٠هـ=٩٦١م).

علاقة عبد الرحمن الناصر بشمال أفريقيا

لم تقتصر الأخطار التي كانت تُهَدِّد الدولة الإسلامية في الأندلس على ما كان في الأندلس نفسها من ثورات أتت على قواها ومواردها، ولا على ما كان يتربَّص بها من القوى الإسبانية النصرانية المتوثِّبة الطامحة للقضاء على

المسلمين في الأندلس؛ بل وفي كل بقاع الأرض إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لم تقتصر الأخطار المحدقة على هذا، وإنما تحالف مع هذه الأخطار وشاركها خطرٌ آخرُ يتربَّص بها في بلاد شمال أفريقيا، خطرٌ لا يقلُّ طموحًا عن طموح النصارى في الشمال، فهو -أيضًا- يتمنى السيطرة على هذه الجزيرة، وعلى ما فيها من خيرات، ويعلم أنها لن تَدين له بشكل كامل إلا إذا اعتنقت معتقده، وتخلّت راغبة أو راهبة عما تعتقد؛ إنه الخطر الشيعي الإسماعيلي، الذي تمثّل في هذا الوقت في الدولة العبيدية (المعروفة زورًا بالفاطمية).

الدولة الفاطمية (العبيدية الشيعية)

أعبد الرحمن الناصر وشمال أفريقيا أُعلن قيام هذه الدولة الخبيثة بالمغرب سنة (٢٩٧هـ)، بعد نجاح أبي عبد الله الشيعي في دعوته، وجذب الأعوان والأنصار لها، وقيامه بمبايعة «عبيد الله المهدي» بالخلافة، وكان ذلك في ظلِّ انشغال الإمارة الأموية في ذلك الوقت بمواجهة الثورات، التي كانت تعصف بالأندلس من الداخل، كما كانت مشغولة بردِّ اعتداءات نصارى الشمال على أرضها، وكانت أضعف -في ذلك الوقت- من أن تُسيطر على هاتين الجبهتين معًا، فكيف إذا فُتحت عليها جبهة ثالثة؟! ثم إن بلاد شمال أفريقيا لطالما اعتُبِرَت خطّ الدفاع الأول عن الأندلس؛ لأنها كانت دائمًا قاعدة غزو هذه البلاد.

خطر الدولة الفاطمية العبيدية

كان عبد الرحمن الناصر يعلم بكل هذه الأخطار؛ لقربه من جدِّه الأمير عبد الله، وكان مطلعًا على ما آلت إليه حال الأندلس من ضعف في الداخل والخارج، وما آل إليه حال الأعداء من قوّة وتمكّن، ولكنه -ومع علمه بهذا كله- لم يفعل مثل أعمامه وأعمام أبيه، ولم يترك الأمر بالكلية لغيره يتحمّل أعباءه، وإنما تصدّر لهذا الأمر، وقام به حقّ القيام.

فإلى جوار المهامّ العظيمة التي اضطلع عبد الرحمن الناصر بها منــذ تَولّيه الحكم، إلا إنه ومع ذلك كان منذ اللحظة الأولى يرقب كل ما يحدث فــي بلاد الشمال الإفريقي بعين الحرص والحذر، وأنقذه وخفّف عنه في ذلك الوقت أن الدولة العبيدية كانت هي الأخرى مشغولة بتوطيد أركانها فــي المغــرب؛ لأنها ما كانت تستطيع الانطلاق إلى الأندلس أو إلى مصر إلاّ بعد أن تــستقرّ في المغرب أولاً.

ولكن استقرار هذه الدولة في المغرب سيكون على حساب الأندلس بعد ذلك.

المواجهة بين عبد الرحمن الناصر والدولة الفاطمية (العبيدية الشيعية)

لم يستطع عبد الرحمن الناصر أن يصبر حتــى يقــضي علــى كــل الثورات في الأندلس قضاء مبرمًا، ولا أن يقضي على شوكة نصارى الشمال أولاً، وكذلك لم ينتظر حتى يفرغ العبيديون من أمر المغرب، ثــم يــأتي دور الأندلس، وإنما سارع هو إلى نقل المعركة إلــى أرض المغــرب؛ ليــشغلهم بالمغرب عن العبور إلى الأندلس، وليستطيع تقوية مركــزه فــي المغــرب، فيتمكن من تهديد سلطان العبيديين هناك بعد ذلك، وفي ذلك براعة حربية؛ فهو بذلك يُشتّت جهود العبيديين العسكرية والــسياسية، ويــشغلهم عــن الأنــدلس بالمغرب، ويعاقبهم على مساندتهم ومساعدتهم للثائرين عليه، بأن يُساعد هو – أيضًا– كلّ مَنْ يسعى للخروج عليهم، ويضمُّه عبد الرحمن الناصر إليه، فــي حين لا يستطيع العبيديون أنفسهم أن يفعلوا ذلك.

ففي سنة (٣١٩هـ) أرسل الناصر أسطولاً قويًا حشد له ما اســتطاع من رجال وعتاد، وأرسله إلى سَبْتَة فاستولى عليها من يد ولاتها بني عــصام حلفاء العبيديين (الفاطميين)، ثم سارع بتحصينها، وإمدادها بالجند والــسلاح، والقادة الأكفاء؛ لأنه يعلم جيدًا أن العبيديين لن يركنوا إلى الراحة والدعة، ولن يتخلّوا عن سَبْتَة بسهولة؛ ليس لأنها مفتاح الأندلس فحسب، ولكــن لأنهــا إن

بقيت في يد الناصر، فإنها ستُهَدِّد دولتهم الناشئة التي لم تستقرّ بعدُ، وقد عرفنا من قبلُ أهمية ميناء سَبْتَة بالنسبة للأندلس، ورأينا كيف أن موسى بن نصير لم يستطع العبور إلى الأندلس إلاّ بعد أن أمِن خطر سَبْتَة، وها نحن الآن نعرف أهمية سَبْتَة بالنسبة للمغرب -أيضًا- لذلك لا نعجب إذا عرفنا إصرار إسبانيا على أن تبقى سَبْتَة ومليلة تحت يدها حتى الآن.

لقد كانت هذه خطوة جريئة حازمة من عبد الرحمن الناصر، أشعرت العبيديين -بلا شكٍّ- وحلفاءهم بالخوف والجزع من هذه القوة الجديدة، التي بدأ نجمها يبزغ في الأندلس، فإلى جوار الثورات التي يعمل هذا الرجل على إخمادها في بلاده، وبالرغم من وجود نصارى الشمال المتربِّصين به وبدولته، إذا به يفتح على نفسه جبهة جديدة في المغرب، وقد كان المنتظر منه أن يُسارع إلى الاستنجاد بهذه الدولة الفتية التي بدأت تظهر في المغرب؛ لتُعينه على أعدائه الكثيرين؛ لذلك فإننا نعتبر أن هذه الخطوة كانت من أكثر خطوات عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- جُرْأة وشجاعة وحزمًا، كما كانت أكثرها دلالة على حُسن سياسته وفهمه الرائع لكيفية سير الأمور.

كان يمكن لعبد الرحمن الناصر أن يركن لهذا التقدم وهذا النصر المهم؛ فلقد شغلهم بسَبْتَة عن الأندلس، إلا أن الرجل كان قد عزم على أن يمضي في طريقه إلى النهاية، وألا تضعف همته أو تفتر، فراسل الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي حاكم طَنْجَة لينزل له عن طَنْجَة؛ لتكتمل بذلك سيطرته على رأس العدوة، فرفض ابن أبي العيش ذلك، فحاصره أسطول الأندلس، وضيَّق عليه حتى اضطره إلى التسليم.

وفي سنة (٣١٩هـ) -أيضًا- أرسل إليه موسى بنُ أبي العافية أمير مِكْنَاسَة يحالفه ويدخل في طاعته، ويَعِدُه بالدعوة له في المغرب، وبتقريب أهل المغرب وزعمائهم منه، فتَقَبَّله عبد الرحمن أحسن قبول، وأمدَّه بالمال، وساعده في حروبه في المغرب؛ ليُقَوِّيَ مركزه، وبادر على إثر ذلك زعماء الأمازيغ

(البربر) من الأدارسة وزناتة إلى طاعة عبد الرحمن الناصر والدعاء له على المنابر، وامتدّ نفوذه إلى تاهرت، وفاس.

وفي سنة (٣٢٣هـ) أرسل القائم العبيدي جيشًا بقيادة ميسور الصقلبي إلى موسى بن أبي العافية، ودارت بينهما عدة معارك انهزم فيها موسى بن أبي العافية، وهرب إلى الصحراء، ثم استنجد بالناصر فأنجده، وهُزم العبيديون، وعاد لموسى بن أبي العافية ملكه في المغرب وقوي أمره، كما قوي نفوذ الناصر لدين الله هناك؛ حتى إن مَنْ ثاروا على الدولة العبيدية في المغرب كانوا يُراسلونه ويعترفون له بأنه الأحق بالولاية، وكان عبد الرحمن الناصر يصلهم ويُحْسِنُ إليهم.

كل هذا والمعركة دائرة في المغرب، فلمّا قويت شوكة العبيديين في المغرب، وتغلّبُوا على ما قام عليهم من ثورات، أقدم المعز لدين الله العبيدي على ما يُشبه جسّ نبض عبد الرحمن الناصر، فأمر أسطوله بضرب سواحل الأندلس، وبالفعل هاجمت سفن العبيديين ثغر ألمَرِيَّة سنة (٣٤٤هـ)، وأحرقت ما فيه من سفن، وخَرَّبت كل ما استطاعت تخريبه، فكان ردّ عبد الرحمن الناصر عليهم عنيفًا؛ إذ أمر فخرج أسطوله إلى سواحل الدولة العبيدية، وردّ لهم الصاع صاعين، وعادوا سنة (٣٤٥هـ)، فعلم العبيديون أنه لا طاقة لهم بالأندلس، فلم يُعيدوا الكَرَّة.

وفي سنة (٣٤٧هـ) اجتاحت قوات العبيديين بقيادة جوهر الصقلي المغرب الأقصى، ودخلت فاس وقتلت عامل عبد الرحمن الناصر عليها، فأسرع عبد الرحمن الناصر بتجريد حملة أندلسية عبرت إلى المغرب، واستطاعت ردّ العبيديين على أعقابهم.

ثم لم يلبث عبد الرحمن الناصر أن مرض سنة (٣٤٩هـ)، ثم توفي – رحمه الله– سنة (٣٥٠هـ).

عبد الرحمن الناصر وفكره العسكري

عبد الرحمن الناصر وفن الحروب وَرِثَ عبد الرحمن الناصر عن جدِّه مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل -صقر قريش- مبادئ أساسية للحرب؛ منها:

مبدأ المباغتة

وقد ظهرت المباغتة في الأعمال القتالية للخليفة عبد الرحمن الناصر بشكل معقد جدًّا؛ مما يُشير إلى درجة التعقيد التي وصلتها الأعمال القتالية في أيامه، فهو يعتمد أحيانًا على المباغتة الزمنية؛ حيث يعمل على حشد القوات في ظاهر قُرْطُبَة خلال مرحلة مبكرة عمَّا هو معهود في توجيه الصوائف للغزو، وأحيانًا أخرى يلجأ إلى المباغتة المكانية؛ حيث يُضلِّل أعداءه ليظهر في مكان غير متوقَّع من مسرح العمليات؛ بحيث لا يعرف أعداءُ الشمال نوايا الناصر، وإلى أين سيُوَجِّه ثِقَلَ قوات الهجوم، وفي أحيان -أيضًا- تأخذ المباغتة عند الناصر شكل مباغتة على مستوى العمليات، وأحيانًا على المستوى الاستراتيجي، إذ لم يكن التوجُّه إلى عواصم دول الشمال (ليون ونافار) إلا نوعًا من المباغتة الاستراتيجية، كما أن طريقة زجِّ القوات وحجمها كان نوعًا من المباغتة على مستوى العمليات، وكانت مباغتة العمليات والمباغتة الاستراتيجية مميزة بشدَّة تعقيدها لما تُبرِزه متابعة مسيرة الأعمال القتالية؛ حيث تمتزج فيها المباغتة الزمنية بالمكانية بطرق زجِّ القوات لتأخذ شكلاً متقدِّمًا ومتطورًا لمفهوم المباغتة.

الموازنة بين إدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية

أراد الخليفة عبد الرحمن الناصر في بداية حكمه إعطاء نموذج للجهاد بنفسه، فكان يقود المعارك بنفسه مدفوعًا بإيمان الشباب وحماسته للحرب، وممارستها بصورة فعلية، إلى جانب توفُّر الرغبة لحشد قوى المسلمين وتوجيهها وإثارة حميتها، وقد حقق نجاحًا رائعًا في هذا المضمار، حتى إذا

استقامت له الأمور، لم تَعُدْ هناك حاجة للإقدام على مُجازفةٍ غير محسوبة تضرُّ بالإسلام والمسلمين بأكثر مما تفيدهم، كما تبدّى هذا في موقعة الخندق، فكان إمساك الخليفة الناصر بالإدارة العليا للحرب أكثر أهمية من قيادته للأعمال القتالية بنفسه؛ إذ سمح له ذلك بالإشراف على تنظيم الجيوش بصورة مستمرّة، وإعادة تنظيمها -كلّما تطلّبت الحاجة- وتوجيهها إلى ميادين القتال، وتحديد واجباتها بدقّة، وتأمين متطلباتها من الإمداد والتموين.

لقد بقيت الأندلس طوال عهد الناصر لدين الله في حرب مستمرّة ومتواصلة وعلى كافّة الميادين والجبهات، وكان ذلك يتطلّب تأمين موارد غير محدودة، وقد أظهرت مسيرة الأعمال القتالية أن قوات المسلمين كانت في تعاظم مستمرٍّ، وأن متطلباتها كانت متوفِّرة، ولم تظهر ولو مجرّد ظاهرة واحدة تُشير إلى عيب أو خلل في التنظيم الإداري أو في تأمين الإمداد للمقاتلين، وليس ذلك إلا برهان ساطع على تلك الكفاءة العالية، التي ضمنت حشد الموارد الضرورية للقوات، وهو ما يُعتَبَر في الجيوش القديمة والحديثة مقياسًا لكفاءة الإدارة المشرفة على الحرب، وهكذا فإن تخلِّي الخليفة الناصر عن إدارة القتال قد ساعده على تحقيق واجب أكبر؛ وهو الإدارة الشاملة للحرب، وتأمين متطلّباتها، وضمان الظروف الموضوعية لتحقيق النصر.

الحروب الصليبية في عهد عبد الرحمن الناصر

أولا: مملكة ليون

المشهد الصليبي في عهد عبد الرحمن الناصربلغت الثورات والفتن الداخلية في الأندلس ذروتها في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وبدّدت هذه الفتن قوى الأندلس ومواردها، وضعفت الأندلس حتى عن فرض سيطرتها على كثير من أراضيها؛ مما هيّأ لإسبانيا النصرانية فرصة عظيمة للاستقرار ولتوطيد سلطانها في المناطق الخاضعة لها، وتنمية مواردها، وتقوية جيوشها؛ فلم يأتِ القرن العاشر الميلادي حتى كانت مملكة ليون -التي خَلَفَتْ مملكة جِلِّيقِيَّة، والتي كانت تضمُّ ولاية قشتالة- قد بلغت من القوة والبأس ما يُتيح لها أن تخوض صراعًا عنيفًا مع الأندلس، وقد بلغ هذا الصراع ذروته في عهد عبد الرحمن الناصر، حتى استطاعت ليون هزيمة عبد الرحمن الناصر في موقعة شنت إشتيين سنة (٩١٧م)؛ وذلك بالرغم من إنجازات عبد الرحمن الناصر الداخلية، وإخماده للفتن، وإحيائه لقوة الأندلس، ثم توالت غارات ليون على الأراضي الإسلامية عقب هزيمة شنت إشتيين، حتى وفاة ملكها أردونيو الثاني سنة (٩٢٥م).

أضعف موت أردونيو الثاني مملكة ليون كثيرًا؛ إذ إن أخاه فرويلا -الذي تولّى بعده- لم يبقَ في الحكم سوى عام واحد ثم مات، ليبدأ بموته نزاع شديد بين سانشو وألفونسو ولَدَيْ أردونيو، وفاز ألفونسو في هذا الصراع بمعاونة ملك نافار صهره وحميه، ولكن سانشو (أخا ألفونسو) لم ييأس، فتوّج نفسه ملكًا في شنت ياقب (في أقاصي جِلِّيقِيَّة) وجمع جيشًا جديدًا، ثم زحف على ليون، فحاصرها واستولى عليها، وارتقى العرش مكان أخيه، فعاد ألفونسو إلى الاستعانة بملك نافار، حتى استطاع أن يهزم أخاه، وأن يعود للحكم مرّة أخرى، فعاد سانشو إلى جِلِّيقِيَّة، وظل مصرًّا على دعواه في الملك، واستمرّت الحرب الأهلية حتى مات سانشو عام (٩٢٩م)، فاستقرّ المُلْك لألفونسو الرابع دون منازعة، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً؛ إذ ماتت

زوجة ألفونسو الرابع فحزن لفقدها حزنًا عظيمًا، فشعر باليأس وزهد في الدنيا؛ فتنازل عن العرش لأخيه راميرو الثاني، والذي تُطلق عليه المصادر الإسلامية اسم رذمير، أما ألفونسو فإنه اعتكف في دير ساهاجون واعتنق الرهبانية.

لم يُطِقْ ألفونسو الرابع حياة الرهبانية كثيرًا، فترك الدير، ونادى بنفسه ملكًا في حصن شنت منكش، وكان هذا العمل عارًا كبيرًا في نظر الرهبان، فأثاروا عنه شائعات شديدة، حتى اضطر اضطرارًا إلى أن يعود إلى الرهبانية، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى دعم ثُوَّار طُلَيْطِلَة فغادر الدير، وزحف مع بعض أنصاره إلى مدينة ليون واستولى عليها، فعاد راميرو بجيشه مسرعًا واستولى على ليون، وسمل عين أخيه وأبناءَ عمه فرويلا الثلاثة الذين ساعدوا أخاه؛ لكي يطمئن إلى أن أخاه لن يثور عليه مجدَّدًا.

وبهذا استقرَّ المُلْك لـ راميرو، الذي كان صليبيًّا متطرِّفًا، لم يترك وسيلة يمكنه أن يضرَّ بها دولة المسلمين إلاّ استعملها، فكان يُغير على الأراضي الإسلامية، ويُحَرِّض الثوَّار على عبد الرحمن الناصر، ويُعينهم على ذلك بما يستطيع، وهذا غير المعارك المباشرة التي كان يخوضها بنفسه ضد المسلمين، وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف، الذي اضطرم بين راميرو وبين عبد الرحمن الناصر، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين تحت أسوار مدينة سمورة سنة (٣٢٧هـ= ٩٣٩م).

السعي لإنشاء مملكة قشتالة

ولكي نفهم جيدًا تطورات الأحداث في ليون فإن علينا أن نقف أمام سعي قشتالة للانفصال عن جسم مملكة ليون؛ فقد كانت قشتالة في القسم الشرقي من مملكة ليون، وكان سُكَّان هذه المنطقة من البشكنس وأهل ألبة،

وكان ملوك الجلالقة قد غزوها وأضافوها إلى مملكتهم، وواجهوا مقاومة عنيفة من زعماء قشتالة، الذين حاولوا قدر استطاعتهم الحفاظ على استقلالهم، ثم ثاروا في عهد أردونيو الثاني، فحاربهم وأخضعهم وأعدم بعضهم، حتى اضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته.

استمرَّ الوضع كذلك حتى ظهور الكونت فرنان كونثالث، فحشد الكونت أنصاره وقواته وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون، فهُزِم وأُسِر، ولكن القشتاليين استمرُّوا في الثورة والقتال، وزحفت جموعهم إلى ليون، فاضطر راميرو أن يُطلق سراح فرنان كونثالث شريطة أن يُقسم فرنان يمين الطاعة لملك ليون، وأن يتنازل عن كل أملاكه، وأن يُزوج ابنته أوراكا لأردونيو بن راميرو. ونفّذ فرنان كونثالث هذه الشروط، وأُطلق سراحه بالفعل، إلا أن هذا لم يُضعف من آماله وأحلامه في الاستقلال بقشتالة عن مملكة ليون.

وكان المسلمون في هذه الفترة قد عادوا للإغارة من جديد وبقوة على أراضي ليون، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد مدينة سالم -ثغر الحدود بين الأراضي الإسلامية وقشتالة- سنة (٩٤٦م)، واضطر راميرو أمام هذه الضربات القوية أن يلتزم خطة الدفاع؛ فاستغل فرنان كونثالث هذه الأوضاع الجديدة، فعمل جاهدًا على توطيد مركزه، وضمِّ كل الزعماء القشتاليين تحت لوائه؛ ليسهل عليه الاستقلال بقشتالة بعد ذلك.

تطور الأحداث في مملكة ليون

توفي راميرو الثاني في أوائل سنة (٩٥٠م)، وترك مِنْ بعده ولدين كان أكبرهم هو أردونيو، وهو من زوجته الأولى تاراسيا، وسانشو وهو من زوجته الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار، وكان أردونيو -في العرف الأوربي آنذاك- هو الأحق بالعرش؛ باعتبار أنه الأكبر سنًّا، غير أن أخاه قد طمع في العرش، فاستعان بأخواله من نافار، وجدته طوطة ملكة نافار، كما

تحالف مع الكونت فرنان كونثالث الذي يتوق للانفصال بقشتالة؛ ومن ثَمَّ لم يكن همه إلا أن يُضعف مملكة ليون؛ حتى لو كان ملكها هو أردونيو زوج ابنته، ومع ذلك استطاع أردونيو أن يهزم سانشو والمتحالفين معه، واستقرَّ بذلك على العرش.

الممالك النصرانية في عهد الناصر والمستنصر والمنصور بن أبي عامروكانت غزوات المسلمين تتوالى في هذه الفترة على الأراضي الليونية، فاضطر أردونيو نتيجة هذه الاضطرابات الداخلية أن يطلب عقد صلح مع عبد الرحمن الناصر في أوائل سنة (٩٥٥م)؛ فاشترط عليه الناصر أن يُصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر.

ثم ما لبث أن توفي أردونيو بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه سانشو في المُلْك، فرفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع عبد الرحمن الناصر، فبعث الناصر جيشاً غزا ليون، فاضطر سانشو أن يعقد الصلح، وأن يُقِرَّ ما سبق أن تَعَهَّد به أخوه، وبذلك ساد الهدوء بين الفريقين لفترة.

كان المتوقع أن يسود الهدوء -أيضًا- بين فرنان كونثالث في قشتالة وبين سانشو في ليون؛ إذ وقف فرنان كونثالث-في صف سانشو، حينما ثار الأخير على أخيه، ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك؛ إذ إنَّ فرنان كونثالث لم يلبث أن انقلب على سانشو، وأصبح يُبادله الخصومة والعداوة، ولم تلبث الأحوال أن ساءت أكثر داخل مملكة ليون عندما ثار الأشراف على سانشو، ونزعوه من العرش، بحجة أنه لم يُفلح في هزيمة المسلمين، وأن بدانته المفرطة تمنعه من ركوب الخيل ومباشرة القتال بنفسه، ففرَّ سانشو إلى جدته طوطة في بنبلونة عاصمة نافار، وقام الأشراف في ليون وقشتالة باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع، والذي كان قد تزوج ابنة فرنان كونثالث بعدما طلقها أردونيو الثالث.

وكان هذا الملك الجديد أحدبًا دميمًا سيئ الخلق، فلقبوه بالرديء، واستنجد سانشو بعبد الرحمن الناصر، وسأله أن يساعده حتى يعود للحكم، واتفقا على أن يُرسل عبد الرحمن الناصر إليه طبيبًا يهوديًّا من قُرْطُبَة ليعالجه من بدانته، وفي سنة (٣٤٧هـ= ٩٥٨م) ذهبت طوطة إلى قُرْطُبَة، ومعها ابنها غرسية سانشيز، الذي كانت تُحْكَم نافار باسمه، كما ذهب معها -أيضًا- سانشو ملكُ ليون المخلوع، فاستقبلهم عبد الرحمن الناصر بحفاوة بالغة، وعقد السلم مع طوطة وأقرَّ ولدها على نافار، ووعد بمعاونة سانشو على استرداد عرشه، وذلك مقابل تَعَهُّده بأن يُسَلِّم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر؛ ثم أمدَّه عبد الرحمن الناصر بالمال والجند، فغزا ليون، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق، وانتهت الحرب بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرَّة أخرى، وفرَّ أردونيو إلى فرنان كونثالث في برغش.

ثم توفي عبد الرحمن الناصر بعد ذلك بقليل، ونكث سانشو بعهوده، ولم يُنَفِّذ ما اتفق عليه مع عبد الرحمن الناصر.

ثانيًا: مملكة نافار

نشأت مملكة نافار في القرن التاسع الميلادي، وتولَّى المُلْكَ فيها سانشو غرسية الأول عقب اعتزال أخيه فرتون المُلْكَ في سنة (٩٠٥م)، وكان سانشو قد خاض مع المسلمين حروبًا عديدة أيام الأمير عبد الله، وفي أوائل عهد عبد الرحمن الناصر -ولما توفي سانشو- خلفه ولده غرسية سانشيز وكان طفلاً، فتولى عمه خمينو غرسيس الوصاية عليه أولاً، ثم تولَّتْ أمه الملكة طوطة الوصاية عليه، وظلَّت تحكم باسمه طويلاً حتى بعد أن كبر ونضج، وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة مع المملكتين النصرانيتين الأخريين؛ فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجًا من أوراكا ابنة الملكة طوطة، وأخت غرسية، وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجًا من ابنة أخرى لطوطة، فكانت طوطة تحتل لذلك مقامًا ملحوظًا في الممالك الثلاث، وقد وقفت

نافار -كما ذكرنا- إلى جانب سانشو عندما نشبت الحرب بينه وبين أخيه أردونيو على تولِّي العرش بعد وفاة أبيهما راميرو الثاني، ثم وقفت إلى جانبه ثانية بعدما خلعه أشراف ليون.

ثم اضطربت العلائق بين نافار وبين قشتالة، ونشبت بينهما حرب شديدة هُزم فيها الكونت فرنان كونثالث، وأُسر في نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة نافار، ولزمت السكينة حينًا.

حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر

حضارة الأندلس

ما سبق كان من التاريخ السياسي والعسكري لعبد الرحمن الناصر -رحمه الله، وواقع الأمر أن جهده لم يكن كلُّه موجهًا للجيوش والحروب فقط، بل إنه كان متكاملاً ومتوازنًا -رحمه الله- في كل أموره؛ فقد قامت في عهده نهضة حضارية كبرى هي الأروع بين مثيلاتها في ذلك الوقت، استهلّها -رحمه الله- بإنشاء هياكل إدارية عظيمة، وأَكْثَرَ من الوزارات والهيئات، وجعل لكل أمر مسئولاً، ولكل مسئول وزارة كبيرة تضمُّ عمالاً كثيرين وكتَبَة، وهذه نُبذَة عن أهم جوانب الحياة الحضارية في عصره.

الجانب المعماري لحضارة الأندلس

مدينة الزهراء

مدينة الزهراء كان من أهم ما يُمَيِّز الناحية المعمارية في عهد عبد الرحمن الناصر تلك المدينة العظيمة التي أنشأها وأطلق عليها اسم مدينة الزهراء، وكانت مدينة الزهراء على طراز رفيع جدًّا، وقد استجلب لها عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- موادًّا من القسطنطينية وبغداد وتونس ومن أوربا، وقد صُمِّمت على درجات مختلفة؛ فكانت هناك درجة سفلى؛ وهي للحراس والكَتَبَة والعمال، ثم درجة أعلى وهي للوزراء وكبار رجال الدولة، ثم أعلى الدرجات في منتصف المدينة وفيها قصر الخلافة الكبير.

وفي مدينة الزهراء أنشأ عبد الرحمن الناصر قصر الزهــراء؛ ذلــك القصر الذي لم يُبْنَ مثله حتى ذلك الوقت؛ فقد بالغ في إنشائه حتى أصبح مــن معجزات زمانه، فكان الناس يأتون من أوربا ومن كل أقطار العالم الإســلامي كي يشاهدوا قصر الزهراء، يقول المقري في نفح الطيب: «لما بنى الناصــر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة، أطبق الناس على أنه لم يُبن مثله في الإسلام ألبتة، وما دخل إليها قطّ أحد من ســائر الــبلاد النّائيــة والنحــل المختلفة؛ من ملك وارد أو رسول وافد، وتاجر جهبذ -وفي هذه الطبقات مــن الناس تكون المعرفة والفطنة- إلاّ وكلهم قَطَعَ أنه لم يَرَ له شبهًا، بل لم يــسمع به، بل لم يتوهم كون مثله؛ حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه، والأخبار عن هــذا تتــسع جــدًّا، والأدلة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضــة المباهي بمجلس الذهب والقبة، وعجيب ما تضمَّنه من إتقان الصنعة وفخامــة الهمة وحسن المستشرف، وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أُفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمــة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدي الأوهــام إلــى سبيل استقصاء التعبير عنها، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف!» .

مدينة قرطبة

مدينة قرطبة وهذه مدينة قُرْطُبَة قد اتسعت جدًّا في عهد عبد الرحمن الناصر، وبلغ تعداد سكانها نصف مليون مسلم، وكانت بذلك ثاني أكبر مدينــة في تعداد السكان في العالم بأسره بعد بغداد المدينة الأولى، والتي كان تعــداد سكانها يبلغ مليونين.

يصف ابن عذاري قُرْطُبَة في هذه الفترة فيقول: «ومما قيل في آثــار مدينة قُرْطُبَة وعظمها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية -رحمهم الله تعالى-: إن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمــة مائــة

ألف دار وثلاثة عشر ألف دار؛ ومساجدها ثلاثة آلاف؛ وعدة الدور التي بقصر الزهراء أربعمائة دار؛ وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته...».

وينقل المقري عن ابن حيان قوله: «إن عدة المساجد عند تناهيها في مدّة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد، والحمامات تسعمائة حمام، وفي بعض التواريخ القديمة كان بقُرْطُبَة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدًا؛ منها: بشقندة ثمانية عشر مسجدًا، وتسعمائة حمام، وأحد عشر حمامًا، ومائة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصًا، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها... إلخ».

وهذا -أيضًا- مسجد قُرْطُبَة قد وسّعه حتى أصبح آية من آيات الفن المعماري، وكان محرابه عبارة عن قطعة رخام واحدة على شكل محارة.

لكل هذا وغيره من مظاهر الحضارة أُطلِقَ على قُرْطُبَة في ذلك العصر «جوهرة العالم».

الجانب الاقتصادي لحضارة الأندلس

كانت البلاد في عهد عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- تعيش في رخاء منقطع النظير، فكثرت الأموال؛ حتى بلغت ميزانية الدولة ستة ملايين دينارٍ ذهبيٍّ، كان يقسمها ثلاثة أقسام كجدِّه عبد الرحمن الداخل -رحمه الله: ثلثًا للجيش، وثلثًا للبناء والمعمار والمرتبات وما إلى ذلك، والثلث الأخير للادِّخار لنوائب الزمن.

ونمت الزراعة نموًّا مزدهرًا؛ فتنوَّعت أشجار الفواكه والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز، كما نَظَّم أقنية الري وأساليب جرِّ المياه، وجعل تقويمًا للزراعة لكل موسم (ومنها انتقلت الزراعة إلى أوربا).

كان من اهتماماته -أيضًا- استخراج الذهب والفضة والنحاس، وكذلك صناعة الجلود وصناعة السفن وآلات الحرث، وكذلك صناعة الأدوية، وقام

عبد الرحمن الناصر بإنشاء أسواق كثيرة متخصصة لعرض وتداول مثل هذه البضائع، فكان هناك -على سبيل المثال- سوق للنحاسين، وأخرى للحوم، بل كان هناك -أيضًا- سوق للزهور.

الجانب الأمني لحضارة الأندلس.

وكانت خُطّة الشرطة من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين، الشرطة العليا، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة (٣١٧هـ) في عهد الناصر لدين الله قُسِّمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب: الشرطةُ العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى، كما قَسَّم خطة المظالم (أي المحاكم) إلى خطتين عام (٣٢٥هـ)، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم، وجعل العرض خطة مستقلّة بذاتها، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة.

الجانب العلمي لحضارة الأندلس

ازدهر في عهد عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- العلم والتعليم بصورة ملحوظة، وقد اهتمَّ كثيرًا بمكتبة قُرْطُبَة؛ تلك التي كانت قد تأسَّست قبل ذلك الوقت، فزاد كثيرًا في حجمها حتى بلغ عدد الكتب فيها أربعمائة ألف كتاب، وهو زمن لم تظهر فيه الطباعة بعدُ، وإنما كانت عن طريق النسخ اليدوي، الذي كان وظيفة النسَّاخين، فإذا أراد واحد من الناس أن يمتلك كتابًا ما عليه إلا أن يذهب إلى نَسَّاخ؛ فيذهب النساخ بدوره إلى مكتبة قُرْطُبَة فينسخ له ما يُريد.

وبأثر من هذا الجوِّ العلمي الزاهر، أوردت المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات عددًا كبيرًا من الأسماء التي نبغت في هذه الفترة؛ فمنهم:

حسان بن عبد الله بن حسان (٢٧٨-٣٣٤هـ=٨٩١-٩٤٦م):

من أهل إسْتِجَة، وقد وُصف بأنه كان نَبيلاً في الفقه، وحافِظًا للـرأي، ومُعْتنيًا بالحديث والآثار، ومتصرِّفًا في علم اللغـة والإعـراب، والعَـروض ومَعَاني الشِّعر، مع بصره بالفرض وعِلم العَدد، ولمكانته العلمية قيل عنه: لـم يَكُن في إسْتِجَة قبْله ولا بعده مِثله.

محمد بن عبد الله الليثي (ت٣٣٩هـ= ٩٥١م):

من أهل قُرْطُبَة، وكان يشغل منصب «قاضي الجماعة» في قُرْطُبَـة، تتلمذ على شيوخ بالأندلس، ثم رحل إلى مكة، ثم إلى مصر، ثم إلـى تـونس، وكان حافظًا للرأي، مُعْتَنِيًا بالآثار، جامعًا للسنن، متصرفًا في علم الإعـراب، ومعاني الشعر، وكان شاعِرًا مطبوعًا، وقد ولاه عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- قضاء إلْبِيرة وبَجَّانة، ثم قضاء الجماعة بقُرْطُبَة في شهر ذي الحجة سنة (٣٢٦هـ)، وكان كثيرًا ما يخرج إلى الثُّغور، ويتصرَّف فـي إصـلاح مَـا ضعف فيها، فاعتلَّ في آخر خرجاته إلى هُناك، ومات فـي حـصن مجـاور لطُلَيْطِلَة فدُفن فيها.

السياسة الخارجية لحضارة الأندلس

ذاع صيت عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- في الدنيا كلها، ورضيت منه ممالك الشمال بأن تعطيه العهد والجزية، وقد جاءت السفارات مـن كـل أوربا تطلب وِدَّه، فجاءت من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا، بل جاءت مـن أقصى شرق أوربا من بيزنطة، وهي بعيدة جدًّا عن عبد الرحمن الناصر لكنها جاءت تطلب وِدَّه وتُهدي إليه الهدايا، وأشهرها كان جوهرة ثمينة وكبيرة، كان يضعها عبد الرحمن الناصر في وسط قصره، الذي يقع في مدينـة الزهـراء، «وكانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصـر مع تحف كثيرة سنية».

وهكذا كان عزُّ الإسلام ومجده متمثلاً في عهد عبد الرحمن الناصر – رحمه الله، حتى أصبح –بلا منازع– أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى، وهذا ما جعل إسبانيا سنة (١٩٦٣م) تحتفل –وهي على نصرانيتها– بمرور ألف سنة ميلادية على وفاة عبد الرحمن الناصر؛ لأنه كان أعظم ملوك إسبانيا على مرِّ العصور، فلم يستطيعوا أن يُخفوا إعجابهم بهذا الرجل الذي رفعهم في العالمين، الذي كانت الأندلس في عهده – وبلا جدال – أقوى دولة في العالم.

عبد الرحمن الناصر.. الإنسان

مَنْ يقرأ أو يسمع مثل ما سبق يجول في خاطره أن مثل هذا الرجل لم يكن يعرف إلاّ طريقًا واحدًا، هو طريق العظمة والجدية التامّة، طريق العزّة وعدم الخنوع، وهذا وإن كان صحيحًا إلاّ أن مَنْ ينظر إلى شخص عبد الرحمن الناصر –الذي ظلّ يحكم البلاد من سنة (٣٠٠هـ= ٩١٣م) إلى سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) نصف قرن كامل– لَيَرَى العَجَبَ العُجاب؛ فقد كان –رحمه الله– مع كل هذا السلطان وهذا الصولجان دائمَ الذِّكْر لربه سريع الرجوع إليه.

حدث ذات مرّة قحط شديد في الأندلس، فأرسل الناصر رسولاً من عنده يدعو القاضي منذر بن سعيد –رحمه الله– بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال منذر للرسول: ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا؛ إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخس الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تُعَذِّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني. قال الحاكي: فتهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله، وقال: يا غلام؛ احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض، فقد رحم جبار السماء. وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلاّ عن السقيا».

وكان يقول الشعر -أيضًا- ومن شعره في أمر بنائه مدينة الزهراء: [الكامل]

هِمَمُ المُلوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا *** مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ

إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ *** أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

قالوا عن عبد الرحمن الناصر.

قال عنه الذهبي: كان شجاعًا شهمًا محمود السيرة، لم يزل يستأصل المتغلِّبين حتى تم أمره بالأندلس، واجتمع في دولته من العلماء والفضلاء ما لم يجتمع في دولة غيره، وله غزوات عظيمة ووقائع مشهورة، قال ابن عبد ربه: قد نَظَمتُ أُرجوزة ذكرتُ فيها غزواته. قال: وافتتح سبعين حصنًا من أعظم الحصون، ومدحه الشعراء.

وقال عنه الصفدي: ولم يكن بعد عبد الرحمن الداخل أجزل منه – أي الناصر – في الحروب، وصحة الرأي، والإقدام على المخاطرة والهول، حتى نال البُغيَة... فرتب الجيوش ترتيبًا لم يُعهَدْ مثلُه قبله، وأكرم أهل العلم، واجتهد في تخيُّر القضاة، وكان مُبَخَّلاً لا يُعطي ولا يُنفق إلاّ فيما رآه سدادًا.

وها هو ذا يُتَوَفّي -رحمه الله- في رمضان سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) عن اثنين وسبعين عامًا، وقد وجدوا في خزانته ورقة كان قد كتبها بخط يده، عدَّ فيها الأيام التي صَفَتْ له دون كدر؛ فقال: «في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا صفا لي ذلك اليوم». فعدُّوها فوجدوها أربعة عشر يومًا فقط.

خلافة الحكم المستنصر (٣٠٢-٣٦٦هـ= ٩١٤-٩٧٦م)

الخليفة الأموي الحكم المستنصر استخلف عبد الرحمن الناصر من بعده ابنَه الحكَمَ، الذي تولّى من سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) إلى سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م)، وتلقب بالمستنصر بالله، وكان يوم تولّى في نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان أبوه يُقَرِّبُه ويعتمد عليه في كثير من الأمور؛ فكان ذا خبرة بشئون الحُكم والسياسة، وكان عبد الرحمن الناصر قد استطاع توطيد أركان

الدولة، والقضاء على الفتن، وهو ما يَسَّر للحَكَم المستنصر فيما بعدُ أن يَصِلَ بالأندلس في عهده إلى أعلى درجات الرقي الحضاري، وأن تحدُث في عهده نهضة علمية وحضارية غير مسبوقة.

المكتبة الأموية في قرطبة

يقول عنه ابن الخطيب: «وكان -رحمه الله- عالمًا فقيهًا بالمذاهب، إمامًا في معرفة الأنساب، حافظًا للتاريخ، جمّاعًا للكتب، مميِّزًا للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مِصرٍ وأوان، تجرَّد لذلك وتهمم به؛ فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يُوقف عنده». ويقول عما وصلت إليه الأندلس في عهده من الرقي والتحضر: «وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية، والحسنات الراقية».

أنشأ الحكم بن عبد الرحمن المكتبة الأموية، تلك التي تُعَدُّ أعظم مكتباتِ العصور الوسطى على الإطلاق، وكانت تُنافس مكتبة قُرْطُبَة ومكتبة بغداد، وقد دفع آلاف الدنانير لجلب أعظم الكتب إليها من كل مكان في العالم، وكان له عمَّال وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض ومغاربها من بلاد المسلمين ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاءوا بكتاب في الفلك أو الطب أو الهندسة أو غيرها من أي بلد غير إسلامي تُرجِمَ على الفور وضُمَّ إلى المكتبة الأموية، وقد وسَّع الحَكم بن عبد الرحمن الناصر في المكتبة كثيرًا، وجعل لها أرْوِقَةً عظيمةً حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين.

وكان الحكم المستنصر -رحمه الله- يشتري الكتب مهما بالغ الناس في أسعارها، وقد أحضر في مكتبته هذه النسخةَ الأولى من كتاب الأغاني للأصفهاني[٤] (وهو كتاب في الأدب) وأصفهان هذه الآن من مدن إيران، فأين إيران من إسبانيا الآن؛ فالرجل لم تكن تقف أمامه التخوم ولا الحدود!

وكَثُرَ النّسخُ في عصره، حتى قال ابن خلدون: «وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك

كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلاّ ما يُذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء».

ومن مآثره أنه رتّب معلمين ومربين يُعَلِّمون أولاد الفقراء والضعفاء، وأنفق على أجورهم من بيت المال، وبلغت دور التعليم هذه سبعًا وعشرين؛ ثلاثة منها حول جامع قُرْطُبَة، وباقيها في ضواحي المدينة.

كما أنشأ -رحمه الله- جامعة قُرْطُبَة، التي كان مقرها في المسجد الجامع الكبير، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يُدَرِّس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي، ويملي أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يُدَرِّس النحو، وكان يُدَرِّس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر، وكان الطلبة يُعَدُّون بالآلاف.

علماء الأندلس في عصر الحكم المستنصر

أبو بكر الزبيدي (٣١٦-٣٧٩هـ= ٩٢٨-٩٨٩م)

نزيل قُرْطُبَة، ونسبته إلى زُبيد، وهي قبيلة كبيرة باليمن، كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبرَ أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدلّ على وفور علمه؛ من أشهرها: «مختصر كتاب العين»، وكتاب «طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس» من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن شيخه أبي عبد الله النحوي الرَّبَاحي، وكتاب «الأبنية في النحو» ليس لأحد مثله.

وقد اختاره الحَكَم لتأديب ولده وولي عهده هشام، فكان الذي علمه الحسابَ والعربية، وتولّى قضاء إِشْبِيلِيَة وخُطة الشرطة، وكان كثير الشعر؛ فمن ذلك قوله في أبي مسلم بن فهر: [الطويل]

أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الْفَتَى بِجَنَانِهِ *** وَمِقْوَلِهِ لا بِالْمَرَاكِبِ وَاللبْسِ

وَلَيْسَ ثِيَابُ الْمَرْءِ تُغْنِي قُلامَةً *** إِذَا كَانَ مَقْصُورًا عَلَى قِصَرِ النَّفْسِ

وَلَيْسَ يُفِيدُ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْحِجَا *** أَبَا مُسْلِمٍ طُولُ الْقُعُودِ عَلَى الْكُرْسِي

ابن القوطية

وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم، وقد أوردنا اسمه الكامل لأن له حكاية طريفة، فجده الأخير عيسى بن مزاحم هو الذي تزوج من سارة القوطية حفيدة يُليان الذي مهد للمسلمين فتح الأندلس وساعد فيه.

لما مات يُليان ترك ولدين هما إيفا وسيزبوت، ولم يلبث أن مات إيفا وقد أنجب ولدين وسارة، لكن العم سيزبوت اغتصب نصيب أبيهم، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في دمشق، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها، وفي دمشق تزوجت سارة من عيسى بن مزاحم، وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق، ثم كان من نسل إبراهيم صاحبنا المؤرخ أبو بكر الذي عُرِفَ -لهذا- بلقبه «ابن القوطية».

كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية، يروي الحديث والفقه والأخبار والنوادر، وكان من أكثر الناس رواية للأشعار، وإدراكًا للآثار، وكان مضطلعًا بأخبار الأندلس، عارفًا بسير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها، يُملي ذلك عن ظهر قلب، وكانت كتب اللغة أكثر ما تُقرأ عليه وتُؤخذ عنه، وطال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة، وروى عنه الشيوخ والكهول؛ وكان قد لقي مشايخ عصره بالأندلس وأخذ عنهم، وأكثر من النقل من فوائدهم، وصنف الكتب المفيدة في اللغة؛ منها: كتاب «تصاريف الأفعال»، وهو الذي فتح هذا الباب، وكتاب «المقصور والممدود»، جمع فيه ما لا يُحَدُّ ولا يُوصف، ولقد أعجز به مَنْ يأتي بعده، وفاق مَنْ تَقَدَّمه، وكان الأديب الكبير العلامة اللغوي

أبو علي القالي يُبالغ في تعظيمه، حتى قال له الحكم المستنصر: مَن أنبل مَـنْ رأيته ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال القالي: محمد ابن القوطية.

وكان مع هذه الفضائل من العُبَّاد النسَّاك، جيد الشعر، صحيح الألفاظ، واضح المعاني، حسن المطالع والمقاطع، حكى الأديب الشاعر يحيى بن هذيل التميمي أنه توجَّه يومًا إلى ضيعة له بسفح جبل قُرْطُبَة، فصادف أبا بكر ابـن القوطية في الطريق، قال: فلمَّا رآني عرج عَلَيَّ واستبشر بلقائي، فقلتُ له على البديهة مداعبًا له: [البسيط]

مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ *** وَمَنْ هُوَ الشَّمْسُ وَالدُّنْيَا لَهُ فَلَكُ

قال: فتبسم وأجاب بسرعة:

مِنْ مَنْزِلٍ يُعْجِبُ النَّسَّاكَ خَلْوَتُهُ *** وَفِيهِ سَتْرٌ عَلَى الْفُتَّاكِ إِنْ فَتَكُوا

قال: فما تمالكتُ أَنْ قَبَّلتُ يده؛ إذ كان شيخي، ومجدتُه ودعوتُ له

الحكم المستنصر وشمال أفريقيا

علاقة عبد الرحمن الناصر بالشمال الإفريقي

الدولة الفاطمية بالمغرب مات عبد الرحمن الناصـر لـدين الله بعـد خمسين سنة من الحُكم، تمكَّن فيها من توطيد حُكم بني أمية، وإقـرار قواعـد حُكمهم في الأندلس، بعدما كادت تغيب شمسهم فيها، وينهار بنيان الإسلام في الأندلس كلها؛ بعد أن عصفت الفتن بالبلاد، واستبدَّ كل زعيم بولايته، وتحالف مَن استطاع منهم مع نصارى الشمال المتربِّصين، فأنعم الله على هذه الأُمَّة في ذلك الوقت بعبد الرحمن الناصر، الذي استطاع بالجهاد والمثـابرة والمجالـدة إعادة البلاد إلى الوحدة، فعادت للأندلس قوتها التي تمكنت بها مـن التـصدي لنصارى الشمال وإخضاعهم، كما تمكنت من إخضاع بـلاد شـمال أفريقيـا لسلطان عبد الرحمن الناصر.

غير أن عبد الرحمن الناصر لم يسعَ للسيطرة على بلاد الشمال الإفريقي سيطرة تامَّة، ولم تكن تعني له بلاد الشمال الإفريقي أكثر من أنها البوابة الجنوبية للأندلس، ولم يُحَفِّزه إلى بسط سيطرته عليها إلاَّ قيام الدولة العبيدية الخبيثة في هذه البلاد، ومعرفته بأنها لا بُدَّ أن تسعى للسيطرة على بلاد الأندلس، والقضاء على بني أمية وعلى ملكهم فيها؛ ولذلك سارع إلى بلاد شمال أفريقيا لتكونَ «منطقة حاجزة» في المقام الأول، ثم يستغلها بعد ذلك في إضعاف الدولة العبيدية كلما عَنّت الفرصة.

وكان حُكّام الشمال الإفريقي في ذلك الوقت مثل معظم حكام المسلمين آنئذٍ؛ كلُّ ما يهمهم هو أن يبقَوْا حُكّامًا، فإن استطاعوا بعد ذلك توسيع ملكهم فعلوا، كما كانت تغلب عليهم العصبية لعرقهم ولقومهم، فأراد عبد الرحمن الناصر استغلال صفاتهم هذه، فاكتفى منهم بالخروج على سلطان العبيديين، والدخول في طاعته، وإن كان يعلم جيدًا، أنهم لن يدخلوا في طاعته إلاّ خوفًا من بطشه، واحتماءً به من بطش العبيديين بهم، وتوطيدًا لسلطانهم في بلادهم، كما كان يعلم أنهم متى استطاعوا الاستقلال بعيدًا عن الاثنين فعلوا؛ لذلك لم يكن سلطان عبد الرحمن الناصر مستقرًّا في هذه البلاد، وكان يعتمد في الأساس على هؤلاء الأمراء الذين دخلوا في طاعته رغبًا أو رهبًا.

سياسة الحكم المستنصر

كان الحكم المستنصر على علم بكل هذا، ولم يكن يجهل منه شيئًا؛ ولذلك سعى لأن يُبقي على هذه التحالفات قوية مع هؤلاء الحكام، وبخاصة أن قوة الدولة العبيدية كانت في زيادة مستمرَّة في ذلك الوقت.

وفي سنة (٣٦٠هـ) استطاع حلفاء الحكم المستنصر في شمال إفريقيا الانتصار على زيري بن مناد الصنهاجي عامل المعز لدين الله العبيدي، واستطاعوا قتله وقطعوا رأسه ورءوس كبار رجاله، وذهبوا بها إلى الحكم

المستنصر في قُرْطُبَة ففرح بذلك فرحًا عظيمًا، واحتفل بهم، وأجزل لهم العطاء.

فعزم العبيديون على الانتقام، وعلى أن يُعيدوا فرض سيطرتهم على هذه المناطق مجدَّدًا، وجرَّدوا لذلك جيشًا قويًّا سنة (٣٦١هـ)، كان على رأسه يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي الشهير ببلقين، وهو ابن القائد الذي قتله أتباع الحكم المستنصر، فاجتمع أتباع الحكم المستنصر، وقامت حرب زَبُون[٢] بين الفريقين، دارت فيها الدائرة على أتباع المستنصر، وكانت زناتة من أتباع المستنصر في شمال إفريقيا، فلما أيقن محمد بن الخير أمير قبيلة زناتة بالهزيمة، اتكأ على سيفه فذبح نفسه؛ أنفة من أن يقع أسيرًا في يد عدوه، . فكانت هزيمة شديدة لأتباع الحكم المستنصر، وانتصارًا ساحقًا لبلقين، الذي لم يتوانَ بعد هذا عن قتل أبناء زناتة وتخريب بيوتهم، ومطاردتهم، وخضعت لبلقين معظم المناطق التابعة للحكم المستنصر في شمال إفريقيا، وقد حاول دخول سَبْتَة، ولكنه لم يستطع لشدَّة تحصينها ومناعتها.

وهذا الموقف من محمد بن الخير أوضح دليل على ما كان يُسيطر على هؤلاء القوم في ذلك الوقت من عصبية جاهلية لأقوامهم، وحُبٍّ للمناصب والسلطان، ويُؤَكِّد ذلك -أيضًا- هذا الانتقام الأعمى الذي قاده بلقين ضد قبيلة زناتة.

الاندلس والمغربوكان حسن بن قنون الحسني أمير الأدارسة ممن استسلم لبلقين، وتحوَّل عن طاعة الحكم المستنصر إلى طاعة العبيديين، وأصبح يدعو لهم على منابر طَنْجَة بدلاً من الحكم، فلمَّا علم الحكم بما حدث واستشعر اقتراب الخطر من الأندلس إلى درجة أن طَنْجَة قد دخلت في طاعة العبيديين، بادر الحكم فأرسل جيشًا قويًّا إلى سَبْتَة؛ لتكون قاعدته التي يتجه منها للسيطرة على بلاد الشمال الإفريقي كاملة، وأوصى قائد الجيش بالجدِّ والاجتهاد في محاربة ابن قنون، وأمره إن نصره الله تعالى ألا يفعل مثل بلقين، بل يأخذ بالعفو والصفح، وإصلاح البلاد، واستصلاح الرعية، وأن

يستعين في ذلك بمَنْ يدخل في طاعة بني أمية، ودارت المعارك بين جنود الأندلس، وجنود حسن بن قنون، وهُزم حسن بن قنون، وفرَّ هو ورجاله عن طَنْجَة تاركين خلفهم أموالهم وأمتعتهم، ودخلت طَنْجَة في طاعة الحكم المستنصر، وأعطاها قادة الحكم المستنصر الأمان، وأرسلوا بالبشرى إلى قُرْطُبَة، ثم طارد الجيشُ الأندلسي فلول ابن قنون فهزموه مرَّة أخرى، وألجئوه هو ومَنْ معه من رجاله إلى جبلٍ حصين، فتبعه الجنود، ودارت بينهما معاركُ أخرى انهزم على أثرها، وهرب تاركًا أمتعته خلفه، ثم توالت فتوحات الأندلسيين في شمال إفريقيا.

ولكن حسن بن قنون لم ييأس، فأعاد تنظيم قواته، وقابل الجيش الأندلسي بعد أشهر قليلة، ودارت بين الفريقين معركة شديد في فحص مهران في ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ، قُتل في هذه المعركة قائد الجيش الأندلسي محمد بن قاسم، وهُزم الجيش الأندلسي وقُتل منه حوالي خمسمائة فارس، وألف راجل، وعادت فلول الجيش الأندلسي إلى سَبْتَة، وأرسلت إلى الحكم المستنصر تطلب الغوث والمدد.

وعلم حسن بن قنون أن الحكم المستنصر لن يتوانى عن إمداد مَنْ بقي من الجيش الأندلسي، وتوجيهه إليه، وكان يعلم ما وصلت إليه الأندلس من القوة والرخاء في هذا الوقت، وأنه لن يستطيع أن يثبت أمام الحكم المستنصر، فأراد أن يستغلّ هذا النصر الذي أحرزه بطلب الصلح وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن، ولكن الحكم المستنصر لم ينخدع بهذا؛ وعلم أنه لا يُريد الصلح، وإنما يُريد استغلال هزيمة الأندلسيين، ليُرتِّب قواته ويُعيد الكَرَّة من جديد بمجرّد أن يشعر في نفسه بالقدرة على ذلك، وأن حسن بن قنون هذا لو كان يُريد الصلح، لصالح من البداية، ولما قاوم الأندلسيين كل هذه المقاومة برغم الهزائم الشديدة التي جرت عليه، فكان مما أرسله المستنصر إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا في المغرب، ردًّا على ما أبداه الحَسن من رغبة في الإنابة والصلح: «وكيف يذهب الآن هذا المذهب، وهو في

طغيانه مستمرٌّ، وفي دينه مستبصر، ولكم في كل أيامه محاربٌ، هذا هو الضلال، والمحال عين المحال، وسبب الخبال، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره، وغير مَنْ أصرَّ إصراره، وتمادى تماديه، إلى أن يحكم الله عليه، ويفتح فيه».

وبالفعل دخل في الطاعة؛ بسبب هذه السياسة الحكيمة سبعون رجلاً ممن كانوا مع حسن بن قنون من قبيلة مصمودة، ودخلوا إلى قُرْطُبَة في أول جمادى الآخرة من العام نفسه (٣٦٢هـ)؛ ليُعلنوا دخولهم في طاعة الحكم المستنصر.

أمَّا حسن بن قنون فقد جهَّز له الحكم المستنصر جيْشًا قويًّا، وجعل على رأسه واحدًا من أفضل قوَّاده، وأكثرهم شجاعة وشهامة، وهو غالب بن عبد الرحمن، وأمدَّه بالمال والجند وأرسله في رمضان من العام نفسه إلى بر العدوة قائلاً له: «سِرْ يا غالب مَسِيرَ مَنْ لا إذن له في الرجوع إلاّ حيًّا منصورًا أو ميتًا معذورًا». فلمَّا نما ذلك إلى علم حسن بن قنون، وكان في البصرة (إحدى مدن المغرب الآن) تركها، ولجأ بأهله وأمواله إلى قلعة حجر النسر المنيعة القريبة من سَبْتَة، ثم دَارَ قتالٌ شديد بينه وبين الجيش الأندلسي بقيادة غالب بن عبد الرحمن، واستمرَّت المعارك أيامًا، واستمال غالب رؤساء الأمازيغ (البربر) -المنضمين لحسن والمدافعين عنه- بالمال، فانشقُّوا عنه، وبقي حسن بن قنون على عناده، وتحصَّن بالقلعة فضرب غالب حوله الحصار، وضيَّق عليه، حتى أشرف على الهلاك هو وأهله، فأرسل يطلب الأمان، فأمَّنه غالب وتسلَّم منه الحصن، وعَمِل غالب على تطهير المغرب من الخارجين عن طاعة الحكم المستنصر، وأرسل إليه الخليفة بالأموال؛ ليستميل بها قبائل الأمازيغ (البربر)، ودخل مَنْ بقي من حكام الشمال الإفريقي في طاعة الخليفة المستنصر لدين الله، واستقرَّ الأمر في بلاد الشمال الإفريقي للحكم المستنصر.

وفي سنة (٣٦٤هـ) عاد القائد غالب بن عبد الرحمن في موكب عظيم إلى الأندلس، ومعه حسن بن قنون وشيعته من بني إدريس الحسنيون، ودخلوا على الخليفة المستنصر فَوَفَّى لهم بعهدهم، وأجزل لهم الأعطيات والهدايا ليتألَّفهم، وكان قد أعدَّ لهم دُورًا في قُرْطُبَة، فأُنزِلوا فيها، وعَيَّن سبعمائة من حاشيتهم في ديوانه، مبالغة في الإحسان إليهم.

واستمرَّ الحسن وذووه في ذلك حوالي عامين، ولكن الحسن بن قنون هذا كان لجوجًا سيئ الخُلق، وكانت نفقاتهم الكثيرة قد ثقلت على الخلافة، فضاق به الخليفة فأمر بترحيلهم إلى المشرق، وبالفعل رحلوا إلى مصر، واستقبلهم العزيز بالله العبيدي، وأحسن إليهم، ووعدهم بالعون والنصرة حتى يعود إليهم ملكهم في المغرب

توسعات الحكم المستنصر

جهاد الحكم المستنصر ضد النصارى في ملكة ليونظنّت الممالك الإسبانية النصرانية في الشمال أن وفاة عبد الرحمن الناصر ستؤثِّر كثيرًا على الأندلس، وأن الأندلس لن يكون بعد وفاة عبد الرحمن الناصر كما كان قبل وفاته، وربما ظنُّوا أن هذه الثورات التي استطاع عبد الرحمن الناصر إخمادها في أول عهده، لن تلبث أن تعود من جديد بعد موته؛ لذلك استهانوا بالحكم المستنصر، فهو في بداية عهده، وهو في أمسِّ الحاجة لاستقرار أحوال بلاده في هذه الفترة؛ حتى يقوى مُلكه، أو هكذا ظنُّوا، فسارع سانشو - كما ذكرنا - إلى نقض العهد الذي كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر، ثم عاد ونقض عهده مع المستنصر، في حين أبت نافار تسليم فرنان كونثالث زعيم قشتالة، الذي هاجم الثغور الإسلامية أكثر من مرَّة، فرأى الحكم أنه لا بُدَّ من تأديب نصارى الشمال؛ على كل ما فعلوا ويفعلون، وبالفعل أعَدَّ جيشًا قويًّا وغزا به الممالك النصرانية في الشمال سنة (٣٥١هـ)، وفتح حصونًا كثيرة، وقتل وغنم وسبى، ثم رجع ظافرًا.

ثم عاد وجَهّز جيشًا قويًا في العام التالي سنة (٣٥٢هـ) أرعب النصارى، وحملهم - رغم ما بينهم من عداوات- على الاتحاد لمواجهة القوات الإسلامية، ثم غزا الحكم بهذا الجيش الممالك الصليبية الثلاث في الشمال، ومزّق به جيوشهم شرّ ممزق، واضطرهم إلى طلب الصلح والإذعان للمسلمين، بل وتمسكوا -على عادة الأمم الضعيفة التي لا تملك الدفاع عن نفسها- بعلاقات السلام مع الحكم المستنصر، وظلّت وفودهم تأتي من عام إلى آخر تطلب تجديد الصلح مع الحكم المستنصر، أو تطلب منه التحالف معه في مقابل الدخول في طاعته.

غزو الفايكنج لسواحل الأندلس

استطاع الحكم المستنصر بهذه الهمة العالية أن يطأ أرض نصارى الشمال، وأن يُخضعهم، وأن يحملهم على اليأس من أن ينالوا منه شيئًا، وهذا ما اضطرهم إلى الحفاظ على حالة السلم بينهم وبين الحكم المستنصر، ولكن هذه الحالة من الرخاء والسلام لم تستمرّ طويلاً، بل لعلّ هذا الرخاء قد أغرى أقوامًا آخرين بالأندلس؛ فهجمت على السواحل الغربية للأندلس سنة (٣٥٥هـ) عصابات الفايكنج الذين هاجموا الأندلس من قبلُ في عهد عبد الرحمن الأوسط، واستطاع عبد الرحمن الأوسط ردّهم عن الأندلس مهزومين، وشرع في تحصين إشْبِيلِيَة -كما ذكرنا من قبل- ولكن يبدو أن حالة الرخاء التي وصل إليها المجتمع في ذلك الوقت قد أنستهم هذه الهزائم القديمة، وأغرتهم بأن يُعيدوا الكَرَّة من جديد، فهاجموا السواحل الأندلسية الغربية بثمانية وعشرين مركبًا، وبدءوا يعيثون فيها فسادًا؛ فخرج إليهم المسلمون ودارت بينهم معارك شديدة، قُتل فيها عدد من الطرفين، وأرسلت هذه المناطق

رسائل إلى الحكم المستنصر في قُرْطُبَة، تُخبره بما حدث وتطلب منه العون والنجدة، فسارع بأمر الأسطول بالتحرّك إلى نجدة المسلمين، وبالفعل دارت بين الأسطول وبينهم معارك شديدة هزمهم المسلمون فيها، وحطموا عددًا من مراكبهم، واستطاعوا رَدَّهم عن السواحل الأندلسية خائبين خاسرين، بعدما خَلَّصُوا مَنْ معهم من أسرى المسلمين، وظَلَّت سفنهم -التي بقيت لهم بعد هذه المعركة- تجوب المياه الغربية للأندلس فترة، لم يجرءوا فيها على مهاجمة الأندلس، ثم اختفوا بعد ذلك.

وبعد ذلك شُغل الحكم المستنصر بأمر الشمال الإفريقي، وإخضاعه لسلطانه، وبين هذا وذاك كان الحكم مهتمًّا بنشر العلم والتعليم، وإقامة هذا الصرح الحضاري العظيم في الأندلس، حتى توفي سنة (٣٦٦هـ) بعدما أخذ البيعة لابنه هشام، وهو لا يزال طفلاً.

استخلاف هشام المؤيد

هشام المؤيدبالرغم من أن الحكم المستنصر كان من أفضل حكّام الأندلس إلاّ أنه في آخر عهده قد أخطأ خطأ جسيمًا؛ فقد أُصيب في آخر أيامه بالفالج (بالشلل)، فقام باستخلاف أكبر أولاده هشام بن الحكم (هشام المؤيد) وعمره آنذاك عشرة أعوام فقط ، استخلفه على بلاد الأندلس وفوقها بلاد النصارى في الشمال ومن تحتها الدولة العبيدية (الدولة الفاطمية) في الجنوب، وكل ممالك أوربا متربِّصة للكيد لهذه القوة العظيمة وهزيمتها.

وهي بلا شكٍّ زلّة خطيرة من الحكم بن عبد الرحمن الناصر؛ إذ كان عليه أن ينتقي مَنْ يستخلفه لهذه المهمة الجسيمة، ويُولِّي رجلاً آخر من بني أمية؛ يستطيع أن يقوم بأعباء حُكم دولة قوية، كثيرة الأعداء متسعة الأطراف، ومترامية الأبعاد كدولة الأندلس.

وقد توفي الحكم المستنصر سنة (٣٦٦هـ=٩٧٦م)، مستخلفًا على الحُكم من بعده ابنه الطفل الصغير هشام بن الحكم (هشام المؤيد)، وكان في

القصر حزبان قويان؛ هما: الفتيان الصقالبة من جهة، ومن الجهة الأخرى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومعه قائد الشرطة القوي والناظر على شئون الخليفة ومتولي أمره محمد بن أبي عامر، ومن وراء هذا الحزب أم الخليفة صبح البشكنسية، التي كانت أقوى شخصية في هذا الحزب في تلك اللحظة، وهي بشكنسية الأصل (نافارية)، وكانت أحب نساء الحكم إليه وأحظاهن عنده.

مؤامرة الفتيان الصقالبة

قصر قرطبة كان من عادة أمراء بني أمية الاستكثار من الفتيان الصقالبة، والاعتماد عليهم في أعمال القصر وأمورهم الخاصة، وقد سار عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر على هذا النهج، فزاد عدد الفتيان الصقالبة في عهدهم، وبلغ عدد العاملين منهم في القصر فقط في نهاية عهد الحكم المستنصر أكثر من ألف فتى، فاتّسع نفوذهم، وأصبحوا قوة لا يُستهان بها لكثرتهم، ولقُربهم من الخليفة، ولاعتماد الخليفة عليهم في أعمال مهمة كحراسته شخصيًّا، وما إلى ذلك من أعمال تمرّسُوا فيها بمرور الوقت دون غيرهم، حتى ظنّوا أن المُلْكَ بأيديهم، وأن لا غالب لهم.

وكان كبير الفتيان الصقالبة الفتى فائق، ويليه في المرتبة والمكانة الفتى جؤذر، فلما مات الحكم المستنصر كتم هذان الفتيان خبر موته، وضبطوا أمور القصر وسيّرُوها كأنْ لم يحدث شيء، وعقدا العزم على صرف أمر الخلافة عن هشام المؤيد لصغر سِنّه، ولمعرفتهم أن الحاكم الفعلي سيكون حزب المصحفي وابن أبي عامر وصبح، فعزموا على نَقْلِ الخلافة إلى أخي الحكم المستنصر المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فيكون لهما نتيجةً لذلك فضل على المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، ويتّسع نفوذهما ونفوذ أتباعهما.

جلس الفتيان فائق وجؤذر يضعان الخطة لتنفيذ فكرتهما، فأشار جؤذر بقتل الحاجب المصحفي، فبذلك يتمّ لهم الأمر، فلم يرض فائق بهذا، وأشار بأن

يأتوا بالحاجب فيُخيِّروه بين الموافقة أو القتل، فأرسلا إلى جعفر الحاجب، ونعوا إليه الحكم المستنصر، وأخبراه بما ينويان به من صرف الأمر إلى المغيرة أخي الحكم لصغر سن هشام، فأدرك الحاجب التهديد الكامن وراء الكلام، فأظهر الموافقة وقال: هذا والله! أَسَدُّ رأي وأوفق عمل؛ والأمر أمركما، وأنا وغيري فيه تبع لكما، فاعزما على ما أردتما، واستعينا بمشورة المشيخة؛ فهي أنفى للخلاف، وأنا أسير إلى الباب (أي القصر)، فأضبطه بنفسي، وأنفذا أمركما إليَّ بما شئتما.

وبادر بالفعل إلى ضبط أبواب القصر لكي لا ينتشر الخبر، ثم سارع إلى طلب كبار رجال الدولة من العرب والبربر، وكان منهم محمد بن أبي عامر، كما أمر بإحضار أتباعه وشيعته، ونعى إليهم الخليفة، وأخبرهم بخطة الفتيان الصقالبة في تحويل أمر الخلافة إلى المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلاً من هشام بن الحكم، ثم عَرَّفهم أضرار ذلك فقال: «إن حَبَسْنَا الدولة على هشام، أَمِنَّا على أنفسنا، وصارت الدنيا في أيدينا، وإن انتقلت إلى المغيرة استَبْدَل بنا، وطلب شفاء أحقاده». فأشاروا عليه بقتل المغيرة بن عبد الرحمن، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التقدُّم لتنفيذ هذا الأمر.

فلما رأى ابن أبي عامر ذلك، سارع هو بتنفيذ هذه المهمة؛ حرصًا منه عليهم، واتباعًا لجعفر بن عثمان، فأُعجبوا به، وزاد تقديرهم له، وقال له جعفر: أنت أحقُّ بتولِّي كِبْرَه لخاصَّتك بالخليفة هشام ومحلك من الدولة. ثم أرسل معه فرقة من الجنود فذهبوا من فورهم إلى دار المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فأحاطوا بالدار من جميع جوانبها، ودخل عليه ببعض هؤلاء الجنود، ولم يكن قد علم بخبر وفاة أخيه، فنعاه ابن أبي عامر إليه، وأخبره بأن الوزراء قد خشوا أن يخرج المغيرة على بيعة هشام، فأرسلوه إليه ليمتحنه، وليتأكَّد من صدق ولائه لابن أخيه، وبقائه على بيعته، فذُعِر المغيرة ثم استرجع عليه، واستبشر بملك ابن أخيه، وقال: «أَعْلِمْهم أني سامع مطيع وافٍ ببيعتي؛ فتوثَّقوا مني كيف شئتم». وأقبل يستلطف ابن أبي عامر، ويناشده الله في دمه، ويسأله

المراجعة في أمره، حتى رقّ له ابن أبي عامر، فأرسل إلى جعفر المصحفي يصف له أمر المغيرة، ويطمئنه بأنه سامع مطيع، وكان جعفر وأصحابه قد عزموا على التخلّص من المغيرة أيًّا كان موقفه؛ مبالغة في تأمين الخلافة، فلما رأى جعفر رغبة ابن أبي عامر في ترك المغيرة حيًّا، أرسل إليه بلومه على التأخير، ويقول له: غررتنا من نفسك؛ فانفُذْ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك.

فعلم ابن أبي عامر أن لا سبيل لنجاة المغيرة، واستفزّت كلمات جعفرٍ ابنَ أبي عامر، فأمر بالمغيرة فقُتل خنقًا أمام حريمه، ثم علّقوا جثمانه على هيئة المشنوق، ليقولوا مِنْ بعدُ: إنه قتل نفسه لَمّا أكرهوه على الركوب لابن أخيه لمبايعته. وكانت سنه يوم قُتل سبعًا وعشرين سنة.

هل كان المغيرة طرفا في مؤامرة الفتيان الصقالبة؟

حتى باعتبار أن الحكم المستنصر أخطأ حين عهد بولاية العهد لابنه الصغير، ففي عُرْفِ ذلك الزمان أن الولد قد تمت له بيعة شرعية، وأن الخروج على هذه البيعة هو خروج على الوالي الشرعي، ولقد كان المغيرة فتى بني أمية ومن المؤهلين لتولي الخلافة، ووردت عبارة لابن بسام في الذخيرة تُفيد بأنه كان يتأهّب للانقلاب على ابن أخيه، قال: «وكان فتى القوم كرمًا ورجلة، وممن أُشير نحوه بالأمر بأسباب باطنة، فأخذ له أهبته».

كما بدا في كلمة المصحفي: «وإن انتقلت إلى المغيرة استَبْدَل بنا، وطلب شفاء أحقاده»، أن له عداوة سابقة مع المصحفيين، وهم رجال دولة الحكم، فهذا دليل آخر على أن الرجل لم يكن بعيدًا عن صراعات القصر وأطرافه.

ونحن لا نتوقّع أن يكون الفتيان الصقالبة من السذاجة بحيث إنهم يُدَبِّرون لصرف الأمر إلى المغيرة إلاّ لو كانوا على سابق اتفاق معه، فليس من طبائع الأمور أنهم سيدبرون لهذا الأمر دون أن يتم تواصل مع الرجل الذي يُريدون تنصيبه خليفة؟

ولهذا، فنحن نميل إلى القول بأن المغيرة كان ينوي الانقلاب على ابن أخيه، إلاّ أن المصحفي -وقد كان يملك أمر الدولة- كان أسرع إليه من خبر وفاة أخيه الحكم، فوصل إليه ابن أبي عامر ومجموعته وهو آمن.

لا شَكّ أن مصلحة المصحفي كانت في تصفية المغيرة وإغلاق هذا الملف كله؛ فيضمنون انتهاء مؤامرة الصقالبة، وانتهاء الرجل القوي الذي قد ينازع بعدئذٍ في منصب الخلافة، ويقود الخروج على ابن أخيه، ولا شَكّ أن المغيرة حين رأى ابن أبي عامر ومجموعته أيقن بالهلاك، فحاول بكل ما أطاق استنقاذ نفسه، ولا شَكّ -أيضًا- أن المصحفي حين بلغه رجاء ابن أبي عامر ألا يقتل المغيرة لأنه أعلن الطاعة قدّر في رأسه هذا المعنى، وأنه لو تُرِك المغيرة حيًّا فإنه سيكون أشد نقمة على المصحفي وجماعته بعد هذا الموقف؛ فلقد كانوا على وشك قتله، فرأي المصحفي أن يُغلق هذا الباب كله، وأرسل إلى ابن أبي عامر الذي صَدَع بالأمر وما كان له -في هذه اللحظة- أن يفعل إلاّ هذا، ولو لم يرضَ به.

وتميل بعض التحليلات الأخرى إلى أن المغيرة لم يكن على علم بمؤامرة الصقالبة، ولا كان ينوي الخروج؛ إذ لم تبدُ من بادرة نحو هذا، وأن مقتله لم يكن إلاّ نتيجة مؤامرات لم يكن هو طرفًا فيها، ولكن كانت مصلحة المصحفي في قتله ليصفو له الأمر.

المؤامرات بين الصقالبة وجعفر المصحفي

عاد ابن أبي عَامر إلى جعفر يُبَشّره بتصفية المغيرة، ففرح بذلك، وقرّب ابن أبي عامر إليه، فلمّا بلغ الأمر لفائق وجؤذر سُقِطَ في أيديهم، وأخذا يتلاومان، ثم أرسلا إلى جعفر يعتذران إليه، ويقولان له: إنّ الجزع أذهلنا عمّا أرشدك الله إليه، فجزاك الله عن ابن مولانا خيرًا، وعن دولتنا وعن المسلمين. وأظهرا له القبول والاستبشار، فأظهر الحاجب جعفر -أيضًا- لهما قبول عذرهما، وعدم التثريب عليهما، غير أن العداوة قد استعلنت بين الطرفين:

الصقالبة من جهة، وحزب هشام من جهة أخرى، فبقي الحاجب جعفر على حذر شديد من الصقالبة كلهم، ونَشَرَ بينهم العيون والجواسيس، وظلّ في انتظار الفرصة المناسبة لتمزيقهم وتشتيت جمعهم، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك.

بلغ المصحفي أن فائقًا وجؤذرًا يتآمران مع بعض أتباعهما من الصقالبة في داخل القصر وخارجه؛ لتنحية هشام عن الملك، فشدَّد الحاجب الرقابة على الصقالبة، وأمر بسدِّ الباب المخصَّص لهم في القصر، وأن يكون دخولهم وخروجهم من بعدُ من باب السدَّة مع باقي الناس، ثم تفاهم مع ابن أبي عامر على أن يُلحق بعضهم بحاشيته، فاستجاب له ابن أبي عامر، فانتقل خمسمائة منهم إلى حاشية ابن أبي عامر، فعمل ابن أبي عامر على استرضائهم، وقويت بهم شوكته من بعدُ.

فشعر مَنْ بقي من الصقالبة بأن أمرًا ما يُحَاك ضدَّهم، فسَعَوْا للضغط على الحاجب جعفر، فأعلن الفتى جؤذر رغبته في الاستعفاء من عمله، وكان يظنُّ أن له مكانة في القصر، وأنه لا يمكن الاستغناء عنه، إلاّ أن استقالته قد قُبلت بالفعل في رسالة واضحة لمَنْ بقي منهم؛ أنهم لا يُمَثِّلون الأهمية الكبيرة التي يظنونها لأنفسهم، فزاد تذمُّرهم وسخطهم على الدولة، وكان أكثرهم جسارة في ذلك فتى اسمه دري، وكان جاهلاً متمردًا، فحرَّك الحاجب جعفرٌ المصحفي رجلَه القوي الذكي ابنَ أبي عامر للتخلص منه، فأوعز ابن أبي عامر لمن تحت قيادة الفتى دري بأن يشتكوا جوره وظلمه لهم؛ لكي يُخَلِّصهم منه، فسارعوا إلى ذلك.

ورفع الحاجب جعفر أمر ذلك إلى هشام المؤيد، فأمر بجمع دري والمتظلمين منه والتحقيق معهم، فاستدعاهم ابن أبي عامر إلى دار الوزارة للتحقيق معهم، فلما أقبل دري على دار الوزارة، أحسَّ بالشرِّ فَهَمَّ بالرجوع فاعترضه ابن أبي عامر وقبض عليه، فأساء دري إليه وتشاجر معه، وجذبه من لحيته، فقُبِض عليه ثم حُمِلَ إلى داره، وقُتل في تلك الليلة، ثم عمد إلى

باقي الفتيان الصقالبة فأمرهم بمغادرة القصر إلى دورهم، وأن يلزموها ولا يخرجوا منها، فلما تمَّ له ذلك، اشتدَّ في مطاردتهم، وأخذ أموالهم؛ حتى لا يُفَكِّروا في العودة إلى التآمر على الدولة، ونفى فائقًا إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار حاليًا) فبقي بها حتى مات، وبذلك استأصلوا شوكة الفتيان الصقالبة، وأَمِنُوا مكرهم[

عصر سيطرة الحجاب أو السيطرة العامرية ٣٦٦ – ٣٩٩هـ.

محمد بن أبي عامر.. الحاجب المنصور

شأة ابن أبي عامر

محمد بن أبي عامر هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وكان جدُّه عبد الملك المعافري من العرب الفاتحين الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد –رحمه الله، فنزل بالجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، واستقرَّ بها، وكان والد المنصور (عبد الله بن عامر) من أهل الدين والعفاف والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان، وقد مات في مدينة طَرَابُلُس الغرب وهو عائد من أداء فريضة الحج، وأمه هي بُرَيْهَة بنت يحيى من قبيلة بني تميم العربية المعروفة.

نشأ محمد بن أبي عامر في هذا البيت نشأة حسنة، وظهرت عليه النجابة منذ نعومة أظافره، وقد سار على خطى أهله وسَلَك سبيل القضاء؛ فتعلَّم الحديث والأدب، ثم سافر إلى قُرْطُبَة ليُكمل تعليمه.

ابن أبي عامر في قصر الخلافة

كان ابن أبي عامر ذا طموح كبير وهمة عالية وذكاء وقَّاد، وعمل كاتبًا للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم، الذي رأى من نبوغه ما جعله يوصي به عند الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وكان من تصاريف القدر أن وَلَدت صبح البشكنسية –جارية الخليفة الحكم المستنصر– ولدها الأول عبد الرحمن فطلب الحكم المستنصر وكيلاً لولده عبد الرحمن، يقوم على ولده

ويرعاه، فرشّح الحاجب المصحفي هذا الفتى النابه محمدَ بن أبي عامر لذلك، وأثنى عليه عند الحكم المستنصر، فولاه الحكم المستنصر وكالة ابنه عبد الرحمن بالفعل سنة (٣٥٦هـ).

وقد أعجب الحكم المستنصر بأخلاق محمد بن أبي عامر، وذكائه ونباهته وحُسن تصرُّفه، كما بهره هذا النبوغ العلمي الذي يحوزه ذلك الشاب، ولقد كان الحكم -كما سبق- عالمًا وخبيرًا بالأنساب ومؤرخًا، فلا شَكَّ أن هذا كان من أهم أسباب تقريبه لابن أبي عامر وحبِّه إيَّاه.

توفي عبد الرحمن طفلاً صغيرًا، ثم لم يلبث أن ولدت صبح ولدها الثاني هشامًا، فتولّى وكالته -أيضًا- ابن أبي عامر سنة (٣٥٩هـ)، ولم يلبث أن تدرَّج في المناصب العليا، فعُيِّنَ أمينًا لدار السكة، وكُلِّفَ بالنظر على الخزانة العامة وخُطة المواريث، ثم أصبح قاضيًا لإشْبِيلِيَة ولبلة، ثم عَيَّنه مديرًا للشرطة الوسطى، ثم ولاّه الأمانات بالعدوة، فاستصلحها واستمال أهلها، ثم عينه الحكم قاضي القضاة في بلاد الشمال الإفريقي، وأمر عماله وقوّاده هناك ألا يقطعوا أمرًا إلاّ بمشورته، ثم عينه الحكم المستنصر ناظرًا على الحشم وهو في مرض موته.

ومن المدهش في أمر محمد بن أبي عامر أنه لم يتولّ عملاً إلاّ وأداره ببراعة وكفاءة فاقت براعة سالفيه، رغم أنه دونهم في السنِّ والخبرة، وأنه كانت تزيد عليه المناصب والتكاليف فيستطيع أن يجمع بينها مهما اختلفت وتكاثرت ويُبْدي -بعد كل هذا- مهارة فائقة في الإدارة والتصرف، رغم أن الدولة كانت في عصرها الذهبي؛ أي أن الأعمال كانت في الغاية من التفنن والدقة، وتتطلب خبرة وإتقانًا.

وكان مما ساعد محمد بن أبي عامر على أن يصل إلى هذه المراتب العالية بهذه السرعة -بجانب هذه المواهب النادرة- أنه استطاع استمالة «صبح البشكنسية» أمِّ هشام المؤيد، وجارية الحكم المستنصر، بحُسن خدمته

لها ولابنها، وسعة بذله في الهدايا التي كان يُهديها دائمًا إليها، فأتاها بأشياء لم يُعهد مثلها؛ حتى لقد صاغ قصرًا من فضة وقت ولايته السكة، وصرف فيه مالاً جسيمًا، حتى جاء بديعًا، لم ترَ العيون أعجب منه ولا أحسن، ثم حُمل إليها من دار ابن أبي عامر؛ ليُشاهده الناس جميعًا، في مشهد لم يُعهد ولم يُرَ مثله من قبلُ.

على أن الحكم المستنصر لم يكن غائبًا عن هذا كله، فيُحكى أن الحكم المستنصر ظنَّ أن محمد بن أبي عامر يُتلف مال السكة (وزارة المالية) المؤتَمن عليه، فأمره الحكم بأن يُحضر المال الذي عنده ليراه بنفسه، ويتأكّد من كماله، ويُقال: إن ابن أبي عامر كان قد استهلك بعضًا من هذه الأموال؛ ولذلك ذهب إلى الوزير ابن حدير ليُسلفه المال الناقص -وكان صديقًا له- فأسلفه ابنُ حدير المال الناقص، فعرف الحكم أنه قد أساء به الظنَّ، وزاد إعجابُ الحكم بأمانة ابن أبي عامر وحُسن تدبيره، ورفع قدره عنده، وبمجرّد أن تأكّد الحكم من عدم نقصان المال، أعاد ابن أبي عامر إلى الوزير ابن حدير مالَه، وهو مع هذا كله يُحسن معاملة الحاجب (رئيس الوزراء) جعفر بن عثمان المصحفي ويُداريه، ويطلب منه دائمًا النصح والمشورة.

بعد وفاة الحكم المستنصر، وبعد القضاء على مؤامرة الصقالبة، ثم على قوة الصقالبة ونفوذهم في القصر، صفا الحال لحزب هشام بن الحكم المؤيد بالله، وهذا الحزب -كما سبق وقلنا- متمثِّل في الحاجب المصحفي، وأم الخليفة الصغير صبح البشكنسية، وهي الشخصية القوية في القصر، التي كانت أحب نساء الحكم إليه وأحظاهن عنده. ثم ابن أبي عامر الشخصية القوية التي تتولّى العديد من الأعمال، والتي يتكئ عليها جعفر المصحفي في كل عمل مهم، وهو كذلك متصل بصبح باعتباره كان وكيلاً لولدها هشام -الذي هو الخليفة الآن- ثم تولّى النظر على شئون الخاصة.

بين محمد بن أبي عامر وصبح البشكنسية

تذكر المصادر التاريخية أن حبًّا عظيمًا نشأ بين صبح وبين محمد بن أبي عامر، وأن هذا الحب كان ذا سهم كبير -بجانب كفاءة ابن أبي عامر- في ترقيه في مناصب الدولة، ثم في الأمور التي ستأتي فيما بعد، والحقُّ أن أمرًا كهذا لا يمكن القطع به على سبيل اليقين، وإن لم يكن مستبعدًا، فصبح شابَّة جارية كانت عند الخليفة الذي كان في مرحلة الكبر، بينما ابن أبي عامر شاب يشتعل ذكاء وحسنًا، ومقدرة على تصريف الأمور، ثم هو يتقرَّب إليها بين الحين والحين بالهدايا الفاخرة.

إلاّ أن كل هذا لا يدفعنا للتيقُّن من وجود هذا الحب، فضلاً عن أن ندخل فيما حرَّم الله -كما فعل البعض- فنتوقَّع ما وراء هذا مما يُجاوز الحلال إلى الحرام؛ ذلك أن كل ما حدث وما سيأتي يمكن أن يُفَسَّر في إطار المصلحة المشتركة؛ ابن أبي عامر لا عصبة له ولا عائلة يتكئ عليها، فلا بُدَّ له من وجود هشام في منصب الخليفة؛ ليبقى هو في مكانته من الدولة، وصبح جارية بشكنسية فلو لم يكن ولدها في منصب الخليفة لما كان لها شأن يُذْكَر، إلى جانب ما رُكِّب في الأمِّ من غريزة حب الولد، التي تجعلها تجاهد ما استطاعت ليكون ولدها هو الخليفة سيد البلاد.

ففي هذه اللحظة من تاريخ الأندلس كان في المشهد ثلاث شخصيات قوية: المصحفي الذي يتكئ على عصبته «المصحفيين»، وابن أبي عامر يتكئ على صبح والخليفة ومواهبه الفائقة، وصبح التي تتكئ على ولدها الخليفة وعلى ولاء محمد بن أبي عامر. ثم نُضيف إلى هؤلاء شخصية قوية رابعة ألا وهي شخصية فارس الأندلس الكبير وصاحب التاريخ الجهادي الزاهر غالب الناصري.

وكان غالب الناصري لا يحب المصحفي، ولا يراه أهلاً لأن يكون شيخَ الموالي دونه؛ ذلك أن المصحفي ليس له سابقة جهاد ولا تاريخ، كما أنه

معروف بالبخل، ولم يَترَقَّع في مناصب الدولة إلاّ لأنه كان -قديمًا- مُعلّمًا ومُرَبِّيًا للخليفة الحكم لَمَّا كان ولي العهد، فلمَّا تولى الحكم الخلافة عَهِدَ إليه بمنصب الحجابة.

هجمات النصارى على الأندلس

هجمات النصارى على الأندلسثم وقع بالأندلس حادث خطير؛ إذ ما أن علم نصارى الشمال بوفاة الحكم المستنصر، وجدوا الفرصة سانحة لنقض كلّ ما كان بينهم وبينه من عهود ومواثيق، وشرعوا يُهاجمون الثغور الإسلامية هجمات عنيفة، بغرض الثأر من المسلمين وإضعافهم؛ فلا يجدون فرصة لاستجماع قواهم من جديد، ولا يجد حاكمهم الجديد -أيضًا- الفرصة لتوطيد مُلكه؛ فيستطيع من بعدُ أن يُوَجِّه لهم الضربات العنيفة التي اعتادوها في عهد الحكام الأقوياء؛ ومن هنا فقد اشتدَّت هجمات نصارى الشمال على الثغور الإسلامية، بل وتخطّوها حتى كادت حملاتهم تصل إلى قُرْطُبَة عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس.

وكأنّ ضعف الخليفة الصغير قد انسحب على رجال الدولة جميعًا، فلم يُقدم أحد على كفاح النصارى وردِّهم، ولا يجدون أحدًا يتقدَّم لهم؛ فغالب الناصري في مدينة سالم -وهي إحدى الثغور- يقول بأنه لا يستطيع ترك المدينة؛ وإلاّ هوجمت. وبعضَ التحليلات تقول بأنه لم يشأ الخروج لملاقاة العدوِّ ليُخرِج المصحفي، ويُثَبِّت قدره ومكانته في الدولة.

والمصحفي متردد خائر الرأي، ليس له عزيمة، ولا يدري ماذا يفعل، وهو يجبن عن الخروج لملاقاة العدوِّ بل بلغ به الأمر -بالرغم من قوة الجيش الذي تركه الحكم المستنصر، ووفرة المال والسلاح والعتاد- أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سدِّ نهرهم؛ ظنًّا منه أن هذا قد يُنجيهم من ضربات النصارى المتلاحقة.

وهكذا بدت هذه الدولة القوية وكأنما ستعاني وتسقط جراء خلافات رجالها، وصغر سن خليفتها، وضعف وتردُّد حاجبها ومتولّي إدارتها.

وهنا.. نهض للأمر محمد بن أبي عامر، الذي أنِف من تصرُّف المصحفي، ووجد فيها إعلانًا بالضعف والصغار، وكأن البلاد قد خلت من الرجال، فلا يجدون رجلاً يقود الجيوش القوية الموجودة بالفعل، فيلجئون إلى هذه الخطة الدفاعية الذليلة التي تضرُّ، وقد لا تنفع، فعرض محمد بن أبي عامر على الحاجب جعفر المصحفي أن يقوم بتجهيز الجيش للجهاد في سبيل الله، ولكن لم يجد المصحفي رجلاً يقود الجيش، فلقد جبنوا، فضلاً عن استحالة أن يقوم هو بنفسه بقيادة الجيش؛ فليست له خبرة بالجهاد من قبل، فبادر لهذه القيادة ابن أبي عامر، وقام باختيار مَنْ يخرج معه من الرجال، واحتاج في تجهيزه للجيش لمائة ألف دينار، فاستكثر ذلك بعض الحاضرين، فقال له ابن أبي عامر: «خُذْ ضِعْفَها، وامض! وليحسنْ غَنَاؤُك». فبُهت المعترض وسكت.

بروز نجم محمد بن أبي عامر

استعدَّ ابن أبي عامر لهذه الغزوة أفضل استعداد، وقاد الجند، وأخذ معه المال، وسار في رجب سنة (٣٦٦هـ) إلى الشمال، وهرب من أمامه جيش النصاري، ثم استطاع الاستيلاء على حصن الحامة وربضه، وعاد إلى قُرْطُبَة بعد اثنين وخمسين يومًا من خروجه إلى الغزو محملاً بالسبي والغنائم، ففرح الناس بذلك فرحًا عظيمًا، وزاد حبُّهم وتقديرهم له؛ إذ استطاع بشجاعته وإقدامه رفع الذلِّ والعار عنهم، وكذلك أحبه الجنود الذين كانوا معه؛ لِمَا رأوا من كثرة جوده، وكرم عشرته، وشجاعته في الحرب، فأحبوه والتفُّوا حوله، وزاد هو إحسانًا إليهم.

وهكذا انتهت الغزوة الأولى لصالح المسلمين عامة، ولصالح ابن أبي عامر خاصة، ولم تفتر همة ابن أبي عامر بعد هذه الغزوة؛ بل سارع بهمة عالية إلى استغلال آثارها على كافّة المستويات، وكانت هجمات النصارى التي

تتابعت على الأندلس عقب موت الحكم، وسكوت غالب عن مواجهتها قد أضعفت مركز غالب بن عبد الرحمن وقَلَّلَتْ من شأنه.

محمد بن أبي عامر وغالب الناصري

عرف ابن أبي عامر ما في نفس غالب من العداوة للمصحفي، وبأنه يرى نفسه فوقه، ويُغضبه أن يكون المصحفي في الحجابة وفي مراتب الدولة، وهو الذي بلا تاريخ ولا سابقة، فسعى ابن أبي عامر للدفاع عن غالب عند الخليفة الصغير وأُمِّه، فرُفع بذلك قدره، وأُعطيَ لقب ذي الوزارتين، وأصبح هو وابن أبي عامر المسئولَيْنِ عن الإعداد للصوائف؛ فهو المسئول عن جيش الثغر، وابن أبي عامر المسئول عن جيش الحضرة (أي الجيش المكلف بالدفاع عن قُرْطُبَة)، وفي عيد الفطر من العام نفسه (٣٦٦هـ) اتجه ابن أبي عامر بالجيش إلى الشمال، واجتمع ابن أبي عامر بغالب بن عبد الرحمن في مدينة مجريط (مدريد الآن)، واتجها بالجيش إلى قشتالة، وفتحا حصن مُولَة، وغنموا وسبوا كثيرًا، وكان غالب ورجاله قد أبلوا أحسن البلاء، حتى كانوا سببًا في هذا الفتح.

وكان غالب قد أحب ابن أبي عامر لما رآه من مواهبه، أو لما رأى من سعيه للدفاع عنه ورَفْع قدره عند الخليفة وأمه، ودوره في أن يُلَقَّب بذي الوزارتين، أو لما كان من العداوة بينه وبين للمصحفي؛ فمن ثَمَّ رأى أن ابن أبي عامر أحق بالحجابة من المصحفي.

أيًّا ما كان الأمر، لسبب مما سبق أو لكل هذه الأسباب معًا، فلقد توطَّدت العلاقة بين غالب الناصري ومحمد بن أبي عامر، إلى الحدِّ الذي تنازل فيه غالب عمَّا أبلاه وجنوده في الفتح، فنُسب ذلك كله إلى ابن أبي عامر، فأرسل الرسائل إلى قُرْطُبَة تُشيد بما كان منه ومن بطولته وجهاده، وعظم الفتح الذي تمَّ على يديه، ثم اتفقا على عزل المصحفي، ذلك الحاجب الضعيف المتردِّدِ الرأي، وقال غالب لمحمد بن أبي عامر: «سيظهر لك بهذا

الفتح اسم عظيم وذِكْر جليل، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تُحدثه من قصة، فإيَّاك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه!»؛ لأن ابن جعفر المصحفي كان متوليًا لقُرْطُبَة العاصمة، وعَزْل هذا الوالي أول طريق عزل المصحفي عن الحجابة.

عاد ابن أبي عامر إلى قُرْطُبَة ومعه الغنائم والسبي، فاستمال بهذا الفتح الكبيرِ العامةَ والخاصةَ، وعَرفوا فيه حُسن النقيبة، وبُعد الهمة، فما كاد يصل ابن أبي عامر إلى قُرْطُبَة حتى أمر الخليفة في اليوم نفسه بعزل محمد بن جعفر المصحفي عن مدينة قُرْطُبَة، وتولية ابن أبي عامر المدينة، فأظهر ابن أبي عامر في حُكم المدينة كفاءة منقطعة النظير؛ حتى إن ابن عذاري المراكشي يصف ما قام به بالنسبة إلى فعل ابن المصحفي فيقول: «فضبط محمد المدينة ضبطًا أنسى أهل الحضرة (أي قُرْطُبَة) مَنْ سلف من أفراد الكُفَاة وأُولي السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويُكابدون من روعات طُرَّاقه ما لا يُكابد أهل الثغور من العدوِّ. فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته، وتنزُّهه عما كان يُنسب لابن جعفر؛ فسدَّ باب الشفاعات، وقمع أهلِ الفسق والذعارات، حتى ارتفع البأس، وأمِنَ الناس، وأمنت عادية المتجرِّمين من حاشية السلطان؛ حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلاجة؛ فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلدًا مبرحًا كان فيه حمامه؛ فانقمع الشرُّ في أيامه جملة».

ولما رأى الحاجب جعفر المصحفي ما آل إليه أمر ابن أبي عامر من القوة، وما بدا من تضعضع قوته وانحسار نفوذه، بادر إلى استمالة غالب، فخطب ابنة غالب لابنه، وما أن علم ابن أبي عامر بالأمر، حتى أرسل إلى غالب يُناشده العهد، ويخطب ابنة غالب لنفسه، وسانده في ذلك أهل دار الخلافة، فخرج طلب خطبة أسماء إلى ابن أبي عامر من قصر الخلافة في الزهراء، وبهذا كان الميزان كله في صالح ابن أبي عامر، فوافق غالب على تزويج ابنته أسماء له، وتم عقد القران بالفعل في المحرم سنة (٣٦٧هـ)،

وعندها أيقن المصحفي بالنكبة، وكفّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شــيء، وانفضّ الناس عن المصحفي، وأقبلوا على ابن أبــي عــامر إلــى أن صــار المصحفي يغدو إلى قصر قُرْطُبَة ويروح وهو وحده وليس بيده من الحجابــة سوى اسمها.

نهاية جعفر المصحفي

وبعد أن تمّ عقد قران ابن أبي عامر على أسماء ابنة غالب، خرج ابن أبي عامر في غزوته الثالثة، فخرج إلى طليطلة في غرّة صــفر ٣٦٧هـــ، واجتمع مع صهره غالب، ونهضا معًا إلى الشمال النصراني، فافتتحا حــصن العال، وحصن زنبق، ودخلا مدينة شلمنقة، واستولوا على أرباضها، ثم عــاد ابن أبي عامر بالغنائم والسبي، وبعدد كبير من رءوس النصارى، بعد أربعــة وثلاثين يومًا من خروجه، فزادت حفاوة الخليفة به، وقلده خُطّــة الــوزارتين للتسوية بينه وبين صهره، ورفع راتبه إلى ثمانين دينارًا فــي الــشهر، وهــو راتب الحجابة في ذلك الوقت، ثم زُفت أسماء بنت غالب إلى محمد بــن أبــي عامر في ليلة النيروز من قصر الخليفة في عرس لا مثيل له في الأندلس، ثم قلّده الخليفة خُطّة الحجابة إلى جانب جعفر المصحفي، ثم تغيّر الخليفــةُ علــى جعفر وسخط عليه، وأمر بعزله هو وأولاده وأقاربه عن أعمالهم في الدولــة، والقبض عليهم، فسارع محمد بن أبي عامر إلى محاسبتهم حتى استصفى كــل أموالهم، ومزّقهم كل ممزق، وأيقن جعفر المصحفي بأنــه هالــك لا محالــة، فحاول استرضاء ابن أبي عامر إلاّ أن ذلك لم يُجْدِ شيئًا، حتــى تــوفي ســنة (٣٧٢هـــ) في سجنه، وقيل: قُتل. وقيل: دست إليه شربة فيها سُمّ.

ويُعلِّق ابن حيان على ما آل إليه أمر جعفر المصحفي فيقول: «وكانت لله عند جعفر في إيثاره هشامًا بخلافته، واتباع شــهوة نفــسه وحــظِّ دنيــاه، وتسرُّعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة، دون قصاص جريــرة اســتدركته دون إملاء، فسُلط عليه مَنْ كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه»

الدولة العامرية (٣٦٦-٣٩٩هـ= ٩٧٦-١٠٠٩م)

محمد بن أبي عامر استقرَّ الأمر لمحمد بن أبي عامر؛ فلقد أضحى الحاكم الفعلي لبلاد الأندلس؛ فهو الحاجب القوي، الذي يسوس البلاد والعباد، ويغزو صيفًا وشتاءً فينتصر في كل معاركه مع النصارى، بينما الخليفة الذي كان صغيرًا يكبر على مهل، ولا يدري من حالّ مملكته شيئًا.

وقبض الحاجب محمد بن أبي عامر على أَزِمَّة السلطان في الدولة، وصار إليه الأمر والنهي والتولية والعزل، وإخراج الجيوش للجهاد، وتوقيع المصالحات والمعاهدات، حتى عُرِفَ ذلك العهد بعهد الدولة العامرية.

والدولة العامرية هي ذروة تاريخ الأندلس، وأقوى فتراتها على الإطلاق، ففيه بلغت الدولة الإسلامية الغاية في القوَّة، فيما بلغت الممالك النصرانية أمامها الغاية من الضعف، وقد بدأت فترة هذه الدولة فعليًّا منذ سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م)، منذ أن تولى محمد بن أبي عامر أمر الوصاية على هشام بن الحكم، وظلّت حتى سنة (٣٩٩هـ= ١٠٠٩م)؛ أي: أنها استمرّت ثلاثًا وثلاثين سنة متصلة، وتُعَدُّ الدولة العامرية مندرجة في فترة الخلافة الأموية؛ لأن الخليفة ما زال قائمًا، وإن كان مجرَّد صورة.

ابن أبي عامر وتوطيد حكمه

من الأهمية بمكان -ونحن نناقش فترة محمد بن أبي عامر- أن نتذكر أنه بلا عصبة، أي ليست وراءه عائلة يتقوى بها، وتتعصب له على نحو ما كان مهيًّأ للعائلات الكبيرة؛ كبني أمية وبني العباس في المشرق، وغيرهم من العائلات الأقل، ولنتذكر أن عامل «العصبية» هذا هو الذي كان يحكم كل العالم إلى ما قبل أن تنشأ الجمهوريات الحديثة، فكان لا بُدَّ للملك أو الحاكم أن تكون له عصبة ترفعه وتحميه ويتكئ عليها.

وحين دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس استفاد من تناحر العصبيات العربية الكائنة فيها، فحاول التحالف مع القيسية، ثم تحالف مع اليمنية وبهم انتصر، ولقد كان الداخل بعيد النظر حين علم أنه إن أراد إقامة دولة للإسلام فلا بُدَّ له من أن يقضي على العصبيات، وأن يتخذ لنفسه رجالاً لا عصبية لهم، فأكثر -رحمه الله- من اتخاذ الموالي، الذين صار لهم الشأن الأكبر في عهد الإمارة الأموية، بينما تراجعت رجالات العرب، وابتعدت عنهم المناصب، وصاروا في الدولة في مكانة تشريفية؛ يحضرون المجالس ويُقَدَّمون في المناسبات، وما إلى ذلك.

وكذلك -أيضًا- فعل عبد الرحمن الناصر؛ فلقد أكثر من الاعتماد على البربر الذين عبروا إلى الأندلس من عدوة المغرب، ونستطيع أن نقول بأن نجاح الدولة الأندلسية كان من أهم أسبابه اختفاء العرب ذوي العصبيات من مناصب الحكم.

وكذلك فعل ابن أبي عامر؛ فلقد كان البربر عُدَّته ورجاله، ولقد استكثر منهم، وضمهم إليه واستقوى بهم، وكان ابن أبي عامر قد تولى قضاء عدوة المغرب في أيام الحكم المستنصر، وساهم بذكائه وحسن سياسته في جعل أهم قبائل البربر المغربية -وهم بني برزال، وزعيمهم جعفر بن حمدون- يتخلَّوْن عن تحالفهم مع العبيديين (الفاطميين)، وينحازون بالولاء إلى قُرْطُبَة عاصمة الأمويين، وكان من نتائج هذا أن فقد العبيديين (الدولة الفاطمية) المغرب الذي خلص من بعد للأمويين.

فالآن نحن أمام رجل ذكي موهوب، حسن السياسة، يتولّى حكم الأندلس فعليًّا باسم الخليفة الغلام هشام المؤيد بالله، وصحيح أن الأندلس قد خلت من الرجال الأقوياء، الذين يبلغون منافسته في الحكم -اللهم إلا فارس الأندلس العظيم غالبًا الناصري، وهو صهره الآن وعلاقتهما طيبة وبينهما تحالف- إلاّ أن هذه السياسة تجعله في خطر من بني أمية، الذين يرون الملك

باسمهم، ولكن فعليًّا ليس بأيديهم، وكذلك المصحفيين الذين نُكبوا وزالت سطوتهم بزوال الحاجب جعفر المصحفي.

وبعد قليل سيظهر في الأفق خصم شديد الخطر عظيم الذكاء، إنها صبح، أُمّ الخليفة هشام، والتي سترى أن الخلافة تخرج من بين يدي ولدها، وأن ابن أبي عامر يُسيطر بنفسه على الأمور.

مدينة الزاهرة

مدينة الزاهرةكما أنشأ عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- مدينة الزهراء في الشمال الغربي من مدينة قُرْطُبَة؛ لتكون مركزًا لخلافته، قام محمد بن أبي عامر بإنشاء مدينة ملوكية جديدة في شرقْ قُرْطُبَة سمّاها مدينة الزاهرة أو مدينة العامرية، بدأ في بنائها عام (٣٦٨هـ)، وانتقل إليها بعد اكتمال بنائها في (٣٧٠هـ)، نقل إليها الوزارات ودواوين الحُكم، وأنشأ له قصرًا كبيرًا هناك، حتى أصبحت مدينة الزاهرة أو مدينة العامرية هي المدينة الأساسية في الأندلس وبها قصر الحُكم.

وكان إنشاء هذه المدينة يُحَقِّق هدفين مهمين؛ الأول: هو الابتعاد عن مناطق الخطر والمؤامرات حيث مواطن الأموَيين، وحيث قصر الخليفة وأمه، ومن غير المأمون أن تُدبَّر عليه مؤامرة بيد الأمويين أو مواليهم أو بعض فتيان القصر. والثاني: هو ترسيخ وتثبيت شأنه في الدولة، وخطوة على طريق الانفراد بشئون الدولة وإدارتها.

قدوم جعفر بن حمدون

استدعى ابن أبي عامر (في عام ٣٧٠ هـ) فارس المغرب وزعيم بني برزال جعفر بن حمدون، وقد ذكرنا أنه قد كانت بينهما صلة قديمة منذ كان ابن أبي عامر قاضيًا في المغرب، فنزل جعفر إلى الأندلس وقربه ابن أبي عامر ورفع من قدره، ولا شَكَّ أن في هذه الخطوة تقوية لمركز وقوة ابن أبي عامر، فجعفر فارس كبير وشخصية قوية، ثم هو زعيم البربر الذين سيزداد

ولاؤهم لابن أبي عامر بنزول زعيم منهم في كنفه، وأن يصير من رجال الدولة وفرسانها.

إلاّ أن هذا النزول وهذه النتائج لم تكن بالتي تغيب عن ذهن فارس الأندلس غالب الناصري، والذي رأى في وجود جعفر منافسة له، بل وربما تحديًا، يُثبت أن الدولة تستطيع الاستغناء عنه بغيره، وأنه لم يَعُدِ الوحيد المختص بجهاد العدوِّ، ولم يَعُد الدِّعامة التي يُستند إليها في مهمات الحرب الجليلة.

ولا شَكَّ أن ابن أبي عامر استفاد من درس الماضي القريب؛ حين كان المصحفي في الحجابة؛ وثار العدو بثغور الأندلس فلم ينهض إليهم غالب لإحراج المصحفي ولإثبات مكانته من الدولة، فأحب أن يتجنّب تكرار هذه الأزمة، وتورد بعض الروايات أن غالبًا كان بالفعل «يستطيل على ابن أبي عامر بأسباب الفروسية، ويُباينه بمعاني الشجاعة، ويعلوه من هذه الجهة التي لم يتقدَّم لابن أبي عامر بها معرفة».

ومن ثَمَّ ساء الجوُّ بين غالب وابن أبي عامر.. ووقع الحدث الخطير، وهو تمرد غالب الناصري.

تمرد غالب الناصري

خرج المنصور إلى غزوة من غزواته في الصوائف إلى قشتالة، فدعاه غالب الناصري إلى وليمة أقامها بمدينة «أنتيسة» وعزم عليه في حضورها، ولما ذهب ابن أبي عامر جرى بينهما نقاش واحتدّ حتى «سبَّه غالب وقال له: يا كلب؛ أنت الذي أفسدت الدولة، وخربت القلاع، وتحكمت في الدولة. وسل سيفه فضربه». ولولا أن أحد الحاضرين أعاق يده فانحرفت ضربة السيف لكانت الضربة قد قتلت ابن أبي عامر، ولكن أصابته بشجٍّ في رأسه.

ولحسن حظِّه استطاع ابن أبي عامر أنْ يُلقي بنفسه من فوق القلعة، وأن ينجو من هذا المأزق الخطير بما فيه من إصابات، ثم عاد إلى قُرْطُبَة وقد استُعلنت بينهما العداوة.

جهز ابن أبي عامر جيشًا من قُرْطُبَة ثم سار به إلى ملاقاة غالب الناصري، وهنا وقع الفارس العظيم في خطأ قاتل، كان أسوأ خاتمة لحياة اتصلت ثمانين عامًا حافلة بالجهاد، لقد اتصل غالب الناصري براميرو الثالث ملك ليون، وطلب منه النجدة ضد جيش قُرْطُبَة، فأمده راميرو بجزء من جنده.

ويستطيع المرء أن يتخيَّل السعادة التي حازها راميرو حينما يجد الفارس الكبير الذي أذله وبلاده كثيرًا في موقف المستنجد به، ولعلَّه أمَّل في أن يكون هذا بداية تحالف طويل بينهما.

نهاية غالب الناصري

التقى الجيشان؛ جيش قُرْطُبَة يقوده ابن أبي عامر في القلب وعلى الميمنة فارس المغرب -الذي صار فارس المغرب والأندلس- جعفر بن حمدون، وعلى الميسرة الوزير أحمد بن حزم (والد الإمام الكبير ابن حزم) وغيره من الرؤساء، أمام جيش غالب الناصري ومعه جيش ليون.

ومع أن غالبًا الناصري كان قد بلغ الثمانين إلاّ أنه هجم على الميمنة فغلبها ومزَّقها، ثم عاد وهجم على الميسرة فغلبها ومزَّقها، وما هو إلاّ أن واجه القلب، وفيه ابن أبي عامر. وإنه من المثير حقًّا أن نشاهد هذا اللقاء بين الرجلين اللذين لم يُهزما حتى الآن، واللذين ستكون هزيمة أحدهما هي الأولى -وربما الأخيرة- في حياته، فيختم بها سجل تاريخه.

رفع غالب صوته قائلاً: «اللهم إن كنتُ أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره». ثم حدثْ أعجب ما يمكن أن يُتصور في هذا الموقف، ولولا أنه وصل إلينا من رواية صحيحة ثابتة لما صدقه أحد من المؤرخين، لقد مشى غالب بفرسه إلى خارج الجيشين، فَظَنَّ

الناس أنه يُريد الخلاء، ثم طال غيابه، فذهب بعض جنوده للبحث عنه فوجدوه ميتًا بلا أثر ولا ضربة ولا رمية، فعادوا بالبشرى إلى ابن أبي عامر.

وأراد الله أن يموت الرجلان ولم ينهزم أحدهما، ولعلّه استجاب إلى دعاء غالب، فأبقى للمسلمين مَنْ هو أصلح لهم، إلاّ أن هذا الحادث المفاجئ أسفر عن تطور لم يتوقّعه أحد؛ إذ انحاز جيش غالب المسلم إلى جيش قُرْطُبَة فوقع جيش ليون في المأزق الكبير!

بقي أن نذكر –قبل أن نتجاوز قصة تمرُّد غالب الناصري– أن بعض المؤرخين يتوقّع أن من أسباب تمرُّد غالب الناصري ما قد يكون تحريضًا من صبح أم الخليفة الفتى، التي بدأت ترى أن الملك يذهب من بين يدي ولدها.

غزو الممالك النصرانية

استدار جيش ابن أبي عامر –الذي انحاز إليه جيش غالب– ليواجها جيش ليون، لتبدأ غزوات الممالك النصرانية، التي استمرّت بعدئذ سبعة وعشرين عامًا، وانتهت جميعها بالظفر للمسلمين.

قصد ابن أبي عامر إلى مدينة سمورة –التابعة لمملكة ليون– ليُعاقب ملكها راميرو الثالث، وحاصرها واستولى على ما حولها، وفرت أمامه الجيوش، حتى طلب راميرو المساعدة من غرسية صاحب قشتالة، وسانشو ملك نافار، وعقدوا تحالفًا ثلاثيًّا، وسارت الجيوش المتحالفة إلى لقاء جيش المسلمين فهُزموا شرَّ هزيمة، ثم زحف الجيش الإسلامي في خطوة بالغة الشجاعة إلى مدينة ليون عاصمة المملكة، ووصلوا فعلاً إلى أبوابها، إلاّ أن نزول الشتاء والثلوج دفعا بالجيش إلى الرجوع دون إكمال فتح المدينة، فعاد الجيش إلى قُرْطُبَة، وكان ابن أبي عامر يحمل معه مفاجأة:

الحاجب المنصور

بعد عودة الجيش الإسلامي إلى قُرْطُبَة مكللا بهذا الظفر الكبير؛ القضاء على تمرُّد غالب الناصري، ثم هزيمة جيش ليون، ثم هزيمة جيوش

النصارى المتحالفة، ثم الوصول إلى أبواب ليون، قام محمد بن أبي عامر (في سنة ٣٧١هـ=٩٨٢م) باتخاذ لقب ملوكي، فلقّب نفسه بالحاجب المنصور، وقد كانت الألقاب من قبلُ عادة الخلفاء، ثم أصبح يُدعى له على المنابر مع الخليفة هشام بن الحكم، ثم نُقش اسمه على النقود وعلى الكُتب والرسائل.

ومن ذلك التاريخ عُرِف محمد بن أبي عامر بهذا اللقب: الحاجب المنصور (Al manzor).

كان عهد المنصور بن أبي عامر في الذروة من القوة والكفاءة، فعلى المستوى الخارجي جهاد دائم، يخرج المنصور مرتين في العام فينتصر، وعلى المستوى الداخلي فاض الأمن والرخاء، وبلغت الحضارة والمدنية آفاقها السامقة.

وكانت الدولة العامرية تحت السلطان الكامل للحاجب المنصور، ويختفي تمامًا ذكر الخليفة هشام، الذي ظلّ حبيس قصره الفاخر في الزاهرة، لا يتولّى من أمر الملك شيئًا؛ لذا تختلف الروايات التاريخية إلى حدِّ التضارب في حاله ؛ فمن رواياتٍ تذكر أنه كان منصرفًا للعبادة مقبلاً على العلم كثير الإنفاق على المحتاجين، إلى رواياتٍ أخرى تقوّل بأنه كان منصرفًا إلى اللهو والعبث ومجالسة الجواري والاهتمام بالتفاهات، إلى روايات أخرى تصفه بالذكاء والحكمة والمروءة، إلاّ أنه كان مغلوبًا على أمره، ليس بيده شيء يمكنه به استرجاع ملكه في ظلِّ السيطرة الكاملة والشاملة للمنصور على مقادير الأمور.

بعد التمهيدات السابقة وفي الطريق نحو عهد جديد قام المنصور بن أبي عامر في سنة (٣٨١هـ=٩٩١م) بأمر لم يُعهد من قَبْلُ في تاريخ الأندلس؛ بل في تاريخ المسلمين، حيث عهد بالحجابة من بعده لابنه عبد الملك بن المنصور، وكان المشهور والمتعارف عليه أن يكون العهد بالخلافة، وأن يكون

من الخليفة نفسه، ثم بعد خمس سنوات أي في سنة (٣٨٦هـ= ٩٩٦م) اتخذ لنفسه لقب الملك الكريم

المنصور ابن أبي عامر

تولّى محمد بن أبي عامر الحُكم منذ سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) وحتى وفاته -رحمه الله- في سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠٢م)، وقد قضى هذه المدّة في جهاد دائم لا ينقطع مع ممالك النصارى في الشمال، مع حسن إدارة وسياسة على المستوى الداخلي، حتى صارت الأندلس في عهده في ذروة مجدها.

غزوات المنصور ابن أبي عامر

غزوات المنصور ابن أبي عامرغزا محمد بن أبي عامر في حياته أربعًا وخمسين غزوة، لم يُهزم أبدًا في واحدة منها، بل كان الأغرب من ذلك هو أن يصل في فتوحاته إلى أماكن في مملكة ليون وفي بلاد النصارى لم يصل إليها أحدٌ من قبلُ، بل لم يصل إليها الفاتحون الأوائل؛ مثل: موسى بن نصير وطارق بن زياد، فقد وصل الحاجب المنصور إلى منطقة الصخرة؛ تلك المنطقة التي لم تُفتح من قِبَل المسلمين من قبلُ، واستطاع -رحمه الله- أن يغزو النصارى في عقر دارهم، وها هو ذا قد وصل إلى خليج بسكاي والمحيط الأطلسي في الشمال، وفي كل هذه الغزوات لم تنكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أُصيب له بعث، ولا هلكت سرية.

وكان من المتعارف عليه قبل ذلك أن الجهاد في الصوائف فقط، إلاّ أن الحاجب المنصور كانت له في كل عام مرتان يخرج فيهما للجهاد في سبيل الله، عُرفت هاتان المرتان باسم الصوائف والشواتي.

غزوة شانت يعقوب

كانت أعظم هذه الغزوات قاطبة غزوة «شانت ياقب»، وشانت ياقب هو النطق العربي في ذلك الوقت لـ «سانت يعقوب» أي القديس يعقوب، وكانت هذه المدينة في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي

منطقة على بعدها الشديد عن أهل الأندلس في ذلك الوقت كانت شديدة الوعورة؛ ولذلك لم يصل إليها فاتح مسلم قبل المنصور بن أبي عامر، هذا بالإضافة إلى أن هذه المدينة على وجه التحديد كانت مدينة مقدسة عند النصارى، فكانوا يأتونها من مختلف بقاع الأرض ليزوروا قبر هذا القديس؛ حتى إن ابن عذاري المراكشي قال: إنها «أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكَبيرة، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا؛ فبها يحلفون، وإليها يحجون سن أقصى بلاد رومة وما وراءها».

وكان ملوك نصارى الشمال كلما هاجم ابن أبي عامر عواصمهم فروا إلى هذه المنطقة القاصية الوعرة؛ يحتمون فيها من بأس المسلمين؛ ولهذا قرَّر ابن أبي عامر أن يذهب إلى هذه المدينة، وأن يحطم أسوارها وحصونها؛ وليُعْلِمَ هؤلاء أن ليس في شبه الجزيرة كلها مكان يمكنهم أن يحتموا فيه من بطش ابن أبي عامر.

وقصة هذه المدينة هي ما يُقال عن يعقوب صاحب هذا القبر، من أنه كان أحد حواريِّي سيدنا عيسى ابن مريم الاثني عشر، وأنه كان أقربهم إليه؛ حتى سموه أخاه للزومه إيَّاه، فكانوا يُسَمُّونه أخا الرب -تعالى الله عمَّا يصفون علوًّا كبيرًا- ومنهم مَنْ يزعم أنه ابن يوسف النجار، وتقول الأسطورة أن صاحب هذا القبر كان أسقف بيت المقدس، وأنه جاب الأرض داعيًا إلى عقيدته حتى وصل إلى تلك الأرض البعيدة، ثم إنه عاد إلى أرض الشام، وقُتل بها، فلما مات نقل أصحابه رفاته إلى آخر مكان بلغه في رحلته الدعوية.

وفي صائفة سنة (٣٧٨هـ) -وهي غزوته الثامنة والأربعون- قاد ابن أبي عامر قواته متجهًا بها نحو الشمال قاصدًا شانت ياقب، وفي الوقت نفسه بدأ الأسطول الأندلسي الذي أعده المنصور لهذه الغزوة تحرُّكَه من الموضع المعروف بقصر أبي دانس غربي الأندلس، وفي الطريق انضم إلى المنصور ابن أبي عامر عدد كبير من أمراء نصارى الإسبان؛ نزولاً على ما بينه وبينهم

من معاهدات تُوجب عليهم أن يشتركوا معه في المعارك، ثم اتجه إلى شانت ياقب مخترقًا الطرق الجبلية الوعرة، حتى وصل إلى هذه المدينة، بعد فتح كل الحصون والبلاد التي في طريقه، وغنم منها وسبى، ثم وصل ابن أبيَ عامر إلى مدينة شانت ياقب ولم يجد فيها إلاّ راهبًا بجوار قبر القديس يعقوب، فسأله عن سبب بقائه، فقال: أؤانس يعقوب. فأمر بتركه وعدم المساس به، وأمر بتخريب حصون هذه المدينة وأسوارها وقلاعها، وأمر بعدم المساس بقبر القديس يعقوب، ثم تعمق حتى وصل إلى ساحل المحيط دون أن يقف أمامه شيء، وكرَّ راجعًا، بعدما أنعم على مَنْ كان معه من أمراء النصارى بالمال والكساء كلٍّ على حسب قدره، ثم كتب إلى المسلمين يُبَشِّرهم بالفتح.

صور من جهاد المنصور ابن أبي عامر

يسير جيشا جرارا لإنقاذ نسوة ثلاث

جاء عن الحاجب المنصور في سيرة حروبه أنه سَيَّر جيشًا كاملاً لإنقاذ ثلاث من نساء المسلمين كنَّ أسيرات لدى مملكة نافار؛ ذلك أنه كان بينه وبين مملكة نافار عهد، وكانوا يدفعون له الجزية، وكان من شروط هذا العهد ألاّ يأسروا أحدًا من المسلمين أو يستبقوهم في بلادهم، فحدث ذات مرَّة أن ذهب رسول من رسل الحاجب المنصور إلى مملكة نافار، وهناك وبعد أن أدَّى الرسالة إلى ملك نافار أقاموا له جولة، وفي أثناء هذه الجولة وجد ثلاث نسوة من نساء المسلمين في إحدى كنائسهم فتعجَّب لوجودهن، وحين سألهن عن ذلك قلن له: إنهن أسيرات في ذلك المكان.

وهنا غضب رسول المنصور غضبًا شديدًا، وعاد إلى الحاجب المنصور وأبلغه الأمر، فما كان من المنصور إلاّ أن سيَّر جيشًا جرارًا لإنقاذ النسوة، وحين وصل الجيش إلى بلاد نافار دُهش ملك نافار، وقال: نحن لا نعلم لماذا جئتم، وقد كانت بيننا وبينكم معاهدة على ألاّ نتقاتل، ونحن ندفع لكم الجزية. وبعزَّة نفس في غَيْرِ كبرٍ ردُّوا عليه: إنكم خالفتم عهدكم، واحتجزتم

عندكم أسيرات مسلمات. فقالوا: لا نعلم بهن. فذهب الرسول إلى الكنيسة وأخرج النسوة الثلاث، فقال ملك نافار: إن هؤلاء النسوة لا نعرف بهن؛ فقد أسرهن جندي من الجنود وقد تمَّ عقاب هذا الجندي. ثم أرسل برسالة إلى الحاجب المنصور يعتذر فيها اعتذارًا كبيرًا، ويخبره بأنه قد هدم هذه الكنيسة، فعاد الحاجب المنصور إلى بلده ومعه النسوة الثلاث.

يقطع النصارى عليه الطريق، فيملي شروطه عليهم

ومما ذُكر عن الحاجب المنصور -أيضًا- أنه -رحمه الله- وهو في جهاده لفتح بلاد النصارى كان قد عبر مضيقًا في الشمال بين جبلين، ونكاية فيه فقد نصب له النصارى كمينًا كبيرًا، فتركوه حتى عبر بكل جيشه، وحين همَّ بالرجوع وجد طريق العودة قد قُطع عليه، ووجد المضيق وقد أُغلق تمامًا بالجنود.فما كان من أمر الحاجب المنصور إلاَّ أن عاد مرَّة أخرى إلى الشمال واحتلَّ مدينة من مدن النصارى هناك، ثم أخرج أهلها منها وعسكر هو فيها، ووزَّع ديارها على جنده، وتحصَّن وعاش فيها فترة، ثم اتخذها مركزًا له يقود منه سير العمليات العسكرية، فأخذ يُرسل منها السرايا إلى أطراف ممالك النصارى، ويأخذ الغنائم ويقتل المقاتلين من الرجال، ثم يأتي بهؤلاء المقاتلين ويرمي بجثثهم على المضيق الذي احتلَّه النصارى ومنعوه من العودة منه.

وهنا ضجَّ النصارى وذهبوا مغاضبين إلى قوَّادهم يعرضون عليهم أن يفتحوا له الباب؛ حتى يعود إلى بلده مرَّة أخرى، أو يجدوا حلاً لهم في هذا الرجل، فاستجابوا لهم وعرضوا على الحاجب المنصور أن يُخلُّوا بينه وبين طريق العودة ويعود من حيث أتى، فما كان من المنصور إلاّ أن رفض هذا العرض، وردَّ عليهم متهكِّمًا أنه كان يأتي إليهم كل عام مرتين صيفًا وشتاءً، وأنه يريد هذه المرَّة أن يمكث بقية العام حتى يأتي موعد المرَّة الثانية، فيقوم بالصوائف والشواتي من مركزه في هذه البلاد بدلاً من الذهاب إلى قُرْطُبَة ثم العودة منها ثانية.

لم يكن مفرٌّ أمام النصارى سوى أن يطلبوا منه الرجوع إلى بلده ومالوا إلى السلم، فراسلوه في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده، فقال: أنا عازم على المقام. فتركوا له الغنائم، فلم يجبهم إلى الصلح، فبذلوا له مالاً ودوابَّ تحمل له ما غنمه من بلادهم، فأجابهم إلى الصلح، وفتحوا له الدرب.

يجمع ما علق على ثيابه من غبار ليدفن معه في قبره

مقتديًا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «... وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ». فكان من عادة الحاجب المنصور -رحمه الله- في جهاده وبعد كل معركة أن ينفض ثوبه، ويأخذ ما يخرج منه من غبار ويضعه في قارورة، ثم أمر في نهاية حياته أن تُدفن معه هذه القارورة؛ وذلك حتى تشهد له يوم القيامة بجهاده ضد النصارى.

ولقد كان من أهم مميزات جهاد الحاجب المنصور أنه كان يبدأ بالهجوم، ويحاول إجهاض المؤامرات في مهدها، ولا ينتظر للدفاع مثلما كان حال مَنْ سبقه.

حضارة الأندلس في عهد الحاجب المنصور

مسجد قرطبة من الجوانب الوضَّاءة في حياة ابن أبي عامر أو الحاجب المنصور -أيضًا- اهتمامه الكبير بالجانب المادي والحضاري في البلاد؛ فقد أسَّس مدينة الزاهرة على أحسن ما يكون -كما ذكرنا- وزاد كثيرًا في مساحة مسجد قُرْطُبَة، حتى أضاف إليه ضعف مساحته الأصلية، وكان يشتري هذه المساحات ممن يقطنون حول المسجد، وذلك بالمبلغ الذي يرضونه.

وقد ذُكر في ذلك أنه كانت هناك سيدة وحيدة تسكن في بيت فيه نخلة بجوار المسجد، وقد أبت هذه السيدة أن تبيع بيتها هذا إلاّ إذا أتى لها الحاجب المنصور بمنزل فيه نخلة كالذي تملكه، فأمر الحاجب المنصور بشراء بيت لها

فيه نخلة كما أرادت، حتى ولو أتى ذلك على بيت المال، ثم أضاف بيتها إلى حدود المسجد.

زاد الحاجب المنصور كثيرًا في المسجد بعد ذلك، حتى أصبح ولفترة طويلة من الزمان أكبر من أي مسجد أو كنيسة في العالم، وهو ما يزال إلى الآن موجودًا في إسبانيا، ولكنه -وللأسف- حُوِّل إلى كنيسة بعد سقوط الأندلس، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله!

وكذلك كانت العلوم والتجارة والصناعة وغيرها من الأمور قد ازدهرت كثيرًا في حياة الحاجب المنصور، وقد عمَّ الرخاء وامتلأت خزانة الدولة بالمال، ولم يَعُدْ هناك فقراء تمامًا، كما كان الحال أيام الحكم بن عبد الرحمن الناصر أو أيام عبد الرحمن الناصر نفسه.

وحتى البلاد التي فتحها المنصور من بلاد النصارى اهتم بتعميرها وعمارتها؛ حتى صارت الجزيرة الأندلسية كلها متصلة العمران، عامرة زاهرة خضرة نضرة.

الاستقرار الداخلي في الأندلس

كان من اللافت للنظر -أيضًا- في حياة الحاجب المنصور أنه ورغم طول فترة حكمه -التي امتدَّت من سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) وحتى سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠٢م)- لم تقم عليه أي ثورة، أو تمرُّد في عهده على طول البلاد واتساعها واختلاف أمزجتها، اللهم إلاّ ما ذكرناه من قبل عن النزاع بينه وبين غالب الناصري.

فقد كان الحاجب المنصور رجلاً قويًّا، محكِمًا للأمن والأمان في البلاد، كما كان عادلاً مع الرعية؛ ومما جاء في ذلك ما ترويه بعض الروايات من أنه جاءه يومًا رجلٌ بسيط من عامَّة الشعب، يبغي مظلمة عنده، وقال له: إن لي مظلمة وإن القاضي لم يُنصفني فيها. وحين سمع منه مظلمته أتى بالقاضي مستوضحًا منه الأمر، وكيف أنه لم يُنصف الرجل في مظلمته، فقال

له القاضي: إن مظلمته ليست عندي، وإنما هي عند الوسيط (بمكانة نائب رئيس الوزراء في زمننا)، فأحضر الحاجب المنصور الوسيطَ وقال له: اخلع ما عليك من الثياب (يقصد ثياب التميز والحُكم)، واخلع سيفك، ثم اجلس هكذا كالرجل البسيط أمام القاضي. ثم قال للقاضي: الآن انظر في أمرهما. فنظر القاضي في أمرهما، وقال: إن الحقّ مع هذا الرجل البسيط، وإن العقاب الذي أقضيه هو كذا وكذا على الوسيط. فما كان من الحاجب المنصور إلاّ أن قام بإنفاذ مظلمة الرجل، ثم قام إلى الوسيط فأقام عليه أضعاف الحدِّ الذي كان قد أوقعه عليه القاضي، فتعجّب القاضي، وقال للمنصور: يا سيدي؛ إنني لم آمر بكل هذه العقوبة. فقال الحاجب المنصور: إنه ما فعل هذا إلا لقُرْبِه منِّا؛ ولذلك زدنا عليه الحدَّ؛ ليعلم أن قربه منا لن يمكِّنه من ظلم الرعيّة

وفاة المنصور ابن أبي عامر

توفي المنصور بن أبي عامر وهو في أوج قوته، و الأندلس قد بلغت من القوة والعظمة ما لم تَصِلْ إليه من قبلُ في أي عصر من العصور، إلى جوار ما كان فيه أعداؤها من الضعف الشديد، وكذلك كان الحال داخل الأندلس نفسها؛ فالخليفة الأموي هشام المؤيد كان رجلاً ضعيفًا، في حين كانت قوة العامريين قد بلغت شأوًا بعيدًا، ومع ذلك فبمجرد أن مات المنصور بن أبي عامر سارع ابنه عبد الملك إلى قُرْطُبَة، قبل أن يطرأ أي أمر لم يكن قد استعدَّ له من قبل، ليستصدرَ مرسومًا من الخليفة بتوليته الحجابة بعد أبيه، وكان أبوه قد عَهِدَ له بالحجابة من بعده -كما ذكرنا- وتمت توليته الحجابة كما أراد يوم الاثنين لثلاث بقين من رمضان (٣٩٢هـ)، وبقي في الحكم سبع سنين إلى أن مات سنة (٣٩٩هـ) .

عبد الملك المظفر

سار عبد الملك المظفر على نهج أبيه في سياساته الداخلية والخارجية، وفي غزوه الدائم للأراضي النصرانية في الشمال، حتى قال عنه المقري التلمساني في نفح الطيب: «جرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه أعيادًا دامت مدَّة سبع سنين، وكانت تسمى بالسابع تشبيهًا بسابع العروس، ولم يزل مِثْلَ اسمه مظفّرًا إلى أن مات سنة تسع وثلاثمائة في المحرم، وقيل: سنة ثمان وتسعين».

المظفر وسيرة العظماء

وقد أُعجب به المسلمون وأحبوه حبًّا عظيمًا، فأثنوا عليه أجمل الثناء، فكان من ذلك ما نقله ابن الخطيب: «قالوا: كان عبد الملك أسعد مولود وُلِدَ بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما؛ فجدَّد الألقاب، واقتفى الرسوم، فقد ذُكر أن المنصور توفِّي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابهِ من الفقهاء والعلماء والكتاب والشعراء والأطباء والمنجمين؛ فلم يكونوا أوفر عددًا ولا أسنى أرزاقًا منهم في أيامه، مع عدم التلبُّس بشيء من أمرهم؛ إذ كان مُقْتَصِرًا على شأنه في التجنُّد والعمل بالسلاح؛ حفظًا للرسوم، والتماسًا لجميل الذِّكْر، وحرصًا على التزيُّد والشفوف على غيره، وكان مثلاً في الحياء والشجاعة؛ إذ كان عند الحياء والحشمة بكرًا عزيزة، وفي مواقفِ الكريهة أسدًا وَرْدًا، لا يقوم له شيء إلاّ حطمه».

وقد زاد من حُبِّ المسلمين له وإعجابهم به أنه ابتدأ عهده بأن أسقط عن المسلمين سدس الجباية التي كانت عليهم ، فتعلّقت به قلوب الرعية

وآمالها، ووجدت فيه العزاء عن فقدان أبيه، وبخاصة أنَّ أباه كان يعتمد عليه دائمًا في حياته، ويُكَلِّفه بالمهام الجسام؛ كقيادة الجيوش وما إلى ذلك.

جهاد الحاجب المظفر ضد النصارى

كان من عادة نصارى الشمال -كما رأينا- أنه متى مات حاكم الأندلس -وبخاصة إذا كان قويًا- ضربوا بالمعاهدات والمواثيق عُرض الحائط، وأخذوا يُهاجمون الثغور والأراضي الإسلامية بهدف الثأر من المسلمين وإضعافهم، وسلب ما يمكن سلبه، وهم بهذا -أيضًا- يُضعفون موقف الحاكم الجديد، الذي يسعى لتوطيد ملكه، رأينا هذا عند تولِّي عبد الرحمن الناصر، كما رأيناه عند تولِّي الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد، ولكنهم هذه المرَّة لم يفعلوا ذلك، وربما كان ذلك بسبب الضربات القوية المؤثِّرة التي وجهها لهم المنصور بن أبي عامر في حياته.

ولم يكتفِ الحاجب المظفر بهذه الموادعة؛ إذ إنهم لو وادعوا اليوم، فلن يوادعوا غدًا إذا اجتمعت لهم قوتهم، ثم ربما يظنون به الضعف والجبن عن لقائهم، ومن هنا بدأ الحاجب المظفر يُجَهِّز لغزو نصارى الشمال، واجتهد في الإعداد؛ حتى إن أهل العدوة قد سمعوا بهذه الغزوة، فتوافدوا إلى الأندلس للمشاركة فيها، وفيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم وفقهائهم، وقد أحسن الحاجب المظفر استقبالهم، وأغدق لهم العطاء، فقبل بعضهم وتحرَّج البعض الآخر.

غزو إمارة برشلونة

وخرج الحاجب المظفر من الزاهرة بجنده ليلة ١١ شعبان سنة ٣٩٣هـ في مشهد مهيب، وسار حتى وصل مدينة سالم، فانضمت له قوة من قشتالة، نزولاً على ما كان بين قشتالة والمنصور بن أبي عامر من معاهدات، ثم سار إلى إمارة بَرْشُلُونَة، ودارت بينه وبين نصارى بَرْشُلُونَة حرب شديدة، هُزموا فيها هزيمة نكراء، واستولى المسلمون على عدد من حصون بَرْشُلُونَة،

وهدموا حصونًا أخرى، وغنموا وسبوا، وعمل الحاجب المظفر على إسكان المناطق المفتوحة بالمسلمين، فنهى الجنود عن تدمير البيوت وهدمها، وأمر بنقل المسلمين لعمارة هذه الأرض، وجعل لمن يسكنها منهم راتبًا شهريًّا يتقاضاه من بيت المال، وقضى الحاجب المظفر عيد الفطر بأرض بَرْشُلُونَة، واحتفل به مع جنوده ورجاله في بسائطها، ثم أمر بإرسال رسالتين للتبشير بالفتح؛ إحداهما إلى الخليفة هشام المؤيد، والثانية لتُقْرَأ على المسلمين كافة في قُرْطُبَة، ثم في باقي الولايات.

وجاء في الرسالتين أن عدد السبي بلغ ٥٥٧٠، وأن عدد الحصون التي اقتحمت عَنْوة ستة حصون، وعدد الحصون التي أخلاها العدوّ فخُرِّبت ودُمِّرت ٨٥ حصنًا، وذكر أسماء هذه الحصون كلها في الرسالتين، ثم أَذِنَ للمتطوعين معه للجهاد بالعودة إلى ديارهم وبلدانهم؛ إذ إن الهدف الذي خرجوا من أجله قد انتهى؛ فعاد المتطوعون إلى بلادهم مسرورين فرحين بنصر الله.

وفي السنة التالية لهذه الغزوة (٣٩٤هـ) -وفي دلالة واضحة على ما وصلت إليه قوة الدولة وهيبتها في عهده- احتكم إليه قادة الممالك النصرانية، وفي ذلك ينقل ابن عذاري المراكشي عن المؤرخ الفقيه أبي مطرف محمد بن عون الله (وهو من معاصري هذه الحوادث) قوله: «وانتهى المظفر عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة، مثل منزلة والده المنصور، وأحلُّوه محلّه في الإصغاء له والتعظيم؛ لجلاله والهيبة من سخطه والطلب لمرضاته، حتى صار أعاظمهم يحتكمون إليه فيما شجر بينهم؛ فيفصل الحُكم فيهم، ويرضون بما قضاه ويقفون عنده».

غزو مملكة قشتالة

وتوالت غزوات الحاجب المظفر -رحمه الله- على أراضي النصرانية في الشمال، وكانت غزوته الخامسة سنة (٣٩٧هـ)، وفيها اتجه بجيشه إلى مملكة قشتالة، فاتحدت جميع الممالك والقوى النصرانية ضده، ودارت بين

الفريقين معركة شديدة، نصر الله فيها المسلمون نصرًا عظيمًا، وكان قد بلغ الناسَ في الأندلس خبرُ اتحاد الممالك النصرانية ضد جيش المسلمين، فأشفقوا على الجيش الإسلامي، وخافوا عاقبة ذلك، وكان أهل العساكر المشاركين في الغزوة هم أكثر الناس خوفًا، فلما وردهم خبرُ انتصار المسلمين، كان فرحهم بذلك فرحًا عظيمًا، وعلى أثر هذه الغزوة تلقّب عبد الملك بالحاجب المظفر بالله.

ثم خرج بعد ذلك في شاتية سنة (٣٩٨هـ) -وكانت هذه هي شاتيته الوحيدة- وقد خرج فيها إلى قشتالة، ودارت بينه وبين نصارى قشتالة معارك عنيفة استمرّت عدّة أيام، انتهت بنصر عظيم للمسلمين ، وكانت هذه هي غزوته قبل الأخيرة؛ لأنه خرج إلى غزو قشتالة في صائفة العام نفسه (٣٩٨هـ)، ولكنه مرض مرضًا شديدًا في مدينة سالم في شمال الأندلس، فتفرّق عنه كثير من الجنود المتطوعين معه، ففشل مشروع الغزو، وعاد إلى قُرْطُبَة[١٠]، ثم عاد وشعر ببعض التحسن فتحامل على نفسه وبدأ يتأهّب إلى غزو قشتالة من جديد، وخرج بالفعل متحاملاً على نفسه في شاتية عام (٣٩٩هـ) يقصد قشتالة، إلاّ أن الحركة قد آذته وزادت مرضه، فلم يَعُدْ يستطيع الغزو، فعادوا به محمولاً على محفّة، وتوفي -رحمه الله- في الطريق إلى قُرْطُبَة في صفر عام (٣٩٩هـ) .

أشهر العلماء في الدولة العامرية

ابن ذكوان (٣٤٢-٤١٣هـ= ٩٥٣-١٠٢٢م)

أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبيدوس بن ذكوان، الشهير بابن ذكوان قاضي الجماعة بقُرْطُبَة وخطيبها، وُلِدَ سنة (٣٤٢هـ= ٩٥٣م)، ولاّه المنصور بن أبي عامر القضاء، وكان من خاصته يُلازمه في رحلاته وغزواته، ومحلُّه منه فوق محلِّ الوزراء، يُفاوضه المنصور في تدبير المُلْكِ وفي سائر شئونه. كذلك كان معه المظفر وشنجول ولدي المنصور بعد وفاة أبيهما، وتوفي المظفر فزاد أخوه عبد الرحمن في رفع منزلته وولاّه الوزارة بالإضافة إلى قضاء القضاة، وكان عظيم أهل الأندلس ورئيسهم، وأقربهم من الدولة وأعلاهم محلاًّ، توفي سنة (٤١٣هـ).

ابن جلجل (٣٣٢- بعد ٣٧٧هـ= ٩٤٣- بعد ٩٨٧م)

أبو داود سليمان بن حسان، الشهير بابن جلجل، كان طبيبًا ماهرًا، وكان إمامًا في معرفة الأدوية المفردة، لا سيما بكتاب ديسقوريدس، الذي عُرِّب في بغداد في خلافة المتوكل العباسي، وبقيت منه ألفاظ كثيرة يونانية لم تُعَرَّب ولا عُرِفت، ويحكي ابن جلجل قصة هذا الكتاب فيقول: «انتفع الناس بما عُرِّب منه، فلما كان في دولة الناصر عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس، كاتبه أرمانوس صاحب القسطنطينية قبل الأربعين وثلاثمائة وهاداه بنفائس، فكان منها كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير العجيب، والكتاب باليوناني، ومنها كتاب هروشيش، وهو تاريخ عجيب في الأمم والملوك باللسان اللطيني (اللاتيني). وكان بالأندلس مَنْ يتكلَّم به، ثم كاتبه الناصر وسأله أن يبعث إليه برجل يتكلم باليوناني واللطيني، ليُعَلِّم له عبيدًا؛ حتى يُترجموا له، فبعث إليه براهب يُسَمَّى نقولا، فوصل قُرْطُبَة في سنة أربعين، ونشر من كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولاً، وكان هناك جماعة من

حُذّاق الأطباء، فأُحكم الكتاب، وقد أدركتُهم، وأدركتُ نقولا الراهب وصحبتُهم، وفي صدر دولته (أي: المستنصر) مات نقولا الراهب».

ومن كُتب ابن جلجل «تاريخ الأطباء والفلاسفة»، وله تذييل وزيادات على كتاب ديسقوريدس مما لم يعرفه ديسقوريدس.

المجريطي (٣٣٨-٣٩٨هـ= ٩٥٠-١٠٠٧م):

هو الفيلسوف الرياضي الفلكي أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي، وهو مشهور بالمجريطي، وُلِدَ في مدينة مجريط (مدريد) سنة (٣٣٨هـ= ٩٥٠م)، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم.

برع في علوم كثيرة، وله كتابان رجع إليهما ابن خلدون هما: (رتبة الحكيم): وهو أهم مصدر لدراسة الكيمياء في الأندلس، و(غاية الحكيم): وهو كتاب موسوعي تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي... وفي هذا الكتاب بحوث تهتم بدراسة تاريخ الحضارة في أقدم عصورها، وتاريخ مستنبطات الأمم الشرقية العريقة في القدم من أنباط وأقباط وسريان وهنود.. وغيرهم، ومكتشفاتهم وجهودهم في تَقَدُّم العمران، وفي هذا الكتاب -أيضًا- بحوث في الرياضيات والكيمياء، وعلم السحر، وعلم الحيل، والتاريخ الطبيعي، وتاريخ المنشأ، والبيئة، وله زيج قيل فيه: لم يُؤَلّف في الأزياج مثل زيج مسلمة -أي: المجريطي- وزيج ابن السمح.

ومن مؤلفاته أيضًا:

- روضة الحدائق ورياض الخلائق.
- ثمار العدد: وهو في الحساب ويُعرف بالمعاملات.
- اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني.
- كتاب الأحجار.

ولقد قال إدوارد فنديك صاحب كتاب (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع): توجد مجموعة أخرى تسمى بالرسائل الجامعة ذات الفوائد النافعة، وتُعْرَف -أيضًا- باسم (رسائل إخوان الصفا) للحكيم المجريطي القرطبي... وهي علـى نمـط رسائل إخوان الصفا، ولكنها لم تُطبع ولم تشتهر كالأولى، ولعلّ هذا هـو مـا جعل خير الدين الزركلي صاحب الأعلام يقول: ذهب بعض المؤرخين إلى أنه مؤلف (رسائل إخوان الصفا)، ولم يَثْبُت ذلك، وقد توفي في مدينـة مجـريط (مدريد) سنة (٣٩٨هـ= ١٠٠٧م).

ابن الفرضي (٣٥١-٤٠٣هـ= ٩٦٢-١٠١٣م):

الإمام الحافظ، البارع الثقة، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي، مؤرخ حافظ أديب، وُلِدَ بقُرْطُبَة سـنة (٣٥١هـ= ٩٦٢م)، ألّف في (أخبار شعراء الأندلس)، وكتاب في (المؤتلـف والمختلف)، وفي (مشتبه النسبة).

وكان من تلاميذه الإمام المعروف أبو عمر بن عبد البر، وهو من أئمة المذهب المالكي الكبار، ووصفه بقوله: كان فقيهًا حافظًا، عالمًا في جميع فنون العلم في الحديث والرجال، أخذتُ معه عن أكثر شيوخي، وكان حسن الصحبة والمعاشرة.

وقال عنه شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان: لم يُرَ مثله بقُرْطُبَـة فـي سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتنان فـي العلـوم والأدب البارع، وجمع من الكتب أكثر ما يجمعه أحد في علماء البلـد، وكـان حـسن البلاغة والخطّ.

ومما يُذكر عنه قول الحميدي: حدثنا علي بن أحمد الحافظ، أخبرنـي أبو الوليد بن الفرضي قال: تعلّقتُ بأستار الكعبة، وسألت الله تعالى الشهادة، ثم فكّرت في هول القتل، فندمت، وهممت أن أرجع، فأستقيل الله ذلك، فاستحييت. يقول الحافظ علي: فأخبرني مَنْ رآه بين القتلى، ودنا منه، أنه سـمعه يقـول

بصوت ضعيف: «لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الله، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، إلاّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ». كأنه يُعيد على نفسه الحديث، ثم قضى على إثر ذلك .

وله شعر جيد منه: [الطويل]

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ *** عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ

يَخَافُ ذُنُوبًا لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا *** وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهْوَ رَاجٍ وَخَائِفُ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو سِوَاكَ وَيَتَّقِي *** وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مُخَالِفُ

فَيَا سَيِّدِي لا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي *** إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ

أبو القاسم الزهراوي .. أعظم جراح في الاندلس

أبو القاسم الزهراوي لنا مع هذا الرجل وقفة أطول قليلاً؛ إذ يُعَدُّ خلف بن عباس المشهور بأبي القاسم الزهراوي (ت ٤٢٧هـ= ١٠٣٦م) من العلماء الأعلام في الأندلس، وفي التاريخ الإسلامي كله، كان لكتابِهِ (التصريف لمن عجز عن التأليف) الفضل في أن أصبح من كبار جرّاحي العرب المسلمين، وأستاذ علم الجراحة في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى القرن السابع عشر، ومن خلال دراسة كُتُبِهِ تبيَّن أنه أوّل من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة، وبَحَثَ في التهاب المفاصل، وفي السلِّ.. وغيرها.

والزهراوي -المعروف في أوربا باسم (Abulcasis = أبو القاسم)- هو أول مَنْ تمكّن من اختراعِ أُولى أدوات الجراحة؛ كالمشرط والمقصِّ الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، التي من أهمِّها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة؛ فكان أَحَدَ العلماء الأعلام الذين سعدت بهم الإنسانية.

وقد وُلِدَ أبو القاسم الزهراوي في مدينة الزهراء، ونُسب إليها، كان طبيبًا فاضلاً خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تامٌّ في معناه.

أبو القاسم الزهراوي .. إنجازات وإبداعات

كان الزهراوي يمارس بنفسه فنَّ الجراحة بدلاً من أنْ يُوكل ذلك -كما كانت العادة- للحجَّامين أو الحلاقين، فمارس الجراحة وحذق فيها وأبدع، حتى صار عَلَمًا من أعلام طبِّ الجراحة، لدرجة أنه لا يكاد يُذكر اسمه إلاّ مقترنًا مع الطب الجراحي ، وقد حلّ مبحث الزهراوي في الجراحة خاصة محلّ كتابات القدماء، وظلّ العمدة في فنِّ الجراحة حتى القرن السادس عشر، وباتت أفكاره حدثًا تحوّليًا في طرق العلاجات الطبية؛ حيث هيَّأ للجراحة قُدرة جديدة في شفاء المرضى أذهلت الناس في عصره وبعد عصره، وقد ساعدت آلاته الجراحية التي اخترعها على وضع حجز الأساس للجراحة في أوربا.

وقد وصف الزهراوي هذه الآلات والأدوات الجراحية التي اخترعها بنفسه للعمل بها في عملياته، ووصف كيفية استعمالها وطرق تصنيعها؛ منها: جِفت الولادة، والمنظار المهبلي المستخدم حاليًا في الفحص النسائي، والمحقن أو الحقنة العادية، والحقنة الشرجية، وملاعق خاصة لخفض اللسان وفحص الفم، ومقصلة اللوزتين، وجفت وكلاليب خلع الأسنان، ومناشير العظام، والمكاوي والمشارط على اختلاف أنواعها، وغيرها الكثير من الآلات والأدوات التي أصبحت النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتُصبح الأدوات الجراحية الحديثة.

يقول كامبل في كتابه (الطب العربي): «كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره؛ ذلك أن ممارسي

مهنة الجراحة في سَرَقُسْطَة كانوا يُمنحون لقب طبيب جراح, أمّا في أوربا فكان لقبهم حلاق جراح، وظلّ هذا التقليد ساريًا حتى القرن العاشر الهجري».

كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف

كتاب التصريف, أبو القاسم الزهراويوكتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) هو في الحقيقة موسوعة كثيرة الفائدة، تامّة في معناها، لم يُؤلّف في الطب أجمع منها، ولا أحسن للقول والعمل، وتُعتبر من أعظم مؤلفات المسلمين الطبية، وقد وصفها البعض بأنها دائرة معارف، ووصفها آخرون بأنها ملحمة كاملة، وليس من الغريب أن تُصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحي الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظلّ المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوربا؛ مثل جامعة سالرنو ومونبلييه في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، والحقيقة التي ينبغي ألاّ تُغفل -أيضًا- أن الجراحين الذين عُرفوا في إيطاليا في عصر النهضة وما تلاه من قرون قد اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي. ويقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالّر: «كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع مَنْ ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر».

والزهراوي هو أوّل مَنْ جعل الجراحة علمًا قائمًا على التشريح، وأوّل من جعله علمًا مستقلاً، وقد استطاع أن يبتكر فنونًا جديدة في علم الجراحة، وأن يُقَنّنها ، وهو أوّل مَنْ وصف عملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها، وهو الذي أجرى عمليات صعبة في شقّ القصبة الهوائية، وكان الأطباء قبله -مثل: ابن سينا والرازي- قد أحجموا عن إجرائها لخطورتها، وابتكر الزهراوي -كذلك- آلة دقيقة جدًّا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول، كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصدر، ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام. والزهراوي -كذلك- هو أول مَنْ نجح في إيقاف نزيف الدم أثناء العمليات الجراحية؛ وذلك بربط

الشرايين الكبيرة، وسبق بهذا الربط سواه من الأطباء الغربيين بستمائة عام! والعجيب أن يأتي مِنْ بعده مَنْ يَدّعي هذا الابتكار لنفسه، وهو الجراح إمبراطور باري عام (١٥٥٢م).

وهو -أيضًا- أول من صنع خيطانًا لخياطة الجِرَاح، واستخدمها في جراحة الأمعاء خاصة، وصنعها من أمعاء القطط، وأول من مارس التخييط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مُثَبَّتٍ فيهما؛ كي لا تترك أثرًا مرئيًّا للجِرَاح، وقد أطلق على هذا العمل اسم (إلمام الجروح تحت الأدمة)، وهو أوّل من طبّق في كل العمليات التي كان يُجريها في النصف السفلي للمريض رفع حوضه ورجليه قبل كل شيء؛ ممّا جعله سبّاقًا على الجرّاح الألماني (فريدريك تردلينوبورغ) بنحو ثمانمائة سنة، الذي نُسب الفضل إليه في هذا الوضع من الجراحة؛ ممّا يُعَدُّ اغتصابًا لحقٍّ حضاري من حقوق الزهراوي المبتكر الأول لها.

كما يُعَدُّ الزهراوي أول رائد لفكرة الطباعة في العالم؛ فلقد خطا الخطوة الأولى في صناعة الطباعة، وسبق بها الألماني يوحنا جوتنبرج بعدّة قرون، وقد سَجّل الزهراوي فكرتهِ عن الطباعةِ ونفّذَها في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه الفذِّ (التصريف)؛ ففي الباب الثالث من هذه المقالة، ولأول مرّة في تاريخ الطب والصيدلة يصف الزهراوي كيفية صنع الحبوب (أقراص الدواء)، وطريقة صنع القالب الذي تُصَبُّ فيه هذه الأقراص أو تُحَضَّر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لوح من الأبنوس أو العاج مشقوق نصفين طولاً، ويُحَفَر في كل وجه قدر غِلَظِ نصف القرص، وينقش على قعر أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه مطبوعًا بشكل معكوس، فيكون النقش صحيحًا عند خروج الأقراص من قالبها؛ وذلك منعًا للغشِّ في الأدوية، وإخضاعها للرقابة الطبية.

وفي ذلك يقول شوقي أبو خليل: «ولا ريب أن ذلك يُعطي الزهراوي حقًا حضاريًا لكي يكون المؤسس والرائد الأول لصناعة الطباعة، وصناعة أقراص الدواء؛ حيث اسم الدواء على كل قرص منها، هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية، ومع هذا فقد اغْتُصِبَ هذا الحقّ وغفل عنه كثيرون».

وكذلك يُعَدُّ الزهراوي أوّل مَنْ وصف عملية سلِّ العروق من الساق لعلاج دوالي الساق والعرق المدني، واستخدمها بنجاح، وهي شبيهة جدًا بالعملية التي نمارسها في الوقت الحاضر، والتي لم تُستخدم إلاّ منذ حوالي ثلاثين عامًا فقط، بعد إدخال بعض التعديل عليها ، وللزهراوي إضافات مهمّة جدًا في علم طب الأسنان وجراحة الفكّيْنِ، وقد أفرد لهذا الاختصاص فصلاً خاصًا به.

وكان مرض السرطان وعلاجه من الأمراض التي شغلت الزهراوي، فأعطى لهذا المرض الخبيث وصفًا وعلاجًا بقي يُستعمل خلال العصور حتى الساعة، ولم يزد أطباء القرن العشرين كثيرًا على ما قدّمه علامة الجراحة الزهراوي.

وإن ما كتبه الزهراوي في التوليد والجراحة النسائية ليُعتبر كنزًا ثمينًا في علم الطب؛ ولقد ابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت فسبق الدكتور فالشر بنحو تسعمائة سنة في وصف ومعالجة الولادة الحوضية، وهو أول مَن استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم، وأول مَنِ ابتكر آلة خاصة للفحص النسائي لا تزال إلى يومنا هذا.

ويحكي جوستاف لوبون عن الزهراوي فيصفه بقوله: «أشهر جراحي العرب، ووصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص؛ فعُدّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقّ...» . وجاء في دائرة المعارف

البريطانية أنه أشهر مَنْ ألّف في الجراحة عند العرب (المسلمين)، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف

فتنة قرطبة.. بين محمد المهدي وسليمان المستعين

خلافة محمد المهدي

بعد خلع هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر (هشام المؤيد) وولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الذي تلقّب بالمهدي، انفرط العقد تمامًا في الأندلس، فلم يكن يملك المهدي من لقبه إلاّ رسمه، إذ كان فتى لا يُحسن قيادة الأمور، وليس له من فن الإدارة شيء، فكان من أول أعماله في الحُكم ما يلي:

أولا: التنكيل بالعامريين

فقد ألقى القبض على كثير من العامريين ونفاهم إلى أطراف البلاد، وانتهك العامريين حتى بلغ في انتهاكهم وانتهاب أموالهم أن ترحّم الناس على أيام العامريين، وهدم الزاهرة وأباح انتهابها، فنهض السفهاء يتسابقون حتى هُدمت الزاهرة وتُركت خرابًا كأن لم تغن بالأمس.

ثانيًا: فصل الجند

فقد فصل سبعة آلاف من الجند، وهو عدد كبير، فتغيرت عليه قلوب هؤلاء.

ثالثا: الإساءة إلى البربر

فقد أساء إلى البربر حتى بدأ العامة يتطاولون عليهم، وقد كانوا في ذلك الوقت أولو قوة وعصبية، كما كانوا حديثي عهد بالسلطان، ثم إنهم كانوا قد انفضّوا عن شنجول حينما رأوا سوء سياسته، وساعدوا خصومه، ولكن ورغم ذلك كله، لم تكن نفوس بني أمية قد صفت من ناحيتهم؛ إذ كانوا عماد الدولة العامرية التي أخذت منهم سلطانهم، فأساءوا إليهم، وكان المهدي يُظهر

سخطه لهم ولا يُخفيه، حتى وصل به الحال إلى أن أعلن أن مَنْ قتل بربريًّا فسينال جائزة، فسارع أهل قرطبة إلى قتل البربر وهتك أعراضهم! وكان البربر قبل حدوث هذا يستعدُّون للثورة عليه؛ لما كان منه من عداوة، فلمَّا حدث ما حدث زاد حنقهم وغيظهم وحماستهم على الثورة عليه.

خلافة سليمان المستعين

أثار هذا الفعل غير الحصيف من قِبَل المهدي غضبًا عارمًا لدى البربر والعامريين، بل وعند الأمويين أنفسهم، الذين لم يعجبهم هذا القتل وذاك التشريد، وهذه الرعونة في التصرُّف، فبدأ يحدث سخط كبير من جميع الطوائف على المهدي، ولم يكن ليقف الأمر عند هذا الحدِّ؛ فقد تجمَّع البربر وانطلقوا إلى الشمال، وهناك أتوا بسليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فنصَّبُوه عليهم ولقَّبُوه بالمستعين أمير المؤمنين، وبدأ يحدث الصراع بين سليمان بن الحكم هذا ومِنْ ورائه البربر وبين المهدي في قُرْطُبَة، وكان البربر من قبل قد فكروا في مناصرة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فقبض المهدي عليه وعلى أخيه وقتلهما، ففر ابن أخيهما سليمان بن الحكم إلى البربر بظاهر قُرْطُبَة، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله.

الفتنة بين محمد المهدي وسليمان المستعين

فتنة قرطبة .. بين محمد المهدي وسليمان المستعينوجد سليمان بن الحكم ومَنْ معه من البربر أن قوتهم ضعيفة، ولن تقوى على مجابهة قوات المهدي، فقاموا بعمل لم يُعهد على الأمويين من قبلُ في بلاد الأندلس.. استعانوا بملك قشتالة.

وكانت مملكة قشتالة هذه هي أحد جزأي مملكة ليون في الشمال الغربي، بعد أن كان قد نشبت فيها (مملكة ليون) حرب داخلية، وانقسمت على نفسها في سنة (٣٥٩هـ= ٩٧٠م) إلى قسمين، فكان منها قسم غربي؛ وهو مملكة ليون نفسها، وقسم شرقي وهو مملكة قشتالة، وكلمة قشتالة تحريف

لكلمة كاستولّة، وتعني -أيضًا- قلعة باللغة الإسبانية، فحُرِّفَتْ في العربية إلى قشتالة، وكانت قد بدأت تكبر نسبيًّا في أول عهد ملوك الطوائف؛ فاستعان بها سليمان بن الحكم المستعين والبربر على حرب المهدي.

وبين المهدي من ناحية وسليمان بن الحكم والبربر وملك قشتالة من ناحية أخرى دارت موقعة كبيرة، هُزم فيها المهدي أو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وتولّى سليمان المستعين أو سليمان بن الحكم مقاليد الحكم في بلاد الأندلس، وبالطبع كانت فرصة من السماء لملك قشتالة لضرب الأندلسيين بعضهم ببعض، ووضع قاعدة لجيشه وجنده في أرض الأندلس، تلك البلاد التي طالما دفعت الجزية كثيرًا للمسلمين من قبلُ.

وفي فترة مدتها اثنتان وعشرون سنة يتولّى حكم المسلمين في الأندلس ثلاثة عشر خليفة متتاليين، بدأت هذه الفترة بهشام بن الحكم سنة (٣٥٩هـ= ٩٧٠م)، ثم المهدي، ثم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي تولّى الحُكم، (وكان قد استعان بملك قشتالة) وذلك في سنة (٤٠٠هـ= ١٠١٠م).

الاستعانة بالنصارى

وتدور الأحداث بعد ذلك، حيث يفرُّ المهدي -الذي انهزم أمام سليمان بن الحكم أو المستعين بالله- إلى الشمال حيث طُرْطُوشة، وفي طُرْطُوشة -وحتى يرجع إلى الحُكم الذي انتزعه منه سليمان بن الحكم، والذي لم يبقَ فيه غير شهور قليلة- فكّر المهدي في أن يتعاون مع أحد أولاد بني عامر الذين كانوا أعداءه منذ قليل.

كان المهدي قد قابل في طُرْطُوشة رجلاً من موالي بني عامر يُدْعَى الفتى واضح، وكان واضح قد بايع للمهدي بمجرّد أن اعتلى كرسي الخلافة، ففر إليه المهدي في طليطلة، لمّا خاف القتل في قُرْطُبَة.

وقد أقنع المهدي بأنه سيتعاون معه ليُعيده إلى المُلْكِ من جديد، ويبقى هو على الوزارة كما كان في عهد الدولة العامرية من قبل، وهذا ما وافق

قبولاً لدى المهدي، فقَبِلَ عرض الفتى واضح، وبدءا يتعاونان معًا لتنفيذ مخطَّطِهما ذلك.

في بداية الأمر وجد الفتى واضح والمهدي أنهما لن يستطيعا أن يصمدا أمام قوة كبيرة مثل التي يملكها سليمان بن الحكم والبربر ومعهما ملك قشتالة، فهداهما تفكيرهما في الاستعانة بأمير بَرْشُلُونَة، وبَرْشُلُونَة هذه كانت ضمن مملكة أراجون، التي تقع في الشمال الشرقي للأندلس، والتي كان يدفع حاكمها الجزية لعبد الرحمن الناصر ولابنه وأيضًا للحاجب المنصور، فلما حدثت هذه الهزَّة في بلاد المسلمين انخلعت من هذه العباءة، وقامت من جديد، فكان أن استعان بجيشها المهدي والفتى واضح في حرب سليمان وملك قشتالة.

وقد وافق أمير بَرْشُلُونَة على أن يساعدهم؛ لكن على شروط؛ هي:

أولاً: مائة دينار ذهبية له عن كل يوم في القتال.

ثانيًا: دينار ذهبي لكل جندي عن كل يوم في القتال، وقد تطوَّع الكثير لحرب المسلمين، فكان عدد الجيش كبيرًا.

ثالثًا: أَخْذ كل الغنائم من السلاح إن انتصر جيش بَرْشُلُونَة مع المهدي والفتى واضح.

رابعًا: أَخْذ مدينة سالم، التي تمثِّل الثغر الشمالي الذي طالما انطلق منه الجهاد ضد الممالك النصرانية.

وهي بلا شكٍّ شروط قبيحة ومخزية، ولا ندري كيف يُوافق مسلم على مثلها؟! حتى إن وصف ابن عذاري لما حدث يدلُّ على مدى قبحه، قال: ووافق الرومَ على إدخالهم مدينة سالم وتسليمها لهم، فأخلاها ممَّنْ كان فيها من المسلمين، وأنزلها الكافرين؛ ليُقاتلوا معه البربر حماية للفاجر ابن عبد الجبار، فدخل الإفرنج مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط وملكوها، فأول ما دخلوا من المدينة الجامع... وضربوا فيه الناقوس وحوَّلوا قبلته... ثم شرطوا على واضح أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم، وما يقوم به من الشراب

واللحم.. وغير ذلك، ويجري على القومس (الكونت) في كل يوم مائة دينار، وما يقوم به من الطعام والشراب.. وغير ذلك، وعلى أنَّ لهم كل ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكُراع ومال، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم، لا يحول أحد بينهم وبينهم، وشرطوا عليه شروطًا كثيرة غير هذه فالتزم ذلك كله لهم».

وبدأت بالفعل موقعة كبيرة جدًّا في شمال قُرْطُبَة بين المهدي (محمد بن هشام بن عبد الجبار) ومعه الفتى واضح العامري ومعهم أمير بَرْشُلُونَة من جهة، وسليمان بن الحكم الخليفة الملقّب بالمستعين بالله ومعه البربر من جهة أخرى، انتصر فيها المهدي ومَنْ معه، وانهزم سليمان بن الحكم، وفرَّ ومَنْ بقي معه من البربر، وسُلِّمَت مدينة سالم لأمير بَرْشُلُونَة، ومِثْلُها الغنائم، وتولّى المهدي الحُكم من جديد في قُرْطُبَة.

خلافة هشام المؤيد مرة ثانية

لم يتراجع المهدي عن سياسته التي أشعلت الفتنة، وظلّ على تتبُّعه للبربر وقتلهم وانتهاكهم بمساعدة الصليبيين، كذلك البربر لم يكن أمامهم إلاّ أن يُقاوموا ويشنوا الغارات على قُرْطُبَة، حتى ضجَّ أهل قُرْطُبَة، وأغروا الفتى واضح العامري، وهو حاجب المهدي، بأن يقتله فإنه هو سبب ما نزل من الفتن، وأعان على ذلك أن المهدي كان -وسط هذه الأجواء- منشغلاً بملذاته.

ولا نستبعد أن واضحًا -أيضًا- لم تصفُ نفسه تجاه المهدي؛ فهو الذي شتّت العامريين وأذهب دولتهم؛ ومن ثَمَّ فما هو إلا قليل حتى انقلب واضح على المهدي فقتله، وبدأ هو في تولِّي الأمور، كان الفتى واضح أذكى من عبد الرحمن بن المنصور، هذا الذي طلب ولاية العهد من هشام بن الحكم قبل ذلك، فقد رفض أن يكون هو الخليفة؛ حيث اعتاد الناس أن يكون الخليفة أمويًّا وليس عامريًّا؛ ومن ثَمَّ فإذا فعل ذلك فسيضمن ألاّ تحدث انقلابات عليه، وأيضًا يكون محلّ قبول لدى جميع الطوائف.

ومن هنا فقد رأى الفتى واضح أن يُنَصِّب خليفة أمويًا ويحكم هو من ورائه، وبالفعل وجد أن أفضل مَنْ يقوم بهذا الدور ويكون أفضل صورة لخليفة أموي هو هشام بن الحكم الخليفة المخلوع من قبل، هذا الذي ظلّ مجرّد اسم طيلة ثلاث وثلاثين سنة أيام المنصور بن أبي عامر، ثم عبد الملك بن المنصور، ثم في يد عبد الرحمن بن المنصور على التوالي.

وعاد هشام بن الحكم -الذي كان ملقّبًا بالمؤيد بالله- من جديد إلى الحُكم، لكن زمام الأمور كانت في يد الفتى واضح

أسباب سقوط الدولة الأموية

كان رأي بعض الباحثين أن سبب سقوط الدولة العامرية؛ ومن ثَمّ سقوط الدولة الأموية في الأندلس هو تولِّي عبد الرحمن بن المنصور -عبد الرحمن شنجول- الحُكم، ذلك الفاسق الماجن الذي أسقط بني أمية وأحدَث هذه الاضطرابات الكثيرة في البلاد.

وحقيقة الأمر أنه ليس من سنن الله أن تهلك الأمم لمجرّد ولاية رجل فاسق لشهور معدودات، فلم يمكث عبد الرحمن بن المنصور في الحكم إلا أقلّ من عام واحد، ومهما بلغ أمره من الفحش والمجون فلا يمكن بحال أن يُؤدِّيَ إلى مثل هذا الفشل الذريع، والسقوط المدوِّي للبلاد، فلا بدّ إذًا أن تكون هناك أسباب وجذور أخرى، كانت قد نمت من قبل وتزايدت مع مرور الزمن، حتى وصلت أوجها في فترة عبد الرحمن بن المنصور؛ ومن ثَمّ كان هذا التفتّت وذلك الانهيار.

وكما رأينا -سابقًا- في تحليلنا لأسباب ضعف الإمارة الأموية، وكيف كانت لهذا الضعف أسباب وجذور تمتدّ إلى عهد قوة الإمارة الأموية ذاتها، فإن هناك ثلاثة أسباب رئيسة لسقوط الدولة الأموية؛ ومن ثَمّ الدولة العامرية.

السبب الأول: انتشار الترف والإسراف

إحدى قصور قرطبة ويرجع هذا إلى زمن عبد الرحمن الناصر ذاته، ذلك الرجل الفذّ الذي اتّسم عصره بالبذخ والترف الشديدين، وكثرة إنفاق الأموال في زخرفة الدنيا؛ ومن ثَمّ انشغال الناس بتوافه الأمور، وكانت الدنيا هي المهلكة، وليس أدلّ على ذلك من قصر الزهراء، الذي أنشأه عبد الرحمن الناصر، وكان آية في الروعة والجمال، وأعجوبة من أعاجيب الزمان في ذلك الوقت؛ فقد كان على اتساعه وكبر حجمه مبطّنًا من الداخل بالذهب، بل كان سقفه -أيضًا- مبطّنًا بخليط من الذهب والفضة، بأشكال تخطف الأبصار وتبهر العقول[1]، ومع أن عبد الرحمن الناصر لم يكن مُقَصِّرًا في الإنفاق على أي شأن من شئون الدولة؛ مثل: الإنفاق على التعليم، أو الجيش.. أو غيره، إلا أنّ فِعْلَه هذا يُعَدّ نوعًا من البذخ والترف المبالغ فيه؛ أَدَّى في النهاية إلى أن تتعلّق القلوب بالدنيا وزخرفها.

ومما جاء في ذلك أن القاضي المنذر بن سعيد -رحمه الله- دخل على عبد الرحمن الناصر في قصره وكان على هذا الوصف السابق، فقال له عبد الرحمن الناصر: ما تقول في هذا يا منذر (يُريد الافتخار)؟! فأجابه المنذر ودموعه تقطر على لحيته قائلاً: ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ على ما آتاك الله من النعمة، وفَضَّلَكَ على كثير من عباده تفضيلاً حتى يُنْزِلَك منازل الكافرين.

فقال عبد الرحمن الناصر: انظر ما تقول، كيف أنزلني الشيطان منازل الكافرين؟! فردّ عليه المنذر: أليس الله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

فقد ذكر الله السُّقُف التي من فضة في هذه الآية على سبيل التعجيز؛ يعني: لولا أن يكفر الناس جميعًا بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لهوان الدنيا عند الله، لكنّا لم نجعله، إلاّ أن عبد الرحمن الناصر فعله، وجعل لقصره سقفًا من فضة.

وهنا وجم عبد الرحمن الناصر بعدما سقطت عليه تلك الكلمات كالصخر، ثم بدأت دموعه -رحمه الله- تنساب على وجهه، وقام على الفور ونقض ذلك السقف، وأزال ما به من الذهب والفضة، وبناه كما كانت تُبْنَى السُّقُف في ذلك الزمن، إلاّ أن مظهر الترف -لكثرة الأموال ومع مرور الوقت- يعود ويبرز من جديد، حتى أصبح الإنفاق في لا شيء، وقد قال الله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

السبب الثاني: توسيد الأمر لغير أهله:

بقايا مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصرإضافة إلى الترف والإسراف فقد كان توسيد الأمر لغير أهله من أهم الأسباب التي أدَّت إلى سقوط الدولة العامرية والخلافة الأموية، ولقد تَجَسَّد هذا العامل واضحًا جليًّا حين ولّى الحكم بن عبد الرحمن الناصر -الحكم المستنصر- ابنه أمور الحُكم في البلاد، وهو ما زال طفلاً لم يتجاوز الثانية عشرة سنة بعدُ، فأذن بهذا زوال الدولة الأموية في الأندلس؛ إذ تولّى الحُكم رجال لم يملكوا عصبة الأمويين، فلئن كان منهم مقتدورن موهوبون كما كان المنصور وابنه، فلم يكن هذا متوفرًا فيمن بعدهم.

وقد حذّرنا رسول الله صلى الله عيه وسلم من توسيد الأمر لغير أهله حين أجاب السائلَ عن أمارات ووقت الساعة بقوله: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

وهكذا إذا تولّى مَنْ لا يستحقُ منصبًا من المناصب، فلا بُدّ وأن تحدث الهزّة في البلاد ويحدث الانهيار، فما البال وما الخطب إذا كان هذا المنصب هو منصب الخليفة أعلى مناصب الدولة؟! فقد ضُيِّعَت الأمانة، ووُسِّد الأمر لغير أهله، فكان لا بدّ أن تقع الأندلس وتسقط الخلافة الأموية والدولة العامرية.

مدينة قرطبة

مدينة قرطبة إتمامًا للفائدة رأينا أن نقف بالقارئ على وصف لمدينة قرطبة عاصمة الأندلس الفاخرْة الباهرة في أيام روعتها ومجدها.

«إن قُرْطُبَة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً أثناء القرن العاشر (الميلادي) كانت في الحقيقة محطّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حُكّام ليون، أو النافار، أو برشلونة إلى جرّاحٍ، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقّي فلا يتّجهون بمطالبهم إلا إلى قُرْطُبَة». هذا هو وصف أحد الغربيين لمدينة قُرْطُبَة الأندلسية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو جون براند ترند.

فامتدادًا لحضارة إسلامية إنسانية -علمًا، وقِيَمًا، ومجدًا- بزغ نجم مدينة قرطبة، كشاهدٍ حيٍّ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعزِّ الإسلام في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، يوم أن كانت أوربا تغطّ في جهل عميق.

قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس مُعَيَّنٌ، ووقع خاصٌ في الأذن الإسلامية، بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية، يقول المقري: قال بعض علماء الأندلس: [البسيط]

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الأَمْصَارَ قُرْطُبَةُ *** مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا

هَاتَانِ ثِنْتَانِ وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ *** وَالْعِلمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ وَهْوَ رَابِعُهُ

قرطبة.. الموقع الجغرافي والتاريخ

موقع قرطبة على الخريطة

هي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا، وقد أرّخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: «أسسها القرطاجيون فيما يُعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين» .

وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهير طارق بن زياد، وذلك سنة (٩٣هـ= ٧١١م). ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخطّ لنفسها خطًّا جديدًا، وملمحًا مهمًّا في تاريخ الحضارة؛ فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية.

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة ريادتها وحضارتها؛ خاصةً أنه اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ومقرًّا له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي، وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية، حتى غدتْ تُنَافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغدادَ عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروانَ والقاهرةَ في إفريقيا، حتى أطلق عليها الأوربيون: «جوهرة العالم».، لا سيما في عام (١٣٨هـ= ٧٥٦م)، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي الدولة العباسية.

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها؛ من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة..

وغيرها، وقد شقُّوا الترع، وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تُزْرَع فيها.

قرطبة مدينة العلم

للحال التي رأينا، وللحياة التي شاهدنا لا غَرْوَ أن تُصبِحَ قرطبة (منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وكأنها مدينة عصرية، تُضارع المدن العالمية في الألفية الثالثة! وكيف العجب وقد انتشرت المدارس لتعليم الناس، وانتشرت المكتبات الخاصَّة والعامَّة، حتى صارت هي أكثر بلاد الله كُتُبًا، وحتى غَدَتْ مركزًا ثقافيًّا ومجمعًا علميًّا لكل العلوم وفي شتى المجالات، وقد كان الفقراء يَتَعَلَّمُون في مدارس بالمجَّان على نفقة الحُكَّام أنفسهم؛ ولذا فليس عجيبًا أن نعلم أن جميع أفراد الشعب كان قد عرف القراءة والكتابة، ولم يُوجَدْ في قرطبة شخص واحد لا يجيد القراءة والكتابة ، في حين لم يَكُنْ يعرفها أرفع الناس في أوربا، باستثناء بعض رجال الدين!

وجدير بالذكر أن هذه النهضة العلمية والحضارية في مدينة قرطبة في ذلك الوقت، واكبها -أيضًا- نهضة إدارية؛ وذلك من خلال عدد من المؤسسات والنُّظُم الرائدة في الحكم؛ منها: الإمارة والوزارة، وقد تطوَّرَتْ أنظمة القضاء والشرطة والحِسْبة، وغيرها، وواكبتها -أيضًا- نهضة صناعية عظيمة؛ إذ تطوَّرت فيها الصناعة كثيرًا، واشتهرت صناعات مثل: صناعة الجلود، وصناعة السفن، وآلات الحرث، والأدوية.. وغيرها، وكذلك استخراج الذهب والفضة والنحاس!

أمَّا إذا نظرنا إلى الحياة المدنية والعصرية فيها، فنراها مُقَسَّمَة إلى خمس مدن، وكأنها خمسة أحياء كبرى، يقول المقري: «وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلّة بنفسها، وفي كل منها من الحمامات، والأسواق، والصناعات... ما يكفي أهلها».

كما تميزت قرطبة -كما يذكر ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان- بأسواقها الممتلئة بكافّة السلع، وكان لكل مدينة سوقٌ خاصٌ بها.

ومن المقري نذكر بعض إحصائيات عن عمران قرطبة:

المساجد: انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى ٤٩٠ مسجدًا، ثم زادت بعد ذلك إلى ٣٨٣٧ مسجدًا.

البيوت الشعبية: ٢١٣٠٧٧ بيتًا.

بيوت النخبة: ٦٠٣٠٠ بيت.

الحوانيت (المتاجر وما شابه): ٨٠٤٥٥ حانوتًا.

الحمامات العامة: ٩٠٠ حمام.

الأرباض (الضواحي): ٢٨ ضاحية[٥].

وهذه الأرقام كانت تزيد وتنقص باختلاف الأحوال السياسيّة، وباختلاف روايات المؤرخين، غير أنها اختلافات على «مدى» الفخامة والجلالة والجمال، لا على أصل وجودها وتحقُّقِهَا.

وكان عدد سكان قرطبة في عهد الدولة الإسلامية زُهاء خمسمائة ألف نسمة! والجدير بالذكر أن عدد سكان قرطبة حاليًا يبلغ ٣١٠،٠٠٠ نسمة تقريبًا!

عصر ضعف الخلافة وسقوطها ٣٩٩ـ ٤٢٢ هـ .

سليمان المستعين وتدمير قرطبة

كان سليمان بن الحكم (المستعين بالله) لم يُقتل بعدُ وما زال في البلاد يُدَبِّر المكائد؛ يُريد أن يعود إلى الحُكم من جديد، ولم يجد أمامه إلاّ أن يعود مرَّة أخرى إلى ملك قشتالة (المرَّة الأولى كان قد ساعده على هزيمة المهدي

والوصول إلى الحُكم) ؛ ليعرض عليه من جديد أن يكون معـــه ضـــدّ الفتـــى واضح وهشام بن الحكم (هشام المؤيد) حتى يصل إلى الحُكم.

ويبدو أن مكيدة سليمان المستعين هذه وصلت إلى بلاط قرطبـــة، ولا نستبعد أن يكون الذي أوصلها هو ملك قشتالة نفسه، فما كان من هشام المؤيد وواضح العامري إلاّ أن نزلوا لملك قشتالة عن مائتي حصن مـــن الحـــصون الشمالية، التي كان قد افتتحها الحَكم والمنصور بن أبي عامر والمظفـــر بـــن المنصور، فتوسّعت قشتالة كثيرًا حتى أصبحت حدودها أكبر من حدود مملكة ليون، بالرغم من أنها كانت جزءًا صغيرًا منفصلاً عن مملكة ليون، وعظمت بذلك البلاد النصرانية في الشمال.

وإنها لكارثة كبيرة قد حلّت بديار الإسلام؛ فقد حدثت كل هذه الأحداث من القتل والمكائد والصراعات والاســـتعانة بالنـــصارى ثـــم دخـــولهم بـــلاد المسلمين، كل ذلك في ثلاث سنوات فقط.

وفي سنة (٤٠٣هـــ= ١٠١٢م) -عندما كان هشام بن الحكـــم علـــى الحُكم- قام سليمان بن الحكم ومن معه من البَربر بعملٍ لم يحدث في تـــاريخ المسلمين من قبل وحتى هذه اللحظة؛ فقد هجموا على قُرْطُبَة وعاثوا فيها فسادًا وقتلاً واغتصابًا للنساء، ثم من جديد يتولّى سليمان بن الحكم (المستعين بـــالله) الحكم في بلاد الأندلس، وفَرّ هشام بن الحكم أو قُتل، فلم يُعرف مصيره علـــى وجه اليقين، وكان مقرّ الحُكم آنذاك هو قُرْطُبَة، لكن البلاد كانت مفكّكة تمامًا، وقد فرّ العامريون إلى شرق الأندلس في منطقة بلنسية وما حولها.

خلافة علي بن حمود

من سنة (٤٠٣هـــ= ١٠١٢م) ظلّ سليمان بنُ الحكم -المستعين بالله- يتولّى الحُكم، وكان غالبية جيشه من البربر، وبعد عام واحد من تولّيه يثـــور حاكم مدينة سبتة المغربية، ويدّعي علي بن حمود -وقد كان من البربر- أنـــه

وصلت إليه رسالة على لسان هشام بن الحكم المؤيد بالله (الخليفة المخلوع مرتين) تُوصي إليه بالخلافة من بعده ، وبعض الروايات تقول بأن البربر - الذين هم عماد جيش سليمان المستعين بالله- أرادوا الانقلاب عليه وألّفوا هذه الرسالة على لسان هشام المؤيد، وبعثوا بها إلى علي بن حمود، فثار علي بن حمود في سبتة، واتصل ببعض مَنْ يُناصره في الأندلس، ثم عبر إليها، وفي سنة (٤٠٧هـ= ١٠١٦م) وقعت المعركة بين علي بن حمود، وبين سليمان المستعين بالله، فانتصر علي بن حمود، وتولى الحكم في قُرْطُبَة وقَتَل سليمان وأخاه وأباهما الحكم؛ كي يضمن ألاّ يثور عليه أحد، ثم تولّى الحُكم في بلاد وتَسَمَّى بالناصر بالله.

الدولة الحمودية في قرطبة

استقرَّ الأمر للناصر بالله علي بن حمود، فبدأ بذلك عهد الدولة الحمودية في قُرْطُبَة، وقام بتعيين أخيه القاسم بن حمود على إشْبِيلِية في سنة (٤٠٧هـ= ١٠١٦م)، وأصبح البربر هم الخلفاء الذين يتملّكون الأمور في قُرْطُبَة وما حولها.

خلافة المرتضي بالله الأموي

لم يرضَ العامريون الذين فرُّوا إلى شرق الأندلس بهذا الوضع، فما كان منهم إلاّ أن بحثوا عن أموي آخر وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ثم بايعوه على الخلافة، وقد تلقّب بالمرتضي بالله.

سار العامريون ومعهم المرتضي بالله إلى غَرْنَاطة كمقدمة للتوجُّه إلى قُرْطُبَة، ولكن -وكما هي العادة في زمن الفتنة- وقع أمر عجيب، فقد فوجئ خيران العامري بقوة شخصية المرتضي، وأيقن أنه لن يكون أبدًا صورة خليفة كما كان هشام المؤيد بالله، فكان أن انقلب عليه سرًّا فتحالف مع الحموديين، فلما نشبت المعركة بين المرتضي ومعه خيران العامري وبين

زاوي بن زيري -والي غَرْنَاطة البربري- انهزم خيران، فانهزم جيش المرتضي، ثم أدركه بعض فتيان خيران فقتلوه.

خلافة القاسم بن حمود

كان من العجيب -أيضًا- ما حدث قبل ذلك بقليل؛ إذ تآمر ثلاثة فتيان من الصقالبة موالي بني أمية بالخليفة الجديد علي بن حمود فقتلوه في الحمام، وعلى الفور راسل البربر المتغلبون على قُرْطُبَة أخا عليٍّ المقتول القاسم بن حمود، الذي كان حاكمًا لإشْبِيلِيَة من قِبَل أخيه الذي قُتل.

خليفتان في الأندلس

لكن ما لبث الحال أن تطور -أيضًا- فلقد ثار على القاسم ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود في سَبْتَة، ورأى أنه الخليفة الطبيعي بعد وفاة أبيه، واجتمع حوله نفر من البربر، وسار في جموعه إلى قُرْطُبَة، فانسحب أمامه عمه القاسم واتجه إلى إشبيلية، ثم كان من أعجب العجب أن تصالح كل منهما مع الآخر، فرضي كل منهما أن يكون الآخر خليفة، وفي ذلك يقول ابن حزم: «وهذا أمرٌ لم يُسمع في الدنيا بأشنع منه، ولا بأدلّ على إدبار الأمور: يحيى بقُرْطُبَة والقاسم بإشبيلية».

غير أن الأمور لم تهدأ؛ فكلما نُصِّب حاكم في قُرْطُبَة ثار عليه القرطبيون إن كان من البربر، أو لم يستطع ضبط الأمور إن كان أمويًّا، لقد انتهى عهد الرجال الأقوياء من بني أمية، ولم يبقَ إلاّ ضعيف الرأي والعزم، وقامت بعد ذلك صراعات كثيرة، واستمرّ الوضع على هذا الحال حتى سنة (٤٢٢هـ= ١٠٣١م).

سقوط الخلافة الأموية وتولي أبو الحزم بن جهور

سقوط الخلافة الأمويةفي محاولة لحلِّ هذه الأزمة التي تمرُّ بها البلاد، وفي محاولة لوقف هذه الموجة من الصراعات العارمة، اجتمع العلماء وعلية القوم من أهل قُرْطُبَة، وذلك في سنة (٤٢٢هـ= ١٠٣١م)، ووجدوا أنه لم يَعُدْ هناك من بني أمية مَنْ يَصلُح لإدارة الأمور؛ وكان زعيم هذا الأمر قاضي قُرْطُبَة البارز وصاحب التاريخ والخصال أبا الحزم بن جهور، فلقد كان أبو الحزم هذا من علماء القوم، كما كان يشتهر بالتقوى والورع ورجاحة العقل، وظلّ الحال على هذا الوضع ما يقرب من ثلاث سنوات.

كوّن ابن جهور مجلسًا للشورى لإدارة البلاد؛ لكن حقيقة الأمر أن أبا الحزم بن جهور لم يكن يُسيطر هو ومجلس الشورى الذي معه إلا على قُرْطُبَة فقط من بلاد الأندلس، أمَّا بقية البلاد والأقاليم الأخرى فقد ضاعت السيطرة عليها تمامًا، وبدأت الأندلس بالفعل تُقَسَّم بحسب العنصر إلى دويلات مختلفة؛ ليبدأ ما يُسَمَّى بعهد دويلات الطوائف، أو عهد ملوك الطوائف.

وقد ذكرنا -سابقًا- أن مساحة الأندلس كانت ستمائة ألف كم، فإذا طرحنا منها ما أخذه النصارى في الشمال؛ فإن النتيجة هي أربعمائة وخمسون ألف كم (أقل من نصف مساحة مصر) مقسمة إلى اثنتين وعشرين دولة؛ كلّ منها لها مقومات الدولة المتكاملة من رئيس وجيش ووزارات وعملة وسفراء، فتفتّتَ المسلمون في الأندلس تفتّتًا لم يُعهد من قبلِ في تاريخهم، وفقدوا بذلك عنصرًا مهمًّا جدًّا من عناصر قوتهم وهو الوحدة، فكان الهبوط على أشدِّ ما يكون، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قرطبة في عيون العلماء والأدباء

ابن حوقل

قرطبة أجمل مدن العالم وقد طَرَقَ قرطبة في حدود سنة (٣٥٠هـ = ٩٦١م) ابن حوقل، التاجر الموصلي، فقال يَصِفُها: «وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبية في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها. وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد مُتّصِلَة بأسافله من رُبُضِهَا ، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامّة برُبُضِها، وأهلها متموِّلون مُتَخَصِّصُون».

الإدريسي

يقول الإدريسي عن تميُّز سكان قرطبة بأنهم أشراف الناس وعلماؤهم، وأرفعهم مكانةً!: «ولم تخلُ قرطبة قَطُّ من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، ونُجّارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سَنِيَّة وهممٌ علِيَّة».

الحميري

ويقول الحِميري: «قرطبة: قاعدة الأندلس، وأمّ مدائنها، ومستقرّ خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تُذْكَر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتهروا بصحّة المَذْهَب، وطيب المكسب، وحُسن الزيّ، وعلوّ الهمّة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء».

ياقوت الحموي

ويصفها ياقوت الحموي -أيضًا- فيقول: «مدينة عظيمة بالأندلس وَسَط بلادها، وكانت سريرًا لمَلِكِهَا وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية، ومَعْدِن الفضلاءِ، ومنبع النبلاءِ من ذلك الصُّقْع».

ابن بسام

ويحكي أبو الحسن بن بسَّام عنها قوله: «كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأُمّ القرى، وقرارة أهل الفضل والتُّقَى، ووطن أُولِي العلم والنُّهى، وقلب الإقليم، وينبوعَ مُتَفَجِّر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر دُرَرِ القرائح؛ ومن أفْقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر؛ وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصُنِّفَت التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك -وتبريز القوم قديمًا وحديثًا هنالك على مَنْ سواهم- أن أُفُقَهُم القرطبيّ لم يشتمل قطّ إلاّ على أهل البحث والطلب لأنواع العلم والأدب. وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق -يعني قرطبة خاصةً والأندلس عامّة- أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها؛ فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر».

ابن الوردي

ويَصِفُها وأهْلَهَا ابن الوردي في خريدة العجائب فيقول: «وأهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المآكل والملابس و"مراكب وعلو الهمّة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وأجِلاّء الغزاة وأمجاد الحروب». ثم قال بعد أن وصف مسجدها وقنطرتها: «ومحاسن هذه المدينَة أعظم من أن يحيط بها وصف».

كانت هذه هي إحدى مُدُن الحضارة الإسلاميَّة التي ساهمت في تَقَدُّم مسيرة الإنسانية، ودفع عجلتها إلى الأمام. والحقيقة أن قرطبة ليست الوحيدة

في ذلك، ولو كان حديثنا عن بغداد، أو دمشق، أو القــاهرة، أو البــصرة، أو غيرها وغيرها، لكان على الدرجة نفسها من العجب أو أشدّ، ولا غَرْوَ! فهــذه حضارة المسلمين، أعظم حضارات الدنيا، ودُرَّة الجبين في تــاريخ الإنــسانية الطويل.

الفصل الخامس

عصر دول الطوائف ٤٢٢ – ٤٨٤ هـ

ملوك الطوائف في الأندلس

هذه فترة من أصعب فترات التاريخ الأندلسي قاطبة، وأكثرها تعقيدًا وتشابكًا، فعلى الرغم من قِصَر مدتها -التي لا تتجاوز القرن الواحد- إلا أنها تتسم بالأحداث المتعاقبة والأطماع المتزايدة، والفُرقَة والتنازع الشديدين؛ فغدت الأندلس كحبّات العِقد المتناثرة، التي لا يجمعها رابط عرق ولا دين، وكانت هذه الأحداث جديرة بأن تجعل القرن الخامس الهجْري من القرون المظلمة في تاريخ الأندلس كله، فمنذ إعلان إلغاء الخلافة الأموية في الأندلس بدأت الأندلس بالفعل تُقسَّم بحسب العنصر إلى دويلات مختلفة، ليبدأ ما يُسَمَّى بعهد دويلات الطوائف، أو عهد ملوك الطوائف.

كيف تكونت ملوك الطوائف؟

استحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة، ودولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يُسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار، أو متغلِّبٌ من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوي السلطان السابق، أو زعيم أسرة محلي من ذوي الجاه والعصبية، وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسباني الجنوبي، وما كان منه بيد الدولة الحمودية، وأنشئوا هنالك إمارات عدّة، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام، الذي شمل هذه المنطقة، وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول الطوائف، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن.الخامس حتى الفتح المرابطي، زهاء سبعين عامًا، قضتها جميعًا في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة، والخصومات

والحروب الأهلية، وكادت بتنابُذها وتفرُّقها ومنافساتها تمهِّد لسقوط الأندلس النهائي.

وقد ذكرنا –سابقًا– أن مساحة الأندلس تقسمت إلى اثنتين وعشرين دولة؛ فتفتّت المسلمون في الأندلس تفتّتًا لم يُعهد من قبل في تاريخهم، وفقدوا بذلك عنصرًا مهمًّا جدًّا من عناصر قوتهم وهو الوحدة، فكان الهبوط على أشدِّ ما يكون، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الطوائف.. تقسيم بلاد الأندلس

ملوك الطوائففي ذلك العصر قُسِّمَتْ فيه بلاد الأندلس إلى سبع مناطق رئيسة؛ هي كما يلي:

أولاً: بنو عَبَّاد: وهم ينتمون إلى العرب من بني لخم، وقد أخذوا منطقة إِشْبِيلِيَة.

ثانيًا: بنو زيري: وهم من البربر، وقد أخذوا منطقة غَرْنَاطَة، وكانت إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة في جنوب الأندلس.

ثالثًا: بنو جهور: وهم الذين كان منهم أبو الحزم بن جهور زعيم مجلس الشورى، وقد أخذوا منطقة قُرْطُبَة وسط الأندلس.

رابعًا: بنو الأفطس: وهم من البربر، استوطنوا غرب الأندلس، وأسسوا هناك إمارة بَطَلْيُوس الواقعة في الثغر الأدنى.

خامسًا: بنو ذي النون: وهم من البربر، استوطنوا المنطقة الشمالية، التي فيها طُلَيْطِلَة وما فوقها (الثغر الأوسط).

سادسًا: بنو عامر: وهم أولاد بني عامر، الذين هم عرب معافريون من العرب اليمانية، استوطنوا شرق الأندلس، وكانت عاصمتهم بَلَنْسِيَة.

سابعًا: بنو هود: وهؤلاء أخذوا منطقة سَرَقُسْطَة (الثغر الأعلى)، تلك التي تقع في الشمال الشرقي.

وهكذا قُسِّمَتْ بلاد الأندلس إلى سبعة أقسام شبه متساوية، كل قسم يضمٌّ إما عنصرًا من العناصر، أو قبيلة من البربر، أو قبيلة من العرب، بل إنَّ كل قسم أو منطقة من هذه المناطق كانت مُقَسَّمة إلى تقسيمات أخرى داخلية، حتى وصل عدد الدويلات الإسلامية داخل أراضي الأندلس عامة إلى اثنتين وعشرين دويلة، وذلك رغم وجود ما يقرب من خمس وعشرين بالمائة من مساحة الأندلس في المناطق الشمالية في أيدي النصارى.

وملوك الطوائف هي فترة تاريخية في الأندلس بدأت بحدود عام ٤٢٢ هـ لما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية في الاندلس، مما حدا بكل أمير من أمراء الأندلس ببناء دويلة منفصلة، وتأسيس أسرة حاكمة من أهله وذويه.

في العقدين ١٠٢٠، ١٠٣٠ سقطت الخلافة بسبب ثورة الامازيغ ونشوء ملوك الطوائف الذين قسموا الدولة إلى ٢٢ دويلة، منهم غرناطة وأشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين والبداجوز وبلنسية ودانية والبليار ومورور. وبينما ورثت تلك الدويلات ثراء الخلافة، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لمسيحيي الشمال، ووصل الأمر إلى أن ملوك الطوائف كانوا يدفعون الجزية للملك ألفونسو السادس، وكانوا يستعينون به على أخوانهم.

كان كل أمراء المؤمنين الموجودون في هذه الفترة يدفعون الجزية لألفونسو السادس ومن معه إلا أمير مملكة بطليوس المتوكل بن الأفطس، كان لا يدفع جزية للنصاري، فأرسل له ألفونسو السادس رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية كما يدفعها إخوانه من المسلمين في الممالك الإسلامية المجاورة فأرسل له رسالة يقول فيها :

"وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير يرعد ويبرق ويجمع تارة ثم يفرق، ويهدد بجنوده المتوافرة وأحواله

المتظاهرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام وأظهر بهم دين نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ،ولا يخافون، بالتقوى يعرفون، وبالتوبة يتضرعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليميز الله الخبيث من الطيب ويعلم المنافقين، أما تعييرك للمسلمين فيما وهي من أحوالهم فبالذنوب المركومة.. ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك لعلمت أيّ مصاب أذقناك كما كانت آباؤك تتجرعه وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك لما أجبر أجدادك على دفع الجزية حتى أهدي جدك أحد بناته إليه، أما نحن إن قلت أعدادنا وعدم من المخلوقين استمدادنا فما بيننا وبينك بحر نخوضه ولا صعب نروده، ليس بيننا وبينك إلا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك وجلاد تبصره في ليلك ونهارك وبالله وملائكته المسومين نتقوى عليك ونستعين ليس لنا سوي الله مطلب ولا لنا إلى غيره مهرب وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين نصر عليكم فيا لها من نعمة ومنة أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هددت وفرج يفرج بما نددت ويقطع بما أعددت".

وختم رسالته وأرسلها إلى ألفونسو السادس، الذي لم يستطع أن يرد، وما استطاع أن يرسل له جيشاً ليحاربه.

موقف المعتمد بن عباد

كان المعتمد بن عباد يحكم أشبيلية، وكان يدفع الجزية لألفونسو السادس ملك قشتالة، وعندما جاءه ذات يوم وزير ألفونسو لأخذ الجزية، أساء الأدب مع المعتمد، وطلب بكل وقاحة، أن يسمح لزوجة ألفونسو الحامل أن تضع مولودها في أكبر مساجد المسلمين، لأنه تم التنبؤ لها أنها إذا ولدت هناك سيدين المسلمين بالولاء لولدها. فغضب المعتمد وقتل الوزير. وعندما علم ألفونسو السادس بقتل وزيره، غضب وسار إلى أشبيلية وحاصرها بجيشه، وبعث إلى المعتمد بن عباد يخبره أنه سيمكث هنا ولا يوجد ما يضايقه سوى الذباب، ويأمره أن يبعث له بمروحة ليروح بها الذباب، فلما وصلت هذة

الرسالة إلى المعتمد قلبها وكتب على ظهرها : والله لئن لم ترجع لأروحن لك بمروحة من المرابطين. هدد المعتمد بالأستعانة بدولة المرابطين، فخاف ألفونسو وجمع جيشه وأنصرف.

أجتماع ملوك الطوائف

- فكر ملوك الطوائف في الكارثة التي توشك أن تعصف بهم وهي سقوط دولة الأندلس فقاموا بعقد اجتماع يضم كافة أمراء الأندلس وعلماء الأندلس، وأشار العلماء في ذلك الاجتماع بالجهاد، وطبعا عارض الأمراء ذلك الرأي بشدة بحجة عدم قدرتهم على الوقوف وحدهم في مواجهة القشتاليين، فأقترح العلماء مرة أخرى الأستعانة بالمرابطين، فتخوف الأمراء من ذلك الأمر لأن المرابطين دولة قوية ولو هزمت النصارى لأخذت دولة الأندلس وضمتها إلى دولة المرابطين، فتجادلوا كثيرا حتى قام المعتمد على الله بن عباد وقال خطبة كان آخرها مقولته الشهيرة : "والله لا يسمع عني أبداً أنني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم علي اللعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري، تالله إنني لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أؤدي له الجزية، والله لئن أرعى الأبل في المغرب خير لي من أن أرعى الخنازير في أوروبا "

فلما انتهى من خطبته تشجع كلاً من المتوكل على الله بن الأفطس وعبد الله بلقين، ووافقا على الطلب من المرابطين العون لمحاربة قشتالة، وقام هؤلاء الأمراء الثلاثة بإرسال وفد مهيب من الوزراء والعلماء إلى دولة المرابطين في المغرب.

الاستنجاد بيوسف بن تاشفين

عندما وصل الوفد إلى يوسف بن تاشفين فرح بهذه الفرصة للجهاد في سبيل الله وجهز سبعة آلاف رجل وجهز السفن وعبر مضيق جبل طارق في الخميس منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ/ ٣٠ يونيو ١٠٨٦، ولكن في وسط

المضيق ترتفع الأمواج ويهيج البحر وتكاد السفن أن تغرق فيقف ذليلا خاشعا يدعو ربه والناس تدعوا معه يقول: " اللهم إن كنت تعلم في عبورنا هذا البحر خيرا لنا وللمسلمين فسهل علينا عبوره وإن كنت تعلم غير ذلك فصعبه علينا حتي لا نعبره " فتسكن الريح ويعبر الجيش، يدخل يوسف بن تاشفين أرض الأندلس، ويستقبله الناس أستقبال الفاتحين ويدخل إلى قرطبة ويدخل إلى أشبيلية، ثم يعبر إلى اتجاه الشمال في اتجاه مملكة قشتالة، حتى وصل إلى الزلاقة في شمال الأندلس، وعندما وصل هناك كان قد أنضم إليه من أهل الأندلس حتى وصل جيشه إلى حوالي ثلاثين ألف رجل، وهناك وقعت معركة الزلاقة يعلق يوسف أشباخ في كتابه (تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين) على موقعة الزلاقة بقوله: إن يوسف بن تاشفين لو أراد استغلال انتصاره في موقعة الزلاقة، لربما كانت أوروبا الآن، تدين بالإسلام، ولدرس القرآن في جامعات موسكو، وبرلين، ولندن، وباريس. والحقيقة أن المؤرخين جميعا يقفون حيارى أمام هذا الحدث التاريخي الهائل الذي وقع في سهل الزلاقة، ولم يتطور إلى أن تتقدم الجيوش الإسلامية لاسترداد طليطلة من أيدي النصارى، خاصة وأن الملك الإسباني كان قد فقد زهرة جيشه في هذه المعركة، ولا يختلف أحد في الرأي بأن الطريق كان مفتوحا تماما وممهدا لكي يقوم المرابطون والأندلسيون بهذه الخطوة

ملوك الطوائف بعد الزلاقة

بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى أرض المغرب، حدثت الصراعات بين أمراءالمؤمنين الموجودين في بلاد الأندلس على غنائم معركة الزلاقة، وحدثت الصراعات على البلاد المحررة، فضج العلماء، وذهبوا إلى يوسف بن تاشفين يطلبون منه الدخول مرة أخرى إلى الأندلس لتخليص الشعب من هؤلاء الأمراء، فتورع يوسف بن تاشفين من محاربة المسلمين، فأتته الفتاوي من كل بلاد المسلمين، حتي جاءته من الشام من أبي حامد الغزالي صاحب الإحياء، وكان معاصرا وجاءته الفتاوي من أبي بكر الطرطوشي العالم

المصري الكبير ،وجاءته الفتاوي من كل علماء المالكية في شـمال إفريقيـة، جاءته الفتاوي إنه عليه إن يدخل إلى البلاد، ويضمها إلى دولة المرابطين حتي ينجد المسلمين مما هم فيه، ففعل ودخل في سنة ٤٨٣ بعد موقعة الزلاقة التي تمت في سنة ٤٧٩ بأربع سنوات، وهناك حاربه أمراء المؤمنين، وممن حاربه المعتمد بن عباد، استطاع يوسف بن تاشفين أن يضم كل بلاد الأندلس، وأيضا يحرر سرقسطة، وضمها إلى بلاد المسلمين وأصبح يوسف بن تاشفين أميـرا على دولة تصل من شمال الأندلس بالقرب من فرنسا إلى وسط إفريقيا. وبهذا انتهى عصر ملوك الطوائف الذي أمتد من سنة ٤٢٢ هـ إلى سنة ٤٧٩ هـ.

بنو جهور في قرطبة

خلافة هشام المعتد بالله

لما غادر يحيى بن علي الحمودي قرطبة بعد أن ترك حامية بربريـة فيها -وذلك في المحرم من عام ٤١٧هـ متجهًا إلى مَالَقَة- ثار أهل قُرْطُبَـة على الحامية البربرية، وقتلوا ألفًا منهم، واجتمع أمرهم على ردّ الأمر إلى بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبا الحزم جهور بن محمد، الـذي أرسـل إلى أهل الثغور والمتغلِّبين هنالك على الأمور، وعرض عليهم الأمر فقبلـوه، وأجمعوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر لدين الله، وكان مقيمًا في منفاه بالبُونت عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسـم الفهـري المتغلِّب بها، فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨هـ، وتلّقب بالمعتدّ بـالله، وبقي على ذلك خليفة يُخطب له في قُرْطُبَة وهو في منفاه.

إلغاء الخلافة الأموية

عزم المعتد بالله على القدوم إلى قُرْطُبَة عصبةِ المُلْكِ والخلافة، وذلك بعد سنتين من مبايعته، فقدمها في ذي الحجة ٤٢٠هـ، ولبث فيها سنتين حتى أساء السيرة، وتعرّض وزراؤه لظلم الرعية، فثار أهل قُرْطُبَة عليه، فخلعـوه وخرج هو وأهله وخدمه في ذي الحجة ٤٢٢هـ، واجتمـع أهـل قُرْطُبَـة

وأجمعوا أمرهم على إلغاء الخلافة الأموية، والتخلُّصِ نهائيًّا من بني أمية وإجلائهم خارج قُرْطُبَة، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبا الحزم جهور بن محمد، وغدت قُرْطُبَة بلا خلافة ترفعها ولا خليفة يجمعها.. وانتهى عهد الخلافة الأموية في بلاد الأندلس إلى الأبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وبذلك انفرط عِقد الأندلس منذ تلك اللحظة؛ فالخلافة وإن كانت ضعيفة إلا أنها رمز لجمع الكلمة وتوحيد الصفِّ، إذا وَجَدَتْ مَنْ يحمل رسالتها الخالصة وأَخَذَهَا بِحَقِّها، ولكن تلك سُنَّة الله في بناء الدول وانحدارها، وما أشبه الليلة بالبارحة! فمنذ أن أُلغيت الخلافة العثمانية وحال المسلمين كما نرى: رقاع متناثرة، ودول متناحرة، لا يجمعهم إلا القومية والعصبية الجاهلية.

بدأت أنظار القرطبيين تتجه صوب الوزير الحازم المعروف برأيه وحسن تدبيره وصلاح سيرته؛ ليتولى أمور قُرْطُبَة بعد طرد الأمويين والحموديين من قُرْطُبَة، وهكذا اختير الوزير أبي الحزم بن جهور رئيس الجماعة وكبير قُرْطُبَة، اختيارًا شرعيًّا شوريًّا؛ للاضطلاع بتلك المهمة الخطيرة، وذلك في منتصف ذي الحجة عام ٤٢٢هـ، ولبيان حال خلافة هشام المعتدّ وعزله يقول ابن عذاري: افْتُتِحَتْ بيعته بإجماع وخُتِمَتْ بفُرْقَة، وعُقدت برضًا وحُلَّتْ بكراهية.

ومن هذا التاريخ بدأت دولة بني جهور بقرطبة.

بنو جهور

شعار وعلم دولة بني جهور في قرطبةينتمي أبو الحزم بن جهور إلى بيت عريق من بيوت الشرف والوزارة في بلاد الأندلس منذ أن دخلها الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية -الملقب بصقر قريش-، وظلّت في عقبهم.إلى أن آلت إليه وفي ولده من بعده، فهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن

عبيد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي.

كان جدُّه يوسف بن بخت بن أبي عبدة من الفرس وهو مولى عبد الملك بن مروان، وكان قد دخل الأندلس مع طالعة بلج بن بشر، وكان من كبار موالي بني أمية في قُرْطُبَة قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية إليها، ولما دخلها كان من أنصاره، وولي وزارته وحجابته، وكان ذا دين وفضل وخير، كما تولّى القيادة والحجابة في عهد هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل، ومن بعده للحكم الربضي، وظلّت الوزارة في عقب يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي، فوليها حفيده عبد الملك بن جهور للأمير عبد الله بن محمد وأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، وتولّى ولده جهور بن عبد الملك الوزارة في عهد الناصر أيضًا، كما وَلِيَ أبو الوليد محمد بن جهور بن عبد الملك الخزانة لعبد الرحمن الناصر، وولي الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر، ثم تولّى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور المعروف بشنجول، وهو آخر مَنْ تَوَلّى الدولة العامرية.

الوزير أبو الحزم بن جهور

عاش أبو الحزم جهور الفتنة، وراقب الأحداث والتقلّبات التي عانتها الخلافة في قُرْطُبَة، حتى آلت لعلي بن حمود الذي استوزره، ثم شهد ما حدث بين يحيى بن علي الحمودي وعمه القاسم بن حمود وتبادُل الخلافة بينهما، ثم خروج علي بن حمود من قُرْطُبَة إلى مَالَقَة على نحو ما ذكرنا، وكان هو زعيم الثورة القرطبية على بني حمود، ثم استقدامه هشام المعتدّ، ثم ثورة أهل قُرْطُبَة التي تزعّمَها على هشام المعتد وطرده هو وبني أمية والمروانية كلهم من قُرْطُبَة، وبقيت قُرْطُبَة بلا حاكم أو خليفة، وهنا اتجهت أنظار أهل الرأي والمشورة في قُرْطُبَة إلى صاحب الزعامة الشعبية وحُسن التّدابير في الوزارة والحكم، وكان هو أبو الحزم جهور بن محمد؛ فهو كبير الجماعة ورئيس

مجلس الشورى وزعيم قُرْطُبَة، فأصبح هو رئيس الحكومة القرطبية بإجماع أهلها ورؤسائها وأهل الرأي فيها.

وللوزير الكاتب الفتح بن خاقان وصف عجيب، وبيانٌ جليل لقدر هذه العائلة ومنزلة أبي الحزم منهم في مقال فريد نذكره لحسن سجعه وجمال تعبيره، يقول فيه: «وبنو جَهْوَر أهل بيت وزارة، اشتهروا كاشتهار ابن هُبَيْرة في فَزَارة، وأبو الحَزْم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمّات، ركب مُتُون الفتون فَرَاضها، ووقع في بحور المِحَن فَخَاضها، مُنْبَسِطٌ غيرُ مُنْكمش، لا طائش اللِّسانِ ولا رَعِش، وقد كان وزر في الدولة العامرية فَشَرُفَتْ بجلاله، واعترفتْ باستقلاله، فلمّا انقرضت وعاقت الفتنُ واعترضت، تخلّى عن التدبير مُدّتها، وَخلّى لخلافه تدبير الخلافة وشدّتها، وجعل يُقْبِل مع أولئك الوزراء ويُدْبِر، وينهلُ الأمر معهم ويُدَبِّر، غير مُظْهِر للانفراد، ولا مقصِّر في ميدان ذلك الطِّرَاد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، وسوَّغت ما شاءت رَدَاها، وذهب مَنْ كان يَخِدُ في الرئاسة ويخبُّ ، ويسعى في الفتنة ويَدِبُّ، ولمّا ارتفع ذلك الوبال، وأدبر ذلك الإقبال، راسلَ أهلَ التقوى مستمدًّا بهم، ومعتمدًا على بعضهم؛ تحيُّلاً منه وتمويهًا، وتَدَاهيًا على أهل الخلافة وذَويها، وعَرَضَ عليهم تقديم المعتدّ هشام، وأومض منه لأهل قُرْطُبَة برق خُلّبٍ يُشَام ، بعد سرعة التياثها ، وتعجيل انتكاثها، فأنابوا إلى الإجابة، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحِجَابة، وتوجّهوا مع ذلك الإمام، وألمّوا بقُرْطُبَة أحسنَ إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطرابات مستثيرة، والبلد مُقْفِر، والجلد مُسْتَفِر، فلم يبقَ غيرُ يسير حتى جبذ واضطرب أمره فخُلِعَ، واخْتُطِفَ من المُلْك وانْتُزِعَ، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العَلَوية، واستولى على قُرْطُبَة عند ذلك أبو الحزم، ودبَّرها بالجِدِّ والعزم، وضبطها ضبطًا أَمَّنَ خائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخلا له الجوُّ فطار، واقتضى اللُّبَانَات والأوطار، فعادت له قُرْطُبَة إلى أكمل حالاتها، وانجلى به نوء استجلالاتها، ولم تزل به مشرقة، وغصون الأمل فيها مورقة إلى أن تُوُفِّيَ سنة ٤٣٥هـ».

ومن هنا وبعد أن انفرد أبو الحزم بن جهور بالحُكم بلا منازع ينازعه، ولا خليفة ينادي بالحكم دونه، ماذا عن سياسته في إدارة الأمور وتسيير البلاد؟

حكومة أبي الحزم بن جهور

تقف حكومة قُرْطُبَة في ذلك الوقت موقف الفريد والنادر بين ممالك الأندلس، التي تشعَّبت بها الطرق بعد إلغاء الخلافة الأموية؛ فالسياسة التي اتّبعها أبو الحزم بن جهور بعد اختياره حاكمًا لقُرْطُبَة تنمُّ على بُعْدِ سياسته ودهائه؛ فهي حكومة من نوع خاصٍّ، فأبو الحزم بن جهور يحكم دولة على أنقاض الخلافة الأموية، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس، تمتدُّ شمالاً حتى جبل الشارات (سييرا مورينا)، وشرقًا حتى منابع نهر الوادي الكبير، وغربًا حتى قرب إِسْتِجَة، وجنوبًا حتى حدود ولاية غَرْنَاطَة، وتشمل من المدن عدا قُرْطُبَة جَيَّان وأُبَّذَة وبَيَّاسَة والمدور وأَرْجُونَة وأندوجر.

وهو رجل خبر السياسة والدهاء بحُكم اشتغاله بالوزارة والكتابة وملازمة الخلفاء والمتسلِّطين على الخلافة، فعَرَّفته التجارِب أن التسلُّط والاستبداد طريق الزوال القريب، فابتكر نظامًا سياسيًّا شوريًّا، أقرب إلى النظام الديمقراطي في وقتنا الحاضر، فلم ينفرد بالسياسة ولا بتدبير الأمور، بل شكَّل مجلسًا شوريًّا وزاريًّا من الوزراء وأهل الرأي والمشورة والقيادة بقُرْطُبَة، وجعلهم أهل رأيه، لا يصدر عن رأي إلا بهم، ولا بسياسة إلا بتدبيرهم، وسمَّى نفسه (أمين الجماعة)، وكان إذا سُئِلَ قال: «ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم». وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير، أحضرهم وشاورهم فيُسرعون إليه، فإذا علموا مراده فَوَّضُوا إليه بأمرهم؛ وإذا خُوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء، كما أنه اتبع سياسة أخرى كانت أشدَّ ذكاء ودهاء؛ فهو لم يُفارق رسم الوزارة، ولم ينتقل من دور الوزارة إلى قصور الخلفاء والأمراء، بل دَبَّرَها تدبيرًا لم يُسبق إليه، وجعل نفسه ممسكًا للموضع إلى أن يجيء مستحقٌّ يُتَّفق عليه، فيُسَلِّم إليه، ورتَّب

البوابين والحشم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيام الخلافة، ولم يتحوّل عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رَتّبهم لذلك، وهو المشرف عليهم.

إضافة إلى هذا الدهاء السياسي الذي اتبعه أبو الحزم بن جهور فقد كان من أشدّ الناس تواضعًا وعفّة وصلاحًا، وأنقاهم ثوبًا، وأشبههم ظاهرًا بباطن، وأولاً بآخرَ، لم يختلف به حال من الفتاء إلى الكهولة، ولم يُعثَر له قطّ على حال يدلّ على ريبة؛ جليسُ كتابٍ منذ درج، ونَجِيُّ نظرٍ منذ فهم، مشاهدًا للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلّفوا عنه، حافظًا لكتاب الله قائمًا به في سرِّه وجهره، متقنًا للتلاوة، متواضعًا في رفعته، مشاركًا لأهل بلده، يزور مرضاهم ويُشاهد جنائزهم.

حكومة الجماعة

إن نظام الحُكم الذي اتّبعه الوزير ابن جهور يدلّ على بُعد نظره وحُسن سياسته وتدبيره، وقد عُرِفَتْ هذه الحكومة التي كوّنها ابن جهور بحكومة الجماعة والشورى، والباعث الحقيقي لدى الوزير ابن جهور لتكوين ذلك النظام من الحُكم ربما يكون خفيًا، فيمكن أن يكون الأمر ضربًا من الذكاء والدهاء السياسي، يجمع به كلمة الشعب حوله وأصحابَ الرأي فيه، يَتّقي بهم منافسيه، ويكونون له عونًا يستند إليهم عند الحاجة، ويمكن أن نُرجعه إلى حُبِّه للشورى وإقامةِ العدل وجمع كلمة المسلمين، وخاصّة بعد أن انفرط عقد الخلافة وبالتالي انفرط عقد الأندلس كلها.

وعلى كلٍّ فإنها كانت بلا ريب نموذجًا بديعًا من حُكم الشورى، أو حكم الأقلية الأرستقراطية في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية والحُكم المطلق، وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع الرئيس أن يتنصّل من المسئولية، وأن يستظلّ بلواء الجماعة إذا ما ساءت الأحوال، وأن يُحْرِزَ الثناءَ وجميل الذِّكْر إذا حسنت العواقب

سياسة أبي الحزم جهور في قرطبة

السياسة الداخلية

قرطبة الأندلستولّى أبو الحزم جهور حكومة قرطبة والبلاد تعيش حالة توتر أمني؛ فالبلاد تعيش بلا خليفة يحكمها، أو خليفة يلتفّ الناس حوله، فكانت البلاد مسرحًا للعابثين من محترفي النهب والسرقة، كما شهدت فسادًا اقتصاديًّا؛ حيث غلت الأسعار، وتدهورت التجارة، وعمَّ الاستغلال، وارتفعت الضرائب والمكوس، ونُهِبَت الأموال العامة من مختلسي أموال الدول، وعاشت كذلك تدهورًا علميًّا وفكريًّا فليست هناك حكومة تعتني بالعلماء والأدباء والشعراء، وتُنفق عليهم من الأموال ما هو كفيل بإبداعهم وتفوقهم، فكان النظام الجديد الذي ابتكره أبو الحزم بن جهور كفيلاً بأن يقف أمام هذه التحديات، التي تعصف بدول وحكومات لو ساءت الإدارة وتعسَّف المتحكمون.

القضاء على الانفلات الأمني

سلك الوزير ابن جهور مسلك الحاكم المصلح، باتخاذ إجراءات إصلاحية في البلاد؛ لعل أوّلها القضاء على الانفلات الأمني وأحداث الشغب، التي قد تعصف بالبلاد، وأن يُوَطِّد دعائم الأمن والنظام، فعامل البربر الثائرين عليه بخفض الجناح والرفق في المعاملة، حتى حصل على سلمهم ومحبّتهم، كما فَرّق السلاح على البيوت والمحلات؛ حتى إذا دهم أمرٌ في ليلٍ أو نهارٍ كان سلاح كل واحد معه، كما جعل أهل الأسواق جندًا، وهذه السياسة كفيلة بأن تجعل البلاد بلد أمن وسلام، بل وأصبحت قُرْطُبَة ملجأ أمنٍ للفارّين والمنفيين من الأمراء المخلوعين عن عروشهم، فقُرْطُبَة في أيامه حريمًا يأمن فيه كل خائف من غيره.

الإصلاح الاقتصادي

كما عمل أبو الحزم ابن جهور على إصلاح الفساد الاقتصادي؛ فقضى على كل أنواع البذخ والترف، وعمل على حفظ الأموال العامة؛ وخاصة

الأموال السلطانية من السرقة، فقد جعل عليها رجالاً يثق بقـــدرتهم وأمـــانتهم، وجعل نفسه مشرفًا عليهم ، كما عمل على خفض الضرائب والمكوس، وعمل على تشجيع المعاملات التجارية؛ فوزّع الأموال على التجار؛ لتكون بيدهم دَيْنًا عليهم، يستغلّونها ويحصلون على ربحها فقط، وتُحْفَظ لديهم، ويُحَاسَبُون عليها من وقت لآخر، وكانت النتيجة أن عمَّ الرخاء قُرْطُبَة، وازدهـــرت الأســـواق، وتحسَّنت الأسعار، وغلت الدور، وعاد النماء بعد الكساد.

إصلاح القضاء والازدهار الفكري

ونتيجةً لهذه السياسة الحكيمة التي اتبعها الوزير أبو الحزم بن جهـــور شهدت قُرْطُبَة ازدهارًا سياسيًّا واقتصاديًّا، كان دافعًا إلى إصلاح القضاء مـــن ناحية؛ حيث عمَّ العدل بين الناس، وأمِنَ الناس على حقـــوقهم، ومـــن ناحيـــة أخرى عملت هذه السياسة على الازدهار الثقافي والفكري، وهـــذا الانقـــلاب الإيجابي الذي أحدثته حكومة ابن جهور أثارت دهشة مـــؤرِّخ الأنـــدلس ابـــن حيان، وهو أحد من عاشوا وشاهدوا ذلك التحوُّل بقوله: «فعَجِبَ ذو التحصيل للّذي أوَى إليه في صلاح أحوال الناس من القوَّة ولما تعتدل حـــال، أو يهلـــك عدوٌّ، أو تَقْوَ جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون».

وابن حيان نفسه في موضع آخر يذكر أن ابن جهور لم يكن لينـــسى نفسه أمام هذا الرخاء، الذي نعمت به قُرْطُبَة في ظلِّ حكومته، فيقول: «ولـــم يخلُ مع ذلك من النظر لنفسه وترقيحه لمعيشته، حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاطَ ذلك كلَّهُ بالبخل الشديد والمنـــع الخـــالص، اللذين لولاهما ما وَجَدَ عائِبُه فيه طعنًا، ولكَمُلَ لو أن بشرًا يكمُل».

السياسة الخارجية

موقف الوزير جهور من دعوة ظهور هشام المؤيد في إشبيلية

كان للوزير ابن جهور موقفًا خاصًا من دعوة القاضي أبي القاسم بن عباد متملِّك إِشْبِيلِيَة بظهور الخليفة هشام المؤيد في إِشْبِيلِيَة سنة (٤٢٦هـ=١٢٣٥م) ؛ وذلك ليدحض دعوة يحيى بن علي الحمودي في الخلافة من ناحية، وليُكسِبَ الشرعية السياسية لحُكم البلاد من ناحية أخرى، فبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة لهشام من أهل إِشْبِيلِيَة وأعيانها، بعث بالكُتب إلى أنحاء الأندلس لأخذ البيعة للخليفة الشرعي للبلاد، فلم يعترف به أحدٌ سوى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بَلَنْسِيَة، والمُوَفّق العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، وصاحب طُرْطُوشة.

أما الوزير أبو الحزم بن جهور فإنه أرسل الرسل ليتبيَّن حقيقة الأمر، ولما ظهر له كذبها رفض هذا الادعاء؛ إلا أن أهل قُرْطُبَة مالت نفوسهم إلى الخليفة هشام المؤيد، وكادت تقوم ثورة ضدّ ابن جهور، فزوِّر الشهادة؛ فَصَحَّت عنده الشهادة به، فبايعه وخطب له؛ بيد أن بيعته كانت لغرض الدنيا ودفع دعوى الحموديين في الخلافة، ومطامعهم في أملاكها على نحو ما أراد ابن عباد، غير أن ابن جهور تراجع عن طاعته، خاصة أن القاضي ابن عباد طلب منه أن يدخل في طاعته باسم الخليفة هشام، فرفض ابن جهور وأعلن تَبَرُّؤه من دعوته.

دعوة الوزير جهور للسلم وفض المنازعات بين الأمراء

ملوك الطوائف كانت سياسة الوزير أبي الحزم بن جهور سببًا مباشرًا في إقرار السلام والأمان والازدهار في قُرْطُبَة؛ وهذا ما جعلها موضع ثقة ملوك الطوائف الأخرى في بلاد الأندلس، وكانت الهيبة ورجاحة العقل صفتين تميَّزَ بهما الوزير ابن جهور، وهذا ما جعله موضع الوسيط العدل لفضِّ المنازعات والخصومات بين الأمراء المتنازعين، فحين كاد الصراع أن يحتدم

بين المعتضد بن عباد صاحب إشْبِيلِيَة والمظفر بن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس، حيث هاجم المعتضد بن عباد مدينة لَبْلَة الواقعة غربي إشْبِيلِيَة، فاستغاث صاحبها ابن يحيى بالمظفر بن الأفطس لنجدته، فتحرّك له، وأرسل جماعة من البربر لمهاجمة إشْبِيلِيَة، وأرسل الوزير ابن جهور رسله ليُنْذرهم من رَحَى فتنةٍ تعصف ببلاد الأندلس، ويدعوهم إلى السلم وفضِّ النزاع، وهي السياسة نفسها التي اتبعها ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بين المعتضد بن عبّاد والمظفر بن الأفطس كذلك، على نحو ما سنذكره في موضعه إن شاء الله.

وكان لهذا النصح المتكرِّر من الوزير جهور وابنه أبي الوليد محمد أثرٌ في إنقاذ الأندلس من فتنة هوجاء عاصفة.

وفاة الوزير ابن جهور

وهكذا عاشت قُرْطُبَة في ظلِّ حكومة الجماعة آمنة من الفتنة، فضلاً عن ذلك الازدهار الاقتصادي والأمن السياسي، وظلّ الوزير ابن جهور حاكمًا لقُرْطُبَة حتى وافته المنية في صفر، وقيل: المحرم سنة ٤٣٥هـ. وقد أجمع أهل قُرْطُبَة على تقديم ابنه أبي الوليد محمد بن جهور حاكمًا عليهم.

ويجدر بنا هنا أن نذكر قصيدة لابن حيان يرثي بها أبا الحزم بن جهور، ويمدح فيها أبا الوليد بن جهور يقول: [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ *** وَأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ

وَأَنَّ الْحَيَا إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ *** فَقَدْ فَاضَ لِلآمَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا *** وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ

فَلا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا *** لَنَا اللَّيْلُ إِلاَّ رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ

وَإِنْ يَكُ وَلَّى جَهْوَرٌ فَمُحَمَّدٌ *** خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَا وَابْنُهُ الْبَرُّ

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْعِلْقُ أَتْلَفَهُ الرَّدَى *** فَبَانَ وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ

نهاية دولة بني جهور

أبو الوليد محمد بن جهور

عند وفاة الوزير جهور سنة ٤٣٥هـ أجمع أهل قرطبة على تقديم ابنه أبي الوليد محمد بن جهور حاكما عليهم، وقد اقتفى أبو الوليد محمد بن جهور خطى والده في سياسته، وأقرَّ لأول ولايته الحُكّام وأولي المراتب على ما كانوا عليه أيام أبيه، وأخذ بسياسة الحزم على نحو ما كان عليه أبوه، وأقرَّ الأمن والنظام.

وكان من محاسن دولته أن قرّب إليه مؤرِّخ الأندلس أبا مروان بن حيان، وجعله من خاصّته في ديوان السلطان، وفي ذلك يقول ابن حيان: «وكنتُ ممّن جَادَتْهُ سماءُ الرئيس الفاضل أبي الوليد الثرَّة، وكَرُم فيَّ فعلُه ابتداءً من غير مسألة، فأقْحَمَني في زمرة العصابة المُبَرِّزَة الخَصل، مع كلال الحدِّ وضعف الآلة ؛ واهتدى لمكان خِلّتي، وقد ارتشف الدهرُ بُلالتي، بأن قلّدني إملاءَ الذِّكْر في ديوان السلطان المطابق لصناعتي، اللائق بتحرُّفي، براتب واسع، لولا ما أخذ عليَّ كَتْم ما أسداه لجهدتُ في وصفه، وإلى الله تعالى أفزع في إجمال المكافأة عني برحمته» . ومن محاسنه كذلك أن قرّب إليه شاعر الأندلس الكبير أبا الوليد بن زيدون، وجعله وزيره، وقدّمه إلى النظر على أهل الذمّة لبعض الأمور المعترضة، وجعله لسان دولته وسفيرًا له إلى أمراء الممالك الأندلسية، وظلّ كذلك إلى أن سخط عليه فأودعه السجن، ثم فرَّ ابن زيدون إلى دولة المعتضد بن عباد بإشْبِيلِيَة وأصبح وزيره الأول.

الفتنة القاضية

بقيت الأمور على ما هي عليه من الاستقرار والأمان حينًا، ويبدو أن أبا الوليد محمد بن جهور أتعبته السياسة وأثقلت كاهله، وكان له ولدان، عبد الرحمن أكبرهما، وعبد الملك أصغرهما، ولكن عبد الملك تميَّز عن أخيه

بشهامته، فلما عزم أبو الوليد على ترك السياسة وأمورها عقد الأمر لابنه عبد الملك الأصغر، وأنشد يقول: [الكامل]

وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَا لَهُ *** حُبُّ الْبَنِينِ وَلا كَحُبِّ الأَصْغَرِ

عبد الملك بن جهور

مع كثرة نصائح المقربين من أبي الوليد بن جهور بتقديم عبد الرحمن، إلا أنه أصرَّ على تقديم عبد الملك، وقدَّمه للناس، وطلب منهم البيعة له، فظَلَمَ وأساء السيرة، واستبدَّ بالسلطة من دون الجماعة، واستباح أموال المسلمين، وسلَّط عليهم أهل الفساد، وأهمل الأمور الشرعية، وشرع في المعاصي والفسوق، وعمَّ الخوف محلَّ الأمان، وتعاظمت قوَّته بتجبُّره، وتسمَّى بذي السيادتين (المنصور بالله الظافر بفضل الله)، وخُطب له على المنابر، فخالف سيرة أبيه وجدِّه، وفي سنة ٤٤٠هـ عَهِد عبد الملك بأمور الحُكم إلى وزير أبيه أبي الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقَّاء، فضبط الأمن وأعاد النظام، وساد العدل بين الناس، وكان المعتضد بن عباد يُراقب الأمور عن كثب؛ ينتظر الفرصة السانحة للانقضاض على قُرْطُبَة، فلما وجد ما حلَّتْ به تحت يَدَيْ ذلك الوزير القوي ابن السقاء، ورأى أن ذلك يحُول بينه وبين حلمه في امتلاك قُرْطُبَة؛ عَمِلَ على الوقيعة بين عبد الملك بن جهور وبين وزير أبيه ابن السقاء، فدسَّ إلى عبد الملك مَنْ جَسَّره على الفتك بابن السقاء، وحذره من طمعه واستئثاره بالسلطة دونه، وإلى ابن السقاء مَنْ ألقى في روعه حُبَّ المُلْكِ، وكان عبد الملك ضعيفَ العقل سيِّئ الرأي، فقتل وزيره في كمين دبَّره له سنة (٤٥٥هـ= ١٠٦٣م).

وبعد أن قُتل الوزير ابن السقاء انفرد عبد الملك بالسلطة لنفسه، فتجبَّر وأساء، فلما وجد أخوه الأكبر عبد الرحمن ذلك طمع في السلطة، وزعم أنه أحقُّ بالولاية من أخيه، فطفقا يستميلُ كلٌّ منهما طائفةً من الجند، ويتقرَّب للرعية، وبدأت بوادر الفوضى تعمُّ قُرْطُبَة، فلما وجد أبو الوليد بن جهور ذلك

خاف سوء العاقبة عليه وعلى ولديه، فعمد إلى تقسيم السلطة عليهما وذلك سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)؛ فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمِّنة للحلِّ والعقد، وجميع أبواب النفقات، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والإشراف على أعطياتهم، وتجريدهم في البعوث، والتقوية لأولادهم وجميع ما يخصهم، ورضيا الأخوان بذلك، إلا أن عبد الملك تغلب على أخيه فسجنه وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته، واستبدَّ بالأمر دونه، وأطلق العنان وتسلَّط هو والسوقة من رعيته بين الناس بالأذى، فما كان من أهل قُرْطُبَة إلا أن انصرفوا عن بني جهور.

نهاية دولة بني جهور

كانت هذه السياسة -التي اتبعها عبد الملك بن جهور في قُرْطُبَة- كفيلة بإسقاط حكمه، خاصَّة وأن حاشيته عاثت في الأرض فسادًا ونهبًا وسرقة؛ مما أثار أهل قُرْطُبَة، وبدأت مظاهر الانحلال السابقة للسقوط الأزلي لدولة بني جهور في قُرْطُبَة، خاصة وأن قُرْطُبَة محلُّ أنظار الممالك المجاورة لها؛ سواء بني عباد في إِشْبِيلِيَة، أو بني ذي النون في طُلَيْطِلَة، وعقب الاضطرابات التي شهدتها قُرْطُبَة عام ٤٦٢هـ أغار صاحب طُلَيْطِلَة المأمون يحيى بن ذي النون على قُرْطُبَة، فاستغاث عبد الملك بن جهور بالمعتمد بن عباد، وكانت تلك الاستغاثةَ الأخيرة من بني جهور، والتي أعقبها سقوط حُكمهم إلى الأبد في قُرْطُبَة

علماء قرطبة

شكَّلت النهضة العلمية والأدبية -التي تمتَّعت بها الأندلس في فترة الطوائف- بُعْدًا حضاريًّا على الرغم من الفوضى السياسية الصارخة، التي عمت الأرجاء الأندلسية زهاء قرن من الزمان؛ لذلك ما فتئت كلُّ مملكة من

ممالك الطوائف أن جعلت لها حاضرة تستقطب بها العلماء والفقهاء في شتّى جوانب العلوم النظرية والتجريبية.

وكانت قُرْطُبَة عاصمة الخلافة المنصرمة تُمَثِّل حاضرة العلوم، ليس في الأندلس فحسب، بل في العالم كله، وكانت مكتبتها شعلةَ علمٍ، تأتي إليها البعثات الغربية لتستضيء بنورها من ظلمات الجهل الذي غرقت فيها أوربا قرونًا من الزمان.

وقد نبغ في قُرْطُبَة العديد من الشعراء والعلماء في شتّى فروع المعرفة، وكان لهم بلا شكٍّ دور بارز في تسيير أمور المملكة سياسيًّا وعلميًّا في آن واحد؛ ويقف على رأس هؤلاء العلماء الإمام المؤرخ الفقيه الفيلسوف ابن حزم الأندلسي، وقاضي قضاة الأندلس يونس بن عبد الله بن مغيث، ومؤرخ الأندلس الأوحد أبو مروان بن حيان، وتلميذه أبو عبد الله الحميدي، وغيرهم كثير، وسوف نقف على بعض لمحات من حياة بعضهم.

ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ=٩٩٤-١٠٦٤م)

الإمام الكبير أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القُرْطُبِيُّ اليَزِيدِيُّ، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب، الأموي الظّاهِرِيُّ، وكان جدُّه خلف بن مَعْدَانَ هو أول من دخل الأندلس في صحابة عبد الرحمن الداخل، وُلِدَ في قُرْطُبَة، وتعلّم فيها وتربّى على شيوخها، وتَفَقَّهَ أوّلاً للشافعي، ثُمَّ أَدَّاهُ اجْتِهَاده إلى القول بنفي القياس كُلّه جَلِيِّه وَخَفِيِّه، والأخْذ بظاهر النصِّ وعموم الكتاب والحديث، كان مفسّرًا محدِّثًا، فقيهًا مؤرِّخًا، شاعرًا مربّيًا، عالمًا بالأديان والمذاهب؛ لذلك يُعَدُّ / من أكبر علماء الإسلام فقهًا وعلمًا وتصنيفًا.

كان ابن حزم سياسيًّا بارعًا، ووزيرًا ماهرًا، وكان بيته بيت وزارة؛ إذ وزر أبوه للمنصور بن أبي عامر، وقد عاش ابن حزم أمور الفتنة في قُرْطُبَة، وناصر المرتضى الأموي على الحموديين، ولكنه أُسِرَ وكان ذلك في منتصف

سنة ٤٠٩هـ، ثم أُطلق سراحه من الأسر، فعاد إلى قُرْطُبَة، ثم ولي الوزارة للمستظهر ثم قُتل المستظهر وسُجِنَ ابن حزم، ثم عُفِي عنه، ثم تولّى الوزارة أيام هشام المعتد فيما بين (٤١٨هـ-٤٢٢هـ)، وقد عاصر ابن حزم ملوك الطوائف وهي في أوج اختلافها، وكان يحمل عليهم ويُؤلِّب الفقهاء ضدَّهم، ومن ثَمَّ أُحْرِقَت كُتبه في إشْبِيلِيَة بأمر من المعتضد بن عباد.

ونظرًا لجهوده العلمية والسياسية فقد نال ثناء العلماء، الذين عرفوا شمائله وعلوَّ همته؛ قال الأمير أبو نصر بن ماكولا: كان فاضلاً في الفقه حافظًا في الحديث، مصنِّفًا فيه، وله اختيار في الفقه على طريقة الحديث، روى عن جماعة من الأندلسيين كثيرة، وله شعر ورسائل.

وقال الحميدي: كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، ومستنبطًا للأحكام من الكتاب والسُّنّة، متفننًا في علوم جمَّة، عاملاً بعلمهن، زاهدًا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعًا ذا فضائل جمَّة.

وقال الحافظ الذهبي: ابن حزم الأوحد البحر، ذو الفنون والمعارف. وله -رحمه الله- العديد من التصانيف، أشهرها: طوق الحمامة، والمحلى في الفقه، والفصل في الملل والأهواء والنحل، والناسخ والمنسوخ، وله أيضًا: رسالة في الطب النبوي، وكتاب حدِّ الطب، وكتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادَّة، وكتاب في الأدوية المفردة.

بيد أن آراء ابن حزم في ملوك الطوائف جعلته موضع اضطهاد ومطاردة منهم، وظلّ حاله معهم من بلد إلى بلد حتى استقرَّ به المقام في لَبْلَة حيث أصله الأول، وبها مات.

ابن حيان القرطبي (٣٧٧-٤٦٩هـ-٩٨٧-١٠٧٦م)

الإمام الإخباري المؤرخ، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي الأموي بالولاء، وقد كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبي عامر،

وقد عاصر ابن حيان أحداث الأندلس في فترة الطوائف، فكان أبلغ من كتب فيها، كما كان ابن حيان وزيرًا للوليد بن جهور في قُرْطُبَة، ومِنْ خاصّته، وقد عايش ابن حيان سقوط دولتهم، كما كان بارعًا في الآداب، وهو صاحب لواء التاريخ بالأندلس، وأفصح الناس فيه، كان لا يتعمّد كذبًا فيما يحكيه من القصص والأخبار، من كُتبه: المقتبس في تاريخ الأندلس، والمتين في تاريخ الأندلس أيضًا.

الطوائف في بلاد الأندلس

الطوائف في بلاد الأندلستُعَدّ الطوائف التي ذكرناها آنفًا هي الأقوى في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، وإن اختلفت من حيث الامتداد الزمني والمكاني، ولكن ليست هذه الطوائف هي كل الطوائف التي شَكّلت حلقة التاريخ الأندلسي في تلك الحقبة الزمنية القصيرة، التي لا تتجاوز القرن الواحد، وإنما هناك الكثير من الإمارات الأخرى، التي لا تعدو أن تكون أُسَرًا متغلِّبَة على بعض المدن، ليست لها أطماع توسُّعية، ولم يكن لها شأن كبير في سير الأحداث؛ بيد أنها كانت محلّ نزاع بين الطوائف الأخرى الأقوى، ومن هذه الطوائف:

أسرة بني زيري في غَرْنَاطَة، في الفترة من (٤٠٣-٤٨٣هـ=١٠١٣-١٠٩٠م).

أسرة بني طاهر في مُرْسِيَة، في الفترة من (٤٢٩-٤٧١هـ=١٠٣٨-١٠٧٨م).

أسرة بني برزال في قَرْمُونة، في الفترة من (٤٠٤-٤٥٩هـ=١٠١٣-١٠٦٧م).

أسرة بني يفرن في رُنْدة، في الفترة من (٤٠٦-٤٥٧هـ=١٠١٥-١٠٦٥م).

أسرة بني دمّر في مورور، في الفترة من (٤٠٣-٤٥٨هـ=١٠١٣-١٠٦٦م).

أسرة بني خزرون في أركش، في الفترة من (٤٠٢-٤٦١هـ=١٠١١-١٠٦٨م).

مملكة ألمَرِيَّة في عهد الفتيان العامريين، في الفترة من (٤٠٥-٤٣٣هـ=١٠١٤-١٠٤١م).

مملكة ألمَرِيَّة في عهد بني صمادح، في الفترة من (٤٣٣-٤٨٤هـ=١٠٤١-١٠٩١م).

مملكة دانية والجزائر في عهد الفتيان العامريين، في الفترة من (٤٠٠-٤٦٨هـ=١٠٠٩-١٠٧٦م).

مملكة دانية والجزائر في عهد بني هود، في الفترة من (٤٦٨-٤٨٣هـ=١٠٧٦-١٠٩١م).

مملكة بَلَنْسِيَة في عهد الفتيان العامريين، في الفترة من (٤٠٠-٤٧٨هـ=١٠٠٩-١٠٨٥م).

إمارة شَنْتَمَرِيَّة الشرق في عهد بني رزين، في الفترة من (٤٠٣-٤٩٧هـ=١٠١٢-١١٠٤م).

إمارة شَنْتَمَرِيَّة الغرب في عهد بني هارون، في الفترة من (٤١٧-٤٤٣هـ=١٠٢٦-١٠٥١م).

إمارة بالبُونت في عهد عبد الله بن قاسم، في الفترة من (٤٠٠-٤٩٥هـ=١٠٠٩-١١٠٢م).

دولة لَبْلَة في عهد بني يحيى، في الفترة من (٤١٤-٤٤٥هـ=١٠٢٣-١٠٥٣م).

إمارة بَاجَة وشِلْب في عهد بني مزين، في الفترة من (٤٣٢-٤٥٥هـ=١٠٤١-١٠٦٣م).

إمارة ولبة وجزيرة شَلْطِيش في عهد بني البكري، في الفترة من (٤٠٣-٤٤٣هـ=١٠١٢-١٠٥١م).

حضارة الأندلس في فترة طوائف الأندلس

ويجدر بنا -وقد ذكرنا بقية طوائف الأندلس- أن نذكر الدور العلمي والحضاري التي ساهمت به هذه الممالك، فقد نبغ في ظلّها العديدُ من علماء الأندلس وفقهائها، ففي دانية والجزائر -مثلاً- نبغ العالم اللغوي الكبير أبو الحسن ابن سيده، وكان إمامًا في اللغة وآدابها، وُلِدَ بمُرْسِيَة وانتقل إلى دانية، وانقطع لمجاهد العامري، وله كتابه الشهير (المخصص)، وكتاب (المحكم والمحيط الأعظم)، وكان مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر من علماء عصره، عارفًا بالأدب وعلوم القرآن، قالوا عنه: «فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره»، وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مُرْسِيَة، من علماء عصره، وفي مَيُورْقَة نبغ الحافظ الحميدي صاحب ابن حزم، وهو مؤرخ الأندلس وعالمها في عصره، وله كتاب (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس).

حال الأندلس في فترة الطوائف

تلك هي ممالك الطوائف أُسَرٌ متغلِّبَة وأخرى مغلوبة، ليس لهم من الأمر إلا دفع الجزية للنصارى الكافرين، والتسلّط على أراضي إخوانهم المسلمين، وليس لديَّ أبلغ تعبير أقوله في وصف حال تلك الممالك وأصحابها، بقدر ذكري لما قاله الوزير العالم الأديب لسان الدين بن الخطيب؛ إذ يقول: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثيرٌ من أهل الأقطار، مع امتيازهم بالمحلّ القريب، والحطّة المجاورة لعُبَّاد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرثٌ، ولا في الإمارة سَبَب، ولا في الفروسية نَسَب، ولا في شروط الإمامة مُكْتَسَب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجَبَوُا العَمالات والأمصار، وجنّدُوا الجنود، وقدّموا القضاة،

وانتحلوا الألقاب، وكَتَبَتْ عنهم الكُتّاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودُوِّنَتْ بأسمائهم الدواوين، وشَهِدَتْ بوجوب حقِّهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسَّلَت إليهم الفضلاء، وهم ما بين مجبوب، وبربري مجلوب، ومجنّد غير مَحْبُوب، وغُفْلٍ ليس في السَّراة بمَحْسُوب، ما منهم مَنْ يرضى أن يُسَمَّى ثائرًا، ولا لحزب الحقِّ مُغَايرًا، وقُصارى أحدهم أن يقول: «أُقيمُ على ما بيدي، حتى يتعيَّن مَنْ يستحقُّ الخروجَ به إليه».

ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يُقْبِلْ عليه، ولا لقي خيرًا لديه؛ ولكنّهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعمارًا، وخلفوا آثارًا، وإن كانوا لم يُبالوا اغترارًا، من معتمدٍ ومعتضد ومرتضى وموفّق ومُستَكْفٍ ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل، كما قال الشاعر: [البسيط]

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ *** أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا *** كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْرَةَ الأَسَدِ

الفتنة بين ملوك الطوائف

رأينا كيف تَكَوَّنت ممالك الطوائف في الأندلس، وكيف أضحى صرح الخلافة الشامخ إلى بنيان متصدِّع الأركان، متناثر الأشلاء، ولو أن هؤلاء المتغلبين سكنوا إلى ما تغلَّبُوا عليه، ورضوا به من غير طمع ولا جشع، وتحلَّوْا بالنخوة الإسلامية لهان الأمر علينا، ولسكن الناس إلى ما آلت إليه الأندلس المسلمة، ولكن يبدو أن هؤلاء الثائرين ومن هم على شاكلتهم قد آثروا الفتنة والشقاق والفراق، واستحلُّوا دماء المسلمين بأرخص الأثمان، فباعوا دينهم وخسروا دنياهم، مقابل أن يتغلَّب على أخيه في الدين، وربما أخيه من أمه وأبيه، بل ربما استعان على أبيه وأخيه وعمه وأهله جميعًا.

وتَكَوَّنت في سبيل النوازع الشخصية أحزابُ المصالح وتكتلات المصالح، وسرعان ما تتصدَّع تلك الأحزاب وتتفكّك، وينقلب صديق الأمس إلى عدوِّ اليوم والغد والمستقبل، وقد سلك هؤلاء المتغلِّبُون المتحكِّمُون في

أراضي المسلمين في الأندلس كل السبل غير الشرعية، التي تُعَبِّر عن النذالة والخسَّة التي تمتَّع بها معظمهم، فاستعانوا بالخيانة والغدر، كما استعانوا بالنصارى على بعضهم البعض، ورضوا بالذلّة والمهانة في دفع الجزية والإتاوات مقابل النيل برضا الممالك النصرانية الإسبانية، وهكذا أضحت الأندلس مسرحًا للصراعات بين المتخاصمين والمتنابذين؛ تلك الصراعات التي شكَّلَتْ قصَّةَ مأساةٍ عاشتها أمَّة الإسلام ما يقارب القرن من الزمان.

الصراع بين إشبيلية وبطليوس

اتسمت الحروب والنزاعات بين مملكتي إشبيلية وبطليوس بالشراسة والقوَّة؛ ربما عاد ذلك إلى التقارب الحدودي الشديد بينهما، إضافة إلى الأطماع التوسُّعية التي اتَّسم بها أصحابهما، وهذا يجعلنا نستقرئ الأحداث قبل وقوعها، فكلٌّ من القاضي أبي القاسم بن عباد وعبد الله بن مسلمة الأفطس يسعى لتوسعة ممتلكاته وتحصين دولته، وانتهاز الفرص بأسرع وسيلة ممكنة، وكان ذلك إيذانًا باشتعال الحرب بين المملكتين في أي وقت، وهو ما حدث بالفعل.

الصدام بين ابن عباد والأفطس على باجة

كان أول صدام عسكري قام به القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية هو قتاله مع عبد الله بن مسلمة الأفطس صاحب بطليوس حول باجة، المدينة التي أصابتها الفتنة والاضطراب إثر إلغاء الخلافة واستئثار كل ثائر بإمارته، ومعلوم أن بطليوس تمثِّل الحدَّ الشمال الغربي لإشبيلية، وكان كلٌّ من ابن عباد والأفطس يستعين بالبربر في حروبه وتوسُّعاته، وكان القاضي ابن عباد على علاقة وطيدة بمحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، وقد وصف ابن حيان البرزالي بقوله: «وكان ابن عبد الله بقَرْمُونة قطب رحى الفتنة، كثيرًا ما يُحَرِّض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قرطبة، فيعمَّا الجهات كلها تدويخًا؛ كلما آبا من جهة صارَا إلى سواها، حتى أثَّرَا آثارًا قبيحة».

ولا يخفى عليك أن علاقة ابن عباد بالبرزالي هي علاقة مصالح متبادلة لا أكثر! وهذا النوع من المصالح لا يدوم، فدعائمه ليست على كتاب الله ولا على سُنّة رسوله، وسرعان ما يتحوّل الصديق إلى عدوّ، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ حاول ابن عباد أن ينتزع قَرْمُونة من حليفه البرزالي، وكاد له ذلك لولا تدخّل البربر واختراقهم أراضي إشبيلية، وكانت مقتلة عظيمة قُتِلَ فيها إسماعيل ابن القاضي ابن عباد، وذلك سنة (٤٣١هـ=١٠٣٩م).

تمثّل قَرْمُونة الحصن الشمالي الشرقي لإشبيلية، فمن المصلحة العامة لابن عباد أن يكون على علاقة حسنة مع جاره، ومن ناحية البرزالي فمن مصلحته أن يُوَطِّدَ علاقته بابن عباد ليستعين به على قتال ابن حمود الطامع في إمارته؛ ومن ثَمَّ بعث القاضي ابن عباد لحليفه البرزالي يستعين به في السيطرة على بَاجَة، وأرسل عبد الله الأفطس ابنه محمد المظفر إلى بَاجَة، ويبدو أن ابن الأفطس أسرع إلى بَاجَة قبل الحليفين، وتملّك المدينة، فأرسل القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل على رأس جيش إلى بَاجَة، ومعه قوّة من صاحب قَرْمُونة محمد بن غبد الله البرزالي، وفرض ابن عباد الحصار على بَاجَة وبداخلها ابن الأفطس، وجاء ابن طيفور صاحب مِيرْتُلَة بمددٍ لابن الأفطس، فاضطرم القتال بين الفريقين، وكانت مذبحة مهيبة، قُتل فيها من جيش ابن الأفطس الكثير، وأُسر منهم الكثير كذلك، وكان من بين الأسرى محمد بن الأفطس، وأخ لابن طيفور صُلِبَ بإشبيلية سنة ٤٢١هـ، وأُرسل ابن الأفطس إلى قَرْمُونة ليكون بجوار البرزالي، ثم أطلق سراحه، وكان محمد بن عبد الله البرزالي عرض على ابن الأفطس يوم أطلقه أن يجتاز على القاضي ابن عباد ليشركه في المنِّ عليه بفكّه، فأبى ابن الأفطس ذلك وقال: مُقامي في أسرك أشرف عندي من تحمّل منّته، فإما انفردت باليد عندي وإلا أبقيتني على حالي. فأُعجب ابن عبد الله البرزالي بمقاله، ونافس في إسداء اليد عنده لكمال خصاله، وأكرم تشييعه، وبعث به إلى بطليوس.

هدأت الأمور بين المملكتين قليلاً، ولم ينسَ ابن مسلمة الأفطس تلك الهزيمة الثقيلة، التي أُسِرَ فيها ابنه محمد، وكاد أن يُقتل، وظلّ ينتظر ذلك اليوم الذي يثأر فيه لنفسه ولابنه، ومرّت أربعة أعوام، وبعث القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل بجيش توغّل شمالاً في أراضي ابن الأفطس، وهنا كَمَنَ ابن الأفطس لابن عباد، وأغلق عليه طريق رجوعه، وكانت مقتلة عظيمة في جيش إشبيلية، لم ينجُ منها إلا قليل، وفرّ إسماعيل بن عباد إلى لَشْبُونَة وتحصن بها، وكانت حادثة شنيعة لبني عباد سنة (٤٢٥هـ=١٠٣٤م) .

الصدام بين المعتضد والمظفر

مرّت السنون ومات القاضي ابن عباد سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م)، وخلفه ابنه عبّاد المعتضد بالله، كما مات أيضًا عبد الله بن مسلمة الأفطس سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، وخلفه ابنه محمد المظفر، وهكذا مات الآباء وهم يحملون خصومات شنيعة جاءت بالويلات على المسلمين.

ولكن السؤال: هل نسي الأبناء أحقاد آبائهم، أم ساروا على نهجهم؟

والحقيقة المرّة التي حفظها التاريخ أن الأبناء ساروا أشدّ مما كان في عهد آبائهم، فلم ينسَ المعتضد بن عباد مأساة والده في سنة ٤٢٥هـ، كما لم ينسَ المظفر عداوة إشبيلية، وكان شعار كليهما ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

الصراع على لبلة

عادت الحرب أشدّ ما كانت عليه، واضطرمت المعارك بين المعتضد والمظفر؛ إذ حاول المعتضد أن ينتزع لبلة من صاحبها ابن يحيى، الذي عجز عن صدّ جيوش إشبيلية، فاستغاث بالمظفر صاحب بطليوس، الذي كان في غنًى عن هذه الفتنة، وخرج المظفر لإغاثة ابن يحيى، واستغلّ فرصة غياب المعتضد عن إشبيلية فبعث بجماعة من البرابرة فعاثوا فيها، وعاث المعتضد

في بطليوس وأعمالها، وكادت أن تكون فتنة يذهب فيها الإسلام والمسلمون من كلا الإمارتين، فتدخّل الوزير أبو الوليد بن جهور مسرعًا؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ، وجهد ابن جهور جهده في صرفهم، وأرسل ثقات رسله إلى عامّتهم، وراح يضرب لهم الأمثال، ويُخوّفهم من سوء العاقبة والمآل، حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظًا وتذكرة، يجد منهم الأطواد الراسية، ويرقي الحيات المتصامة، واستنّ القومُ في ميدان الغيّ، وكانت مقتلة عظيمة وفتنة بربرية، اتسمت بالقوة والعنفوانية، وعاث كلٌ منهما في أراضي الآخر، وكانت الهزيمة على ابن الأفطس أولاً، لكنه استأنف الكرّة، واستطاع هزيمة المعتضد هزيمة قاسية، قُتِلَ فيها كثير من جنده، وكان ذلك سنة (٤٣٩هـ=١٠٤٧م) .

ثم كانت سنة (٤٤٢هـ=١٠٥٠م) حيث تطوّرت الحوادث، وتفاقم الأمر، وساء التفاهم بين المظفر بن الأفطس وابن يحيى حليف الأمس، فقد خان المظفر حليفه ابن يحيى، ورفض أن يَرُدَّ لابن يحيى ودائعه التي ائتمنه عليها من مال وذخائر، كان ابن يحيى جعلها عند المظفر أيام هجوم المعتضد بن عباد على لبلة، ولما ساء الأمر بينهما هاجم المظفر بن الأفطس لَبْلَة، فهرع ابن يحيى للمعتضد بن عباد يطلب نجدته، فأرسل له جيشًا قويًا، فتك بابن الأفطس ومزّق جيشه شرّ ممزّق، واحتزّ من رءوسهم نحو مائة وخمسين، وأفنى حماة رجاله.

الصراع في يابرة

دولة بني الأفطس في بطليوس وصراعها مع إشبيليةثم جهز المعتضد جيشًا آخر من إشبيلية بقيادة ابنه إسماعيل ووزيره ابن سلام، فتوجّه ناحية بطليوس وأعمالها، فعاث شمالاً في أراضي ابن الأفطس حتى مدينة يَابرَة، وعلى الناحية الأخرى جمع المظفر بن الأفطس رجاله واستدعى حليفه إسحاق

بن عبد الله البرزالي، فبعث له بجيش عليه ابنه العزّ، واجتمع الفريقان من غير أهبة ولا استعدد، ودارت حرب طاحنة، دارت دائرتها على ابن الأفطس، وحزّ رأس العزِ بن إسحاق وبعث به إلى إشبيلية، مع رأسٍ لعمّ ابن الأفطس، ولم يجد ابن الأفطس إلاّ الفِرَار والنجاة بنفسه، فلجأ إلى يَابرَة تحت كنف صاحبها عبد الله بن الخرّاز، وقد قُدِّرَ عدد مَنْ قُتِلَ في هذه الموقعة بثلاثة آلاف على أقلِّ تقدير.

الوزير الوليد ابن جهور والصلح بين المعتضد والمظفر

وفي أواخر سنة ٤٤٢هـ (حيث لم تجف دماء المسلمين في يَابرَة، ولم يتنفّس ابن الأفطس الصعداء من هول هزيمته وصدمته في يَابرَة، جهّز المعتضد بن عباد جيشه وعاث في أراضي ابن الأفطس قتلاً وتشريدًا ونهبًا، وحرقًا في الأراضي والمزارع، فعمّت المجاعة في البلاد، وفتح المعتضد حصونًا وبلدانًا، والمظفر لا يستطيع أن يَرُدّ، ولم يملك إلا أن اعتصم بحصنه بطليوس، ولم يُخْرِج من خيله فارسًا، وجعل يشكو إلى حلفائه، فلا يجد ظهيرًا ولا نصيرًا، واشتدّ البأس على المظفر بن الأفطس، وكادت أن تكون نهايته، إلاّ أن الوزير أبا الوليد بن جهور تَدَخّل درءًا للفتنة، وسعيًا في الصلح بين هذين المتخاصمين، حتى تمّ له ذلك في ربيع الأول (٤٤٣هـ=١٠٥١م).

وهكذا انتهت القطيعة بين إشبيلية وبطليوس، بعد أن كادت تُفْنِي كل شيء، ويبدو أن المعتضد والمظفر لم يرجعا إلى نحو ما كانا عليه من الحروب والنزاعات، وإنما بحث كل منهما عن عدوٍ هو أضعف منه ينال من لحمه، وينهش من مُلْكِه.

الصراع بين بني عباد وبني زيري

ملوك الطوائف, إشبيلية وغرناطةوقفت مملكة غرناطة حجر عثرة أمام أطماع إشبيلية زمنًا طويلاً، فمع ما كان يتمتّع به البلاط الإشبيلي من قوّة عسكرية وأدبية على يد بني عباد، كان البلاط الغرناطي يتمتّع كذلك بقدر كبير

من القوة العسكرية على يد بني زيري، الذين وقفوا أمام كل محاولة لاستئصال البربر في الأندلس، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم بقوَّة على الإمارات الجنوبية الأندلسية، وكان هذا بلا شكٍّ نذيرًا باشتعال الحروب بين بني عباد وبني زيري؛ إذ يقف كلٌّ منهما في سبيل توسُّعات الآخر.

الصراع على أشذونة وإستجة

والغريب أن أوَّل اشتباك بين إشبيلية وغرناطة لم يكن في أيٍّ من البلدين، وإنما كان في إستجة، إذ سيَّر القاضي أبو القاسم بن عباد جيشًا بقيادة ابنه إسماعيل؛ لانتزاع قَرْمُونة من محمد بن عبد الله البرزالي حليفه بالأمس، فحاصر ابن عباد قَرْمُونة ثم نهض إلى حصار حصن أشذونة وإِستِجَة، فلم يجد البرزالي إلا أن يستنجد بإخوانه البربر، فأرسل إلى إدريس المتأيد الحمودي وقبائل صنهاجة، فأمدَّه إدريس بعسكر يقوده ابن يقنة أحمد بن موسى مُدَبِّر دولته، وخرج باديس بن حبوس صاحب غرناطة، ودار بينهم قتالٌ شرسٌ، انتهى بمقتل إسماعيل بن عباد، وحُمل رأسه إلى إدريس الحمودي في سنة (٤٣١هـ=١٠٣٩م) .

الصراع على مالقة والجزيرة الخضراء

وقد اتَّسمت عَلاقة بني عباد بإشبيلية بالعدائية مع باديس بن حبوس في غرناطة، وكانا كلٌّ من الطرفين يتسابق إلى أطماع الآخر يحول بينه وبينها، ويقف أمامه حجر عثرة في سبيل تحقيقها، واتَّسمت توسُّعاتهما بأنها ذات اتجاه واحد ومصلحة واحدة؛ ولذلك فهم في صراع دائم؛ وكان الصراع على أشُدِّه بين المعتضد بن عباد وباديس بن حبوس يتمثَّل في انتزاع مَالَقَة والجزيرة الخضراء، أو أملاك الحموديين السالفة دولتهم.

فقد استطاع المعتضد أن يُسيطر على الجزيرة الخضراء سنة (٤٤٦هـ= ١٠٥٤م)، وأنهى بذلك دولة بني حمود في الجزيرة، وبقي له مالقة التي استطاع باديس أن يستوليَ عليها سنة (٤٤٩هـ=١٠٥٧م) ، وكان أهل

مالقة قد سئموا من حُكم البربر، فتاقت نفوسهم إلى التخلّص منه، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد سرًّا يستحثّونه على افتتاح مالقة، فاستجاب لهم المعتضد، وسَيَّرَ لهم حملة بقيادة ابنيه جابر ومحمد المعتمد، وضربوا الحصار على مالقة، وكادت أن تسقط، إلاّ أن باديس صاحب غرناطة أسرع إلى نجدتهم، حتى فوجئ به جيش إشبيلية الذي كان على وشك النصر، فكانت معركة قاسية على جند إشبيلية، وفرَّ ابنا عباد جابر والمعتمد يجرّان أذيال الهزيمة إلى رُنْدة، وكان ذلك سنة (٤٥٨هـ=١٠٦٦م) .

المعتضد بن عباد وانتزاع أركش وشذونة

لم ييأس المعتضد بن عباد من هزيمته أمام باديس بن حبوس في انتزاع مالقة، فوجّه قوّاته إلى الإمارات البربرية الصغيرة الواقعة في الشمال والشرق من إشبيلية؛ وهي إمارات: رُنْدة، وقَرْمُونة، وأركش، وشَذُونة، ومورور، وقد استطاع المعتضد أن يُسيطر على إمارات ثلاثة؛ هي: قَرْمُونة، ورُنْدة، ومورور كما أوضحنا.

وما يعنينا هنا هو إمارتي أركش وشَذُونة التي يُسيطر عليها بني برنيان؛ إذ اتجه أمير أركش محمد بن خزرون إلى باديس بن حبوس وعرض عليه أن يُعطيه حصن أركش مقابل أن يُقطعهم أرضًا بغرناطة ينزلون بها، ويكونون تحت كنفه وفي دولته، فوافق باديس بن حبوس، وأرسل إليهم أن يأتوا بأموالهم وأهليهم وذويهم ومتاعهم، فخرجوا بذلك كله فكانوا نحوًا من خمسمائة دابة، وكان معهم جماعة من بني برزال أعداء المعتضد، وكان المعتضد يرقب عن كثب كل هذه التحرّكات، فكَمَن لهم كمينًا، ودارت حرب شرسة بين الطرفين مُزِّقَ فيها البربر كل ممزّق، وقُتل محمد بن خزرون، وبذلك ردَّ المعتضدُ على هزيمته في مَالَقَة، وانتزع أركش وبلاد شَذُونة من باديس بن حبوس.

العنصرية بين العرب في إشبيلية والبربر في غرناطة

تُوُفِّي المعتضد بن عباد سنة (٤٦١هـ=١٠٦٩م)، وخلفه في الحُكم ابنه المعتمد على الله محمد، وكان المعتمد ذا طموح، ولم يكن ينسى ما كان بين أبيه وبين باديس، وظلّ يتحيَّن الفرصة تلو الأخرى ليقتنص من غرناطة ما يقدر، وكان يُراقب الأحداث في غرناطة عن كثب، وكان المعتمد بن عباد مثل آبائه وأجداده يتوجَّس خوفًا من تنامي قوَّة البربر في الأندلس؛ وخاصَّة قاعدتهم الأقوى غرناطة؛ إذ هي مهبطهم الأول إلى الأندلس عندما يأتون من وراء البحار من عُدوة المغرب، إضافة إلى هذا فإن النزعة العنصرية بين العرب والبربر كانت على أشدِّها في إشبيلية وغرناطة.

وكانت سياسة باديس بن حبوس في مجملها ذات نزعة عنصرية واضحة للبربر؛ فمن ناحية يتقوَّى بهم ضدَّ ممالك الأندلس، ومن ناحية يتقوَّوْن به ضدَّ عدوان الآخرين عليهم، وهو ما رأيناه في أحداث قَرْمُونة ومَالَقَة وأركش وجَيَّان وغيرها من ممالك البربر الجنوبية والشرقية في الأندلس، وكانت هذه النزعة العنصرية متملِّكة في دم باديس بن حبوس، حتى أعمته عن الصواب في كثير من قراراته؛ ففي سنة (٤٧٥هـ=١٠٦٥م) قام أحد الفرسان ويُسَمَّى ابن يعقوب باغتيال أبي نصر بن أبي نور أمير رُنْدة البربرية بتدبير من المعتضد بن عباد، فلما سمع باديس بن حبوس بالخبر قام للحادثة وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشقّ أثوابه... وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه ، وفكر في قتل رعاياه الأندلسيين من العرب في غرناطة، وأخذ قراره بقتلهم جميعًا في المسجد الجامع بغرناطة يوم الجمعة، وشاور وزيره اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغرانة، مدبِّر دولته الذي لا يقطع أمرًا دونه، فحذَّره الوزير من العواقب الوخيمة لذلك الأمر، إلا أنه لم يستمع لنُصح وزيره، وحشد جنده، ولكنَّ اللهَ خَيَّب تدبيره، فقد سبقه ابن نغرانة الذي أرسل بعض النساء خفية إلى دور الأندلسيين العرب وحذَّرهم من الحضور إلى المسجد يوم

الجمعة، وهكذا فشل تدبيره، ثم عدل عن قراره بعد أن اقتنع بنصح وزرائه من صنهاجة.

لذلك فالعداوة متبادلة بين العرب في إشبيلية وعلى رأسهم المعتضد وابنه المعتمد (إذ من المعلوم أن بني عباد من لَخْم العربية)، وبين البربر في غرناطة وما حولها وعلى رأسهم باديس بن حبوس ووزرائه من صنهاجة، وهذه العداوة الشديدة تُنْذِر بحروب دموية وأكثر شراسة من غيرها؛ إذ هي قومية في المقام الأول، وهكذا استُحِلَّتْ دماء المسلمين بين عرب وبربر، ولم يَعُدْ للإسلام بينهم نصيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

المعتمد بن عباد وانتزاع جيان

وحدث في سنة (٤٦٥هـ=١٠٧٣م) أن تُوُفِّي باديس بن حبوس، وملك من بعد حفيده عبد الله بن بلقين، وكان صبيًّا صغيرًا لا يملك من أمره شيئًا، وتولَّى أمور دولته الوزير سماجة الصنهاجي، واستبدَّ بالأمر، وكان رجلاً قويًّا حاسمًا، مرهوب العقاب، شديد السطو، كما جعل عبد الله بن بلقين أخاه تميمًا على مَالَقَة[٨]، وقد أدرك المعتمد أن هذه فرصته ليتوسَّع على حساب غرناطة، فحشد جنده واتجه إلى مدينة جَيَّان، وانتزعها من يد ابن بلقين سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٤م)، وكانت هذه ضربة قاضية لعبد الله بن بلقين؛ إذ تُعَدُّ جَيَّان أخطر قاعدة عسكرية لمملكة غرناطة الشمالية، ثم توجَّه المعتمد بن عباد بقوَّاته إلى غرناطة وفرض عليها الحصار، وابتنى الحصون ليُرهق المدينة بغاراته عليها، ولكنه فشل ورفع الحصار لحصانة المدينة وشدة بأس وزيرها سماجة الصنهاجي.

الاستعانة بالنصارى على المسلمين

رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه لا قِبَل له بمقاومة جُند المعتمد بن عباد إذا عاود الكرة عليه وأغار على غرناطة، وفكَّر ابن بلقين وقدَّر، ثم ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٢٠]! إذْ قاده تفكيره

إلى أن بعث وزيره سماجة الصنهاجي إلى مَنْ؟! إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس؛ يستعين به على المعتمد بن عباد، وتعهّد له بدفع جزية مقدارها عشرون ألف دينار، وبالطبع وافق ألفونسو، وخرج عبد الله بن بلقين بجند غرناطة وجند النصارى القشتاليين، وأغار على أراضي إشبيلية، وعاث فيها فسادًا، واستطاع أن يستردّ حصن قَبْرَة الواقع في جنوب غربي جَيَّان.

وحدث في عام (٤٦٧هـ=١٠٧٥م) أن سار ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى إشبيلية وغرناطة ومعه وزيره ومستشاره المستعرب الكونت سنندو (ششنند)؛ ليُطالب بدفع الجزية المفروضة عليهما، ويبدو أن الأمير عبد الله بن بلقين، رفض دفع الجزية؛ معبرًا عن عزّته، وأنه لا يخش ضرًّا من ألفونسو، إلا أن المعتمد بن عباد لم ينسَ هزيمته عند حصن قَبْرَة، فانتهز الفرصة، وأخذ يُؤَلِّبُ ألفونسو على ابن بلقين، وبعث إليه بوزيره ابن عمار، فوقّع معه حلفًا واتفاقًا؛ خلاصته أن يتعاون الفريقان مسلمو إشبيلية مع نصارى قشتالة ضد مسلمي غرناطة، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة، وأن يُؤَدِّي ابن عباد فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار، وظهر أثر ذلك الحلف على الفور؛ إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة، وبدأ ابن عمار بتنفيذ الخطة أيضًا، فقام بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة، وحاول من خلاله أن يؤثّر على أهل المدينة بغاراته، ولكنه لم ينل منها مأربًا، وحدث أن انتزع المأمون بن ذي النون قرطبة منه سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، فاضطر أن يُخْلِيَ الحصن الذي احتلّته جنود غرناطة فيما بعد.

ثم حرّض ابن عمار ألفونسو مرّة أخرى على غزو غرناطة، ومنّاه بسهولة افتتاحها وضعف جندها، عندئذ رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه يذهب بنفسه إلى ألفونسو، وأن يتفاهم معه، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهّد ابن بلقين بأداء الجزية السنوية وقدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يُسلِّم

الحصون الواقعة جنوب غربي جَيَّان، وما أن انتهى الاتفاق حتى باع ألفونسو الحصون لابن عباد جزاء صداقته له!

المصالحة بين إشبيلية وغرناطة

هدأت الأمور نوعًا ما بين إشبيلية وغرناطة، ومضت عشرة أعوام وفي سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م) حدث أن تطوَّرت الأمور في مَالَقَة، وثار تميم بن بلقين أخو الأمير عبد الله بن بلقين، وأعلن استقلاله عن غرناطة وتلقّب بالمنتصر بالله، فتوجَّه إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ولكن خشي الأمير عبد الله أن يحالف أخوه تميمٌ المعتمد بن عباد؛ فهادنه وأعطاه حُكم مالقة ونواحيها الغربية، وحدث في الوقت نفسه أن ثار كباب بن تميت حاكم أرشذونة وأنتقيرة، فسار إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ثم تمَّ الصلح وعَقْد المهادنة بين المعتمد بن عباد والأمير عبد الله بن بلقين، وسُوِّيت بين الفريقين سائر وجوه النزاع من حدود وغيرها، وكان ذلك أواخر سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م).

وما هي إلاّ أيام حتى سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس في (صفر ٤٧٨هـ= مايو ١٠٨٥م)، فما كان من الأمير عبد الله وابن عباد إلا أن أرسلا رسلهما إلى يوسف بن تاشفين يستنقذونه مما داهمهم من النصارى، وما حلّ بأراضي المسلمين بالأندلس!

الصراع بين المأمون بن ذي النون وسليمان المستعين بن هود

الأندلس, طليطلة وسرقسطةكانت الخصومة بين طليطلة Toledo وسرقسطة Zaragoza شرسة، كما تلطخت بالخيانة وموالاة النصارى على بعضهم، وتمكينهم من أراضي المسلمين، ويمكننا أن نقول: إن هذه الخصومة تُعَدُّ الأسوأ في تاريخ الأندلس وخاصة في عهد ملوك الطوائف، مأساةٌ حقًا أن يسحق النصارى المسلمين، ويعيثوا في بلادهم تحت إشراف حُكّام مسلمين، وفي أراضي المسلمين!

إنها أحداثٌ تزرف منها العيون، ويقشعر القلب من ذكرها، ويسيل القلم حسرة من كتابتها!

كان النزاع على أشُدِّه بين المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وبين سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة، وكانت تلك فتنة هوجاء عصفت بالمسلمين، وزالت هيبتهم عند النصارى؛ فمعلوم أن سرقسطة تمثِّل من الناحية الجغرافية الجانب الشمالي الشرقي لطليطلة، وكانت سلسلة المدن والقلاع والحصون التي تمتدُّ بين الثغر الأعلى (سرقسطة)، وبين الثغر الأوسط (طليطلة)، من قلعة أيوب وحتى وادي الحجارة هي موضع الاحتكاك والتنازع بين الخصمين.

معركة وادي الحجارة بين المأمون وابن هود

وعلى الرغم من أن وادي الحجارة من أعمال طليطلة، إلاَّ أن هناك بعضًا من أهلها مالوا إلى سليمان بن هود في سرقسطة، وكانت هذه فرصة لابن هود أن ينفث في رُوح الفرقة بين أهلها؛ ليتسنَّى له السيطرة عليها بسهولة، وهو ما حدث بالفعل، فما زالت رُوح الفُرقة تتزايد بين أهلها المشتَّتين، بين طليطلة وسرقسطة، حتى بعث سليمان بن هود جيشًا عليه ابنه أحمد وليِّ عهده، ودخل وادي الحجارة بتدبيرٍ من شيعته، وكان ذلك سنة (٤٣٦هـ=١٠٤٤م)، وما أن علم المأمون بذلك حتى هرع إلى وادي الحجارة، ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة، سالت فيها كثير من الدماء، وكانت الغلبة فيها لابن هود، وفرَّ المأمون وتتبَّعه أحمد بن هود بجيشه، وحاصره في مدينة طلبيرة، الواقعة على نهر التاجة غرب طليطلة، وبعث أحمد لأبيه سليمان بن هود يُعْلِمه بالخبر، فأمره بترك المأمون والرجوع إلى سرقسطة، ورفع الحصار عن طلبيرة، وبذلك نجا المأمون من موت مُؤَكَّد!

المأمون والاستعانة بالنصارى

كانت هزيمة منكرة بلا شكٍّ للمأمون بن ذي النون، إلاّ أنه لم ييأس وغلبه الجنوح إلى الغلبة والأنفة، ويا ليت أنفته كانت على نصارى الإسبان! وإنما كانت أنفته على مسلمي سرقسطة، الذين استهان بدمائهم، وجعلهم عرضة لجنوده وللنصارى، كما سنرى!

لم يَهُنْ المأمون ولم يَلِنْ له عزم، ولم تأخذه الراحة حتى يأخذ بثأره من سليمان بن هود، فماذا يفعل المأمون؟ وقد أنهكته الهزيمة وأخذت منه جُلّ جيشه وعسكره، فكّر المأمون بن ذي النون ووجد ضالته في الاستعانة بالنصارى على أخيه المسلم، والتجأ إلى فرناندو الأول ملك قشتالة يستعين به، مقابل أن يدفع له الجزية، فاستجاب فرناندو للطلب، ونِعْمَ ما يطلبه المأمون!

وعلى الفور ولم تمضِ أيام حتى كانت خيل النصارى تعيث فسادًا في بلاد سليمان بن هود؛ قتلاً ونهبًا وسرقة، وليس لهم رادع يردعهم! فأين جيوش سليمان بن هود؟! وأين عنجهيّته وجبروته؟ أم أن قوّته على المسلمين! أم أنه: [الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ *** فَرْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصافرِ الصَّافِرِ

لقد فرَّ سليمان بن هود وتبعه جنوده، وتحصّنوا بحصونهم، وتركوا رعيتهم لسيوف النصارى!

كان مصابًا عظيمًا للمسلمين في سرقسطة؛ إذ كان ذلك الهجوم في وقت الحصاد، فقام النصارى بحصده وحمله، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا الزروع والأراضي، وحملوا ما شاء لهم أن يحملوه إلى بلادهم، وكانت فرصة للمأمون أن يثأر لهزيمته، فأغار على بلاد ابن هود ونهب منها ما شاء.

تحالف المأمون مع المعتضد بن عباد ضد ابن هود

ولم يكتفِ المأمون بذلك فقط، بل عزم على عقد تحالفات أخرى مع ملوك الطوائف؛ يستعين بهم على ابن هود، وعرض المأمون على المعتضد

بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة صداقته وتحالفه، واستمرَّت المفاوضات بينهما، وقَبِلَ المعتضد بالله ذلك الحلف وتلك النصرة، على أن يعترف المأمون بالدعوة الهاشمية، ويُبايع للمدعو هشام المؤيد، وتكون له الدعوة في مساجد طليطلة، ووافق المأمون بن ذي النون، مع أن أباه إسماعيل بن ذي النون قد رفضها من قبلُ، ولكنها المصالح!

ويبدو أن المأمون خرج من ذلك الحلف خاسرًا خائبًا؛ إذ انشغل المعتضد عنه بقتال ابن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس، فلم ينلْ منه ما يُريد، وعاد بتحالفه بخُفّيْ حنين!.

أما ابن هود فإنه وقع في تلك السقطة التي وقع فيها المأمون، وذهب إلى النصارى يستعين بهم -أيضًا- على المأمون، وبعث إلى فرناندو ملك قشتالة بالهدايا والتحف، وأغراه في طليطلة، فاستجاب فرناندو ولبّى دعوته، وبعث بسراياه فعاثت في أراضي طليطلة فسادًا وتخريبًا، حتى وصلت إلى وادي الحجارة، وقلعة النهر (قلعة هنارس).

لم ييأس المأمون من المعركة والتمس مساعدة غرسية ملك نافار، وهو أخو فرناندو ملك قشتالة وكانت بينهما عداوة، وبعث المأمون إلى غرسية بالأموال والتحف يستنصره على ابن هود، فأغارت قوات غرسية على أراض سرقسطة المتاخمة له فيما بين تُطِيلَة ووَشْقَة، وافتتح قلعة قلبرة أو قَلَهُرَّة من ثغر تُطِيلَة سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، والتي فتحها المنصور بن أبي عامر، وعاثت فيها قوات النصارى تخريبًا.

وهكذا استباح النصارى في قشتالة ونافار بلادَ المسلمين في طليطلة وسرقسطة، بمساعي ابن هود وابن ذي النون المشئومة الذميمة، وانهارت خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين، فاضطر أهل طليطلة إلى أن يبعثوا كبراءهم إلى سليمان بن هود؛ طلبًا للصلح، وحفظًا لأراضي المسلمين من ظفر النصارى بها، واستحواذهم عليها، وتظاهر كلٌّ من سليمان بن هود

والمأمون بالقبول والمصالحة، ثم غدر سليمان بن هود بما كان عاهد عليه أهل طليطلة والمأمون، ويبدو أن كلاً منهما لم يكن مستعدًا لقبول الصلح؛ فالعداوة بينهما ملأت القلوب!

استعلاء النصارى على المسلمين

لم يمضِ كثير من الوقت حتى خرج سليمان بن هود بجنوده، ومعه طالعة من حلفائه النصارى متجهًا إلى مدينة سالم من أعمال طليطلة، ولم تصمد حاميتها أمامه، وقتل منهم الكثير، وبسط نفوذه على الحصون التي انتزعها منه المأمون، وكان معه في ذلك كله عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وهو أخو المأمون، وجعل يدُلُّه على عورات المأمون وثغراته، ولما علم المأمون بالحادثة أسرع ليستردَّ المدينة ويُدافع عنها، وانتهز فرناندو حليف ابن هود غياب المأمون، فبعث سراياه فعاثت في أراضي طليطلة خرابًا وتقتيلاً؛ حتى يئس أهلها، وبعثوا إلى فرناندو يطلبون الصلح والمهادنة، فطلب منهم أموالاً كثيرة، واشترط عليهم شروطًا لم يقدروا عليها، وقالوا له: لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة واستدعيناهم لكشف ما نحن فيه من المعضلة.

فردَّ عليهم فرناندو (ويا ليته لم يَرُدّ) قائلاً: «أمَّا استدعاؤكم البرابرة، فأمر تَكثرون به علينا، وتهدِّدوننا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا لكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديمًا في أوّل أمركم؛ فقد سكنتموها ما قُضِيَ لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عُدوتكم (يقصد عُدوة المغرب)، واتركوا لنا بلادنا؛ فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم».

وهكذا لم يجد أهل طليطلة قبولاً لِمَا عرض عليهم من الصلح، وعلى الجانب الآخر كان غرسية وجنوده حلفاء المأمون يعيثون في أراضي ابن هود

فسادًا وتخريبًا، ودامت هذه الفتنة الهوجاء بين هذين الأميرين المشئومين على المسلمين لمدة ثلاث سنوات (٤٣٥-٤٣٨هـ=١٠٤٣-١٠٤٦م)، ولم تنتهِ إلاّ بموت سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة؛ إذ تنفّس المأمون بن ذي النون الصعداء.

طليطلة وسرقسطة.. سليمان بن هود والمأمون بن ذي النون.. إنهما نموذج صارخ لتلك الحروب والخصومات التي عاشتها أمّة الإسلام، وعانت ويلاتها في تلك الفترة المشئومة على المسلمين فترة ملوك الطوائف.

المقتدر بن هود

هدأت الأمور نوعًا ما بين المملكتين؛ إذ انشغل أولاد سليمان الخمسة في النزاع على أملاك أبيهم، وقد استطاع المقتدر بالله أحمد بن هود أن يتغلّب على إخوته، وأن يُكَوِّنَ مملكة من أعظم ممالك الطوائف، بعد أن ضمّ طُرْطُوشة إلى أملاكه سنة (٤٥٢هـ=١٠٦٠م) ، كما انتزع دانية من صهره علي إقبال الدولة بعد أن حاصرها وذلك سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م)؛ وبذلك أضحت سرقسطة أكبر ممالك الطوائف مساحة وأعظمها قوّة.

يحيى القادر بن ذي النون

كما بدأ المأمون يتوسّع على حساب الممالك الصغيرة الأخرى، واستطاع أن يُكَوِّنَ مملكة قوية مترامية حتى وصلت إلى بَلَنْسِيَة شرقًا، وما لبث المأمون إذ وافته المنية بعد ثلاث وثلاثين عامًا، وذلك بقرطبة سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وخلفه حفيده يحيى القادر على أملاك طليطلة وأعمالها.

لم يكن يحيى القادر على مقدار الكفاءة السياسية والعسكرية التي كانت عند جدّه المأمون؛ إذ كان سيئ الرأي، قليل الخبرة والتجارب، فوقع تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر، وطائفة من قرناء السوء وبطانة الشرّ، ظلّوا وراءه حتى أوغروا صدره من مدبّر دولته ابن الحديدي، فقتله في أوائل ذي الحجة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) -على نحو ما فصّلنا- وسرعان ما انقلب عليه

أعوان الأمس، وصاروا يُؤَلِّبُون العامَّة عليها، وانهالت عليه الضغوط من كل جانب، وكانت هذه فرصة للمقتدر بن هود أن يُغير على طليطلة وأعمالها، وفعلاً كثّف المقتدر غاراته واستعان بالنصارى في ذلك، ولم يستطع يحيى القادر بن ذي النون أن يَرُدَّ عليه، وظلّ الأمر هكذا حتى استطاع المقتدر بن هود أن ينتزع منه مدينة شَنْتَبَرِيَّة.

سقوط طليطلة

ملوك الطوائف في الأندلس سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) – طليطلة Toledo وسرقسطة Zaragoza

تطوَّرت الأحداث كثيرًا في كلٍّ من طليطلة وسرقسطة؛ إذ تصاعد الخطر النصراني على بلاد المسلمين، وبدأ ألفونسو السادس يُسَدِّد ضرباته القوية على ممالك الطوائف المختلفة، حتى أضعفها وأنهكها؛ مرَّة بالجزية، ومرَّة بالغارات المتتالية، والواقع أن أحوال يحيى القادر في طليطلة كانت تُنذر بالخطر ووقوع النكبة؛ إذ اندلعت الثورة ضدَّه في طليطلة وهرب منها إلى حصن وَبْذَة سنة ٤٧٢هـ، إلا أنه استطاع أن يعود على حراب ألفونسو مرَّة أخرى، والتي أعقبتها زواله وخروجه ذليلاً من طليطلة؛ إذ وقعت النكبة وسقطت في يد ألفونسو في صفر (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، وخرج القادر يحيى إلى بلنسية تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨هـ=١٠٨٦م).

وعاث النصارى قتلاً وتخريبًا في المسلمين وديارهم تحت سمعه وبصره، ولم يُحَرِّك ساكنًا، وأمام هذه التطوُّرات الخطيرة يصل الخبر إلى بَلَنْسِيَة بالعبور المرابطي، فيهرع النصارى في بلنسية إلى ألفونسو لنجدتهم من الاتحاد الأندلسي المرابطي، وتكون معركة الزلاقة وينتصر المسلمون في (رجب ٤٧٩هـ=أكتوبر ١٠٨٦م)، ويتنفّس أهل بلنسية الصعداء، بخروج النصارى وانتصار المسلمين، وهكذا انتقلت دولة القادر بن ذي النون من طليطلة إلى بلنسية.

الصراع على بلنسية

وعلى الجانب الآخر تُوُفِّيَ المقتدر أحمد بن هود سنة (٤٧٥هـ=١٠٨١م)، بعد ٣٥ سنة حاكمًا على سرقسطة، بيد أن أبناء المقتدر يوسف والمنذر اقتتلا فيما بينهما على عرش أبيهما، واستعان كلّ منهما بالنصارى على أخيه، فارتمى يوسف المؤتمن في أحضان السيد القمبيطور، وجيشه من المرتزقة القشتاليين، وارتمى المنذر في أحضان سانشو ملك أراجون ورامون أمير بَرْشُلُونَة، وانتهت الفتنة بتغلُّب يوسف المؤتمن بن هود على مملكة سرقسطة، وانحصر سلطان المنذر في لارِدَة وطُرْطُوشة، وبدأت أطماع يوسف تَتّجه صوب بلنسية، إلا أنه فشل في انتزاعها من يد حاكمها أبي بكر بن عبد العزيز، إلاّ أنّ ابن عبد العزيز أحسّ بالخطر، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بالتقارب بينهما بالمصاهرة؛ إذ زوّج أبو بكر ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤتمن وذلك سنة ٤٧٧هـ، ومات المؤتمن سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، ولم يُحقِّق حلمه، وخلفه من بعده ابنه أحمد المستعين.

تطوّرت الأحداث على هذا النحو في المملكتين، وأسفرت معركة الزلاقة عن انجلاء الحصار القشتالي عن بلنسية ٤٧٩هـ، وتجدّدت أطماع المستعين بن هود في بقية أملاك طليطلة، وأخذ يتحيّن الفرص ليقتنصها ويُحقِّق حلم آبائه، وجاءته الفرصة إذ إن عمه المنذر كان يرقب هو الآخر الفرصة للاستيلاء على بَلَنْسِيَة، وحشد جنوده وفرض عليها الحصار سنة (٤٨١هـ=١٠٨٠م)، وهنا هرع القادر بن ذي النون إلى حليفه أحمد المستعين بن هود، الذي لبّى دعوته مسرعًا وهو ينوي نية الاستيلاء، مستعينًا في ذلك على القمبيطور وجنوده المرتزقة، وما أن اقترب المستعين ومَنْ معه من مرتزقة القمبيطور، حتى أنهى المنذر الحصار وعرض على يحيى صداقته، وهنا ظهرت ألاعيب كلٍّ من القمبيطور والمستعين، وظلّ كلّ منهما يلعب على الآخر، وتفكّك الحلف بينهما؛ إذ ظهرت النوايا الخفيّة في سيطرة كلٍّ منهما على بَلَنْسِيَة، وانتهى الأمر أن غدت بَلَنْسِيَة في يد القمبيطور، وكانت مصابًا

عظيمًا، ومحنة جليلة للمسلمين هناك وذلك سنة (٤٨٨هـ=١٠٩٦م)، وبقيت بَلَنْسِيَة في أيدي النصارى حتى استردّها المرابطون سنة ٤٩٥هـ.

انتهاء الصراع بسقوط الدولتين

عاد المستعين حاملاً أذيال الخيبة من فشل محاولاته في انتزاع بلنسية، إلى أن قُتل في معركة بلتيرة أو فالتيرا أمام ألفونسو المحارب ملك أراجون في (رجب ٥٠٣هـ=يناير ١١١٠م)، وخلفه ابنه عبد الملك الملقّب بعماد الدولة، والذي كانت نهاية دولة بني هود على يديه؛ فقد دخل المرابطون سرقسطة سنة (٥٠٣هـ=١١١٠م)، وكانت آخر ممالك الطوائف سقوطًا في يد المرابطين، وظلّت في أيديهم إلى أن سقطت في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في رمضان (٥١٢هـ =١١١٨م) .

وهكذا انتهت الأحداث بين مملكتي طليطلة وسرقسطة، والتي كان الاعتماد فيها واضحًا على جند النصارى والمرتزقة، والذي كان له بعيد الأثر في تدهور الأوضاع حتى سقوط المملكتين.

ممالك إسبانيا النصرانية في عهد ملوك الطوائف

رَّت الممالك النصرانية الإسبانية في الشمال خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بنفس الأطوار التي مرّت بها الأندلس الإسلامية في الجنوب، فمرّة في طور القوّة والنشاط، ومرّة في طور التفرُّق والنزاع، وطور القوة يأتي من وَحْدة تلك الممالك المتنازِعة فيما بينها، وطور الضعف يأتي من التنازع بينها، فكما رأينا الحال في الأندلس عندما تنازعها ملوك الطوائف، وتقاتلوا فيما بينهم؛ حتى إن الأخ يقتل أباه وأخاه وأهله ليستأثر بالحُكم دونهم، كان هذا هو الوضع -كذلك- في الممالك النصرانية.

* ولا نعرف أيًّا من الطرفين أخذ بسُنّة الآخر!

وفيما يلي في هذه السطور نحاول أن نُلقي بعض الضوء على حال تلك الممالك وعَلاقتها بملوك الطوائف، وكيف تَوَحَّدت تلك الممالك وعادت حركة الاسترداد النصرانية على الأندلس المسلمة؟

الممالك النصرانية في الشمال

انقسمت المملكة النصرانية في الشمال في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى ثلاث ممالك؛ هي على النحو التالي:

مملكة نافار أو نبرَّة: وهي أكبر الممالك النصرانية، وكان يحكمها سانشو الكبير.

مملكة ليون: فكان يحكمها برمودو الثاني (٩٨٢-٩٩٩م)، وخلفه في الحكم ابنه ألفونسو الخامس، وظلّ بها حتى تُوُفِّيَ سنة ١٠٢٧م، وذلك خلال إحدى غاراته على أراضي المسلمين في شمال البرتغال، وحاصر مدينة بازو، فأصابه سهم مسموم فقتله، فخلفه ابنه برمودو الثالث.

مملكة قشتالة: وكان يحكمها سانشو غرسية حتى سنة ١٠٢١م، ثم خلفه ابنه غرسية بن سانشو.

ممالك إسبانيا النصرانية (ليون – قشتالة – نافار أو نبرة) في القرن الحادي عشر الميلادي – الخامس الهجري في عهد ملوك الطوائفكان بين هذه الممالك تنازع وفرقة، وكان كلّ منها -تمامًا كما كان يحدث بين ملوك الطوائف- يترقّب الفرصة المناسبة للانقضاض على مُلْك الآخرين، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ قصد غرسية بن سانشو ملك قشتالة مملكة ليون؛ ليتمّ عقد زواجه من أخت ملكها برمودو الثالث، فقُتل غِيلة هناك في الكنيسة أثناء مراسم الحفل، وبذلك أصبحت مملكة قشتالة بلا ملك ولا أمير، وكان ذلك سنة ١٠٢٨م، وكان لهذا الحدث أثره الكبير في تغيير الخريطة السياسية في الممالك النصرانية.

سانشو الكبير وتوحيد ممالك إسبانيا

كان سانشو الكبير ملك نافار (نبرة)، يرقب الأحداث عن كثب، وكانت تلك فرصته الذهبية؛ إذ كان سانشو زوجًا لأخت غرسية القتيل، وبالتالي فهو الوريث الشرعي لميراث زوجته، فجمع قوته واحتلّ قشتالة، وضمّها إلى مملكته، ووضع عليها ابنه فرناندو؛ وبذلك أضحت قشتالة ونافار مملكة واحدة.

أضحت إسبانيا مفترقة بين مملكتين، الأولى يحكمها سانشو وولده فرناندو؛ وهي مملكة قشتالة ونافار، والثانية يحكمها برمودو الثالث؛ وهي مملكة ليون.

كانت عين سانشو الكبير على ليون؛ إذ بها تتوحّد إسبانيا على يديه ويُصبح هو الملك الأوحد للنصارى الإسبان، وكانت وسيلته في ذلك أن توجّه فرناندو ملك قشتالة وعقد زواجه على أخت برمودو الثالث ملك ليون، وبالطبع كان ذلك الزواج زواج مصلحة إلى حين، فكما استطاع سانشو أن يتغلّب على قشتالة بزواجه من أخت غرسية القتيل، أراد فرناندو أن يُخضع ليون بالطريقة ذاتها، ولكن يبدو أن فرناندو استعجل ثمرته فهاجم مملكة ليون وافتتحها لنفسه، ففرّ برمودو الثالث ليرقب الفرصة لاسترداد عرشه، وقد حاول ذلك مرارًا ولكنه لقي مصرعه على يد صهره، وبذلك توحّدت ممالك إسبانيا الثلاثة على يد سانشو الكبير، وكان ذلك سنة ١٠٣٧م.

وفاة سانشو الكبير

وكان سانشو قُبيل وفاته قد قسّم مملكته بين أولاده الأربعة؛ فجعل قشتالة وليون وجِلِّيقِيَّة من نصيب ابنه فرناندو، وخصّ ابنه الأكبر غرسية بنافار، وجعل لابنه راميرو ما تسمّى بمملكة أراغون، واقتطع لابنه كونزالو منطقة صغيرة هي ولايتي سوبرابي وربا جورسيا، هذا فضلاً عن إمارة ببرشلونة في شمال شرقي إسبانيا، والتي يحكمها رامون برنجيز الأول.

وكان هذا التقسيم إيذانًا بعودة الفُرقة والتناحر بين الإخوة الأشقاء، وهو ما حدث بالفعل، بعد وفاة سانشو الكبير

فرناندو وتوحيد ممالك إسبانيا النصرانية

الحرب الأهلية بين ممالك إسبانيا

ما إن مات سانشو الكبير اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا النصرانية بين الإخوة الأشقاء، وكانت حربًا دموية وشرسة، استعان أطرافها بالغيلة والخيانة والخديعة.

هجوم فرناندو ملك قشتالة وليون على ممالك الطوائف في بطليوس وطليطلة وإشبيلية (٤٤٩هـ=١٠٥٧م)لم يقتنع راميرو ملك أراغون بنصيبه من مملكة أبيه، وطمع في نصيب أخيه غرسية؛ أي: مملكة نافار نفسها، ولم تكن قوّاته كفيلة بتحقيق أحلامه، فعقد حلفًا مع جاره المسلم ابن هود صاحب سرقسطة على أن يُمِدَّه بجنود من عنده، ثم زحف راميرو في قوّاته المتحدة، إلى نافار ومعه حلفاؤه من المسلمين، وضرب حصاره على قلعة تافالا، وعلى عَجَلٍ جمع غرسية جيوشه، وفي جُنح الظلام انقضَّ بقواته على جيش راميرو، وكانت مقتلة عظيمة ومفاجأة، وقُتل كذلك معظم جيش المسلمين المشارك في المعركة، وكان ذلك سنة ١٠٤٢م.

وعلى الجانب الآخر كان غرسية ملك نافار يرى أنه أحقّ بقشتالة من أخيه فرناندو؛ فهو أكبر إخوته سنًا، وتملكت الغيرة قلبه من أخيه الأصغر فرناندو، فدبَّر له حيلة ومكيدة يكون فيها مقتل فرناندو؛ إذ دعا غرسية أخاه فرناندو لزيارته في نافار؛ فهو على فراش الموت، ويحبُّ أن يرى أخاه قبل انقطاع حياته، وفعلاً لبّى فرناندو دعوة أخيه الأكبر، ولكنه فطن إلى حيلته بفعل عيونه، فعاد مسرعًا، وقلبه يمتلئ حقدًا على أخيه، ولم يكن غرسية على علم بأن فرناندو اكتشف حقيقة أمره ومكيدته، وبعث فرناندو برسالة لأخيه غرسية يدعوه لزيارته بقشتالة، فسار إليه وهو مطمئن النفس من أخيه، وما

لبث حتى قبض عليه فرناندو واعتقله، ولكنه استطاع الفرار وهو يُضمر لأخيه الانتقام، فكان لا بد من الحرب!

جمع غرسية حشوده مستعينًا في ذلك بحليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، كما جمع فرناندو حشوده من قشتالة وليون، واشتبك الفريقان عند سهل أتابوركا شرقي برغش، وكانت معركة دامية، انقلبت فيها الموازين على غرسية وحلفائه من المسلمين، وقُتل غرسية بضربة قاضية، فانهار جيشه ولاذ بالفرار، وقصر فرناندو مطاردته على جيش المسلمين، فمُزِّقُوا شرَّ ممزَّق، وكانوا بين أسير وقتيل، ووقع اختيار فرناندو على سانشو بن غرسية ملكًا جديدًا على نافار؛ ليكون وريثًا لأبيه.

وهكذا توحَّدت ممالك إسبانيا النصرانية مرَّة أخرى؛ إذ أضحت قشتالة وليون ونافار وجليقية وأراجون (أراغون) تحت قبضة ملك واحد هو فرناندو بن سانشو الكبير.

فرناندو وحرب الاسترداد الأولى

حقًا إن التاريخ يُعيد نفسه، وما أشبه أحداث الواقع بالتاريخ.. ففي الوقت الذي كانت إسبانيا النصرانية تنزع نحو الوَحْدَة والقوَّة على يد فرناندو، الذي استطاع بالفعل أن يُكوِّن جبهة نصرانية صليبية مُوَحَّدة، كانت إسبانيا المسلمة أو الأندلس الإسلامية تصطلي بنيران الفُرقة والتنازُع والتشرذم بين أبناء الدين الواحد، فما أن أُلغيت الخلافة الأموية (عِقد الأمَّة ورمز وَحدتها) وذلك في قرطبة سنة (٤٢٢هـ=١٠٣١م)، حتى أضحت الأندلس فرقًا ممزَّقة وقطعًا متناثرة، وطوائف متنازعة متقاتلة.

وكان هذا التنازع سبيلاً إلى أن يتقوَّى بعضهم على بعض بتكوين التحالفات والتكتلات والاستعانة بغيرهم؛ ليتقوى بهم على جاره المسلم، وربما كان جاره أباه أو أخاه، وكان لا بدَّ لهذا الحليف أن يكون في موضع قوَّة

واتحاد؛ لذلك اتجهت أنظار ملوك الطوائف إلى النصارى الصليبيين، الذين يحملون رُوح الحقد والكراهية للمسلمين.

فكان هذا الاتحاد الذي أحدثه فرناندو بين ممالك إسبانيا الصليبية، وحالة التنازع والفرقة بين ملوك الطوائف سبيلاً إلى تغيير ميزان القوى السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الأيبيرية بشِقَّيْهَا الإسلامي والنصراني، وكانت هذه القوة النصرانية بداية لما يُسَمَّى بحرب الاسترداد الصليبية ضدَّ الممالك الأندلسية المسلمة.

تمركزت سياسة حرب الاسترداد التي تزعَّمها فرناندو الأول ملك قشتالة على أكثر من جهة، وكان يهدف من هذا الأمر إلى إضعاف قوَّة ملوك الطوائف، وإخضاعهم لسلطانه وسيطرته؛ إمَّا من خلال السيطرة على أراضيهم، أو إضعافهم وإرهاق كاهلهم بدفع الجزية والإتاوات، ولم يُولِّ فرناندو نظره وقوَّته إلاَّ للممالك الأقوى بين ملوك الطوائف، وكانت هذه الممالك هي طليطلة وإشبيلية وسرقسطة وبطليوس وغيرها من الممالك الضعيفة.

غزو فرناندو لمملكة بني الأفطس في بطليوس

ممالك إسبانيا النصرانية وغزوها لممالك الطوائف في الأندلس عام (٤٥٢هـ/١٠٦٠م) فما أن انتهى فرناندو من توحيد جبهته الصليبية بعد تغلُّبه على إخوته، حتى وجَّه أمره وقوته إلى بني الأفطس أصحاب بطليوس؛ لإخضاع وضمِّ ممتلكاتهم إلى دولته، ومعلوم أن بطليوس تُمَثِّل الحدود الشمالية والغربية لدولة الأندلس؛ أي: تشمل دولة البرتغال الحالية بكاملها؛ فهي تضمُّ لشبونة (lispon)، وشنترين (Santarém)، وقلمرية (Coimbra) وغيرها، وفي سنة (٤٤٩هـ=١٠٥٧م) تأهَّب فرناندو الأول وجمع جيوشه وغزا بلاد بطليوس، وعبر بقوَّاته نهري دويرة وتورمس، وهاجم الحدود الشمالية لمملكة بطليوس، واستطاع أن يُخضع مدينتي بازو ولاميجو الواقعتين في شمال

البرتغال، وعاث فيهما فسادًا وتخريبًا، ثم قام بعملية تصفية وتطهير عرقي ضد مسلمي المدينتين الإسلاميتين؛ إذ طرد المسلمين منها واستوطنها بالنصارى.

وبعد أن تمَّت السيطرة لفرناندو طلب من المظفر بن الأفطس دفع الجزية والإتاوة، بيد أن المظفر رفض دفع الجزية له، وهذا ما دفع فرناندو أن يُغيرَ مرَّة أخرى، فبعث بحملة من عشرة آلاف جندي عاثت تخريبًا وقتلاً، ولم تلقَ مقاومة تُذْكَر من جند ابن الأفطس، وظلَّت قوَّات النصارى تعيث في أراضي المسلمين فسادًا حتى وصلت مدينة شَنْتَرِين، وكان ابن الأفطس على علمٍ بتحرُّكات النصارى، فسبق النصارى إلى شَنْتَرِين، وعلِمَ أنه لا قِبَلَ له بجيش النصارى، فعرض عليهم الصلح والهدنة، وانتهت المفاوضات على أن يدفع ابن الأفطس الجزية السنوية ومقدارها خمسة آلاف دينار.

غزو فرناندو لمملكة بني ذي النون في طليطلة

يبدو أن فرناندو قنع بخضوع بطليوس وأصحابها من بني الأفطس، فوجَّه وجهته الثانية ناحية طليطلة، وقد بيَّنَّا -سابقًا- أن فرناندو كان يبعث سراياه لتعيث فسادًا في أراضي طليطلة، أثناء حلفه مع ابن هود في فترة الصراع المحتدم بين سليمان المستعين بن هود وبين المأمون بن ذي النون، كما أن المأمون كان يستعين بغرسية ملك نافار، وكانت جيوش النصارى تعيث في أراضي المسلمين بتحريض من الأميرين المشئومين.

وأدرك فرناندو بعد توحيد جبهته أن لا قِبَل لملوك الطوائف بردِّه؛ إذ هم منهمكون في حرب بعضهم البعض، ففي سنة (٤٥٤هـ=١٠٦٢م) هاجم فرناندو حدود مملكة طليطلة الشمالية الشرقية؛ فأغار على مدينة سالم ووادي الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس)، وعاث فيها فسادًا وتخريبًا، ولم يكن أمام المأمون إلاّ أن هرع مسرعًا إلى فرناندو، وجمع معه أطنانًا من الذهب والفضة، وقدم له الهدايا اعترافًا بطاعته، وتعهد بدفع الجزية له.

غزو فرناندو لمملكة بني عباد في إشبيلية

وبعد أن اطمأن فرناندو إلى ولاء المأمون بن ذي النون، خرج بقوّات كثيفة سنة (٤٥٥هـ=١٠٦٣م) وأغار على مملكة إشبيلية، وأحرق قراها وخرّب أراضيها، فلم يجد المعتضد بن عباد بُدًّا من أن يحتذي حذو المأمون صاحب طليطلة، وهرع المعتضد مسرعًا إلى فرناندو وقدّم له الهدايا؛ معلنًا الولاء والطاعة، كما عرض عليه الصلح والمهادنة والسلم فقَبِلَ منه! وطلب منه أن ينقل رفات القديسة خوستا، التي استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودُفِنَتْ بإشبيلية، فوافق المعتضد بن عباد، وحُمِلَتْ رفات القديسة في احتفال فخم، ونقلت إلى ليون.

سقوط قلمرية في يد فرناندو

وهكذا استطاع فرناندو أن يُخضع طليطلة وبطليوس وإشبيلية تحت قبضته، بإرهاقهم بالجزية والغارات، وكان في كلّ ذلك يعدُّ عُدّته وخطته الكبرى للسيطرة على قلمرية من أعمال بطليوس، التي فتحها المنصور بن أبي عامر في ٣٧٥هـ، قصد فرناندو قلمرية بجيوشه وفرض عليها الحصار سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)، وكان قائدها في ذلك الوقت رجلاً يُسَمَّى راندة، وقد غادر المدينة بعد أن راسل فرناندو سرًّا، وخرج هو وأهله سالمين، ثم توجّه إلى المظفر بن الأفطس الذي قتله جزاء خيانته وتعاونه مع الصليبيين، ويبدو أن المسلمين حاولوا المقاومة، ولكن نفدت أقواتهم، ولم تلبث المدينة حتى سقطت بعد ستة أشهر من الحصار، بعد حُكم إسلامي دام أكثر من بضع سبعين سنة.

فرناندو وغزو مملكة بني هود في سرقسطة

لم يَعُدْ أمام فرناندو إلا أنْ يُخْضِعَ مملكة بني هود، التي تُسَمَّى بالثغر الأعلى سرقسطة؛ فهي المملكة الوحيدة التي يماطل أصحابها فرناندو في دفع الجزية والإتاوات المفروضة عليهم، كما أنه أراد أن يُخْضِعَ بلنسية لسلطانه،

فتوجَّه بقوَّاته سنة (٤٥٧هـ=١٠٦٥م) صوب بلنسية مخترقًا في ذلك حدود سرقسطة الجنوبية، وأعمل فيها القتل والتخريب، ونهب الزروع والقرى، كما أنه اجتاح سائر البقاع والحصون؛ وبذلك أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية.

فرناندو وإخضاع بلنسية

ثم اتجه من فوره ناحية بلنسية وفرض عليها الحصار، ولَمَّا طال الحصار ورأى فرناندو أن حصون المدينة منيعة، ووسائل الدفاع لديها قوية، عزم على الحيلة والمكيدة؛ فتظاهر بالانسحاب والمغادرة، فخرج أهل المدينة فرحين بالنصر متتبِّعين فلول المنهزمين، متزينين بزينة النصر والأُبَّهة، وهنا وفي غفلة من أهل بلنسية وأميرها عبد الملك بن عبد العزيز المنصور، ارتدت القوات الصليبية، وأعملت في أهل بلنسية القتل والأسْرَ، واستسلمت المدينة لفرناندو، ولكنه أحسَّ بالمرض فآثر العودة إلى ليون، ولم تمضِ أيام حتى تُوُفِّيَ سنة (٤٥٧هـ= ديسمبر ١٠٦٥م).

وهكذا استطاع فرناندو أن يبسط قوَّته على إسبانيا الصليبية وإسبانيا الإسلامية بسلطانه المادي بقوته وجيوشه، والمعنوي بالجزية والإتاوات، التي يُرهق بها ملوك الطوائف.

ألفونسو والحرب الصليبية على ملوك الطوائف

الحرب الصليبية

كان ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة أقوى ملك نصراني صليبي في ذلك الوقت، ولم ينسَ ألفونسو يومًا عداوة آبائه وأجداده للمسلمين في الأندلس؛ لذلك ليس غريبًا أن يستأنف ألفونسو حرب الاسترداد الصليبية في إسبانيا الإسلامية، بل وتكون أشُدَّها ضراوة وقوَّة وحمية.

وقد اتّسمت فترة الصراع الإسلامي الصليبي في عهد ألفونسو بالدينية، وكان ذلك بتأييد من البابوية الكنسية؛ لذلك اتّسم الصراع بالحماسة الشديدة من أجل تحقيق أهداف الكنيسة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس.

الحرب الصليبية على ملوك الطوائف

ألفونسو وسرقسطة

عندما اعتلى ألفونسو عرش قشتالة وليون سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٢م) كان الصراع على أشدِّه بين إشبيلية وغرناطة، وقد سبق وفصلنا كيف استعانت كلتا المملكتين بألفونسو السادس على بعضهما، حتى أرهقهما بالجزية وبما أثاره من تقتيل وتخريب وإفساد باسم تحالفه مع المملكتين.

كانت العَلاقة بين ألفونسو ومملكة سرقسطة تسير من سيئ إلى أسوأ، وحدث أن تُوُفِّيَ يوسف المؤتمن بن هود في السنة نفسها التي سقطت فيها طليطلة بيد ألفونسو (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، فتوجه إلى سرقسطة، وضرب الحصار عليها، إلا أن حملته باءت بالفشل؛ إذ جاءت الأنباء إليه بقدوم المرابطين لنجدة إخوانهم بالأندلس، فعاد إلى قشتالة ليُعِدَّ عُدَّته.

ألفونسو وبلنسية

ممالك إسبانيا وملوك الطوائف في الأندلس سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)أما عن بلنسية فقد كانت تمرُّ بفوضى سياسية تحت حُكم القادر يحيى بن ذي النون، الذي دخلها تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨هـ=١٠٨٦م)، فقد تعرَّضت بلنسية لضغط المنذر بن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سرقسطة، وكانت المدينة تشطر أملاكه، فالتمس المساعدة من كلٍّ مِنْ ألفونسو السادس وأحمد المستعين، الذي هرع إلى القمبيطور، غير أن المصالحَ تضاربت بين الحليفين، فاضطر المستعين أن يستعين برامون أمير برشلونة، كما استعان القمبيطور بألفونسو السادس، وحدث أن انتصر القمبيطور على رامون، واستولى بذلك على شرقي الأندلس وبلنسية منها،

وفرض الجزية عليها، وتعهَّد يحيى بدفع مائة ألف دينار سنويًّا مقابل حمايته له، بيد أن العلاقة ساءت بين القمبيطور وألفونسو السادس، فقبض ألفونسو السادس على زوجة القمبيطور وأولاده، وهاجم بلنسية في الوقت الذي كان فيه القمبيطور في سرقسطة؛ لتنظيم الدفاع عنها تجاه خطر المرابطين!

وهكذا أضحت ملوك الطوائف كلها تحت نير هجمات النصارى وممالكهم المختلفة في كل مكان، والتي أنهكت قوى ملوك الطوائف وأضعفت قواهم، ونتج عنها أن سقطت طليطلة على نحو ما سنُفَصِّله إن شاء الله.

ألفونسو وأخذ الجزية من المسلمين

إنَّ أشدَّ وأنكى ما كان من أمر ملوك الطوائف في هذه الفترة أنهم كانوا يدفعون الجزية للنصارى، فكانوا يدفعون الجزية لألفونسو السادس، وهم في ذِلَّة ومهانة؛ كانوا يدفعون الجزية حتى يحفظ لهم ألفونسو السادس أماكنهم وبقاءهم على الحُكم في بلادهم.

كانت سياسة ألفونسو السادس التي استعان بها في إنجاح خطته وسيطرته على ممالك الطوائف تعتمد على شقَّيْنِ، الأول: إرهاقهم بالغارات المتواصلة، والثاني: إرهاقهم بالجزية والإتاوات ؛ وبذلك تضعف قوى ملوك الطوائف العسكرية والاقتصادية، فلا يقدرون على المدافعة.

وكأنَّ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢]. قد نزل في أهل الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث يَتَعَلَّلون ويتأوَّلون في مودَّة وموالاة النصارى بالخوف من دائرة تدور عليهم من قِبَلِ إخوانهم، وهنا يُعَلِّق بقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، وهو بعينه الذي سيحدث في نهاية هذا

العهد كما سنرى، حين يكون النصر فيُسِرُّ هؤلاء في أنفسهم ما كان منهم من موالاة النصارى في الظاهر والباطن، ويندمون حين يفضحهم الله ويُظهر أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، وذلك بعد أن كانوا مستورين لا يدري أحدٌ كيف حالهم.

وإنها لعبرة وعظة يُصَوِّرُها القرآنُ الكريمُ منهجُ ودستورُ الأُمَّة في كل زمان ومكان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

موقف المتوكل بن الأفطس مع ألفونسو

غير أن الصورة لاح فيها نور من العزَّة والإباء قادم من بطليوس، التي أرهقتها غارات ألفونسو، فمع أن كل الممالك وأمراء الطوائف كانوا يدفعون الجزية إلى ألفونسو السادس إلا المتوكل بن الأفطس أمير مملكة بَطَلْيُوس.

وبعد أن أسقط ألفونسو طليطلة سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، وجد نفسه قادرًا على تحدِّي ملوك الطوائف جميعًا، وهنا أرسل ألفونسو السادس للمتوكل بن الأفطس رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية، كما كان يدفعها إخوانه من المسلمين في الممالك الإسلامية المجاورة، فرد عليه المتوكل برسالة قوية تثبت ما كان عليه من علم وعزة وإرادة، قال:

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مُدَّعٍ في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يُفَرِّق، ويُهَدِّد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضافرة، ولو علم أن لله جنودًا أعزَّ بهم ملّة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد ، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٥٤]، بالتقوى يُعرفون وبالتوبة يتضرَّعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة

﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، و ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

وأمّا تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم؛ فبالذنوب المركوبة... ولو اتّفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك؛ لعلمتَ أيَّ مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا تتجرّعه... وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، إهداء ابنته إليه ، مع الذخائر التي كانت تَفِدُ في كل عام عليه... وأما نحن؛ وإن قلّت أعدادنا، وعُدِم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحْر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلاّ سيوفًا تشهد بحدّتها رقاب قومك، وجلادًا تبصره في نهارك وليلك، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين، نتقوّى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما ﴿تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]: نصر عليكم فيا لها من نعمة ومنّة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هَدّدْتَ، وفرج يبتر ما مددت، ويقطع بك فيما أعددت».

فما كان من ألفونسو السادس إلاّ أن وجم ولم يُفَكّر، ولم يستطع أن يُرسل له جيشًا؛ فقد غزا كل بلاد المسلمين في الأندلس خلا بطليوس، لم يتجرَّأ على أن يغزوها، فكان يعلم أن هؤلاء الرجال لا يقدر أهلُ الأرض جميعُهم على مقاومتهم، فأعزّ الإسلامُ ورفع من شأن المتوكل بن الأفطس ومَنْ معه من الجنود القليلين حين رجعوا إليه، وبمجرّد أن لوّحوا بجهاد لا يرضون فيه إلاّ بإحدى الحسنيين، نصر أو شهادة.

إلاّ أن المتوكل صاحب هذه الرسالة، وصاحب العلم والفضل، ختم حياته على أسوأ وأخزى ما يكون الختام؛ إذ هو لما أتى فرجُ الله وتوحّدت الأندلسُ استولت عليه شهوة الملك؛ حتى تحالف مع ألفونسو عدوّه القديم ضد المسلمين، وما أغنى عنه ذلك شيئًا! إذ لقي جزاء خيانته قتلاً في خاتمة ما كان أحسن به أن يتجنبها!

ألفونسو السادس وحصار إشبيلية

ألفونسو السادس ذو الملتين

بعد أن استطاع ألفونسو إسقاط طليطلة في صفر سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، علا وتجبّر وتسمى بذي الملتين، وراح يستهين بملوك الطوائف، لا يُفَرِّق بين أحد منهم، وكانت خطوته التالية بعد طليطلة إخضاع إشبيلية لسلطانه، وكان ألفونسو -كما أوضحنا- قد اعتمد في إرهاق إشبيلية على الجزية والغارات المتواصلة، ولكن حدث أمر قلب موازين الأمور في الأندلس..

موقف تاريخي للمعتمد بن عباد

أرسل ألفونسو سفارة على رأسها وزير يهودي لأخذ الجزية من المعتمد بن عباد، وكان المعتمد قد تأخّر عن موعد دفع الجزية لانشغاله بغزو ابن صمادح صاحب ألمرية، فغضب ألفونسو وطلب فوق الجزية أن يتسلم بعض الحصون، ثم بالغ في طلباته فطلب أن تلد امرأته جنينها في مسجد قرطبة، وأن تسكن في الزهراء؛ بحجة أن الأطباء أشاروا عليه بنقاء الهواء في الزهراء، كما أن القساوسة أشاروا عليه بهذا الموضع من الجامع، فرفض المعتمد هذه الطلبات، وإذ باليهودي -وهو مجرد رسول- يردُّ على المعتمد بكلام مهين أمام مجلسه ووزرائه.

وكعادة النفوس التي قد بقي بها شيء من عوالق الفطرة السوية، أخذت الغيرة المعتمد بن عباد، وبنخوة كانت مفقودة قام المعتمد على الله فضرب اليهودي وقطع رأسه وصلبه بقرطبة، واعتقل بقيّة الوفد.

جُنَّ جنون ألفونسو السادس، وعلى الفور جمع جيشه وأتى بحدِّه وحديده، يُخَرِّب في أراضي إشبيلية، وبعث سراياه فعاثت في أراضي باجة ولبلة، وأحرق كل القرى حول حصن إشبيلية الكبير، ثم عاث في أراض شَذُونة وانحدر غربًا يُخَرِّب ويحرق، ثم فرض الحصار على إشبيلية.

حصار إشبيلية

حصار إشبيلية فرض ألفونسو حصاره على إشبيلية (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) بعد أن خرب أعمالها حرقًا ونهبًا، ثم بعث برسالة للمعتمد بن عباد مع رجل يُسَمَّى البرهانس، وهي رسالة مِلْؤُها الوعيد والانتقام، يقول له فيها:

«من الإمبراطور ذي الملتين الملك أذفونش بن شانجة إلى المعتمد بالله سدَّد الله آراءه، وبصَّره مقاصد الرشاد، قد أبصرتَ تَزَلْزُلَ أقطار طليطلة، وحصارها في سالف هذه السِّنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطَّلتم بالدِّعة زمانكم، والحَذِر مَنْ أيقظ بالَهَ قبل الوقوع في الحِبَالة، ولولا عهدٍ سَلَفَ بيننا نحفظ ذِمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلاَّ مَنْ يخاف الفَوْت فيما يرومه، وقد حمَّلنا الرسالة إليك السيد البرهانس، وعنده من التسديد الذي يلقي به أمثالك، والعقل الذي يُدَبِّر به بلادك ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدقّ ويجلّ، وفيما يصلح لا فيما يخلّ، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك».

رد المعتمد على ألفونسو

المعتمد بن عبادفلمَّا قدم الرسول أحضر المعتمد بن عباد أكابر القوم ووزراءه وفقهاءه، فلمَّا قرأ الكتاب بكى فقيه الأندلس أبو عبد الله بن عبد البر وقال: قد أبْصرنا ببصائرنا أنَّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة اللّعين قوَّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التّلاف تحت ذلِّ الخلاف، وما بقي إلاّ الرجوع إلى الله والجهاد.

ثمَّ أخذ المعتمد رسالة ألفونسو وكتب عليها: [الكامل]

الذُّلُّ تَأْبَاهُ الْكِرَامُ وَدِينُنَا *** لَكَ مَا تَدِينُ بِهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ

سُمْنَاكَ سِلْمًا مَا أَرَدْتَ وَبَعْدَ ذَا *** نَغْزُوكَ فِي الإِصْبَاحِ وَالإِمْسَاءِ

اللهُ أعْلَى مِنْ صَلِيبِكَ فَادَّرِعْ *** لِكَتِيبَةٍ خَطَبَتْكَ فِي الْهَيْجَاءِ

سَوْدَاءَ غَابَتْ شَمْسُهَا فِي غَيْمِهَا *** فَجَرَتْ مَدَامِعُهَا بِفَيْضِ دِمَاءِ

مَا بَيْنَنَا إلاّ النِّزَالُ وَفِتْنَةٌ *** قَدَحَتْ زِنَادَ الصَّبْرِ فِي الْغَمَّاءِ

فَلَتَقْدُمَنَّ إذَا لَقِيتَ أَسِنَّةً *** زُرْقًا تُرَى بِالْوَجْنَةِ الْوَجْنَاءِ

ثم قال:

«من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله، إلى الطّاغية الباغية أدفونش الذي لَقّب نفسه ملك الملوك، وتسمَّى بذي الملّتَيْنِ، سلام على مَنِ اتّبع الهُدى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملّتَيْنِ. والمسلمون أحقٌ بهذا الاسم؛ لأنَّ الذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملّتكم، وإنّما كانت سِنَةُ سعدٍ اتّعظ منها مُناديك، وأغفل عن النّظر السّديد جميل مُناديك، فركبنا مركب عجز يشحذ الكيْس، وعاطيناك كئوس دَعَةٍ، قلت في أثنائها: لَيْس. ولم تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بِصُنْعٍ واققَكَ فيه القَدَر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعدّ بحربٍ، وكذا وكذا... إلى أن قال: فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك».

طاول المعتمد على الله في التحصُّن، وفي محاولة لبثّ الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين والفتّ في عضدهم أرسل ألفونسو السادس رسالة قبيحة أخرى إلى المعتمد على الله بن عباد يقول فيها: «كثُر بطول مقامي في مجلسي الذّبّان ، واشتدّ علي الحرّ فأتحِفْنِي من قصرك بمروحة أُرَوِّح بها عن نفسي، وأطرد بها الذباب عني».

يُريد وبكل كبرياء وغرور أن يُخبره أن أكثر ما يُضايقه في هذا الحصار هو الذباب أو البعوض، أمّا أنت وجيشك وأمتك وحصونك فهي أهون عندي منه.

وبنخوة أخرى أخذ المعتمد على الله بن عباد الرسالةَ وقلبها، وكتب على ظهرها ردًّا وأرسله إلى ألفونسو السادس، ولم يكن هذا الردُّ طويلاً، إنه لا يكاد يتعدّى السطر الواحد فقط، وما أن قرأه ألفونسو السادس حتى تَملّكهُ الخوف والرعب والفزع وأخذ جيشه، ورجع من حيث أتى..

لم تكن رسالة المعتمد بن عباد إلاّ قوله: قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللّمْطِيّة في أيدي الجيوش المرابطية، تُريح منك لا تروح عليك إن شاء الله .

رفع الحصار عن إشبيلية

لم يكن أمام المعتمد على الله غير أسلوب التهديد هذا؛ فقط لوّح بالاستعانة بالمرابطين، وقد كان ألفونسو السادس يعلم جيدًا مَنْ هم المرابطون، فهو مطّلِع على أحوال العالم الخارجي، فما كان منه إلاّ أن أخذ جيشه وانصرف وفضّ حصار إشبيلية.

وهنا أيقن المعتمد فداحة جرمه وخطأه في دفع الجزية للنصارى، وإغارته على ممالك المسلمين، وقد أيقن أنه لا قِبَلَ له بألفونسو إلاّ بالمرابطين، وقد استنكر عليه بعضهم، وقالوا له: المُلْكُ عَقِيمٌ ، والسيفان لا يجتمعان في غمد. فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير.

سقوط طليطلة

طليطلة .. الثغر الأوسط لبلاد الأندلس

كان نتيجة زلزال عصر ملوك الطوائف هو سقوط طليطلة، ففي سنة (٤٧٨هـ= ١٠٨٥م) سقطت طليطلة، هذا الثغر الإسلامي الأوسط في بلاد الأندلس، تلك المدينة العظيمة التي كانت عاصمة للقوط قبل دخول المسلمين في عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله.

طليطلة التي فتحها طارق بن زياد بستة آلاف؛ فتحها بالرعب قبل مسيرة شهر منها.

طليطلة الثغر الذي كان يستقبل فيه عبد الرحمن الناصر الجزية من بلاد النصارى، ومنه كان ينطلق هو ومَنْ تبعه من الحكّام الأتقياء لفتح بلادهم في الشمال.

طليطلة المدينة العظيمة الحصينة، التي تحوطها الجبال من كل النواحي عدا الناحية الجنوبية.

هجمات النصارى على طليطلة

مملكة بني ذي النون في طليطلةأما عن قصة سقوط طليطلة: فقد تعرّضت مدينة طليطلة لهجمات كثيرة من النصارى في عهد فرناندو الأول وابنه ألفونسو السادس، هذا إضافة إلى غارات ملوك الطوائف المجاورة لها إثر النزاعات المتبادلة بينهم، وكان النصارى على علم بأن طليطلة واسطة العِقد في بلاد الأندلس، فلو سقطت فمِنَ المؤكّد أن تسقط قرطبة وبطليوس وغرناطة وإشبيلية وهكذا تباعًا.

سذاجة المأمون بن ذي النون

تُرى لو يعلم المأمون بن ذي النون أن ألفونسو هو مَنْ سيُسقط طليطلة، هل كان سيُحسن ضيافته؟!

إنها لسذاجة حقًا من المأمون، فألفونسو الذي هرب من حرب أهلية مع أخيه سانشو، وأحسن المأمون ضيافته تسعة أشهر كاملة.. وأخذ عليه عهده أن يحفظ طليطلة له ولأبنائه.. وقَبِلَ ألفونسو، وكأنه استخفَّ بعقل ذلك الرجل!

المأمون بن ذي النون يستضيف ابن فرناندو الذي أثقل كاهله وكاهل المسلمين بالجزية والغارات والإتاوات، الآن يستقبل ابنه الذي عمّا قليل سيُسقط طليطلة!

يبدو أن ألفونسو كان أكبر ذكاءً من المأمون؛ إذ كان ألفونسو يتريَّض في جنبات طليطلة ويأكل من خيراتها، ويُخالِط أهلها، ويعرف كمائنها ونقاط قوّتها وضعفها، ويتأمل أسوارها، لقد جعل ألفونسو حياته في طليطلة من منفىً إلى مهمة استخباراتية سيحتاج إليها بعد حين.

وما هي إلاّ أشهر قليلة وأصبح ألفونسو ملكًا على قشتالة سنة ١٠٧٢م، وأخذ يُعِدُّ عُدّته لإسقاط طليطلة.

فساد القادر بن ذي النون

مات المأمون بقرطبة وخلفه من بعده حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون وذلك سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وتلقّب بالقادر بالله، وكان القادر بالله سيئ الرأي، فاسد الخُلُق، أحاط نفسه ببطانة سوء، فتحكّمت فيه نساء القصر، وسار وراء هوى الغانيات والمغنيات، وما لبثت هذه البطانة السيئة حتى أوغروا صدره على وزيره الرجل القوي ابن الحديدي، الذي قتله في أوائل ذي الحجة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م).

وما لبث القادر أن جنى عاقبة فساده واعتماده على بطانة السوء، وانهالت عليه الثورات والهموم من كل جانب؛ فالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة يُرهقه بغاراته من ناحية، وأبو بكر بنْ عبد العزيز صاحب بلنسية أعلن الثورة والاستقلال، والنصارى من ناحية ثالثة يُغيرون على أعمال مملكته، وكادت قونقة أن ينتزعها منه سانشو راميرو ملك أراجون، لولا أنه

افتداها بمبلغ كبير من المال، وحاول القادر أن يجد عونًا ونصيرًا له أمام تلك المتاعب والهموم، فالتجأ إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، يطلب مساعدته، وبالطبع وافق ألفونسو، ولكن في مقابل ماذا؟!

وافق ألفونسو في مقابل أن يتنازل له القادر بن ذي النون عن بعض الحصون القريبة من الحدود، وقد تَسَلَّم منها بالفعل حصون سرية وفتورية وقنالش، كل ذلك إضافة إلى الأموال الباهظة التي اشترطها عليه، والتي يعجز عنه القادر، إلا أنه وافق لحاجته إليه!

ثورة أهل طليطلة

في خضمِّ كل هذه الأحداث كان المتآمرون داخل طليطلة يُمَهِّدُون لثورة انقلابية على القادر وأعوانه، وأمام هذه التنازلات المخزية من القادر، واستشراء الفساد في طليطلة اندلعت ضده الثورة الداخلية ونادت بالإطاحة به، وفعلاً هرب القادر من طليطلة إلى حصن وبذة، وأصبح أهل طليطلة بلا أمير ولا حكومة ولا نظام، فاستقدموا المتوكل بن الأفطس ليحكم البلاد سنة (٤٧٢هـ=١٠٧٩م).

ألفونسو يعيد القادر على حراب الصليبيين

انتقل القادر بن ذي النون من ملجئه في وبذة إلى مدينة قونقة، وأرسل إلى ألفونسو يطلب مساعدته، ويُذَكِّره بسالف الودِّ بينه وبين جدِّه المأمون وما كان للمأمون من فضل في عونه وإغاثته، فاستجاب له ألفونسو، وسار معه في سرية من جنوده، فهي فرصة سانحة لألفونسو أن يبسط سلطانه على القادر، إلى أن تحين الفرصة ويبسط سلطانه على المدينة كلها، فعاد القادر مرَّة أخرى بمعونة ألفونسو ملك قشتالة، وحاصرت قوَّات النصارى طليطلة، مما اضطر المتوكل بن الأفطس إلى أن يخرج منها بعد أن أخذ من أسلاب القادر ما شاء؛ من أثاث وفراش وآنية، وسلاح وكتب وغيرها، وبعث بها إلى بطليوس، ونجحت قوَّات ألفونسو في الدخول إلى طليطلة وإعادة القادر إليها بعد عشرة

أشهر من خروجه منها، ودخل القادر طليطلة في حمى النصارى وجنودهم، ويقال: إن ألفونسو حاصر طليطلة والمتوكل بداخلها، واضطر المتوكل أن يغادرها بالفرار، وكان ذلك في ذي الحجة سنة (٤٧٣هـ=١٠٨٠م) .

ألفونسو يحاصر طليطلة

الواقع أن ألفونسو كان قد أعدَّ عُدَّتَه للقضاء على طليطلة، ووضع خطته العسكرية التي تُمَهِّد لمشروعه الواسع بالسيطرة على ممالك الطوائف كلها، وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية لَمَّا رأى من استفحال أمر ألفونسو وقوّته فكر كيف يصنع؛ وبدلاً من أن يسلك مسلك الشرفاء الأعزاء فيُساند طليطلة، أو يسارع فيُكَوِّن حلفًا من ملوك المسلمين، إذا به يخشى على نفسه من أن ينساب تيار الغزو القشتالي إلى مملكته، فرأى أن يعقد مهادنة وصلحًا مع ألفونسو يأمن بها على أراضيه، فبعث وزيره ابن عمار ليتفاوض مع ألفونسو، وتمت المعاهدة والاتفاق على ما يلي:

- يُؤَدِّي المعتمد للملك القشتالي الجزية سنويًّا.
- يُسمح للمعتمد بغزو أراضي طليطلة الجنوبية على أن يُسَلِّمَ منها إلى الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمالي سيراموريِنا (جبال الشارات).
- لا يعترض المعتمد على مشروع ألفونسو القاضي بالاستيلاء على طليطلة.

وهكذا ضحَّى المعتمد بمعقل إسلامي مهمٍّ؛ لكي يفوز بإمارات لم تخضع له بعد، وهذا خطأ سياسي جسيم يُضاف إلى أخطائه، ودلالة على استهتاره نحو أُمَّته ودينه.

وفي شوال (٤٧٤هـ=١٠٨٢م) ضرب ألفونسو الحصار على طليطلة، وشدَّد غاراته عليها، وظلّ على ذلك أربع سنوات كاملة؛ يُخَرِّب في الزروع والأراضي والقرى، وعاش الناس في ضيق وكرب، وليس بين المسلمين مجير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وفي الوقت الذي تُحَاصَر فيه طليطلة كان ملوك الطوائف يُقَدِّمُون ميثـاق الولاء والمحبَّة له؛ أي: الجزية والإتاوة، ولم يجرؤ أحد منهم على الاعتراض عليه في ذلك إلاَّ المتوكل بن الأفطس الذي أُخْرِج من طليطلة قبل قليل، وفـي الوقت نفسه الذي تُحَاصَر فيه طليطلة نجد أن ممالك الطوائف الأخرى تتنازع فيما بينها، أو تَرُدُّ غارات النصارى المتواصلة عليها.

ألفونسو على أعتاب طليطلة

هكذا أضحت طليطلة وحيدة بلا مأوى!

وهكذا أضحت طليطلة تنتظر ساعة الحسرة والسقوط.

وهكذا تُركت طليطلة المدينة المنكوبة لمصيرها، وفي خريـف سـنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م) اقترب ألفونسو من المدينة، وأحكم الحصار بشدَّة، وضاق الناس ذرعًا، وكان موقف القادر مريبًا، وكأنَّ هناك اتفاقًا بينه وبين النصارى! وحاول أهل المدينة أن يُطيلوا انتظارهم عسى نجدة من المـسلمين تنجـدهم، ولكن ليس بين مسلمي الأندلس في ذلك الوقت مجير!

ولما طال الحصار واستحكم على المسلمين وضـاق بهـم، أرسـلوا جماعة من زعمائهم إلى ألفونسو تتحدث عن الصلح والمهادنة، فما كان مـن ألفونسو إلا أن أهانهم، وسخر منهم واستدعى سفراء ملوك الطوائـف، وقـد كانوا جميعًا يومئذ لديه يخطبون ودَّه، ويُقَدِّمُون إليه الأموال، وهكـذا خـرج زعماء طليطلة وقد فقدوا أملهم، عادوا خائبين، وأيقنوا سوء المصير.

شروط ألفونسو على أهل طليطلة

مضى على الحصار إلى الآن تسعة أشهر، وتحطَّمـت كـل الآمـال المرجوَّة في الصلح والهدنة، وهكذا عرضت المدينة التسليم، بعد أن عجـزت عن المقاومة، وبعد أن سلَّمها ملوك الطوائف ثمنًا لدينهم، وشرفهم وعزَّتهم!

وكان من ضمن شروط التسليم:

- أن يُؤَمَّن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم.
- أن يُغادرها مَنْ يشاء حاملاً أمواله، وأن يُسمح لمن عاد منهم باسترداد أمواله.
- أن يُؤَدّوا الجزية إلى ملك قشتالة على ما كانوا يُؤَدّونه لملوكهم من المكوس والضرائب.
- أن يحتفظ المسلمون للأبد بمسجدهم الجامع، وأن يتمتّعوا بالحرية التامّة في إقامة شعائرهم وشريعتهم.
- تسليم سائر القلاع والحصون.

وأما بالنسبة للقادر بن ذي النون:

يمكّنه ملك قشتالة من الاستيلاء على بلنسية، وبالتالي تخضع له القواعد الشرقية كلها.

خروج القادر بن ذي النون من طليطلة

وكانت هذه العلاقة المشئومة بين القادر بن ذي النون وألفونسو السادس ملك قشتالة سببًا في سقوط طليطلة، وخروج القادر المنكود منها ذليلاً هو وأهله، وما أبلغ تعبير ابن بسام في وصف حال القادر عند خروجه! إذ يقول: «وخرج ابن ذي النون خائبًا مما تمنّاه، شرقًا بعقبى ما جناهُ، والأرض تَضِجُّ من مُقامه، وتستأذنُ في انتقامه، والسماء تودّ لو لم تُطْلِعْ نَجْمًا إلاّ كدَرَتْهُ عليه حَتْفًا مبيدًا، ولم تُنْشِئ عارضًا إلا مَطَرَتْهُ عذابًا فيه شديدًا، واستقرّ بمحلّة أذفنوش (ألفونسو) مخفورَ الذمّة، مُذَالَ الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونَ حُرمِه سترٌ ولا حجاب، حدّثني مَنْ رآه يومئذ بتلك الحال وبيده أصطرلابٌ؛ يرصدُ فيه أيّ وقت يَرْحَل، وعلى أي شيء يعوِّل، وأيّ سبيلٍ يتمثّل، وقد

أطافَ به النصارى والمسلمون، أولئكَ يضحكونَ من فِعله، وهؤلاء يتعجَّبــونَ من جهله».

وما أبلغ شماتة ابن الخطيب في القادر وأهله عندما قال: «والطاغيــةُ بين يديه يَتَبَحْبَح بيده عنده، واستقرَّ بها شرَّ استقرار، واقتضاه الطاغيةُ الوَعْد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستُؤصلت الرِّمَم، ونُفِّذ عقــابُ الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومُتَعَوِّدي العقوق، ومُقيمي أسواق الشقاق والنفــاق، والمَثَل السائر في الآفاق».

سقوط طليطلة

الأندلس بعد سقوط طليطلةوفي صــفر (٤٧٨هـــ=١٠٨٥م) دخــل ألفونسو السادس ملك قشتالة طليطلة، وهكذا سقطت طليطلــة وخرجــت مــن قبضة الإسلام، وغدت عاصمة للنصرانية، وحاضرة لمملكــة قــشتالة، التــي يتربَّع على عرشها ألفونسو السادس.

وبسقوط طليطلة اهتزَّ العالم الإسلامي في الشرق والغرب، يُــصَوِّره الشاعر ابن عسال بقوله: [البسيط]

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ *** فَمَــا الْمَقَــامُ بِهَــا إِلاَّ مِــنَ الْغَلَطِ

الثَّــوْبُ يُنْسَــلُ مِــنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى *** ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ

مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لاَ يَأْمَنْ بَوَائِقَهُ *** كَيْفَ الْحَيَــاةُ مَــعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطِ

وهي صورة عجيبة ينقلها ذلك الشاعر (إعلام ذلك الوقت) المحــبِّط، حتى كأنَّه يدعو أهل الأندلس جميعًا بكل طوائفه ودويلاته إلى الهجرة والرحيل إلى بلاد أخرى غير الأندلس؛ لأن الأصل الآن هو الرحيل، أمــا الــدفاع أو مجرَّد البقاء فهو ضرب من الباطل أو هو (الغلط) بعينه، ولقد سانده وعــضَّد موقفه هذا أن من الطبيعي إذا ما انسلَّت حبة من العقد -مثلاً- فإن البــاقي لا محالة مفروط، فما الحال إذا كان الذي انسلَّ من العِقد هو أوسطه (طليطلــة)

أوسط بلاد الأندلس، فذاك أمر ليس بالهزل، بل وكيف يعيشون بجوار هؤلاء (الحيّات) إن هم رضوا لهم بالبقاء؟! فما من طريق إلا الفرار وشدِّ الرِّحَال.

استدعاء المرابطين

وعلى إثر سقوط طليطلة، بدأ ألفونسو يُعِدُّ عُدَّته، ويتجهَّز للهجوم على الممالك الأخرى، لا سيما إشبيلية وبطليوس وسرقسطة وما حولهما، وبدأ ألفونسو يستخدم سياسة الاستهزاء والاستهتار بزعماء الأندلس، وتسمَّى بذي الملتين، وتطوَّر الأمر أن حاصر إشبيلية على نحو ما ذكرنا، حتى كان ما كان من فكرة الاستنجاد بالمرابطين.

المعتمد بن عباد واستدعاء المرابطين

إلاّ أن ما يدلُّك على فساد الحكام في ذلك الوقت هو أن بعضهم رفض فكرة المعتمد، وراسله في أن يعود عن قرار الاستنجاد بالمرابطين، وخوَّفوه من أن نزول المرابطين إلى الجزيرة قد يُغريهم بحكمها بأنفسهم، وحقًّا إن شهوة الملك هذه تُذهب الدين والعقل والمروءة وسائر الصفات الكريمة، فما أكثر الحسرات التي يعانيها القارئ في تاريخ الأندلس وهو يقرأ أخبار هذه الفئة التي سكنتها شهوة الحكم الصوري الضعيف الهش، الذي لا يتماسك أمام العدوِّ، ولا يتوسَّع إلاّ على حساب دماء المسلمين، ويرضى بالذلِّ ودفع الجزية، ويسكت عن إخوانه المحاصرين والمقتولين، ولا يُبصر أن الدور سيأتي عليه، فلا يرضى حتى بالنجدة تعبر إليه لاحتمال أن تحوز الملك دونه! أيُّ فسادٍ في الدين هذا، بل في العقل، بل في الفطرة السوية؟!

إلاّ أن الله ألهم المعتمد بهذه العزيمة والإصرار، وقال كلمته الخالدة التي صارت مثلاً: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير». ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيرًا يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزَّقًا للأذفونش أسيرًا له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعُذَّاله ولوَّامه: يا قوم؛ إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شكٍّ، ولا بُدَّ لي من

إحداهما، أما حالة الشكِّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة شكٍّ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ الله تعالى، فإذا كانت حالة الشكِّ فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يُرضي الله وآتي ما يُسخطه؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه».

والحق أن المعتمد -أيضًا- لم يترك من حسنات في سيرته إلاَّ هذه الخطوة، ثم جهاده وصبره في معركة الزلاقة الذي سيأتي بيانه، أما قبل هذا القرار وبعده فهو ليس إلا واحدًا من ملوك الطوائف، سكنته شهوة السلطان؛ حتى أذهبت عنه كل أثر من عقل أو فضيلة، وسنراه كيف سيقاتل المسلمين المرابطين بما لم يفعل مثله مع النصارى.

ولكن لا نسبق الأحداث؛ فأمام الحالة الإيمانية والجهادية العالية التي كان عليها المعتمد بن عباد تحرّكت النخوة في قلوب الأمراء الآخرين، فقام المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، فوافقوا المعتمد بن عباد في رأيه، وبذلك اجتمعت الحواضر الكبرى في الأندلس على استدعاء المرابطين، وتقدَّمت الوفود تلو الوفود إلى المغرب العربي؛ يقول الحميري: «وكان يوسف بن تاشفين لا يزال يَفِدُ عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترقُّ نفسه لهم».

فمن هم المرابطون؟ وما صفاتهم؟ ومن يكون يوسف بن تاشفين؟

المراجع الرئيسية

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٥٧.
- المصدر السابق، ٧/٢٦٠.
- وهي البلدة التي كان قد قرر الإقامة فيها، أو أراد له فرناندو ذلك، انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٦٤.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٦٧.
- المصدر السابق، ٧/٢٦٧.
- نبذة العصر، ص ١٢٥، والمقري: نفح الطيب، ٤/٥٢٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٥٨- ٢٦٧.
- المقري: نفح الطيب، ٤/٥٢٩.
- أحمد ٣٨١٨، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والطبراني: المعجم الكبير ٥/٤٤٩، والبيهقي: شعب الإيمان ٧٠١٧، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع ٢٦٨٧.

مراجع اخري

- ابن جزي ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم ، الطبعة الاولى، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.
- ابن خلدون ، ابو زيد عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ الأكبر، مؤسسة جمال، بيروت-لبنان.
- اعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥م.

- ابن ماجة للامام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، حققه محمد فؤاد عبدالباقي، دار التراث العربي.
- اشراط الساعة للوابل، يوسف عبدالله الوابل، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م ، دار ابن الجوزي.
- إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.
- البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط١٩٨٣،٣م.
- المغرب الكبير، د. السيد عبدالعزيز سالم، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨١م.
- البيذق أخبار المهدي بن تومرت، أبوبكر الصنهاجي، تحقيق لبقي بروفسنال، باريس ١٩٢٨م.
- الدعوة الموحدية بالمغرب، عبدالله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٦٤م.
- المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣م.
- النهاية، الفتن والملاحم ، للحافظ اسماعيل بن كثير ، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
- المنار المنيف لابن القيم، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن ابي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبدالفتاح ابو غدة، مكتب المطبوعات الاسلامية ، حلب، ١٣٩٠هـ.
- النبوة والانبياء، لمحمد علي الصابوني.

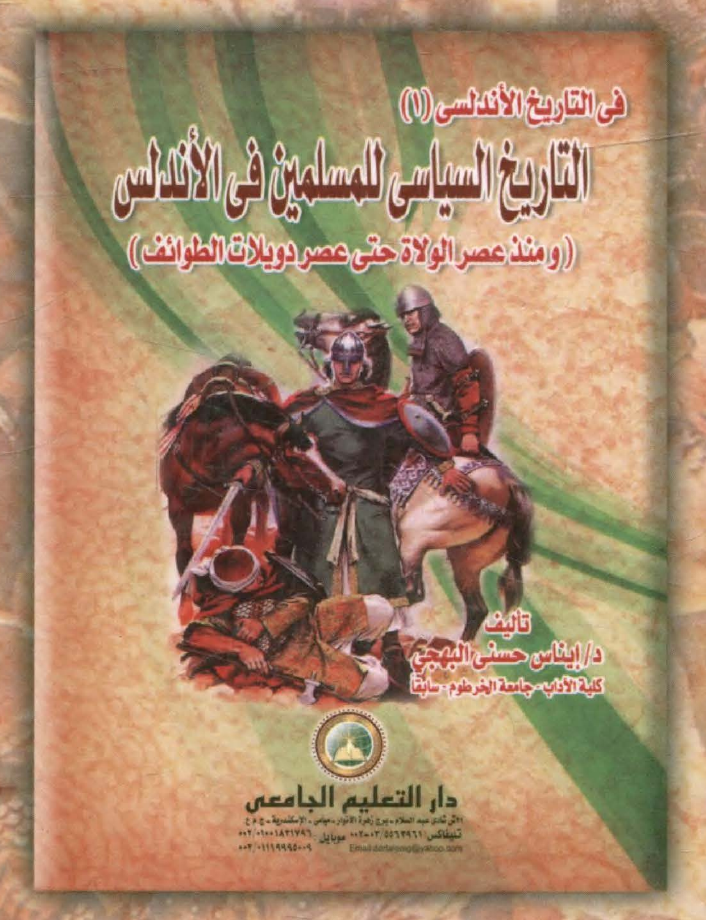
- الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة ابي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- الحموية، لشيخ الاسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية.
- اخبار المهدي، تحقيق عبدالحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار احياء التراث العربي ، بيروت، لبنان الطبعة الاولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٩م.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.
- ابن صاحب الصلاة، عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجي، المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، دار الاندلس بيروت الطبعة الاولى ١٩٨٣م.
- الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق، د.علي احمد ، دار شمأل دمشق ، ١٩٩٥م.
- النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة ، ليوسف بن تغري الآتابكي، وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر.
- المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة ، الطبعة الاولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- التكملة ، لكتاب الصلة ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبّار.

- العقاب، شوقي ابوخليل ، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.
- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس ، نجيب زبيب، دار الامير، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- السنن الالهية ، د. عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.
- الاعلام للزركلي، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
- الامام مالك بن أنس، عبدالغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
- الآراك، د. شوقي ابوخليل، دار الفكر، الطبعة الاولى ١٩٧٩م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى: الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري.
- الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
- ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٥، وتاريخ ابن خلدون ١٩٧/٧.
- ابن الخطيب: الإحاطة، ٥٦٤/١، وأعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا، ٤٨/٣.
- تاريخ ابن خلدون، ١٩٨/٧.

- انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون، ٢٠٠/٧.
- بل إن يغمراسن هو الأمير الذي منعت معاركه المرينيين من سرعة الاستجابة لغوث الأندلسيين من قبل؛ حتى إنه رفض رسالة المنصور المريني بعقد هدنة بينهما لأنه سيتوجه إلى الأندلس التي تستغيث من بلاد النصارى، فما أمكن المنصور المريني أن يتوجه للجهاد مع الأندلسيين إلا بعد أن انتصر على يغمراسن هذا في معارك قوية، وبعد وقت ثمين ذهبت فيه من المسلمين الأندلسيين بلاد وأرواح وسبايا.. نسي ابن الأحمر هذا وأرسل ليغمراسن ليحالفه ضد المنصور المريني.
- تاريخ ابن خلدون ٢٠٢/٧.
- المصدر السابق.
- تاريخ ابن خلدون، ٢٠١/٧-٢٠٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٨٩، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٢/٧، ١٠٣.
- تاريخ ابن خلدون، ٢٠٥/٧، ٢٠٦.
- المصدر السابق، ٢٠٩/٧.

الفهرس

التاريخ السياسى للمسلمين فى الاندلس
رقم الإيداع / ٥٨٦٠
الترقيم الدولى ٩٧٨-٩٧٧-٧٣٣-٠٢٧-٥





دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email:dartalemg@yahoo.com